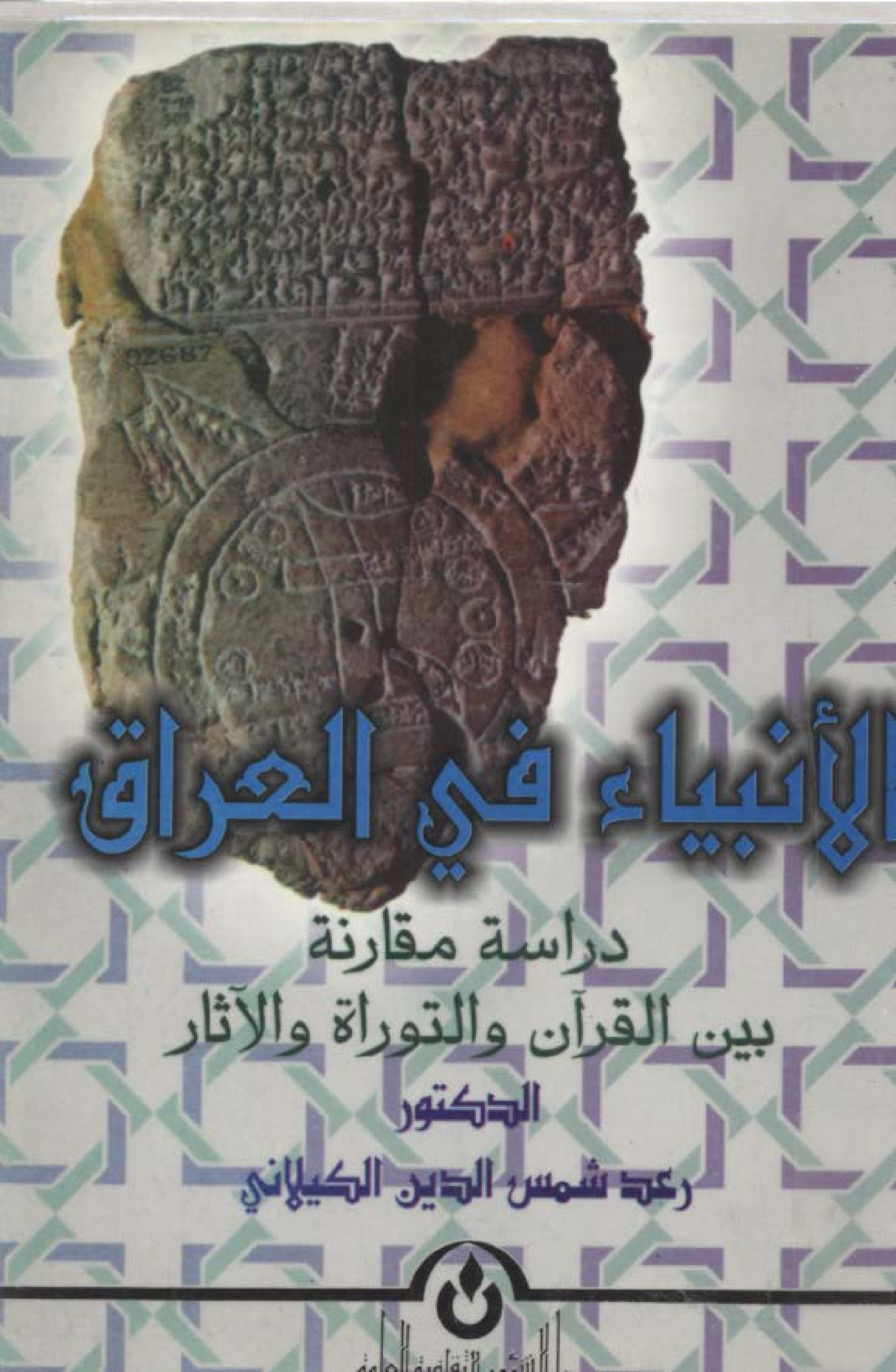


الأنبياء في العراق
دراسة مقارنة
بين القرآن والتوراة والآثار
الدكتور
رعد شمس الدين الكيلاني

الأنبياء في العراق





دار الشـؤون الثقافيـة العامـة « آفـاق عربيـة » ـ شـركة عامـة

تعنـون جميـع المراسـلات الـى :
رئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة : عادل ابراهيم
العنـوان :
العـراق ـ بغـداد ـ اعظميـة
ص . ب . ٤٠٣٢ ـ فاكس ٤٤٤٨٧٦٠ ـ هاتف ٤٤٣٦٠٤٤
البريد الالكتروني dar@uruklink.net
الموقع على شبكة الانترنيت www.uruklink.net/iraqinfo/dar-info.htm

سلسلة رسائل جامعية

الانبياء في العراق

دراسة مقارنة
بين القرآن والتوراة والآثار

الدكتور
رعد شمس الدين الكيلاني

الطبعة الاولى ـ بغداد ٢٠٠١

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه اجمعين وبعد :

فان الكتابة في تاريخ قبل الاسلام ترتبط بالاسلام عن طريق الانبياء ولذلك تعرض مؤرخو الاسلام لاحداث هذا التاريخ من خلال هذا المنظور فكتب الطبري وغيره من رواد المؤرخين عن الملوك والامم والانبياء واخبارهم . وكانوا بذلك يمهدون لمرحلة الرسالة الاخيرة وهي رسالة محمد (ص) . ولكن كانت هذه الكتابات تستقي جلّ معلوماتها عن طريق اهل الكتب السماوية والاديان التي سبقت الاسلام وخصوصا التوراة واخبار اهل الكتاب . واعتمدت كذلك في جزء من مادتها التاريخية على اخباريين كانوا قد عمّروا وعاشوا في ظروف اكتسبوا خلالها المعلومات والاخبار عمن سبقهم . وكانت . الغاية من نقل هذه الاخبار هي الاعتزاز بتاريخ الاقوام والقبائل وتمجيد تاريخ تلك القبائل ، ولذلك غلب عليها التضخيم والاسطورة وافتقدت في كثير من مادتها الى المنهجية والعلمية . وعندما نشأ علم التاريخ في امة الاسلام كانت دواعي نشأته مرتبطة بخدمة الشريعة وكتاب الله تعالى وسنة نبيه الكريم ولذلك (كان الغرض الاول من تدوين العلوم في الاسلام هو حفظ الشريعة فكل علم يخدم

نلك الغرض فهو واجب الدراسة ، حتى يكون الاشتغال به وسيلة الى قصد سام . ومن هنا كان الاشتغال بعلم المغازي والسير مكملًا لعلم الفقهاء)[1] والكتابة في التاريخ بصورة عامة محفوفة بالصعوبات والتأثر والانفعال ونلك لصعوبة تجرد المؤرخ عن الانحياز لاهداف مسبقة او الاستدراج نحو الاهواء والشغف بالتضخيم او الاهمال والكذب ولذلك قال ديورانت : (معظم التاريخ ظن وبقيته من املاء الهوى)[2] .

وعندما وضع المسلمون قواعد الرواية للحديث النبوي الشريف كان هدفهم الاول صيانة السنة من الوضع والتحريف ثم انتقلت هذه القواعد والضوابط الى العلوم الاخرى واثرت فيها مثل علوم التفسير والسيرة والتاريخ وكان التاريخ اقرب العلوم واكثرها تأثراً « بقواعد المحدثين ولكنه لم يسلم من الوضع والتحريف والتزييف في بعض رواياته بل ان معظم المحدثين لا يعترفون بروايات المغازي والسير والتفسير ... ولكن يمكن القول بصورة عامة ان الحركة الفكرية العلمية الاسلامية انقذت التاريخ الاسلامي من الضياع عن طريق اختبار الرواية التاريخية تأثراً بالحديث والرواية الحديثية ... وقد حاول الغربيون ولكن بعد مدة متأخرة ان يحاكوا المنهجية الاسلامية في نقد الرواية فكتبوا عن نقد الوثائق التاريخية ظاهرياً وباطنياً ولكن تبقى الفجوة كبيرة بين ما حققه المسلمون وبين الضوابط التي وضعها المؤرخون الغربيون لكتابة التاريخ . ولكن هذا الكلام يمكن قبوله اذا كان موضوعه تاريخ الاسلام اما اذا كان الموضوع تاريخ قبل الاسلام فالمسألة تزداد تعقيداً بالنسبة لمؤرخي الاسلام حيث كتبوا تاريخ قبل الاسلام بطريقة تختلف عن كتابتهم لتاريخ الاسلام . ولذلك عندما بدأت في البحث من اجل الكتابة عن الانبياء في العراق وجدت الرواية الاسلامية قد اختفت منهجيتها لتتوحد مع الرواية التوراتية واخبار اهل الكتاب توحداً يكاد يكون متطابقاً . ولهذا السبب كانت المهمة ليست يسيرة في عملية غربلة الرواية الاسلامية والبحث عن الروايات الصحيحة او الروايات التي يمكن الاعتداد بها . فكان تخليص الرواية الاسلامية من الاثر الاسرائيلي والثقافة الاسرائيلية المشوهة يعد من اهم دواعي الرسالة . وكان النص القرآني

---

(١) المدخل الى التاريخ / نورالدين حاطوم وجماعته / ص ١٦٥ / مطبعة الانشاء / دمشق ١٩٦٥ .

(٢) ديورانت / وول / قصة الحضارة / م١ ج١ ص ٢٣ / ط٤/ مطابع الدبوي / القاهرة ١٩٧٣ .

والحديث الصحيح هو الفرصة الوحيدة للخروج بصورة ايجابية لتاريخ هؤلاء الانبياء عليهم السلام . ولكني وجدت ان الدراسات الاثرية قد وصلت الى مرحلة متطورة وغطت مساحات واسعة من التاريخ وان هذه الدراسات وان كانت تنتمي الى خلفية علمانية لا تؤمن بالدين غير اني قد وصلت الى حقيقة مهمة وهي ان معظم نتائج هذه الدراسات قد وظف لخدمة التوراة والدراسات اللاهوتية . فشجعني ذلك الى ادخال الآثار كمصدر لتفسير النصوص القرآنية واستكمال الصورة التاريخية للرواية التاريخية المذكورة في النص القرآني والنص التوراتي والوثيقة الآثارية . فكانت هذه الدراسة وبحسب علمي الاولى من نوعها في العالم الاسلامي ادخلت الآثار بصورة رئيسة ومهمة في اسناد الرواية التاريخية الاسلامية .. وقد اقتصرت الرسالة على الانبياء الذين ظهروا في العراق او الانبياء الذين مروا بالعراق . وانا اذ يسر لي رب العالمين اتمام هذه الدراسة اقدم شكري وتقديري لاستاذي الدكتور محمد جاسم المشهداني الذي اعانني على اختيار الموضوع وارشدني اليه ، ومع شيخ المؤرخين في العراق اطال الله عمره ونفع بعلمه استاذي الدكتور حسين امين الذي تكرم فغمرني برعايته وتوجيهاته عندما كان يقرأ لي ما اكتبه اثناء الاشراف على الرسالة ولساني يلهج بالدعاء له وشكري لا يكافىء صنيعه فلعل الدعاء بان يجازيه الله خيراً عني افضل ما اقدمه له من ثمرة لهذه الدراسة التي واكبها خطوة خطوة ، فنسأل الله تعالى ان يكتب له مشاركة في الأجر . ولا يفوتني ان اتقدم بالشكر والدعاء للدكتور عامر سليمان استاذ التاريخ القديم في جامعة الموصل الذي استقبلني وناقشني وارشدني الى بعض القضايا التي كنت بعيداً عنها في مجال الآثار والتاريخ القديم . وشكري وتقديري لاستاذي الدكتور عمادالدين خليل المفكر الاسلامي والمؤرخ الكبير الذي شجعني وابدى توجيهاته القيمة حول الدراسة . كما واشكر الدكتور محمد طه الاعظمي المتخصص بالتاريخ القديم الذي اعانني ببعض المصادر . وفي الختام ادعو الله ان يجازي خيراً كل من اعانني على انجاز هذا العمل من المشورة الفكرية الى الطباعة وان يتقبل الله منا ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ....

الفصل الاول

ظهـور الانبيـاء
وأثـره
في حضارات وادي الرافدين

البداية الواعية او فجر الوعي

ان تحديد نقطة البداية بالنسبة لتاريخ التاريخ او ما قبل التاريخ كما سماها دانيال ولسن وجاء بعده جون لوبوك الذي نشر كتاباً سماها أزمنة ما قبل التاريخ (Prehistoric Times) وكان ذلك سنة ١٨٦٥ ، ان تحديد نقطة البداية لهذه المساحة ، التاريخية الهائلة تبدو غير منطقية وغير علمية ، ولكن دأب باحثو التاريخ في وقت متأخر على التعرض اليها وشدت اهتمام العلماء في تخصصات الانثروبولوجي (العلم الذي يبحث في وصف الانسان) وتأسست فلسفات ووضعت نظريات تقوم على نتائج متابعة التطور التاريخي لاشكال الحياة . انسحب هذا التأثير على مجالات ثقافية واجتماعية ودينية ، وانقسمت الآراء واحتدمت ساحات الحوار والنقاش وحدثت معارك طال امدها ، ولكن هذه المعارك كانت في مختبرات البحوث ومراكز الدراسات وطباعة الكلمة ، ولذلك اكتسب هذا الموضوع أهمية قصوى بالنسبة لمجالات عديدة في التخصصات العلمية الكل كان يبحث عن الحقيقة كيف كانت ؟ وحاول بعض العلماء الذين كانوا يملكون حساً فلسفياً ان يصوغ هذه المعطيات التي تبلورت نتيجة هذه الابحاث صياغة محبوكة تروي قصة متكاملة في فصولها منذ البداية حتى عصرنا الحالي[1] ، كما فعل ديورانت في قصة الحضـــارة

---

(١) وقد كانت محاولة تونبي في كتابة تاريخ البشرية الذي نشره بجزأين تعتبر أحسن مثال على ما ذكرنا وغيره كثير.

والدكتـــور رالف لنتون في كتابه شجرة الحضارة[٢] .

ان البحث عن أصل الحياة ومن ثم أصل الانسان وعن دوره في الحياة وعن بداياته الاولى على الارض وهو يخطو خطواته الاولى تاركاً وراءه آثاره ومخلفاته وهو يمارس الحياة . ليس يسيراً والبحث عن أشكال تطور هذا الانسان وتطور وسائل عيشه ابتداءً من الانسان الاول الى إقامة المجتمعات المدنية الاولى حيث اقيم اول مجتمع وظهور اول المفاهيم الدينية التي تعد « الاهداف الرئيسـة في دراسة الحضارة[٣] . ومن ثم متابعة تطور التكوين الاجتماعي الاول الى تنظيم العلاقة الاجتماعية وضبطها بمركز اداري يتمثل بالسلطة والدولة حتى بداية تكون دول المدن (City States) ، واستمرار تصعيد الفعالية للنشاط الانساني حتى يبلغ الذروة عندما يتمثل في حضارة . ان البحث عن القصة من خلال هذا المسار حتى تنتهي الى الصورة التي في وعينا المعاصر التي نرى من خلالها سيطرة الانسان على مقدرات هذا الكوكب ، كل هذه الامور تضع أمامنا معضلات قد تصل في بعض نقاطها الى الغاز يستحيل فهمها وتحليلها ، كما سماها بذلك توينبي وهو يتابع فصول هذه القصة ويحاول ان يتعامل مع البداية المعقدة[٤] . لقد ذكر لنا العلماء ان « الحياة بدأت تظهر على سطح الارض منذ اكثر من ١٥٠٠ مليون سنة ، بدليل وجود آثار كاربونية من أصل عضوي بين طبقات الصخور الرسوبية ، وكانت عضويات هذا الزمن الابتدائي (Primary Age) هي الاصل المشترك لجميع الاحياء ، وكان هذا الاصل المشترك عبارة عن كتلة مجهرية هلامية شفافة نصف نباتية ونصف حيوانية تسمى بالعصية ، وهي ذات خلية واحدة تفرعت الى فرعين اصبحا فيما بعد اصل إحياء المملكة النباتية والمملكة الحيوانية[٥] .

ان هذه الفرضية لبداية الحياة لا يوجد دليل مادي على صحتها وان المشكلة

---

(٢) انظر : لنتون / د. رالف / شجرة الحضارة ، قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث / ترجمة د. أحمد فخري / عشر من مكتبة الانجلو مصرية د . ت .

(٣) لنتون / د . رالف / شجرة الحضارة / م . س / ص ٢٣ .

(٤) انظر توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٢٠ وما بعدها / الاهلية ، بيروت سنة ١٩٨٨ .

(٥) الدباغ / د . تقي و د . وليد الجادر / عصور ما قبل التاريخ / ص ٩ / مطبعة جامعة بغداد سنة ١٩٨٣ .

تزداد تعقيداً ولا يمكن النظر اليها بهذه الطريقة الافتراضية لان هذا الفرض يقودنا الى فروض أخرى تبدو اكثر غرابة ويصعب تقبلها تلقائياً ونحن نقرأ عن العصر السيلوري الذي بدأ قبل ٣٦٠ مليون سنة واستمر مدة ٣٥ مليون سنة « وفي اواخر هذا العصر بدأت الحياة تزحف نحو اليابس ببطء في اول الامر ثم بسرعة وفي العصر الديفوني الذي بدأ ٣٢٥ مليون سنة واستمر ٤٥ مليون سنة وفي نهاية هذا العصر تطورت مجموعة من الاسماك الفقرية التي كانت تعيش في المستنقعات واستطاعت ان تنمي في نفسها جهازاً تنفسياً يلائم فصل الجفاف فاكتسبت المقدرة على التنفس بواسطة رئة وهي مستلقية في الطين وفي مجموعة اخرى من الاسماك نمت الزعانف بحيث أصبحت تستطيع ان تنتقل بها في هيئة اقدام من مستنقع الى آخر وهكذا ظهرت البرمائيات[٦] . اننا نستطيع قبول تقدير المدد الزمنية والحقب الجيوجولوجية وكذلك تقدير عصور ظهور انواع الكائنات الحية ولكن لا يمكن ان نتقبل تبسيط رواية التغييرات الخلقية بالصورة المذكورة . على الرغم من ان اصل الحياة لا يزال حالة من حالات المجهول الذي يستحيل الاجابة عليه ، يضاف اليه التعقيد الحاصل في اشكال الحياة وهي تطور نفسها ، ومن المعلوم « ان كل خلية على حدة والخلايا جميعاً انما هي نوع من الحاسب الآلي (Computer) مكون من أنظمة تبادلية تجل عن الحصر . كيف تسنى لمثل هذا النظام المعقد ان يتكون ؟ على الرغم من كل ما بين ايدينا من معارف فان العلم لم يتوصل الى الاجابة على هذا السؤال[٧] . ان النظريات الموجودة لن تفسر لنا كيف تكونت الاشكال المعقدة بدرجة عظيمة كما انها لم تمدنا بالمعطيات البيانية التي تحكم أداءها وتكا ثرها . كما أنها لم تبصرنا بخصوص تعقد النظام الذي يحكم كل صغيرة وكبيرة من سلوك الكائن ككل[٨] .

ان مشكلة التطور العام لأشكال الحياة قضية معقدة متشعبة ، تتطلب البحث في ميادين متباينة منها العلوم الطبيعية (علم النبات والحيوان) والتشريح المقارن وعلم الاحاثة (Paleontology) الذي يبحث عن المتحجرات المتبقية في الطبقات الرسوبية . وكذلك علم الاجنة والكيمياء . ومع ذلك فقد نشر باحثون على

---

(٦) المصدر نفسه ، ص ١٠ .

(٧) بوكاي / موريس / أصل الانسان ترجمة مكتب التربية العربي-لدول الخليج / ص ٣١ / الرياض سنة ١٩٨٥ .

(٨) بوكاي / موريس / أصل الانسان / ص ٩٢ .

درجة كبيرة من العلم نتائج أبحاثهم بصورة تتسم بالتعميم دون ان يكون لديهم اي معلومات تفصيلية عما يمكن ان يكون لدى سواهم من الخبراء في الميادين الاخرى ذات الصلة بنفس الموضوع[٩] .

آخر نظريات التطور هي نظرية (التطور الخلاق)[١٠] التي تعدّ منطقية كما يقول جراسيه وأوضح صلاحيتها في كتابه مختصر علم البيولوجي العام . ان هذه النظرية ادعى للتقبل والمناقشة العلمية لانها ادخلت أثر الجينات بخلاف داروين ولامارك . ان وجود الجينات ووظيفتها في النقل والتغيير يدفعنا الى الاقتناع بهذه النظرية ، وهذه الجينات هي التي تعطينا التفسيرات للحالات الغامضة في مراحل التطور والتكيف ضمن البيئة والغاء دور الجينات في عملية التطور الخلاق سوف يدفعنا الى الاعتقاد بأثر المصادفة الذي يتعارض مع المنهجية العلمية والاعتبارات المنطقية « ان مسألة الجينات هي المطلب المطلق المسبق للتطور ونحن لا يمكننا ان نتحاشى هذه الامكانية لان ادراكنا العام الكلي للتطور وآلياته المركزة في أعماقه تتوقف عليه »[١١] . ومع ادخال أثر الجينات تبقى المشكلة بالغة التعقيد .

ان نظرة الى المحيط الحيوي وهو المحيط الذي يتكون من الارض اليابسة والماء والهواء والاويكومين وهو الجزء المسكون من المحيط الحيوي وهذا الاويكومين الشامل ـ اصغر بكثير من المحيط الحيوي[١٢] .

ان نظرة الى عمق المشكلة وهي تتبدى الى الباحث بصورة تشكل في معظمها لغزاً معقداً لا يمكن استيعابه الا من زاوية واحدة نستطيع من خلالها التغلب على الاشكاليات التي تعترض القناعة واليقين ، هذه الزاوية هي الاستناد في جميع احكامنا الى رؤية عميقة تتشكل عن طريق الخبرة العلمية المتخصصة « تلك الخبرة التي تشكل مصدر النظرة الجديدة»[١٣] ، ومن خلال النظرة الجديدة العلمية المنهجية

---

(٩) أنظر : بوكاي / ت . م / ص ٣٨ .

(١٠) (التطور الخلاق Creative Valuation) وهي نظرية تبناها ب . ب . جراسيه رئيس قسم التطور في جامعة السوربون وسيأتي معالمها في الصفحات القادمة .

(١١) بوكاي / ق . م . / ص ٩٦ .

(١٢) أنظر : تونبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٢٠ .

(١٣) أغروس / روبرت م . مع جورج ستانيسو / العلم في منظوره الجديد ، ترجمة د . كمال خلايلي / ص ١٤٦ / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / سنة ١٩٨٩ .

المتجاوزة للمادية التي أثبتت قصورها لتعذر المواءمة ما بين منهجها وبين الحقائق التي كشفتها نظرية النسبية ، وميكانيكا الكم ، ومبحث الاعصاب والفيزياء الفلكية ، هذه العلوم والكشوف الي قادت الى التطلع نحو الآفاق الواسعة في الكون والوجود كما يصرح يوجين فيغنر على انه في فيزياء القرن العشرين « قادت دراسة العالم الخارجي ذاتها الى ما يفيد ان مضمون الوعي هو حقيقة مطلقة » ، وكل ما في الامر هو ان المادية بعد أن اختبرت على اوسع نطاق ممكن في جميع فروع العلم قد اخفقت في اجتياز امتحان التجربة ، اما فيما يتعلق بالدين فالظاهر ان مستقبل النظرة الجديدة يوحي بالعودة بثقافتنا الى الايمان بوجود الله الواحد وبإعادة التاكيد على الجانب الروحي من طبيعة الانسان[١٤] .

ان هذه النظرة الجديدة تمنح الانسان نوعاً من الاستقرار وتحدد عنده الاطار العام الذي يمكن ان يدرك من خلاله طبيعة وجوده ووعيه وتشكل عنده القناعة بضرورة الالتزام بحدود المعرفة على وفق مدى الطاقة العقلية التي يمتلكها ويستطيع ان يحيط بها عقل الانسان ان الايمان بالله وبالدين كمنهج واضح المعالم يحدد للانسان طبيعة مسيرته وحدود المساحات المسموح بها لكي يلجأ عقل الانسان . هذه القناعات ستفرض نفسها على الانسان ضمن المؤثرات الواضحة الآن والتي لم يستطع الانسان التخلي عنها او التخلص منها كما يقول توينبي : « ومن ثم يبدو من المحتمل ان الحياة سترغم الكائنات البشرية في المستقبل كما أرغمتها في الماضي على ان تصيغ اجوبتها بالنسبة للقضايا النهائية في عبارات حدسية دينية لا يمكن التثبت منها ... فالدين في الحقيقة هو صفة ذاتية ومميزة للطبيعة البشرية فهو الاستجابة الحتمية لتحدي غموض الظواهر الطبيعية[١٥] . ولكن ونحن نتكلم على هذه النظرة وهي عملية تدعيم القناعات بالرؤيا الدينية ينبغي الا نستدرج الى المساحات الاسطورية والخرافية التي تعلقت بالدين ووضعت ضمن اشكال وقوالب امتزجت بالدين حتى عاد من الصعب الفصل بينهما وبين الحقيقة الدينية ولذلك سنوظف كل القراءات العلمية لأشكال التاريخ المتروك على الارض بوصف هذه الآثار وثائق رائعة وأدلة مادية تعزز القناعات المنطقية للتفسيرات الدينية للتاريخ . ان هذه

---

(١٤) أغروس / روبرت / العلم في منظوره الجديد / م . س / ص ١٤٦ ـ ١٤٧ بتصرف .
(١٥) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ١٩٤ .

العملية تعد مغامرة كما سماها شبلنجر[١٦] ، ولكن شبلنجر وغيره من المؤرخين الغربيين مثل توينبي وآخرين حاولوا رسم خارطة التاريخ من خلال الحضارة الغربية وعدّوها مركز الحضارة الانسانية ، وقد ذكر شبلنجر ذلك بقوله « واعني على وجه التحديد الحضارة الغربية من أوربية وأمريكية[١٧] . ويحاول هؤلاء المؤرخون والفلاسفة الغربيون ان يتخلصوا من هذه العقدة دون جدوى ويشير شبلنجر الى ان منهجية المؤرخين أسيرة لهذه الرؤية وانهم يعالجون « رقعة اوربا الغربية بوصفها قطباً ثابتاً وبقعة فريدة من نوعها اختيرت على سطح الكرة الارضية دون ما سبب مفضل الا لاننا نعيش عليها ونعتقد بأن التواريخ الهندية والبابلية والمصرية أقل جوهرية وأقل كثافة واكثر تخفيفاً »[١٨] ، وينتقد توينبي كذلك هذه النظرة الى التاريخ التي تُعرّفه « بأنه سلسلة من الاحداث التي أدت الى سيطرة الغرب »[١٩] . ان هؤلاء المؤرخين قد يكونون اكثر انصافا من غيرهم بحيث تمت اكبر عملية تعتيم على معظم اعمدة التاريخ الانساني وسُلط الضوء على الحضارة الهيلينية ثم الرومانية وتجاهل هؤلاء عن عمد الصفحات الحضارية التي التي انبثقت من ارض الرافدين وبلاد النيل ، وسنحاول في دراستنا هذه على اعادة تركيز الضوء على آثار هذه الحضارة التي تدين لها الانسانية جمعاء . وسنحلل النتائج والمكتشفات الآثارية ونقارن مع النتائج التي توصل اليها المؤرخون الغربيون انفسهم . ونحاول ان نضع هذه الحضارة في مكانها الطبيعي من حيث السبق الزمني والاهمية التاريخية وآثارها على الانسانية في حاضرها ومستقبلها ، ولكننا ونحن نتأمل هذه الحضارة ونحاول ان نتقصى بداياتها وفجر انبثاقها والتعرف على جذورها ونشوئها سوف يقودنا هذا المسار الى أن ندرك حقيقة مهمة وهي ان الصورة المفقودة هي الجزء الاكبر من التاريخ من حيث المساحة والبعد الزمني حتى اذا نظرنا الى ما قبل التاريخ وجدنا ان الجزء المفقود وهو الجزء الذي ضاعت ملامحه يمثل ٩٩٪ من التاريخ « وان التاريخ المدون بكامله هو في الواقع تاريخ معاصر بالمعنى الحرفي وهو كذلك

---

(١٦) أنظر : شبلنجر / أرنولد / تدهور الحضارة الغربية / ج١ ص ٣٩ حيث يقول (نحاول لاول مرة المغامرة في وضع تقرير مسبق للتاريخ) .

(١٧) شبلنجر/ أرنولد/ تدهور الغرب/ ج١ ص ٣٩ .

(١٨) شبلنجر/ ت . م/ ج١ ص ٦١ .

(١٩) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ١٠ .

بالمعنى الذاتي كما ذهب بندتو كروتشي .. إن الحادثة المهمة في التاريخ هي ظهور فجر الوعي في المحيط الحيوي[٢٠] .

كيف نفهم ونتعرف على فجر الوعي ؟

أننا عندما نصف بدايات تخليق الحياة لا نريد ان نبتعد عن الموضوع الذي نحن بصدده ولكن معظم الذين يتصدون الى ما قبل التاريخ لابد لهم من المرور على البدايات التي شكلت حركة الحياة والتاريخ ، وقد بدأت الدراسات الحديثة تنحى هذا المنحى . لقد نشأ علم الاحاثة (Paleontology) في وقت متأخر ولكنه أحدث أثراً عظيماً في مسار الابحاث العلمية التي تبحث عن اصل الحياة والانسان (Anthropology) السلوك الانساني . ولذلك جاء علم الاحاثة ليعزز الدراسات الآثارية وشكل مع علم الآثار (Archeology) وحدة متصلة لخدمة الدراسات التاريخية كذلك . فكان لابد من المرور سريعاً على أهم النتائج والاستنتاجات حول نشأة الحياة وتطورها . وعندما نتابع هذا الموضوع لا نريد ان ندحض نظرية معينة ولا ندافع عنها وانما سنوظف بتجرد النتائج التي لا تتعارض مع نصوص القرآن وقواعد الدين . ولأن التطرق الى هذه المواضيع يشكل تحسساً وهاجساً يدفع القارىء الذي يتابع الموضوع الى الرفض المطلق الذي يحكمه الاقتناع المسبق الذي يستند الى الخوف من قبول فكرة « التطور ـ حتى في دائرة مملكة الحيوان ـ خشية ان يمتد هذا الرأي الى الانسان مما يؤدي الى مخالفة ما جاءت به التعاليم الدينية التي تملؤهم الرغبة في تاييدها[٢١] وقد فات هؤلاء ان جوانب عديدة من الاكتشافات العلمية التي يستخدمها الماديون تصلح ان تقدم كبراهين قاطعة لمصلحة الاتجاه المعاكس للمادية . والفريق الآخر الذي يندفع في غمرة الحماسة ونشوة الانتصارات العلمية الى ممارسة الارهاب الفكري ومحاولة توظيف كل صغيرة وكبيرة للانتصار للفكرة المادية وقد يدفع التعصب وأهداف أخرى الى اخفاء معلومات وتشويش وبلبلة العقائد التي آمن بها كثير من البشر وهم يؤمنون بالدين وأجوبته ازاء المعضلات الغيبية ومنها أصل الحياة وأصل الانسان . « لقد كان داروين دائماً وثناً من أوثان

---

(٢٠) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٤٥٥ .

(٢١) بيوكاي / د. موريس / أصل الانسان / ص ٣٦ .

الترسانة الالحادية وكان دائم الاستعداد لدعم اية افكار تدعم ما يذهبون اليه . ولكننا نرى ان وقوع التطور حتى حين ينسحب على الانسان لم يعد يشكل تهديداً للمعتقد الديني فقد اثارت الدراسات الاخيرة نقاطاً ـ فيما يختص بنظام الحياة ونشاطاتها ـ ادت بالفعل الى توجيهنا كلية الى عكس اتجاه الموضوع الرئيس للخلافات السابقة »[٢٢] .

كيف نصف بداية الحياة ؟ لقد توصل العلماء في القرن الحالي الى نتائج غيرت نظرتنا الى الحياة والكون ! « والقضية كلها نظرة »[٢٣] ، كما يقول المؤرخ توماس بري . والبداية يصفها العلماء بانها كانت عبارة عن جزيء هلامي يمثل انبثاق الحياة الاولى وكان ذلك قبل مئات الملايين من السنين كما ذكرنا سابقاً ، وما زالت القضية غير محسومة بالنسبة الى ما وراء هذا الحدث وكيفية ظهور الخلية الى مسرح الوجود ثم اعقب هذا الظهور عمليات ازدادت تعقيداً في تطوير وتنويع هذه الحياة ، هل تملك هذه الحياة وعياً كان وراء التغييرات التي طرأت عليها ؟ والمشكلة يمكن ان ينظر اليها من زاوية الانسان وعقله وعلاقة العقل بالوجود البيولوجي للدماغ ، يقول بنفيلد : « يبدو من المؤكد ان تفسير العقل على أساس النشاط العصبي داخل الدماغ سيظل امراً مستحيلاً كل الاستحالة ... ومن دواعي السخرية ان بنفيلد بدأ ابحاثه بهدف إثبات العكس تماماً فيقول : طول حياتي العلمية سعيت جاهداً كغيري من العلماء الى اثبات ان الدماغ يفسر العقل غير ان الادلة حملته آخر الامر على الاقرار بأن العقل البشري والارادة البشرية حقيقتان غير ماديتين . ويعلن بنفليد : « يا له من أمر مثير ان نكتشف ان العالم يستطيع بدوره ان يؤمن عن حق بوجود الروح . « واذا كان العقل والارادة غير ماديتين فلا شك ان هاتين الملكتين على حد تعبير الكس « لا تخضعان بالموت للتحلل الذي يطرأ على الجسم والدماغ كليهما »[٢٤] .

ان بداية الحياة على الصورة التي رسمها علماء الاحاثة والاحياء الدقيقة

---

(٢٢) المصدر نفسه ، ص ٤٥ .

(٢٣) أغروس / روبرت م . وجورج ن . ستانيسو / العلم في منظوره الجديد / ص ١٥ ترجمة كمال الخلايلي / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ١٩٨٩ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ص ٤٣ .

(٢٥) بوكاي / موريس / أصل الانسان / ص ٩٤ .

وغيرهم من العلماء الذين يعملون بجد لا ينقطع ولا يتوقف ، هذه الصورة كما ذكرنا لا بديل عنها ولكن مع الصورة يبرز على السطح تطور هذه الصورة البدائية للخلايا الحياتية نباتية وحيوانية والعلماء حتى الوقت الحاضر لم يصلوا الى نتيجة مجمع عليها حول تطور أشكال الحياة عبر ملايين السنين وما زال هؤلاء ينقض بعضهم بعضاً وفرضياتهم ونظرياتهم لا تتوقف . ان التغييرات التي تحصل في الخلية تتم عبر سلسلة معقدة من الاوامر والبرامج يصعب ايجاد تفسير منطقي لها بخاصة عندما تكون هذه التغييرات كبيرة تؤثر في طبيعة وظيفة الخلية وشكلها ونوعها . ان العلماء حددوا الجينات الموجودة في الخلية وجعلوا هذه الجينات هي التي تحكم الاستجابات للمنبهات والتغييرات التي تحدث في الخلية . والغريب « أن التطور بدأ في التضاؤل بتقدم العالم في العمر »[٢٥] ، ولا يوجد تفسير علمي لهذه الظاهرة كما انه لا يوجد تفسير علمي لعدم حصول تطور على بعض الانواع من الكائنات الحية منذ ملايين السنين ، فقد حافظت انواع من البكتريا على وجودها ملايين السنين[٢٦] ومن أمثلتها كذلك الصرصور وحشرات بحرية لها خياشيم تسمى ملوك السراطين (King Carbs) فضلاً عن نباتات مختلفة لم تتأثر اي منها بالطفرات[٢٧] .

وقد أكد العلماء ان أي تغيير في الخلية لابد ان يرتكز على الجينات وعلى « معلومات محددة مودعة في داخل كل خلية ومسجلة على شريط الـ(DNA) فيها ومتضمنة الشفرة الوراثية . ان الادراك الذي يتمتع به النوع كله الذي يعبر عنه في ذلك الشكل المصغر الى أقصى درجة وهو ايضاً الادراك المودع في السلسلة . سلسلة النسب ولكن ما هي القوة المحركة لهذه العمليات يقول جراسيه قد تكون نبضات استجابة من المحيط الخارجي »[٢٨] . يسميها جراسيه نظرية التطور الخلاق (Creative Evaluation) وهي خلق جينات جديدة تقوم بمهمة التطور والتغيير ونحن نسميها الاوامر الربانية الخلاقة المقدرة بقدرها كما يقول تعالى ﴿ انا كل شيء خلقناه بقدر وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر ﴾[٢٩] .

نريد ان نخرج برؤية الى الاحداث من خلال نصوص القرآن الكريم الذي قدم لنا

---

(٢٦) انظر : م . س ص ٨٠ .

(٢٧) انظر : م س ص ٨٠ .

(٢٨) بوكاي / موريس / أصل الانسان م . س / ص ٩٦ .

(٢٩) سورة القمر الآيات ٤٩ / ٥٠ .

صورة فيها من الاعتبار ما ينفع الانسان ليتعزز الايمان بالله وقدرته التي تتجلى في المدى الواسع من تنوع الحياة فهذه الانواع الكثيرة والاصناف التي لا حصر لها في مملكتي الحيوان والنبات كلها تؤدي الى الحقيقة الكبرى التي لا مراء فيها وهي ﴿ الله الخالق البارىء المصور ﴾[٣٠] ان هذه الحياة تسير على وفق سنن ونواميس خلقية تخضع لهداية الله ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾[٣١] . الله يعطي المادة الصماء الخلق ويمنحها الحياة ويرسم لها طريق التخليق ويهديها للتطور والتغيير والتكيف مع البيئة والزمن . العلماء جميعاً لا يجيبون عن التغيّر الواعي المطرد نحو تحسين النوع وحمايته . فلا يمكن للمصادفة ان تجد لها مكاناً يستحق ان يكون جواباً لهذا التساؤل ولا الطفرة كذلك التي عبر عنها علماء التطور (Mutation) وجعلوها متكأ منخوراً انهار امام الحياة في صورها من اصغر جزء الخلية الى اكبر جزء مادي وهو الكون الذي يدور على وفق ناموس التخليق الالهي .

قال تعالى ﴿ أو لم ير الذين كفروا ان السماوات والارض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[٣٢] . لقد جعل القرآن الكريم اصل الحياة الماء ثم كان القرآن الكريم دائماً يربط الماء بالشجر « اذ لا ينفك الماء والشجر يتلازمان في اكثر الآيات القرآنية بوضوح فحيثما ذكر الماء فالغالب ان يذكر الشجر معه والعكس صحيح . مثل قوله تعالى ﴿ أمن خلق السموات والارض وانزل لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة مّا كان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ﴾[٣٣] و[٣٤] .

ولأمر ما حث رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين ان يتفكروا في آية من كتاب الله وقال : ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل من السماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر

---

(٣٠) سورة الحشر/ ٢٤ .

(٣١) سورة طه / ٥٠ .

(٣٢) الانبياء/ ٣٠ .

(٣٣) سورة النمل/ ٦٠ .

(٣٤) الزبيدي/ د. كاصد ياسر/ الطبيعة في القرآن الكريم/ ص ٨٥ .

بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون ﴾[35][36] . هي دعوة للتفكر في رحاب الكون وآفاق العقل وحدود ادراكه ومديات البصر في السموات والارض والليل والنهار وتهيأة الماء وتذليله لجريان الفلك في آية من آيات الله ونزول الماء سبب الحياة على الارض والنباتات التي تشق الارض لتعبر عن حركة الحياة . وإيجاد الحياة الحيوانية وما يدبُّ على الارض من الخلق الحيواني وسريان الرياح على وفق مقتضى خدمة الحياة وكل ذلك ينطق بأن الله تعالى قد سخر للانسان ذلك المخلوق المكرم كل ما في الوجود وكل ذلك من غير قوة ذاتية للانسان بل نعم الله التي أسبغها على الانسان حتى ذكر القرآن الكريم عجز الانسان عن الاحاطة بنعم الله ومجرد عد هذه النعم واحصائها مما يتعذر على الانسان ﴿ وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) ابراهيم / ٣٤ .



(٣٥) سورة البقرة / ١٦٤ .

(٣٦) من حديث طويل رواه ابن حبان في صحيحه عن عطاء انظر : ابن حجر الهيتمي / ابو العباس احمد بن محمد ت ٩٧٤ هـ الزواجر عن اقتراف الكبائر / ج١ ص ٣٢ / دار الكتب العلمية / ١٩٨٧ ط ١ .

المبحث الثاني

ادم (عليه السلام) أبو البشر

ان دراسة آدم (عليه السلام) وحياته من ضمن أنبياء العراق كان بسبب وجود رقم طينية تؤكد قصة خلقه من الطين ، وهذه الرقم الطينية وجدت في التراث العقيدي لحضارة وادي الرافدين وكذلك اكد قصة جنة آدم رقيم طيني على شكل ختم محفوظ في المتحف البريطاني يصور قصة آدم مع حواء في الجنة وخلف حواء صورة حية وبين آدم وحواء شجرة وتمثل النخلة وهي تؤكد قدم هذه الشجرة في وادي الرافدين ، والصورة تمثل الرجل والمرأة قد مدا يديهما لتناول الثمرة . وفي رقم طينية وصفت جنة عدن او جنة آدم . كل هذه الشواهد تؤكد ارتباط قصة آدم (عليه السلام) بأرض الرافدين ، وقصة آدم (عليه السلام) تمثل قصة الانسان الاول الذي كرمه الله تعالى وكانت بداية تاريخ البشرية المكرمة تنطلق من نقطة ارتباطها بأبيها آدم (عليه السلام) النبي الانسان فلا غرابة ان تقوم على ارض الرافدين اول الحضارات وأول البدايات المكرمة كانت على أرضها . وقد حاولت بعض الفلسفات المعاصرة أن تبحث عن أصل الانسان وتأسست علوم في ميدان البحث عن أصل الانسان وتاريخ وجوده على الارض من هذه العلوم علم الانثروبولوجي . ومنذ أكثر من قرن من الزمان تواصلت النظريات والبحوث ولم يتوصل العلماء الى وضع صورة مقبولة حول أصل الانسان ووجوده على الارض . لذلك نرى انه من غير المفيد البحث عن قضية خلق الانسان من خلال هذه الميادين وان دراسة القضية من خلال التاريخ الديني والرواية الدينية يمكن ان تمنح الدارسين العبرة والغاية من وجود الانسان على الارض ، وان البحث عن خلفية القصة قبل الغاية الدينية من خلق الانسان لا تشكل أهمية في حياة الانسان على الأرض لذلك سنقوم بدراسة قصة آدم في الرواية الاسلامية ونقارنها مع الرواية التوراتية ورواية الرقم الطينية .

ادم (عليه السلام) في الرواية الاسلامية :

كانت الرواية الاسلامية خالية من المفاهيم الاسطورية ومستعلية على التصورات البشرية فاعطت لقصة ادم أبعادها الاخلاقية والاعتقادية من دون أن تتلبس باهواء البشر وتصوراتهم المحدودة فقد جاء في الحديث الذي رواه مسلم وذكره البخاري (من طريق سعيد وهشام عن قتادة عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى عليه وسلم قال : يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا الى ربنا فياتون آدم فيقولون أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته وعلمك اسماء كل شيء ، وذكر تمام الحديث)[٣٧] . هذا الحديث يؤكد الآيات القرآنية ودلالتها على حقائق أهمها :

١ - إن آدم (عليه السلام) ابو البشر .
٢ - ان الله تعالى خلقه بيده وهو أمر غيبي له دلالة معنوية تدل على ان الله سبحانه وتعالى قد تعهد خلق آدم بعنايته ورعايته وتكريمه .
٣ - ان الله تعالى علم آدم الالسنة واللغات ونطق اسماء الاشياء مما يدل على بداية اللغة واسسها كانت عند آدم عليه السلام .
٤ - ان الله تعالى كرم هذا المخلوق واسجد له ملائكته وقد اختلف في معنى هذا السجود (قال قتادة في قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ﴾ فكانت الطاعة لله والسجدة لادم اكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته) وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام واكرام كما قال تعالى ﴿ ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ﴾ وقد كان هذا مشروعاً في الامم الماضية ولكنه نسخ في ملتنا)[٣٨] .

لقد أكدت هذه الحقائق جميع الآيات التي تعرضت لقصة آدم في القرآن الكريم منها قوله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال اني اعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الاسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم *

---

(٣٧) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤هـ / قصص الانبياء / ص ١٠ .
(٣٨) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن الكريم / ج١ ص٧٧ .

قال يا آدم انبئهم بأسمائهم * فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم اني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس ابى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه* وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه * انه هو التواب الرحيم * قلنا اهبطوا منها جميعاً فأما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا اولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٣٩] وقال تعالى في سورة ص ﴿ إذ قال ربك للملائكة اني خالق بشراً من طين فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم اجمعون * الا ابليس استكبر وكان من الكافرين * قال يا إبليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي * استكبرت أم كنت من العالين * قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاخرج منها فانك رجيم * وان عليك لعنتي الى يوم الدين ﴾[٤٠] وهذه الآيات تدل على دحض نظرية التطور لداروين وما أفرزته المذاهب المادية من نظريات حول تطور الانسان من الحيوان والقردة وان هذه الآيات تدل على انه « تعالى لما نفخ الروح في آدم وجب على الملائكة ان يسجدوا له ، لان قوله تعالى ﴿ فاذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين ﴾ مذكور بـ (فاء) التعقيب وذلك يمنع التراخي ومعلوم ان آدم عندما أمر الله تعالى الملائكة بالسجود له كان (عليه السلام) بكامل صورته البشرية ولم يكن على هيئة أخرى . وفي الحديث النبوي الشريف (خلق الله آدم على صورته) فخلق آدم جاء كاملًا من جهة هيئته وصورته الانسانية . وقال الامام الرازي في تفسيره : ان الله تعالى خلق آدم على صورة الانسان »[٤١] .

لقد شكلت قصة آدم (عليه السلام) في الرواية الاسلامية اساساً لفهم الوجود الانساني على الارض ، فقد بدأت القصة بذكر عناصرها وهي كما تدل عليها الآيات والاحاديث الصحيحة يمكن ايجازها وتحديدها بالعناصر الآتية :

---

(٣٩) سورة البقرة / ٣٠ ـ ٣٩ .

(٤٠) سورة ص / ٧١ ـ ٧٨ .

(٤١) زيدان / د . عبدالكريم / المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة / جـ ١ ص ٢٦ / مؤسسة الرسالة بيروت / ١٩٩٧ .

١ - ان آدم (عليه السلام) اشترك معه منذ البداية زوجه ، فأعطى وجود الزوجة معنى الاسرة وبدايات المجتمع البشري وهذا يدل على اجتماعية الانسان وضرورة الاجتماع لاستمرارية الحياة . فكانت بداية الاسرة ارتباط هذه الاسرة بنظام ديني قائم على طاعة اوامر الله تعالى حيث تدل الآيات على بداية التوجيهات الربانية للانسان ضمن تربية وتدريب لضبط النفس بموجب الاوامر والنواهي ، وكذلك اصطفى آدم (عليه السلام) ووضعت فيه الملكات والاستعدادات فقد جاء خلق آدم « متمماً لخلق الارض وتهيأتها ومساحات واسعة من السماء الدنيا لاستقبال هذا المخلوق الفاعل الذي اتيح له أن يتخذ مكانه في الارض خليفة لله رب العالمين . لذلك كان آدم يمثل امراً اراده الله فكانت ارادة الله تلتقي مع العناصر الاولى الطبيعية فكان الخلق الالهي او الفعل الالهي يتخذ شكلين لخلق الحدث او الفعل . الاول : مباشرة الفعل التاريخي المتساوق ضمن سلسلة مضبوطة بالنواميس ويأخذ هذا الحدث التاريخي امداءه الزمنية المقدرة له يخرج بصورته النهائية وهذا الشكل يمكن أن ينتظم من خلاله التاريخ من البداية السحيقة المقدرة بملايين السنين الى النهاية المحسوبة ضمن المقاييس العلمية المتفقة مع منطق الدين وقدرة الخالق . والشكل الآخر لخلق الحدث هو تجاوز النواميس الطبيعية ومن خلال الكلمة النافذة في الكون والعالم ﴿ اذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[٤٢] وهذا هو شكل المعجزات[٤٣] .

٢ - ظهر في صورة الحدث عنصر آخر وهو الشيطان الذي جعله الله تعالى مادة الابتلاء في حياة الانسان وقد ذكرت الآيات الكريمة ان الشيطان مخلوق من نار يأخذ شكلاً من أشكال الطاقة في حين كان آدم قد خلق من طين الذي يأخذ شكلاً من أشكال المادة وكان أصل خلق الشيطان سبباً من أسباب غروره وتكبره واستعلاءه على أمر الله . فكان الشيطان لا ينفك عن غواية الانسان واستدراجه الى المعاصي منذ أن أعلن عداوته للانسان الاول آدم عليه السلام . (وفي صحيح مسلم عن عائشة عن رسول الله صلى عليه وسلم قال

---

(٤٢) سورة مريم / ٣٥ .

(٤٣) خليل / د. عمادالدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / ص ١١٨ - ١١٩ .

خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم)[٤٤] .

الشيطان الذي أعلن تمرده ودخل في لعنة الله كان أصله من الجن وهم المخلوقات التي تشارك الانسان الحياة في صورة غير مرئية لأن تكوينها الطاقي يسمح لها أن تعيش وفق حياة روحانية غير مادية . ويؤثر هذا المخلوق على الانسان عن طريق الوسوسة كما ذكرت آيات قصة آدم . وقد حذر الرب جلّت قدرته آدم من إبليس وأمره ونهاه عن طاعة إبليس الشقي لئلا يشقى كما شقى ابليس .

٣ ـ العنصر الآخر من عناصر قصة آدم (عليه السلام) (الملائكة) الملائكة التي كانت طائعة لأمر ربها وسجدت لآدم وقد عبرت هذه المخلوقات عن عبادتها للخالق بالطاعة والامتثال ومر الله . الملائكة خلقها الله من نور كما بين الحديث . وقد اعطى الله لها دوراً في حياة الانسان ووظائف أخرى أناطها الله بها مثل حفظ الانسان والعروج الى السموات ورفع الاعمال التي يقوم بها البشر وكتابتها وغيرها من الامور الغيبية التي لا يستطيع العقل البشري أن يدركها لانها خارج حدود طاقة عقل الانسان ولكن النص أخبر بها فوجب الايمان بها والتصديق بها . ويذهب البعض استناداً الى قول الملائكة ﴿ أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ﴾ ويقول : « ان الملائكة لم يقولوا ذلك الا لرؤيتهم من تقدموا آدم من الخلق الذين على صورته قد فعلوا ذلك ، وان آدم كان خليفة عن بشر كانوا من جنسه وبادوا . وكل هذه الاقوال لا تستند الى نص قطعي الثبوت والدلالة والمسألة لا يترتب عليها نفع ولا ضرر والله لم ينص على شيء منها في الكتب السماوية فوجب السكوت عنها »[٤٥] .

---

(٤٤) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ١٢ .

(٤٥) النجار / عبدالوهاب / قصص الانبياء / ص ١٢ / دار احياء التراث العربي بيروت ط ٣ د . ت .

آدم (عليه السلام) في الرواية التوراتية :

ورد في الكتاب المقدس العهد القديم سفر التكوين / ١ /٢٦ : « ثم قال الله : لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا فيتسلط على سمك البحر وعلى طير السماء ٠٠٠٠ فخلق الله الانسان على صورته على صورة الله خلقه ذكراً وانثى خلقهم وباركهم الله ٠٠٠٠ وأخذ الرب الاله آدم ووضعه في جنة عدن ليفلحها ويعتني بها وأمر الرب الاله آدم قائلًا : كل ما تشاء من جميع اشجار الجنة ولكن اياك ان تأكل من شجرة معرفة الخير والشر لانك حين تأكل منها حتماً تموت ٠٠٠ ثم قال الرب الآله : ليس مستحسناً أن يبقى آدم وحيداً سأصنع له معيناً مشابهاً ٠٠٠ فأوقع الرب الاله آدم في نوم عميق ثم تناول ضلعاً من أضلاعه وسد مكانه باللحم ٠٠٠ وكانت الحية أمكر وحوش البرية التي صنعها الرب الاله فسألت المرأة : أحقاً أمركما الله الا تأكلا من جميع شجر الجنة ؟ فأجابت المرأة : يمكننا أن نأكل من ثمر الجنة كلها ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها فقد قال الاله : لا تأكلا منه ولا تلمساه لكي لا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا بل ان الله يعرف انه حين تأكلان من ثمر هذه الشجرة تنفتح أعينكما فتصيران مثله قادرين على التمييز بين الخير والشر . وعندما شاهدت المرأة ان الشجرة لذيذة للمأكل وشهية للعيون ومثيرة للنظر قطفت من ثمرها واكلت ثم أعطت زوجها ايضاً فأكل معها . فانفتحت للحال اعينهما وأدركا انهما عريانان فخاطا لانفسهما مآزر من أوراق التين »[٤٦] .

الطرد من الجنة :

« ودعا آدم اسم امرأته حواء لانها أم كل حي وصنع الله لآدم وأمرأته اقمصة جلد والبسهما وقال الله لقد أصبح آدم كواحد منا يعرف الخير والشر فلعله يأكل أيضاً من شجرة الحياة فيحيا الى الابد فأخرجه الله من جنة عدن ليعمل في الارض التي خلق منها وأقام الله شرقي جنة عدن الكروبيم (الملائكة) ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة »[٤٧] .

---

(٤٦) الكتاب المقدس / العهد القديم / تك ١ ـ ٣ .

(٤٧) عن محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل / ص ٧ .

مقارنة بين الرواية الاسلامية والرواية التوراتية :

ان مقارنة بسيطة بين الرواية الاسلامية والرواية التوراتية توضح لنا أهمية الرواية الاسلامية وخلوها من الاخطاء والارباكات التي في الرواية التوراتية . ان الرواية التوراتية تتفق مع الرواية الاسلامية في شخصية آدم (عليه السلام) وبعض النقاط التي تلتقي فيها القصة في الروايتين . ولكن الخلافات بين الروايتين توضح لنا عصمة الرواية القرآنية والحديثية الصحيحة من الخطأ بينما وقعت التوراة في اخطاء لا يمكن تبريرها الا بارجاع سبب هذه الاخطاء الى الآثار البشرية في صياغة القصة وتأثرها بالتراث الرافديني كما سنرى لاحقاً ويمكن ايجاز اختلاف الروايتين في النقاط الآتية :

١ ـ الرواية التوراتية خالية من اعلان الاستخلاف الذي كرم الله به آدم والبشرية جمعاء . وخالية من ذكر اي اشارة لسجود الملائكة للمخلوق المكرم .

٢ ـ الرواية التوراتية خالية من ذكر الشيطان ودوره وان هذا الاغفال للشيطان يفقد القصة عنصراً مهماً من عناصر الحكمة والغاية التي وضعت للاعتبار لبني آدم حيث سيقوم الشيطان بدور الغواية والافساد ومشاركة بني الانسان في حياتهم وهو ما يقتضي بلورة الوعي والاستعداد لمواجهة وسوسة الشيطان في حياة الانسان .

٣ ـ الرواية التوراتية وصفت الرب جلّت قدرته وتعالى علواً كبيراً بالكذب حيث بررت منع آدم وزوجه من أكل الشجرة بقول الرب (لانك حين تاكل منها حتماً ستموت) ولكن آدم وحواء عندما أكلا من الشجرة لم يموتا . وقد صورت التوراة الرب جلّت قدرته بانه انما منع آدم وحواء من أكل الشجرة خوفاً من أن يكونا خالدين مثله وهذا يتنافى مع تنزيه الرب جلّت قدرته عن مثل هذه الامور .

٤ ـ وردت في الرواية التوراتية عبارة تدل على معنى شركي ووثني كما في روايات الرقم الطينية وهي تصور خطاب الآلهة المتعددة للبشر وذلك في النص التوراتي (وقال الله لقد أصبح آدم كواحد منا) وهذا يدل على تأثر الرواية التوراتية بالتراث الرافديني وحضارة وادي الرافدين .

٥ ـ فقدت الرواية التوراتية اي معنى تربوي أخلاقي وعقائدي يضع الانسان أمام حقيقة وجوده وهي العبودية للخالق وعدم مخالفة اوامره الامر الذي توضحت

معالمه في الرواية القرآنية .

٦ ـ الرواية القرآنية خالية من ذكر الحية وحديثها مع حواء الذي ذكرته التوراة ويبدو ان الحية كانت البديل عن الشيطان في الرواية القرآنية لان الغواية كانت بسببها في الرواية التوراتية .

آدم (عليه السلام) في الرقم الطينية :

وردت قصة خلق آدم والخليقة والكون في التراث الرافديني فقد « الّف السومريون والبابليون من بعدهم أساطير وقصصاً عديدة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الانسان وجاءوا بهذا الخصوص بأفكار مهمة اعتمدتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلًا او جزءاً وتذكر من هذه الاساطير في سبيل المثال الاسطورة الخاصة بجلجامش ورفيقه أنكيدو حيث تحتوي مقدمتها رغم قصرها على معلومات غاية في الاهمية عن انفصال السماء عن الارض على يد الاله انليل بعد أن كانتا كتلة واحدة . وقد كان خلق الانسان واحداً من المواضيع التي تناولتها الاساطير السومرية والبابلية على حد سواء والتوراة ايضاً »[48] وقد ذكرت اسطورة سومرية يعود زمن تدوينها الى الالف الثالث قبل الميلاد[49] تذكر هذه الاسطورة ان الآلهة ارادت ان تخلق عبداً من الطين الذي يؤخذ من وسط مياه العمق وتخلق منه الانسان وفي النص البابلي ان الآلهة خلقت الانسان الذي عبر عنه النص البابلي بكلمة (لوللو Lullu) هذه الكلمة مستعارة من السومرية وتعني حرفياً الانسان الاول[50] . وقصة أدبا البابلية تلتقي مع قصة آدم التوراتية في كثير من النقاط فقد صورت الاسطورة المخلوق أدباً الذي خلقته الآلهة ومنحته الحكمة ولكنه خالف اوامر الرب عندما حاول الحصول على الخلود وفي النهاية يفشل في الحصول على الخلود وتعيده الآلهة الى الارض . كما ان الختم الذي عثر عليه في آثار وادي الرافدين يعبر تعبيراً واضحاً على قصة جنة آدم . وهو محفوظ حالياً في المتحف البريطاني الذي سمي (ختم الاغراء) (فانه ينقل بصفة وافية جو الفردوس الذي ورد في التوراة « سفر التكوين ٣ » لان عناصر

---

(٤٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٢٤٥ ـ ٢٤٧ ، بتصرف .

(٤٩) المصدر نفسه ، ص ٢٤٧ / ياخذ عن (Kramer, O.P.Cit pp68) .

(٥٠) المصدر نفسه ، ص ٢٥٣ .

تصميمه تتألف من اله وشجرة وامرأة وثعبان جنباً الى جنب)[٥١] ولكن هذه الرقم الطينية والاختام التي تحدثت عن قصة آدم حاول كل الذين تعرضوا لها أن يثبتوا من خلالها تأثير حضارة وادي الرافدين في التوراة وقد جعلوا كل تطابق في القصة يعني ان التوراة قد اقتبست هذه القصة من تراث حضارة وادي الرافدين وهذا الامر لا يمكن تعميمه ولابد من التفصيل . فان اشتراك عناصر القصة بين الرقم الطينية والتوراة يمكن ان ينظر اليه من جهة أخرى وهي إن هذا الاشتراك مصدره تأثير النبوات على حضارة وادي الرافدين ومن ثم انعكس هذا التأثير على التوراة وتدوينها ، وقد تكون التوراة قد استعادت القصة وعناصرها عن طريق الوحي لأن التوراة الاصلية مصدرها الوحي والنبوة . وعليه فان تكرار الحدث وعناصره قد يكون عن طريق انتقال المعلومة من السابق الى اللاحق وهذا الغالب حيث ان حضارة وادي الرافدين سابقة للتوراة وقد يكون مصدره الوحي والنبوة وقد تعرضت للتحريف والتضخيم ويبرز هذا الجانب وهو تأثير النبوة في حالات الاخبار عن أمور صدّقتها القرآن الكريم وأثبت العلم الحديث حقيقتها مثل ان الكون كان كتلة واحدة ثم انفصل وان الانسان خلق من طين . اذ لا يمكن ان يعقل ان يتوصل العقل البشري ضمن حدود المعرفة للعصور القديمة الى هذه الحقائق ما لم تكن هذه الحقائق قد نطق بها أنبياء ومن ثم أضاف اليها البشر تحريفاً وتضخيماً وتحولت الى روايات اسطورية تعبر عن معتقدات وثنية . وهكذا نجد من خلال هذه المقارنة ان شخصية آدم (عليه السلام) حقيقة تضافرت لتأكيدها الرقم الطينية مع الرواية التوراتية ثم جاءت الرواية الاسلامية من القرآن والسنة النبوية الصحيحة لتوضح هذه الحقيقة من دون التعرض لملابسات القصة التي لا قيمة تاريخية لها من حيث الاعتبار والفائدة وكذلك نجد ان الرواية القرآنية لم تحدد اعماراً ولا ازماناً ولا أسماء غير آدم (عليه السلام) وانما وضحت القصة وعناصرها وما ارتبط بها لتؤدي هذه القصة دورها في تعليم الانسانية قيمة وجودها واسباب صلاح حياتها وكل العناصر التي ذكرتها الرواية الاسلامية وأغفلتها الرواية التوراتية كانت تشكل تأثيراً واضحاً ينسجم مع الغاية من القصة مثل الشيطان والملائكة والسجود لآدم (عليه السلام) بينما نجد ان كل العناصر التي اغفلتها الرواية الاسلامية وذكرتها الرواية التوراتية او الرقم الطينية كانت تعبر عن

(٥١) بارو / اندريه / سومر فنونها وحضارتها / ترجمة د . عيسى سلمان وسليم طه التكريتي / ص ٨٥ .

عصمة الرواية الاسلامية وربانية مصدرها لان ذكرها كان يعطي صورة خاطئة او اسطورية لا قيمة لها مثل الحية او مفهوماً كفرياً او شركياً مثل اسناد الكذب الى الرب جلّت قدرته عندما منع آدم من الاكل من الشجرة تعالى الله علوّاً كبيرا .

اذا عدنا الآن الى موضوع خلق آدم (عليه السلام) وجدنا ان نصوص القرآن الكريم قد أوضحت بأن الله تعالى قد أسكنه الجنة . وقد اختلف العلماء حول حقيقة هذه الجنة ، هل هي جنة الخلد؟ أم جنة في الارض هيأها الله تعالى لسكن هذا المخلوق الجديد ؟ جمهور العلماء قال : أنها هي التي في السماء ، وهي جنة المأوى وأدلتهم من القرآن والسنة كثيرة . وقال آخرون انها لم تكن جنة الخلد بل هي جنة اعدها الله لابتلاء آدم في الارض ووفر له فيها حاجاته من طعام وشراب وسكن ولباس ، وهذا القول محكي عن أبَيّ بن كعب وعبدالله بن عباس ووهب بن منبه وسفيان بن عيينه واختاره ابن قتيبة في المعارف[٥٢] ، وذكر القرطبي هذا الرأي عن المعتزلة والقدرية[٥٣] (وهي فرق اسلامية لها آراء في الاعتقاد) . وكذلك ذكر ابن القيم خلاف العلماء حول الجنة وذكر ادلة الفريقين ومن طريف ما ذكر من أدلة القائلين بأن الجنة في الارض قولهم : « أين الدليل على اصعاد مادة آدم (المادة التي خلق منها آدم) واصعاده بعد خلقه الى فوق السموات هذا مما لا دليل لكم عليه اصلاً ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به . ومن المعلوم ان ما فوق السموات ليس بمكان للطين الارضي المتغير الرائحة الذي قد أنتن وانما محله الارض »[٥٤] . وقد أسهب ابن القيم في كتابه وتعقب الفريقين وأدلتهم حتى نقل رأياً ثالثاً للرازي قال : المسألة يتوقف فيها لامكان الجميع وعدم القطع . الى ان قال ابن القيم في ختام نقله لأدلة الفريقين « فهذا هو موقف الفريقين ونهاية اقدام الطائفتين فمن كان له فضل علم في هذه المسألة فليجد به فهذا وقت الحاجة اليه[٥٥] .

والمسألة تحتمل ان تكون الجنة في الارض بل ان النصوص القرآنية تنسجم

---

(٥٢) انظر : ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ١٦ وما بعدها .

(٥٣) انظر : القرطبي / الجامع لاحكام القرآن / ج١ ص ٣٠٢ .

(٥٤) ابن القيم / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الدمشقي ت ٧٥١ هـ / مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة / ص ٢٧ / دار الكتب العلمية ببيروت / د. ت .

(٥٥) انظر : ابن القيم / محمد بن أبي بكر الدمشقي / مفتاح السعادة / م.س / ص ١٤ - ٣٢ .

دلالتها مع هذا الرأي ، فلو تأملنا قوله تعالى ﴿ منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى ﴾[٥٦]، وقوله تعالى ﴿ والله أنبتكم من الارض نباتا ﴾[٥٧] ، فالنص يشير الى ارتباط الانسان بالارض في جميع مراحل وجوده . واذا كانت هذه الجنة في الارض أين تكون . لقد تطرقت التوراة الى جنة الارض التي أسكن الله آدم فيها وسميت جنة عدن ، وقد ذكر ابن كثير ان جنة آدم جنة في الارض « هذا القول نص التوراة التي بايدي أهل الكتاب »[٥٨] .

ويذكر ويلكوكس حول جنة عدن المذكورة في التوراة في التقرير الذي أعده وتوصل الى نتائج أثبتها في هذا التقرير وقد استغرق بحثه سنيناً طوال يقول عنها « لقد قضيت أربعة وثلاثين عاماً في دراسة كل ما ورد في العهد القديم مما له صلة بالري وبالاقطار التي يشملها نظام الري وهذه الدراسة مشفوعة بتحرٍّ عملي دقيق لتلك الاقطار (يعني مصر والعراق) والذي ساعدني على هذا اختصاصي بهندسة الري ومعرفتي الجيدة باللغة العامية »[٥٩] وحول جنة عدن يذكر « الحوادث التي ورد ذكرها في الفصول الاولى من سفر التكوين وقعت في ارض لا تجود سماؤها بالامطار . ولما كانت مصر والعراق وهما اقدم البلاد المتمدنة في العالم . فمن المظنون جداً ان تكون أقدم الاقوام التي استوطنت هذين القطرين انما نزحت اليها من بلاد العرب »[٦٠] استهدفت أثناء اقامتي في العراق مدة ثلاث سنوات دراسة نهر الفرات من منبعه الى مصبه لاصل الى معرفة مكان الجنة التي يمكن تامين وصول المياه السيحية اليها خلال الاثني عشر شهراً من السنة فظهر لي انه لا يوجد في المنطقة الواقعة جنوب هيت مكان يمكن ان تتوفر فيه الشروط المذكورة سوى الاراضي المستصلحة في منطقة الاهوار قرب الخليج ، جنوب الناصرية بجوار مدينة اريدو القديمة حيث كانت عدن السومريين[٦١] . « وكانت هذه الجنة حديقة غنّاء مليئة

---

(٥٦) سورة طه / ٥٥ .

(٥٧) سورة نوح / ١٧ .

(٥٨) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء ص ١٧ .

(٥٩) ويلكوكس / سير وليم / من جنة عدن الى عبور نهر الاردن / تعريب د. محمد الهاشمي / المقدمة ص ١/ بغداد سنة ١٩٢٩ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ص ٨ .

(٦١) ويلكوكس / ن.م / ص ١١ .

بالنخل الذي لا يزال يعتبر حتى يومنا هذا شجر الحياة كما إنها مليئة بأشجار الكروم أشجار المعرفة التي حرم أكل ثمرها[٦٢] . لقد حاول ويلكوكس ان يثبت من خلال بحثه هذا ان جنة عدن في مفهوم التوراة او جنة آدم في المفهوم الاسلامي هي منطقة على شاطيء الفرات وفرت العناية الالهية فيها أنواع الثمار والاشجار وهيأ الله سبحانه ظروفاً مناخياً وماءً دائماً وتظافرت هذه الاسباب لتكون بيئة صالحة لعيش اول انسان أو بداية الجنس البشري حيث انطلق في تكوين أول تجمعات حضارية .

« وقد عثر على فخاريات في موقع جرمو (وهي أقدم القرى الزراعية المكتشفة في شمال العراق) ومنذ الطبقة الخامسة تثير تساؤلات عديدة وهامة[٦٣] . ان التعرف على ظهور الانسان الاول أو بداية العصر الذي تتحدث عنه الروايات الدينية وهو عصر آدم عليه السلام ليس أمراً سهلًا ولكن اجمع علماء الطبيعة وعلماء الاديان على ضرورة الايمان بوجود حدث مهم ظهر فيه الانسان يمثل النوع الانساني الحالي ، ولكن الخلاف حول التفاصيل . وهذا يدعو الى ضرورة تقبل آراء الطرفين وعدم اللجوء الى التكذيب والتهكم وانكار امور يطرحها النص الديني ، ولا يوجد دليل على عدم صحتها ، كما ذهب لنتون الى ذلك بقوله « لسنا نعرف أين ظهر أول من يمكن التعرف عليه كممثل لنوعنا البشري ولكننا متاكدون من انه لم يظهر في مساحة صغيرة محددة المعالم وبعبارة أخرى لم تكن هناك جنة عدن »[٦٤] . لقد اثبتت البحوث المختصة بتاريخ الحضارات ومتابعتها والدراسات الجيولوجية والمكتشفات الآثارية ان وادي الرافدين هو مهد الجنس البشري « واطلق عليه هذا الاسم مع ان الانسان عاش وأصاب حظاً من التقدم قبل ان يتكون هذا الوادي بعصور عديدة وبالرغم من ان الباحث قد يعثر على بعض الادوات والاسلحة التي تعود الى العصر الحجري القديم في الهضبة الصحراوية الممتدة بين حوض الفرات وغور الاردن ، الا ان لهذه التسمية ما يبررها ، اذ ان هذا الوادي من البقاع التي يمكننا ان نتتبع في

---

(٦٢) المصدر نفسه ، ص ١١ .

(٦٣) الدباغ / د. تقي مع وليد الجادر / عصور ما قبل التاريخ / ص ١٣٨ .

(٦٤) لنتون / د. رالف / شجرة الحضارة ترجمة د. احمد فخري / ج١ ص ٤٢ / القاهرة / د.ت .

تاريخه السحيق أصول حضارتنا الحالية »[٦٥] . ولكننا ونحن نبحث عن تاريخ الانسان نبحث عنه من حيث انسانيته لا من حيث حيوانيته ، وقد « وصف هردر التاريخ على انه تربية الجنس البشري وتهذيبه . ونعته كنت بانه تطور فكرة الحرية وارتقاؤها . وعرفه هيجل بأنه امتداد ذات لروح العالم »[٦٦] . وهذا المفهوم يتطابق مع اهداف القرآن في سرد الحدث التاريخي الذي حافظ على العبرة وطالب الانسان باعتبار احوال الامم ومصائرها وسلط الضوء على الحدث من خلال ارتباطه بالقضية التي يدعو اليها القرآن وهاجم القرآن العقل الذي لا يتعظ بالتاريخ ﴿ فإنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾[٦٧] . لقد ذكر الطبري رواية تحدثنا عن لحظات موت آدم كما يلي : « لما كتب آدم وصيته مات صلوات الله عليه واجتمعت عليه الملائكة من اجل انه كان صفي الرحمن فقبرته الملائكة وشيت واخوته في مشارق الفردوس عند قرية هي اول قرية كانت في الارض »[٦٨] .

وفي رواية عن عبدالله بن الامام احمد يروي حديثاً عن أبي بن كعب « ان آدم لما حضره الموت قال لبنيه : أي بني أني أشتهي من ثمار الجنة قال : فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم اكفانه وحنوطه ، ومعهم الفئوس والمساحي والمكاتل ، فقالوا لهم : يا بني آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى من ثمار الجنة فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم . فجاءوا فلما رأتهم حواء عرفتهم فلانت بآدم ، فقال : اليك عني فاني انما أتيت من قبلك ، فخلي بيني وبين ملائكة ربي عز وجل فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه وحفروا له ولحدوه ، وصلوا عليه ثم أدخلوه قبره فوضعوه في قبره ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بني آدم ... هذه سنتكم »[٦٩] . وقد ذكر ابن القيم حديث أبي هذا في الاستدلال على ان الجنة التي

---

(٦٥) وولي / سيرليونارد / وادي الرافدين مهد الحضارة تعريب احمد عبدالباقي / ص ١٥ / مكتبة المثنى د . ت .

(٦٦) شبلنجر / أرنولد / تدهور الحضارة الغربية / ج٢ ص ٦٥ .

(٦٧) سورة الحج آية / ٤٦ .

(٦٨) الطبري / ابن جرير ت ٣١٠هـ / تاريخ الرسل والملوك / ج١ ص ١٥٩ . والرواية تناقض ان ادريس اول من خط بالقلم . رواية أبي بن كعب أقرب للقبول والفهم .

(٦٩) ابن كثير / ابو الفداء إسماعيل / تاريخ الانبياء / ص ٥٦ وقال عنه اسناد صحيح .

أسكن فيها آدم هي في الارض لان اولاده ذهبوا لقطف الثمر الذي اشتهاه منها[٧٠].
والآثار المروية توضح لنا بدايات تشكيل التجمعات السكانية بعد آدم، حيث أوضحت الاحاديث اول قرية كانت في الارض متصلة بعصر آدم.

جنة آدم التي تحدثت عنها النصوص في آيات قرآنية وأحاديث نبوية والتي ذكر العلماء الاختلاف حولها هل هي في الارض؟ او في السماء؟ المنطق وتسلسل الاحداث لا يمنع من القول بوجود هذه الجنة في الارض لكي تتسق قصة الخلق مع جميع عناصرها فتشكل فهماً متماسكاً لا توجد في تكوينه ثغرة او فجوة يصعب على العقل استيعابها.

آدم النبي الرسول اصطفاه الله وكرمه ورفعه في نبوته وأسكنه جنته التي هيأها له لكي تكون اول مرحلة من مراحل الامتحان والابتلاء. وبعد ان استدرج الشيطان هذا المخلوق الكريم وزين له مخالفة تعاليم الرب اخرجه الله من هذه الجنة الى ارض فيها من المعاناة والتعب والشقاء مما أراده الله للانسان لابتلاءه وتمييز الطيب من الخبيث من معادن البشر. وقد زين الشيطان لآدم مخالفة الرب بفكرة الخلود «هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى» فكيف يكون في جنة الخلد ويبحث عن خلود؟ وان هذا النص القرآني يؤكد ان آدم عليه السلام كان يعرف الموت ويخافه وربما قد شاهد حالات موت امامه فكان اغراء ابليس له بالخلود يعبر عن معاناة آدم عليه السلام. فكان إخراج آدم هو هجرة عكسية باتجاه إرض مجدبة لحكمة أرادها الله تعالى، فكانت مكة وفي أثر مروي عن النبي ﷺ ان الله أمر آدم أن يبني الكعبة في مكة ويطوف حولها كما تطوف الملائكة[٧١]. وحديث آخر ان الارض دحيت من مكة[٧٢]. فهي لذلك تسمى ام القرى. ومنها بدأ تكوير الارض فهي مركز الارض.

إن قبول فكرة وجود آدم في جنته في وادي الرافدين فكرة منطقية ولا يسبب تبنيها اي تعارض مع نصوص صحيحة ودقيقة من أحاديث او معاني آيات قرآنية وقد عثر في وادي الرافدين على رقيم على شكل ختم اسطواني يعتقد انه يمثل فكرة جنة

---

(٧٠) انظر: ابن القيم / مفتاح السعادة / ص ١٩.

(٧١) انظر: السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ هـ / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / ج١ ص ١٣٩ / دار الفكر بيروت ١٩٨٣.

(٧٢) انظر: القرطبي / الجامع لاحكام القرآن / ج١ ص ٢٦٣.

آدم ومحفوظ حالياً في البريطاني بأسم « ختم الاغراء »[٧٣] وهذا يعزز القناعة بجذور تداخل حضارة وادي الرافدين مع القصة الدينية وبدايتها على ارض الرافدين ، ومن ثم كان إخراج آدم من هذه الجنة بعد الخطيئة واتجاهه نحو مكة أمر تعززه أحاديث كثيرة وآراء علماء مسلمين ، وكذلك لا يتعارض مع الاستنتاج الطبيعي والمنطقي . ولقد وردت روايات حول أقرب الانبياء لآدم هو شيت ، وهناك معلومات ضئيلة حوله وأحاديث قليلة لا نستطيع الجزم بصحتها منها حديث أبي ذر « ان الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف ، على شيت خمسين صحيفة . ومنها ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر أيضاً مرفوعاً « ان شيت كان نبياً وانزل عليه خمسين صحيفة »[٧٤] ، وبعد شيت وردت أخبار يرويها علماء التاريخ معظمها أو كلها مستقاة من أهل الكتاب وأخبار الفرس ولا سبيل الى تصديقها أو نفيها ويذكرها ابن كثير في قصص الانبياء والمسعودي في مروج الذهب[٧٥] . اما أدريس فقد ورد ذكره في القرآن في قوله تعالى ﴿ واذكر في الكتاب ادريس انه كان صديقاً نبياً ورفعناه مكاناً عليا ﴾[٧٦] . واختلف في عصره ومكانه وقيل اسم ادريس « اخنوخ ، والصابئة تزعم انه هو هرمس ، ومعنى هرمس عطارد »[٧٧] ـ إشارة الى قوله تعالى ﴿ ورفعناه مكاناً عليا ﴾ اي رفعه الى السماء ـ وقال بعض العلماء : « إن ادريس ولد ببابل ، وقد اخذ في اول عمره بعلم شيث بن آدم ولما كبر آتاه الله النبوة فنهىٰ المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث فأطاعه نفر قليل وخالفه جم غفير فأمر اتباعه بالهجرة فثقل عليهم ترك بابل فقال لهم : اذا هاجرنا رزقنا الله غيره ، فخرجوا حتى وصلوا مصر ورأى النيل فدعا الله وسبح ، وهو أول من رسم قواعد تمدين المدن »[٧٨] .

---

(٧٣) انظر : بارو / اندريه / سومر فنونها وحضارتها ترجمة د . عيسى سلمان وسليم طه التكريتي / ص ٨٥ ، بغداد / ١٩٧٨ .

(٧٤) انظر : ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٧٥) انظر : ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٥٨ والمسعودي / ابو الحسن علي بن الحسين ت٣٤٦ / مروج الذهب ومعادن الجوهر / ج١ ص ٣٨ وما بعدها / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .

(٧٦) سورة مريم آية ٥٦ / ٥٧ .

(٧٧) المسعودي / مروج الذهب / ج١ ص ٣٩ .

(٧٨) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٣٦ .

وقد وردت روايات بأن إدريس اول من خط بالقلم[٧٩] ، واذا صحت هذه الروايات فيمكن عد عصر ادريس عصر بداية الكتابة . والحقيقة ان الكتابة كاللغة حيث تعتبر اعظم حدث بعد اللغة تعلمه واكتسبه الانسان . وأقدم وثائق تتعلق بعصور فجر التاريخ تعود الى المجتمع السومري « وقد أظهر التنقيب الاثري الحديث التطور التدريجي في ما يتعلق بناحيتين متميزتين من المدينة السومرية : الكتابة والمعمار الديني (اي المتعلق بالهيكل) والعمل الخلاق كان اختراع الرموز[٨٠] (اي الإشارات الكتابية) . ان اي محاولة لمعرفة جذور التكون الحضاري وحل الاشكاليات العالقة في ذهن الباحثين حول نقطة البداية او جذر حضارة وادي الرافدين ، تعتبر هذه المحاولة ميئوس منها حتى وصل الحال ان أحد الباحثين ذكر : « ان سئل اي سومري أو أي أكدي عن ميلاد حضارته فلعله يجيب بكل بساطة : (انها نشأت هكذا) »[٨١] . وذكر فرنكفورت ذلك بقوله : « لن نتناول مسألة كيف أصبحت الحضارة في المطلق ممكنة ؟ لانني لا اعتقد ان هناك جواباً اكيداً عن هذا السؤال . ويقول في موضع آخر : اعتقد انه على المؤرخ ان يعتبر هذا السؤال تستحيل الاجابة عليه »[٨٢] .

طبقاً للنصوص القرآنية والحديثية وتفسيرات العلماء لها نخلص الى مفهوم حول المعرفة التي منحها الله الخالق الى آدم المخلوق استناداً الى قوله تعالى ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ﴾[٨٣] ، ما هو العلم الذ تعلمه آدم ؟ وما هي الاسماء التي تعلمها ؟ المسألة ليست سهلة التحليل والمعرفة . بل ان المعلومات المضغوطة في النص تكاد تحولها الى رمز للاسس المعرفية والاستعدادات والملكات العلمية التي منحها الله سبحانه وتعالى لآدم . « فقد وُهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات المدخرة كفاء ما في هذه الارض من قوى وطاقات ، وكنوز وخامات ، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الالهية ، وقد أودعه الله سر القدرة على

---

(٧٩) انظر : الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٣٥ رواية عن ابن اسحاق .

(٨٠) تويدبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٧٧ .

(٨١) انظر : ديفيد وجوان اوتيس / نشوء الحضارة ترجمة لطفي الخوري / ص ٢٩٤ / دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٨٨ .

(٨٢) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الادنى ترجمة ميخائيل خوري / ص ٩ - ١٣ .

(٨٣) سورة البقرة ٣١ .

الرمز بالاسماء للمسميات ، وهي قدرة ذات قيمة كبرى في حياة الانسان على الارض[٨٤] . لقد اعطى الله تعالى الانسان القدرة على الكلام ، وهذه القدرة لا يملكها غير الانسان من المخلوقات الحية . فكانت وسيلة الاتصال والتخاطب هذه هي السبب الاول في ربط الانسان مع أفراد مجتمعه ومثلت بداية الصفة الاجتماعية التي يمتاز بها الانسان عن باقي الحيوانات ، وكانت اللغة العامل المشترك بين البشر في كل زمان ومكان ولولاها لتعذرت إقامة مجتمعات مدنية وبناء الحضارات ثم تلت هذه القدرة كخطوة متقدمة الكتابة فقد استطاع الانسان بما منحه الله من استعداد للترقي وبما أهله للاستخلاف ان يرمز الى الاصوات بصور كتابية طورها الى حروف فكانت الكتابة واستناداً للبحوث الآثارية والدراسات الانثروبولوجية للسلوك الاجتماعي للانسان فقد توصل العلماء الى ان السومريين وهم سكان العراق القدامى اول من ابتدع الكتابة . واستناداً الى وثائق وجدت على شكل رقم طينية نستطيع ان نقول بأن العراقيين القدامى قد سبقوا غيرهم الى هذا الانجاز العظيم . ويذكر ماير بأن « ارض سومر كان يسكنها قوم يدعون بالسومريين وهم جنس غير سامي ولكنهم وجدوا على هذه الارض وامتزجوا بالاكديين (الساميين) وكانوا يمتلكون نظاماً للكتابة وفنوناً أخرى وثقافة متطورة ، وقد استوطنوا في حوض نهر الفرات وكونوا نواة الحضارة »[٨٥] . وقد كان هؤلاء السومريون يكتبون على الواح طينية وهي رطبة ثم تجفف على أشعة الشمس لعدة أيام ومن ثم يحتفظ بها كالواح تشبه الالواح الخشبية وكانت هذه الالواح تتضمن خطابات ومراسلات ملكية ونصوص دينية ومعاملات تجارية ، وقد شاع استعمالها قبل ٣٠٠٠ ق . م . وقد استطاع العلماء ان يتابعوا تطور نظام الكتابة السومري من الكتابة الصورية اذ كانت تكتب الكلمات على شكل صور تعبر عن المعنى ثم تطورت الى إشارات رمزية ترمز الى معنى الكلمة . والتي يعبر عنها (برسم الفكرة) او (الفكرة المرسومة ideograph) . وتبقى بداية الكتابة مجهولة التاريخ »[٨٦] ، ولكن المؤكد إنها بدأت على أرض الرافدين وانهم

---

(٨٤) قطب / سيد / في ظلال القرآن / ج١ ص ٥٦ ـ ٥٧ / دار الشروق بيروت ط ١١ ١٩٨٥ .

(٨٥) MYERS/ Philip Van ness/ Ancient history/ p. 50 Boston, USA 1916/ Second Ed. 2-

(٨٦) C.E. Van Sickle/ Apolitical and cultural history/ of the Ancient world V. 1 p. 43/ Houghton MIFFLIN Company USA 1947.

نقلوها الى وادي النيل ، ولا خلاف بين المؤرخين على ذلك الا ان الدكتور احمد فخري ينفي هذا التأثير ويؤكد بأن الكتابة في مصر مستقلة عن الكتابة السومرية ونشأت موازية لها ومستقلة عنها[87] . ولكن توينبي يقول « ان أقوى دليل على التأثير السومري على الكتابة المصرية هو ظهورها المفاجيء عكس الكتابة السومرية وما عرفناه عنها من تطور تدريجي من السابقة الصورية . وهذا أقوى دليل منفرد يشير الى ان التأثير السومري كان أحد العوامل التي أدت الى ولادة المدنية المصرية الفرعونية[88] . ان اللغة والكتابة أمران معقدان لا سبيل الى معرفة جذورهما بصورة دقيقة وقد ذهب بعض العلماء المسلمين الى ان اللغة توقيفية اي بتعليم من الله والهام . وكذلك الكتابة فقد جاء في القرآن الكريم ﴿ إقرأ وربك الاكرم * الذي علّم بالقلم * علّم الانسان ما لم يعلم ﴾[89] ، هذا النص القرآني ربط بين القراءة وهي نطق يعبر عن اللغة والكتابة بالقلم وجعل مصدرها من الله تعالى واذا كان آدم عليه السلام قد علمه الله تعالى القابلية على النطق بأسماء الاشياء تطورت هذه القابلية حتى وصلت الى عصر ادريس عليه السلام بعد شيث الى الكتابة ورسم الفكرة (ideograph) وقد وردت روايات تذكر بأن ادريس عليه السلام هاجر من بابل الى مصر[90] ، وليس من المستبعد ان يكون ادريس عليه السلام هو الذي نقل أسلوب الكتابة الى مصر . وقد وجدت أختام أسطوانية في مصر مستوردة من بلاد ما بين النهرين[91] كدليل مادي على انتقال الكتابة من العراق الى مصر . ويبدو ان الكتابة على الالواح بقيت حتى عصر موسى عليه السلام بحدود القرن ١٥ ق.م ، فقد ورد نص في القرآن الكريم يذكر هذه الحقيقة وهو قوله تعالى حكاية عن موسى ﴿ وأخذ الألواح في نسختها هدى ورحمة ﴾[92] .

---

(٨٧) انظر : كريمر / صاموئيل / الواح سومر ترجمة طه باقر/ المقدمة ص ٤١ .

(٨٨) توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٨٣ .

(٨٩) سورة العلق / ٣/٤/٥ .

(٩٠) انظر : النجار / قصص الانبياء / ص ٢٦ عن النبوة والانبياء للصابوني ص ٢٣٦ .

(٩١) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الادنى / ص ١٠٣ .

(٩٢) سورة الاعراف آية ١٥٤ .

أهمية الملابس في قصة آدم :

ورد في قصة آدم ذكر الملابس وارتباطها بالحياة الانسانية وقد ذكرت الرواية القرآنية إن إبليس أغرى آدم وزوجه بنزع اللباس الامر الذي يعطي انطباعاً بأن الفطرة الاسلامية التي فطر الله الانسان عليها مرتبطة بالملابس التي تستر العورة وقد وضحت الرواية القرآنية ان الملابس مظهر من مظاهر الانسان المكرم .

وقد وجدت آثار وصور تؤكد ارتباط الانسان بالملابس في حضارة وادي الرافدين حيث وجد الانسان العراقي القديم (السومريون) وهو يرتدي الملابس وفي أقدم صور ونقوش للانسان القديم أكدت ارتباط الانسان بالملابس وستر العورة ويقول برستد حول السومريين « وجلُ ما لدينا عنهم هو وجدنا صورهم على الآثار القديمة محلوقي الرؤوس وعليهم نقب (تنورات) من الصوف الخشن . ومنذ عهدٍ عريق في القدم حين كانوا لايزالون يستعملون الادوات الحجرية »[٩٣] ، وكذلك ذكر سيكل « السومريون لا نعرف عنهم اكثر من انهم حالقي رؤوسهم يلتفون بتنورات صوفية[٩٤] . حسب نتائج البحوث الآثارية ان القدماء كانوا يرتدون الملابس ، ولكن متى بدأ الانسان يلبس الملابس ؟ القرآن الكريم تصدى لهذه القضية وربط بينها وبين حال الانسان مع الله وقد عرض القرآن كذلك ان انكشاف السوءة كان بوحي الشيطان وقد ربط القرآن بين قضية اللباس وستر العورة والخطيئة الاولى عندما أكل آدم وزوجه من الشجرة وبذلك كانت الملابس مظهر من مظاهر الاستخلاف الحضاري ، قال تعالى **﴿ فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ... ﴾**[٩٥] ، هذا النص يعلمنا بأن فطرة الانسان مجبولة على ستر العورة فانهما بعد المعصية أحسا وشعرا بما يملكان من سوءات قد انكشفت « فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه في بعض (يخصفان) ويضعان هذا الورق المشبك على سوأتهما ، مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي يخجل الانسان فطرة من تعريها »[٩٦] .

---

(٩٣) براستد / د. جايمس هنري / العصور القديمة ، ترجمة داود قربان / ص ٨١ .

(٩٤) C. E. Van Sickle/ History of the ancient world/ p. 40.

(٩٥) سورة الاعراف : ٢٢ .

(٩٦) قطب / سيد / في ظلال القرآن / ج٣ ص ١٢٦٩ .

وفي نص قرآني آخر ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون * يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾[٩٧] ، النص القرآني واضح لا يقبل اللبس حين يعلن بأن الله عندما خلق الانسان خلقه مكرماً مميزاً عن الحيوان فكانت الفطرة تتفق مع طبيعة الوظيفة التي هُيأ لها الانسان وكان الاصل والبداية ستر العورة والانحراف هو العري « ان العري فطرة حيوانية ولا يميل الانسان اليه الا وهو يرتكس الى مرتبة أدنى من مرتبة الانسان وان رؤية العري جمالًا هو انتكاس في الذوق البشري قطعاً . والاسلام حين يدخل بحضارته الى هذه المناطق يكون اول مظاهر الحضارة اكتساء العراة[٩٨] ، ولذلك نحن على يقين بان الصور التي وجدت في حفريات السومريين ومخلفاتهم وهم يسترون عوراتهم انما كان من تأثير النبوات ودعوات الانبياء ويؤكد لنا كذلك هذا الامر بأن الوظيفة الحضارية للانسان كان مصدرها التكريم الرباني واتساق هذا الكائن مع ارادة الله لكي يؤدي وظيفة الخلافة على الارض وان ارتداد البشرية نحو الحيوانية كان بإغراء الشيطان عندما نزع لباس الانسان ورغب لهم الانتكاس نحو الوظيفة البيولوجية الحيوانية والتخلي عن الوظيفة الروحية لارتداء لباس التقوى فكان العري والوثنية مرتبطين ارتباطاً وثيقاً وكان الحياء والتقوى من مظاهر الحضارة . وقد أثبتت الدراسات الآثارية ان الانسان العاقل في العصور الحجرية قد ارتدى الملابس (ولا ريب في ان ملابسه كانت من الجلود والياف النباتات لا من المنسوجات وان اوعيته كانت من الحجارة والعظام لا من الفخار والمعادن)[٩٩] .

ان نبوة آدم كانت الانطلاقة الاولى نحو بناء حضاري انساني مرتبط بالسماء وكانت البداية التي أتاحت للانسان الانطلاق نحو تسخير الموجودات التي حوله . واذا كان العلم الحديث عاجز عن معرفة أصل الانسان الواعي ومتى بدأت رحلة وجوده على الارض فإننا نجد الاجابة عن أصل الانسان في القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . لقد كانت البداية منذ الاعلان الرباني في

---

(٩٧) سورة الاعراف : ٢٦ ـ ٢٧ .

(٩٨) قطب / سيد / في ظلال القرآن / ج٣ ص ١٢٧٥ .

(٩٩) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / ص ١٤ .

الملأ الاعلى عن استخلاف الانسان ﴿ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ﴾[100] ، وبعد الاستخلاف وضع القرآن الكريم الاساس الصحيح للبناء الحضاري وأكد ان الحضارة الحقيقية والقيم الحقيقية هي الحضارة المستمدة من تعاليم السماء لضمان مسيرة الانسان على الارض بسلام ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[101] . اذاً نبوة آدم الاصل الانساني لهذا الكائن المتفرد . وعلى الارض كانت التجربة الاولى للانسان مع السماء واستمرت المسيرة ترعاها السماء من خلال الانبياء والرسل . وكانت الاستجابات الطبيعية للفطرة التي فُطر عليها الانسان تمثل نقاط انطلاق نحو تطوير الواقع وبما يملك الانسان من استعدادات أوجدها الله فيه كانت الحياة تتطور نحو الاستغلال والتسخير الامثل للارض وما عليها . التي تمثل البيئة التي يعيش فيها الانسان لقد كانت أولى الخطوات التي خطاها الانسان على الارض والتي تمثل استعداده لتسخير ما حوله عبر عنها بالصيد الذي كان يمثل المرحلة الاولى من حياة الانسان الذي استخدم عقله وطوّر وسائله للصيد والدفاع عن نفسه ثم تطورت فعالياته نحو الزراعة وتسخير الارض ثم تدجين الحيوانات كالغنم والماعز ثم تطورت الى صناعة الفخاريات وغيرها .

لقد كانت طبيعة الخلق التي امتاز بها الانسان تؤهله للقيام بدور عظيم على الارض . وقد ميز الخالق هذا المخلوق عن باقي المخلوقات في نقاط عديدة لعل ابسطها اختلافه عن الحيوانات في تكوينه الحيواني (البايولوجي) فقد امتازت منذ اللحظات الاولى عن باقي الحيوانات بكبر حجم الجمجمة وشكل العمود الفقري بل حتى عظامه كلها تختلف عن عظام الحيوانات الاخرى وكذلك التقوس في باطن القدم الذي يؤهله للمشي على القدمين . ثم امتاز الانسان بطاقات وملكات اودعها الخالق فيه مكنته لأن يقفز في الخط الاول للسيادة على الارض وما عليها من موجودات اول هذه الطاقات هي اللغة الوسيلة التي امتاز بها الانسان على جميع الحيوانات وتفرد بكونه الحيوان الناطق الوحيد . ثم تطورت اللغة الى الكتابة التي تعبر عن عمل ابداعي راقٍ لعقل الانسان .

---

(١٠٠) سورة البقرة : ٣٠ .

(١٠١) سورة البقرة : ٣٨ ـ ٣٩ .

ولعل أهم امتياز وأرقاه هو العقل أو الوعي وهو غير الدماغ كما اثبت العلم ذلك هو جوهر الانسان وسماه القرآن الكريم الفؤاد ﴿ قل هو الذي جعل لكم السمع والابصار والافئدة ﴾[١٠٢] ، وسماه القلب ﴿ أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ﴾[١٠٣] ، قلب الانسان وعيه بذاته وهو الطاقة التي منحها الله للانسان وبها استطاع الانسان ان يطور قابلياته ويزداد تمكيناً في السيطرة على مقدرات الارض . هذه الطاقات التي ميزت الانسان لا يزال العلم على ما بلغه من تطور يقف عاجزاً لان يجد تفسيراً لها وكيفية تكوينها وظهورها الى عالم الانسان . فاللغة لا يوجد تفسير علمي لتميز الانسان بها ولكن القرآن الكريم وضح لنا أساسها ﴿ وعلّم آدم الاسماء كلها ﴾[١٠٤] . يجهل التاريخ كيف استطاع الانسان أن يصل في ابداعه الى الكتابة والقرآن الكريم وضح لنا بأنها استعداد يملكه الانسان لتطوير معلوماته ﴿ علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم... ﴾[١٠٥] .

لقد تطورت الحياة وتعقدت صورها بمر السنين ولكن الله سبحانه وتعالى لم يترك الانسان ﴿ وان من أمة الا خلا فيها نذير ﴾[١٠٦] ، وشهدت ارض العراق أقدم المدنيات والحضارات وسبق المجتمع العراقي القديم كلّ مجتمعات الارض من تمكنه من ترويض الطبيعة والسيطرة على مياه الانهار (دجلة والفرات) : « والمدنية السومرية هي اقدم المدنيات الاقليمية التي نملك وثائق تتعلق بها . وهي ايضاً الوحيدة التي من المؤكد انها تطورت عن مجتمع او مجتمعات ما قبل المدنية والتي لم تنقل عن اي مجتمع شبيه بها كان كان قائماً قبل ذلك . بل ولم تكن نتيجة ايحاء من اي مجتمع من هذا النوع »[١٠٧] . لقد حفظ السومريون لنا انعكاسات وأصداء ما

---

(١٠٢) سورة تبارك : ٢٣ . (هناك تحليلات ودراسات تقول ان للانسان جسماً آخر مكوناً من مادة امكن تصويرها بواسطة اشعة خاصة اظهرتها مضيئة وهي ما تسمى بالهالة (Aura) ومركزها القلب) . انظر كتاب الانسان ذلك المخلوق العجيب / د . سمير يحيى جمال / ص ٤١ .

(١٠٣) سورة الحج : ٤٦ .

(١٠٤) سورة البقرة / ٣١ .

(١٠٥) سورة العلق : ٤ ـ ٥ .

(١٠٦) سورة فاطر : ٢٤ .

(١٠٧) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / جـ١ ص ٧٧ .

قبل التاريخ من خلال الرقم الطينية التي تعد من اعظم الوثائق التي ساعدتنا على التعرف على طبيعة حياة المجتمعات القديمة وعلى معتقدات الانسان القديم ومستوى تفكيره . كذلك لقد ساعدتنا مخلفات السومريين على النجاح في ربط النقاط الغامضة في التاريخ القديم واستطعنا من خلال تحليل هذه الآثار والمخلفات من ايجاد تصورات منطقية مترابطة حول كثير من النقاط التي كانت غامضة بخاصة فيما يتعلق بنصوص القرآن الكريم التي تعرضت لفترات التاريخ القديم والاشكاليات المتولدة من المقارنة بين روايات القرآن الكريم وروايات الرقم الطينية ورواية العهد القديم (التوراة) .

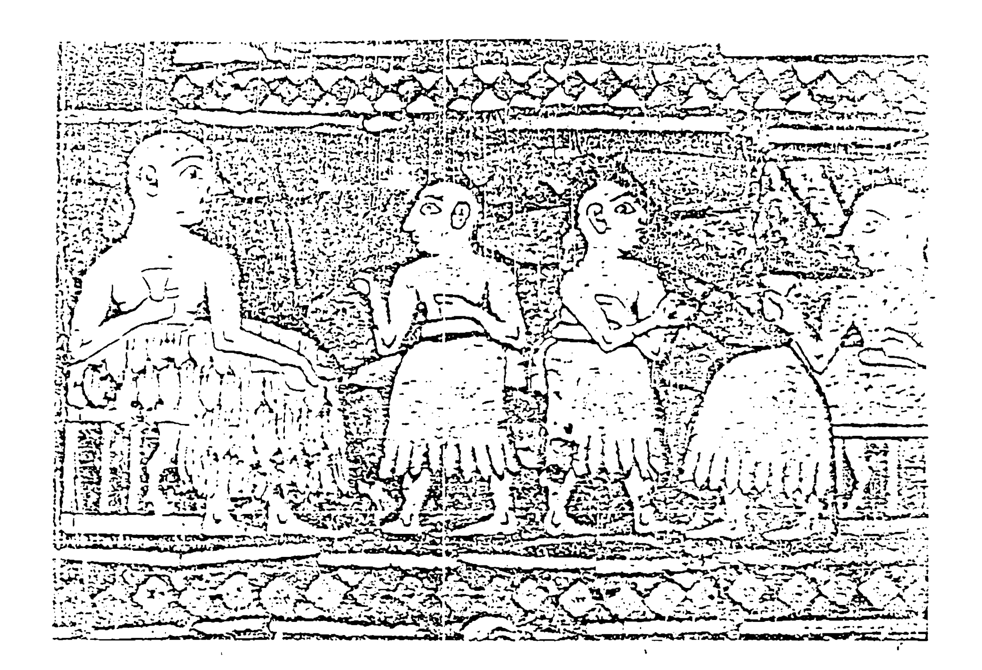
وقامت في الغرب دراسات عديدة مقارنة بين التوراة والآثار . فكانت الحاجة ملحة لإدخال القرآن الكريم مصدراً من المصادر المهمة التي تعيننا على التعرف على نشاط الانسان على الارض في العصور القديمة وفجر التاريخ وحتى ما قبل التاريخ خصوصاً فيما يتعلق بالانبياء وعصورهم وبداية الخليقة وتكون السماوات والارض وتخليقها بأمر الله سبحانه وتعالى ﴿ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾[108] .

ان اصل العراقيين القدماء وما يسمون بالسومريين لا يزال مثار جدل وقضية تعددت حولها الآراء « لقد اصبح السومريون مسألة عويصة حتى ان المعنيين بحضارة العراق القديم صاروا يسمونها بـ (المشكلة السومرية) ومنذ الثلاثينيات والنقاش محتدم بين المستشرقين المختصين بالكتابات المسمارية وآثاريين حول هذه المشكلة دون التوصل الى نتيجة حاسمة تحظى بقبول الغالبية » [109] .

---

(١٠٨) سورة السجدة / ٧ ـ ٨ .

(١٠٩) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٢٦ .



١٧٨ - اور : الراية السلام تفصيلية منظر تقديم الماء المقدس (النصف الاول من الالف الثالث المتحف البريطاني .

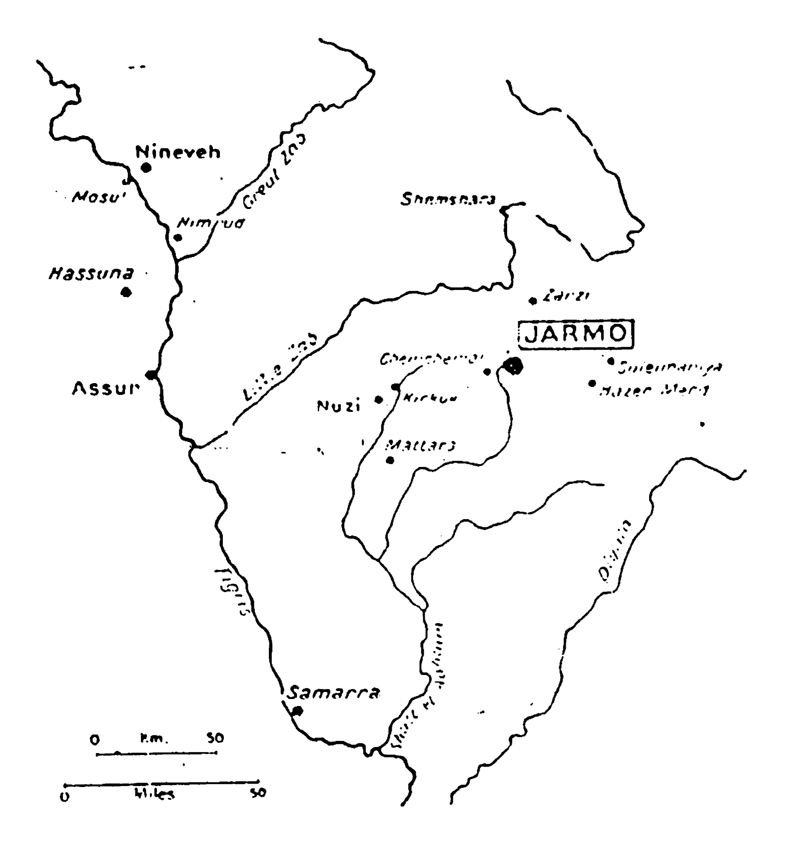
بارو/ اندريه / سومر فنونها حضارتها ص

شكل يمثل السومريين وهم يرتدون التنورات وهو ما يؤكد ان الانسان قد ارتبط بالملابس منذ بداية مسيرة الوعي والتكريم التي بدأها آدم عليه السلام وقد دلت التنقيبات والمكتشفات الاثرية على قدم استخدام الملابس وستر العورة بالنسبة للانسان القديم



شكل يمثل رجل وأمامه امرأة وبينهما نخلة والمرأة والرجل قد مدّا يديهما لتناول الثمرة من الشجرة وخلف المرأة الحية . ويعتقد ان هذا الرسم يعبر عن جنة آدم (المتحف البريطاني)

بارو/ اندريه/ سومر فنونها حضارتها ص ٨٥



خارطة تمثل القسم الشمالي من بلاد وادي الرافدين
موضحاً فيها قرية جرمو وموقعها التي يعتقد أنها أقدم قرية

بارو/ اندريه/ سومر فنونها حضارتها ص

المبحث الثالث

قابيـل وهابيـل

بقيت حادثة لها دلالتها وقريبة الصلة بعصر آدم عليه السلام ووقعت أحداثها كما تشير الروايات التاريخية على ارض العراق هذه الحادثة ذكرها القرآن الكريم ولها دلالتها وآثارها في حياة الانسان على الارض . وهي حادثة اول جريمة ارتكبت على الارض بعد الاستخلاف وتلقي المنهج الالهي وهي الحادثة التي قتل فيها أحد ابني آدم أخاه نتيجة لحقد تولد في قلبه من مرض نفسي وانحراف عن الفطرة بسبب الحسد . وقد ذكرت هذه القصة في العهد القديم وقد غلب على رواية التوراة اسلوب قصصي مبسط غير هادف وانما يغلب عليه أسلوب الرواية وتدخل هذه الرواية في تفاصيل وتشعبات في أسماء ومسميات الشخصيات دون التركيز على الحدث ومن يتأملها يجد شخصية الراوي قد انطبعت على صياغة القصة . على عكس الرواية القرآنية فهي رواية تربوية هادفة ركزت على جوهر قضية وهي العبادة وتقديمة القربان وقبوله من الله تعالى فقد وضحت العلاقة بين الانسان والاله ، بين العبد والمعبود . ثم عكست سلوكيات الانسان تجاه الانسان في قضية الصراع بين الخير والشر ، وقد أعطى القرآن مفهوماً تربوياً للانسان وهو يتعامل مع الانسان في علاقاته الاجتماعية كلها . ان هذا الحدث ورد في العهد القديم في جوهر الحدث التاريخي كواقعة حصلت بين ابني آدم ، ولكن القرآن الكريم اختلف مع العهد القديم في التفاصيل والصياغة اي ان القرآن الكريم اختلف اسلوباً وهدفاً . وقد فسر السير ويلكوكس هذا الحدث تفسيراً مادياً بعيداً عن القيم الدينية في معرض حديثه عن رواية العهد القديم . فقد ذكر ان سبب الحدث هو الصراع على الماء بين الفلاحين والرعاة ، ويدل على استمرار

تلك الخصومة بسبب تخريب السدود من حين الى آخر ، وما ورد في العهد القديم من ان الله كان يقبل قرابين هابيل ويزدري بقابيل وقرابينه ويظهر ذلك ان النضال بين الاخوين بلغ شدته فظن قابيل مرة ان اخاه قام بكسر السدود فعدا عليه ودنس يده فقتله[110] .

نذكر ادناه نصوص القصة كما وردت في العهد القديم والقرآن الكريم وسنقارن بين النصين . ورد في العهد القديم سفر التكوين الاصحاح (٤) ما يأتي : « أما قابيل فقد عمل في فلاحة الارض ، وحدث بعد مرور ايام ان قدم قابيل من ثمار الارض قرباناً للرب ، وقدم هابيل ايضاً من خيرة أبكار غنمه وأسمنها ، فتقبل الرب قربان هابيل ورضي عنه فاغتاظ قابيل جداً وتجهم وجهه كمداً ، فسأل الرب قابيل : (لماذا اغتظت ؟ لماذا تجهم وجهك ؟ لو أحسنت في تصرفك ألا يشرق وجهك فرحاً ؟ وان لم تحسن التصرف فعند الباب خطيئة تنتظرك تتشوق ان تتسلط عليك ، لكن يجب ان تتحكم فيها . وعاد قابيل يتظاهر بالود لاخيه هابيل وحدث اذ كانا معاً في الحقل أن قابيل هجم على أخيه هابيل فقتله »[111] .

ولنقرأ النص في القرآن الكريم ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين لئن بسطت الى يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين اني اريد ان تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين فبعث الله غراباً يبحث في الارض ليريه كيف يواري سوءة أخيه قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين ﴾[112] .

لو قارنا بين النصين سنجد ما يأتي :ـ

١ ـ ذكر العهد القديم اسمي ابني آدم ولم يذكر النص القرآني الاسمين ، وعدم ذكر الاسماء يدل على تركيز القرآن على الفعل لا على الشخص ، ولذلك رتب القرآن المسؤولية على الفعل وكذلك القرب من الله وترقي الانسان مرتب على العمل ايضاً وإخلاص النية . وقد برر النص القرآني قبول العمل على التقوى

---

(١١٠) ويلكوكس / السير وليم / من جنة عدن / ص ١٧ .

(١١١) الكتاب المقدس / العهد القديم / التكوين / ٤ / ص ٥ .

(١١٢) سورة المائدة : ٢٧ ـ ٣١ .

﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ ولم يتطرق نص التوراة الى هذا المعني .

٢ - ركز النص القرآني على الحوار بين الاخوين وأعطى للموقف الصحيح تأثيراً يدفع الانسان للتطلع نحو التسامح وحب الخير مما يدفع الحياة نحو الحالة الايجابية رغم سطوة الظلم وقسوته ، ويبقى الظلم مستقطباً اسود لا يمنح الحياة إشعاعاً ونوراً بل يحفزها نحو الانكماش والتوقف عن الابداع . ولم يركز النص التوراتي على هذه القضية .

٣ - دل النص القرآني من خلال تركيزه على الحوار على وجود معاني الايمان بالآخرة والجنة والنار والإثم المتولد من الخطيئة وعاقبة الظالمين . كل هذه المعاني كلها تؤكد أثر نبوة آدم عليه السلام في الحياة والمجتمع وبقائها تؤثر على الناس في فجر الانسانية . وتؤكد الآيات القرآنية كذلك ان هذه الجريمة اول خروج وتمرد على تعاليم الانبياء التي حملوها الى البشر وأوحاها الله اليهم . في حين غابت هذه المعاني عن نص العهد القديم .

٤ - يشترك النص القرآني مع نص العهد القديم في إثبات أول انواع العبادات التي شرعها الله للبشر ، وهي تقديم القرابين تعبيراً عن ارتباط الانسان بالخالق من خلال ممارسة هذه العبادة . ويبدو ان هذه العبادة قد أصابها التشويه والتحريف والتغيير شأن الانسان دائماً في إيمانه الذي يتحول بمرور الزمن من التوحيد الى الاشراك مع الخالق بسبب الضعف والجهل وغواية الشيطان وبمرور الزمن يتحول الناس بالاتجاه الخاطىء فيرسل الله تعالى من الانبياء والرسل يصححون مسيرة الانسان . وقد دلت الآثار على وجود مذابح في جميع المعابد المكتشفة .

٥ - نص العهد القديم يعكس وجود إصرار على الخطيئة ، وان هذه الخطيئة موجودة . وجعل النص من قابيل يحتال ويتظاهر بالود لكي يظفر بفرصة يقتل فيها أخاه ، وهذا المعنى يدفع القارىء للاعتقاد بالجبرية وان الشر متأصل في الانسان ، في حين ان النص القرآني يصور انفعالًا آنياً ولحظة حقد وحسد سيطرت على الأخ لم يستطع معها ان يقاوم الفجور الكامن في النفس وارتكب الجريمة على أثرها بسبب فشله في الابتلاء وعجزه عن كبت الحقد . وهذا يعكس لنا أن صراعاً حدث في داخل النفس يدل عليه صيغة التهديد ﴿ لأقتلنك ﴾ ويصور لنا النص نفسية المؤمن المسلم الذي يمتلك ايماناً

وخوفاً من الله يجعله يرتفع عن المستوى الحيواني الذي سيطر على الآخر .

٦ - لم يذكر النص التوراتي قصة الغراب بينما ذكر النص القرآني حادثة الغراب هذه وفي هذا اشارة الى ان هذه الحادثة كانت قبل أن يشيع الدفن ويتعلم الانسان كيف يدفن موتاه ، وكذلك تؤكد لنا قصة الغراب قضية قدم الحادثة وقربها من فجر التاريخ (اي قبل التاريخ) . وكذلك اكد لنا النص القرآني بأن الانسان كان يتعلم ويقلد الحيوانات سواء في السلوك أم في الاصوات وغيرها . وكذلك عادة دفن الموتى التي بدأت على أرض العراق كانت تمثل استجابة قابيل الاولى في دفن جثة أخيه وكان الغرض منها دفن الجثة والتخلص من التحلل الذي يصيب الجسد وعبر عنها القرآن الكريم بقوله ﴿ كيف يواري سوءة أخيه ﴾[١١٣] ثم تحولت هذه الطريقة الى ان يدفن مع الميت من الطعام والكنوز بل قد يدفن معه أحياء من نساء وعبيد ، هذا التغيير في طريقة الدفن ليس بمستغرب لأن الانسان الذي يبتعد عن تعاليم الدين يستسلم لعواطفه واهوائه كما نرى في طريقة دفن الموتى اليوم . ولذلك عندما كان العراقيون القدامى يدفنون موتاهم لم يكونوا يدفنون معهم من الحلي والكنوز كما كان يفعل المصريون القدامى ، ذكر ذلك برستد[١١٤] . يذكر الآثاريون أن انسان نياندرتال أول من دفن الموتى[١١٥] وقد وجدت في كهف شانيدر في قبر بذور أزهار برية مما يشير بأن المدفون شخص عزيز وضع دافنه في قبره بعض الازهار البرية تعبيراً عن الود[١١٦] .

لابد ان نذكر ونحن بصدد تحليل هذه القصة والمقارنة بين العهد القديم والقرآن الكريم ، ان هذه القصة وبتفاصيل قريبة قد وجدت على رقم طينية تحكي تراثاً سومرياً في أدب المناظرة بين الفلاح والراعي ، وقضية تقديم القرابين والصراع بين الاخوة[١١٧] . إن التغييرات في بعض التفاصيل لا تؤثر على حقيقة تفرض نفسها وهي

---

(١١٣) سورة المائدة / ٣١ .

(١١٤) انظر براستد / د . جايمس هنري / العصور القديمة ، ترجمة داود قربان / ص ٨٥ .

(١١٥) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / ص ١٢ .

(١١٦) Solecky. R.: Shanidar "Iche Flawer poeqsle".

(١١٧) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر / ص ٢٨١ - ٢٩١ ، وكذلك كريمر / ←

أن الايمان بوقوع هذه الحادثة في فجر تاريخ البشرية قد أصبح حقيقة ويقيناً بالنسبة لكل دارس للتاريخ القديم ، ولكن بالنسبة لنا كمسلمين ونحن نتطلع الى النص القرآني عند قوله تعالى ﴿ واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ﴾ نعلم انه الحق المبين وبذلك يزداد ايمان المؤمنين . ونزداد يقيناً باهمية القرآن الكريم كمصدر لمعرفة التاريخ القديم . آخر قضية يمكن إثارتها ونحن نسير من عمق التاريخ وتتحرك من عصور ما قبل التاريخ باتجاه عصر فجر التاريخ مع الانسان الواعي الذي توقفنا عنده وحللنا نتائج بحوث العلماء المتخصصين في مجالات البحث عن أصل الانسان والتاريخ القديم ، وكذلك درسنا نصوص القرآن ومعطياتها حول بداية عصر الانسان الواعي منذ آدم عليه السلام .

← صاموئيل / من الواح سومر / ص ٢٢٥ - ٢٣٧ .

المبحث الرابع

أثر النبوات في حضارة وادي الرافدين

إن أصل الحضارة متوافق مع منهج الله ثم يحدث التراجع ومما يؤكد هذا الاستنتاج ما اكتشفه الآثاريون من رقم طينية توضح عقائد الانسان القديم وافكاره وكيف كان مستوى تفكيره ونظرته الى الكون والحياة، لقد وجد في مخلفات السومريين من الرقم الطينية ما يؤكد ان عقيدة العراقيين القدماء أساسها تراث الانبياء وسنعقد مقارنة بين ما استطاع علماء الآثارالتوصل اليه ممن استطاع ان يقرأ ما كتبه العراقيون القدامى (علماء المسماريات) وبين ما قرره القرآن الكريم من مسائل عقائدية وحقائق تاريخية . وبذلك نستطيع ان نقول بأن حضارة وادي الرافدين وأي حضارة قامت على الارض لم تكن وليدة الفراغ او الانقطاع بل كانت نتاج تفاعل المجتمع مع الرسالات السماوية واننا حينما نذكر الحضارة العراقية بسبب اجماع علماء الآثار والمؤرخين على انها أقدم حضارة عرفتها البشرية وامتازت بشموليتها وعالميتها ، وقد كشفت التنقيبات عن تأثير هذه الحضارة على حضارات عديدة فقد انتقلت تأثيرات حضارة وادي الرافدين في كل الاتجاهات الى « ايران وبلاد اورارتو (أرمينيا) في الشرق والشمال الشرقي والى بلدان الخليج العربي في الجنوب والى سوريا وفلسطين ومصر في الغرب والى بلاد الاناضول واليونان باتجاه الشمال والشمال الغربي[١١٨] . ان تحليلنا لعقائد سكان وادي الرافدين القدماء يؤكد لنا بأن هذه العقائد بقايا نبوات لان العقل البشري لا يستطيع ان يبتدع عقيدة . وهذه

---

(١١٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ١٧٣ .

العقيدة موجودة في الكتب المقدسة والقرآن الكريم على الخصوص . لقد غلب على ظن كثير من الباحثين ان المسألة معكوسة اذ فرضوا بأن الكتب المقدسة قد تأثرت بالموروث السومري ولو كانت هذه العقائد اسطورية المعنى لكان هذا الامر مقبولًا ولكن بعد تقدم العلم الحديث تأكد بأن هذه العقائد حقيقية ويقين لا سبيل الى إنكاره(١١٩) .

ولعل أهم العقائد السومرية التي كانت سائدة وتؤثر على الحياة في وادي الرافدين وعالمياً ، هذه العقائد هي :-

١ - الاعتقاد بأن المياة الازلية (في السومرية AbZu) كانت أصلًا للوجود .

٢ - الاعتقاد بأن الكون (An-Ki) كان في الاصل كتلة واحدة وانه شطر فيما بعد الى شطرين هما السماء (an) والارض (ki) .

٣ - ان الانسان خلق من طين (حسب الرواية السومرية) ومن طين ممزوج بدم أحد الآلهة (حسب الرواية البابلية) وان خلقه كان على صورة ذكر وأنثى منذ البدء .

٤ - ان الانسان خلق من أجل ان يعبد الآلهة ويقيم معابدها ويخصها بالنذور والقرابين .

٥ - ان الموت مصير كل انسان ولا يخلد سوى الآلهة .

٦ - خلع البابليون على كبير أربابهم مردوخ أسماء عديدة للتعظيم والتمجيد بلغ عددها خمسين اسماً .

٧ - اعتقد البابليون بأنه كان لـ (كلمة) كبير آلهتهم مردوخ قدرة على فعل كل شيء سواء في الخلق أم في الفناء(١٢٠) .

هذه خلاصة لأهم معتقدات العراقيين القدماء ، ولو وضعنا أمام كل فقرة أعلاه آية من القرآن الكريم توافق معناها لم نجد عناءً في ذلك .

فلو تأملنا هذه المعتقدات لوجدنا ان لها أصلًا مع معاني آيات في القرآن الكريم وكما يأتي :-

---

(١١٩) انظر موريس بوكاي وكتبه ١) أصل الانسان ، ٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ، هذه الكتب تؤكد ما ذهبنا اليه ، وانظر كذلك موريسن وكتابه العلم يدعو للايمان وكتب غيرهم كثيرة تؤكد هذه الحقيقة .

(١٢٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ١٠٨ .

١ - الماء أصل الحياة في القرآن الكريم ذكر في الآية الآتية وهي الآية التي تؤكد أصل الكون الواحد ﴿ أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي ﴾[١٢١] .

٢ - خلق الانسان من طين ذكر في أكثر من آية ﴿ وبدأ خلق الانسان من طين ﴾ ، ﴿ اني خالق بشراً من طين ﴾ . وكذلك يمكن تعديل التصور البابلي مع قوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحي ﴾ تعديل مزج دم الآلهة بنفخة الروح الآلهية . وكذلك بداية الخلق كان من ذكر وانثى ودليل الزوجية هذا أحد الادلة على حاجة الحياة لزوج (ذكر وانثى) للاستمرار وهذا دليل على ان الانسان خلقه الله وفق نظام الزوجية . فهو خلق مقصود لا مكان للصدفة ولا للعبث والعشوائية في وجوده . ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ﴾[١٢٢] ، قال المفسرون (ذكر وانثى) هما آدم وحواء[١٢٣] .

٣ - العقيدة الرابعة (ان الانسان خلق من أجل أن يعبد الآلهة) ذكره القرآن الكريم بصيغة التوحيد وليس الاشراك مع الله بآلهة أخرى كما كان يشرك القدماء ﴿ وما خلقت الجن والأنس الا ليعبدون ﴾[١٢٤] .

٤ - الموت مصير البشر ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾ ، ﴿ كل شيء هالك الا وجهه ﴾ .

٥ - وجود الاسماء الحسنى لله عقيدة قديمة نجدها عند السومريين والبابليين القدماء ﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾ .

٦ - الكلمة الكونية الربانية ليست غائبة في عقيدة البشر ولم تغب يوماً ﴿ اذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[١٢٥] .

لقد حوى تراب الرافدين بذور النبوة والانبياء فمنه يتطلع الانسان الى قصة الانسان

---

(١٢١) سورة الانبياء / ٣٠ .

(١٢٢) سورة الحجرات : ١٣ .

(١٢٣) ابن كثير/ ابو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤هـ/ ج٤ ص ٢١٧ / دار المعرفة بيروت ١٩٦٩ .

(١٢٤) سورة الذاريات : ٥٦ .

(١٢٥) سورة مريم / ٣٥ .

الاول والمجتمع الاول والحضارة الاولى والمدنية الاولى اذ رسم الحق تعالى خطوات المسيرة الاولى وتركت آثارها وبصماتها على الحياة الانسانية على الارض . وعلى أرضه نسجت قصة الطوفان الاول حيث البداية الثانية لمسيرة الانسان مع نبي الله نوح عليه السلام وقد ترددت قبله أصداء الانبياء والصالحين من شيت ابن آدم وادريس وما ذكر من أسماء الصالحين ود ويغوث ويعوق ونسرا . على هذه الارض أسرار تاريخ الانسان كما ذكر مالوان في مذكراته عندما كان ينقب في العراق « كانت الرفوف في غرفة الجلوس تضم مكتبة صغيرة . ولكننا كنا آنذاك نصنع التاريخ ولذا لم نكن بحاجة إلا الى مصادر قليلة »[١٢٦] . إننا لابد ان ندرك ان تحت تراب الرافدين كنوز التاريخ وقصة الحضارة للانسانية جمعاء ومراحل تطورها ولكن مما يؤسف له ان هذه الكنوز وقعت بأيدي غرباء حرصوا على التعتيم على نتائج الابحاث والحفريات والكشوفات التي توصلوا اليها حتى ذكر الاستاذ طه باقر هذه الحقيقة بقوله « من الامور التي عابها غير واحد على الحضارة الغربية الحاضرة وأخذوه على أهل الاختصاص فيها متهمين إياهم بأنهم يسلكون في اخفاء نتائج بحوثهم ما كان عليه القدماء من أهل المعرفة في حرصهم على معرفتهم والضن بها على الجماهير بحيث كانت من الاسرار المقدسة[١٢٧] .

ولكننا لو قارنا ما نشره الغربيون من تراجم الرقم الطينية التي وجدت في أرض العراق لامكننا بسهولة معرفة أصول هذه الحضارة وجذورها التي لا يمكن ان نصفها الا انها حضارة كانت ممتلئة بالاثر الديني وسمات الدين الذي اوحاه الله تعالى الى أنبيائه ورسله وكل ما وجد من مفاهيم أسطورية أو وثنية او شركية كان نتيجة طبيعية لكل تفاعل زمني مع الرسالة السماوية وانحراف المجتمع عنها بعد مدة من الزمن ، لو تأملنا حال الرسالات السماوية الثلاثة فسنجد ان نفس المفهوم يسري عليها ، اذ كان الله سبحانه وتعالى في كل مرة يرسل رسولاً او نبياً ثم تبعه مجموعة من بني قومه ويعارضه آخرون ثم ينتصر النبي واتباعه وتستقيم الحياة الانسانية بمقتضى الرسالة ثم بعد مدة من الزمن يبدأ الانحراف وتتعطل الرسالة حتى يبعث الله تعالى نبياً آخر ليصحح المسار ويعالج الانحراف وهكذا حتى محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الانبياء ، ولذلك « ان المدنية لا تدين لأي طائفة من طوائف البشر كما تدين

---

(١٢٦) مالوان / ماكس / مذكرات مالوان ، ترجمة سمير الجلبي / ص ٣٦ .

(١٢٧) كريمر / صاموئيل / من الواح سومر ، ترجمة د. طه باقر / انظر مقدمة المترجم ص ٥ .

لهذه الطائفة الربانية (الانبياء) . إنها تدين لها في حياتها وبقائها وفي شرفها وكرامتها وفي اعتدالها وسدادها فلولاهم صلى الله عليهم وسلم لغرقت سفينة الانسانية بما فيها من علوم وتراث حضاري وفلسفة وحكمة ولتحولت البشرية الى قطعان من السائمة والوحوش لا تعرف رباً ولا تعرف ديناً ولا خلقاً ولا تعرف رحمة ولا محبة ولا تعرف من معنى اسمى وغاية أعلى من العلف والرتع . ان كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الانسانية الكريمة والاحاسيس الرقيقة اللطيفة والاخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة من القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد انما يرجع فضله وينتهي تاريخه الى وحي السماء وتعليمات الانبياء وتبليغهم[١٢٨] .

إن أهم سمة من سمات النبوة والانبياء إن دعوتهم لا تمثل أفكارهم وليست انعكاس لمعاناتهم وانما النبوة حدث طارىء في حياتهم يختارهم الله لها وليس لهم أدنى سبب ذاتي في اختيار المنهج او الوسيلة او الزمن وإنما هو فضل من الله لحكمة يعلمها ولظروف يختارها بحكمته وعدله ، ولكن هذه السمة لا تكون عديمة المناسبة مناقضة للواقع والسبب والمسبب ، ولكن عادة تتناسب الحكمة مع الظروف الموضوعية والاعتبارات البيئية ﴿ قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغاً من الله ورسالاته ﴾[١٢٩] ، ولكن رعاية الله كانت تحيط الانبياء وإرادة الله كانت ترسم لاقوامهم الخير في طريق الابتلاء الذي اختاره الله لهم وهو طريق الانبياء . وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة وهي عدم وجود استعداد مسبق او تطلع للنبوة من قبل شخص النبي الكريم بقوله تعالى ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾[١٣٠] . لذلك فان العقائد التي يبلغها الانبياء لم تتطور في مفاهيمها عن عقائد سابقة كما يؤمن الماديون بتطور الدين من الطوطم الى تجريد الاله المعبود ، ولكن الحاجة والفطرة الموجودة داخل الانسان هي التي تنعكس في لحظات بعد عن نبوة وضعف الانسان الفطري أمام الظواهر الطبيعية هذه هي التي تنعكس في صورة

---

(١٢٨) الندوي / ابو الحسن على الحسني / النبوة والانبياء في ضوء القرآن / ص ٣١ / مكتبة وهبة القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٥ .

(١٢٩) سورة الجن / ٢١ - ٢٣ .

(١٣٠) سورة يونس / ١٦ .

عبادة بدائية ليس لها علاقة بوضع الانسان المدني والثقافي ولذلك نجد صورة سانجة للعبادة موجودة حتى في عصرنا الحالي على الرغم من التطور الحاصل في وسائل عيش الانسان .

ومن السمات الاخرى لدعوات الانبياء الدعوة الى عبادة الاله الواحد والتوحيد « والسمة الثالثة من سمات النبوة وملامح دعوتهم وشعائرها هي التشديد على جانب الآخرة واللهج بها أو الاشادة بذكرها والتنويه بشأنها تنويهاً يجعلها من النقاط الاساسية في دعوتهم ويشعر كل من يعيش في أخبارهم وأحاديثهم ويتذوق كلامهم ان الآخرة هي دائماً نصب أعينهم »[131] ، وقد انعكس هذا الايمان على المجتمعات وحياة الناس حتى الملوك والامراء الذين انحرفوا عن الايمان بعقيدة الانبياء كانوا يؤمنون بالآخرة وما المقابر الملكية وما فيها من متاع وكنوز الا تجسيداً للايمان بالآخرة وبعقيدة البعث بعد الموت التي لا يمكن ان تفسر على أساس التحليل العقلي للانسان والتفكير الذاتي للعقل البشري ما لم يكن هناك من أثر للنبوة والانبياء وما معاني الايمان بالغيب والجنة والنار وجنة عدن وغيرها من الافكار والمفاهيم الممزوجة بالاسطورة الاصورة من صور الايمان بالغيب الذي دعا اليه الانبياء . وأرى من المناسب ان ننقل تراجم لبعض الرقم الطينية التي ذكرها او ترجمها كريمر في كتابه ألواح سومر لنرى وحدة المصدر وأثر النبوة والأنبياء والعقيدة الواحدة التي أخذت صوراً مختلفة بحسب التحريف او التغيير الذي يحدثه البشر ، يقول كريمر « ان المفكر السومري الكثير التأمل كانت له القدرة العقلية على ان يفكر تفكيراً منطقياً مترابطاً ومفهوماً في أي قضايا فكرية بما ذلك أصل الكون ونظام سيره »[132] ، وإذ كانت اليهودية تمثل طفولة البشرية بما فيها من تشديد ومحرمات كأنها أوامر ونواهٍ يؤدب عليها الاطفال محدودي التفكير فان الشعب السومري لم يختلف عن الصور التي حفظها القرآن الكريم عن الشعوب الاولى في فجر الانسانية ، بل ان السمات الاساسية لعقل الانسان لم تتبدل ولذلك كانت العقيدة التي جاء بها الانبياء واحدة في أسسها وقواعدها وانما كان الذي يتطور ويتغير هو التشريعات التي تنظم حياتهم فكان القرآن الكريم يصور حالات من تغير التشريعات مثل ان يحلّ بعض المحرمات على الامم السابقة ويخفف عنهم الاغلال والقيود بتوسيع دائرة

---

(١٣١) الندوي / ابو الحسن / النبوة والانبياء ، م . س / ص ٤٧ .

(١٣٢) كريمر / صامونيل / الواح سومر / ص ١٥٩ .

المباحات وتقليل المحرمات من الاطعمة والاشربة وغيرها من القيود الاجتماعية وهنا نص رقيمي يؤكد تأثيم الذين يتجاوزون الحدود ويتجرأون على المحرمات اذ يقول هذا النص :

« من نظر نظرة رضى الى مواطن الشر
من بدل الوزن الكبير بالوزن الصغير
من بدل الكيل الكبير بالكيل الصغير
من أكل ما ليس له ولم يقل أكلته
من قال آكلنَّ ما حُرِّم
ومن قال لأشربنَّ ما حُرِّم »[١٣٣]

وفي هذا النص دلالة على عدم تغير المعايير الاخلاقية وقيم الانبياء.

ويحدثنا كريمر عن أهم نتيجة توصل اليها من خلال تحليله قصيدة سومرية وجدت على رقيم طيني مع حقيقة موجودة في التوراة والديانات الاخرى وهذه الحقيقة هي « إن حواء خلقت من ضلع آدم » تماماً كما في الاحاديث النبوية الصحيحة واشاراتها الواضحة الى هذه المعاني التي قد تعطي إشارة الى معنى رمزي مستعار وهذه الاستعارة نجدها لدى السومريين وانه لأمر غريب حقاً « نص القصيدة السومرية : كان أحد أعضاء الاله انكي الذي أصابه المرض هو الضلع والكلمة السومرية للضلع هي تي : Ti ودعيت الآلهة التي خلقت من أجل أن تشفي (ضلع انكي) بإسم « نن ـ تي » . اي (سيدة الضلع) ولكن تي في السومرية تعني ايضاً تحيي فـ (نن ـ تي) تعني (سيدة الضلع) وتعني كذلك (السيدة التي تحيي)[١٣٤] . ونعتقد بأنه ليس من الصعوبة معرفة جذور هذه الحقيقة وكيف عرف السومريون أصل خلق حواء ؟ التي بدأ خلقها من ضلع آدم ﴿ خلق منها زوجها ﴾ فعندما خلقت حواء من ضلع آدم أكملت غاية خلقه وتكاملت معه فحققت له شفاءً من حالة النقص التي كان يفتقر اليها والى تكاملها معه من خلال حالة

---

(١٣٣) كريمر / م . س / ص ١٧٨ وما بعدها .

(١٣٤) كريمر / صاموئيل / م . س / ص ٢٤٤ ويذكر كريمر حول هذه الاستعارة والتورية في اللغة السومرية « وهكذا صارت « سيدة الضلع » في الادب السومري تعني او تطابق بطريق التورية او التلاعب بالالفاظ ايضاً « السيدة تحيي » فكانت هذه التورية التي تعد أقدم تورية ادبية من نوعها قد قالت وخلدت في قصة الفردوس التوراتية » . انظر كريمر ص ٢٤٤ .

الزوجية[١٣٥] . وفي ترتيلة سومرية نجد حالات من التقارب مع بعض نصوص آيات من القرآن الكريم اذا جردت هذه الترتيلة من شوائب الشرك والمفاهيم الخاطئة التي دخلت الى العقيدة السومرية نتيجة التبديل الطبيعي للبشر بعد الانبياء . فقد ذكر القرآن الكريم هذه الظاهرة ﴿ يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ لتقرأ هذه الترتيلة الموجودة على رقيم طيني :

انليل ذو الامر الواسع المدى الذي كلمته مقدسة
الرب الذي لا يبدل كلامه الذي يقدر المصائر الى الابد
الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الاقاليم
الذي نوره المتعالي في دخائل قلب جميع البلدان
انليل الذي يجلس مالئاً « المنصة » البيضاء الذي يتبوأ المنصة السامية
الذي يحكم ارادات القوة والسيادة والامارة
آلهة الارض تسجد له خشية ورهبة
وتتذلل آلهة السماء أمامه
مدينة نفّر ذات مظهر يبعث الخوف والرعب
والضالون والاشرار والظالمون والنمامون والمتجبرون والناكثون للعهد كل اولئك لا يقر شرهم في المدينة[١٣٦] .
ورقيم آخر كتب عليه
« سبحان الأب أنليل والحمد له »[١٣٧] .

لو اردنا أن نضع أمام هذه الترتيلات آيات من القرآن الكريم لن نجد صعوبة في وضع هذه المرادفات القرآنية التي تؤكد ان هذه الترتيلات لا يمكن ان تكون من نتاج عقل البشر في تلك العصور السحيقة .

---

(١٣٥) ولم يرد اسم حواء في نص قرآني او حديث صحيح يقول بان حواء من ضلع آدم ولكن الحقيقة التي تؤكدها نصوص القرآن الكريم والاحاديث أن النساء أصل خلقهن من الرجال اي بداية خلق الانسان من ذكر وانثى وهذا يعزز ما ذهبنا اليه من ان آدم لم يكن اول مخلوق لان النص لم يقل بان خلق آدم من طين ولكن « بدأ خلق الانسان من طين » .

(١٣٦) كريمر / صاموئيل / م . س / ص ١٧٥ .

(١٣٧) كريمر / صاموئيل / م . س / ص ٢٣٠ .

انليل ذو الامر الواسع المدى : ﴿ وسع كرسيه السموات والارض ﴾[١٣٨] .
كلمته المقدسة : ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى امراً فإنما يقول له كن فيكون ﴾[١٣٩] .
الرب الذي لا يبدل كلامه : ﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾[١٤٠] .
الذي يقدر المصائر الى الابد : ﴿ ويحذركم الله نفسه والى الله المصير ﴾[١٤١] .
الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الاقاليم : ﴿ يعلم ما يلج في الارض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴾[١٤٢] .
الذي نوره المتعالي في دخائل قلب جميع البلدان : ﴿ الله نور السموات والارض ﴾[١٤٣] .
انليل الذي يجلس مالئاً المنصة البيضاء الذي يتبوأ المنصة السامية : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾[١٤٤] ، ﴿ خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ﴾[١٤٥] .

---

(١٣٨) سورة البقرة : ١١٥ .
(١٣٩) سورة البقرة : ١١٧ .
(١٤٠) سورة يونس : ٦٤ .
(١٤١) سورة آل عمران : ٢٨ .
(١٤٢) سورة الحديد : ٤ .
(١٤٣) سورة النور : ٣٥ .
(١٤٤) سورة طه : ٥ .
(١٤٥) سورة الحديد : ٤ .

قصة أيوب (عليه السلام)

القى كريمر بحثاً في جمعية الآداب التوراتية في ١٩٥٤/١٢/٢٩ بعنوان (الانسان وربه) وهي رواية سومرية لفكرة قصة أيوب . وقد عثر عليها على شكل ستة الواح من الطين (١٣٥) سطراً جمعت في مقالة شعرية سومرية عثرت عليها بعثة التنقيات الاثرية لجامعة بنسلفانيا في مدينة نُفَّر التي تبعد زهاء ميل الى الجنوب من بغداد الآن . أربع قطع في متحف الجامعة وقطعتان في متحف الشرق القديم في استانبول[١٤٦] ، ويقول كريمر : « ولكي نوضح روح القصيدة ومزاجها نقتبس هنا أهم المواطن وأحسنها فهماً ووضوحاً وينبغي للقارىء ان يتذكر على الدوام ما سبق ان نوهنا به من أن معرفتنا باللغة السومرية لا تزال غير كاملة وان بعض المواطن المترجمة سيحوّر فيها ويحسّن بمرور الزمن[١٤٧] . وهذه أجزاء من القصيدة :ـ

يا الهي أريد أن أقف بين يديك
أريد أن أكلمك وكلمتي أنين وحسرات
على أمي التي ولدتني الا تنقطع عن بث شكاتي إليك
لتصرح زوجتي بالرثاء لعذابي
يحدق بي العذاب . والالم كذلك الذي لم يقدر له سوى الدموع
يمسكني الحظ السيىء بقبضته ويسلبني حتى نفس الحياة
المرض الخبيث يعم جسمي
لقد قالوا ـ اي الحكماء البارعون ـ كلمة صدق وحق

---

(١٤٦) كريمر / صاموئيل / م . س / ص ٢٠٧ .

(١٤٧) كريمر / صاموئيل / م . س / ص ٢١٠ . (وأيوب ورد ذكره في التوراة ويبدو سفر ايوب غريباً في وضعه وموضوعه بين اسفار العهد القديم لانه اول من نص على الايمان بالبعث في كتب العهد القديم وهو نبي ليس من بني اسرائيل ومختلف في عصره ويبدو انه اقدم من ابراهيم انظر العقاد / عباس محمود / ابو الانبياء / ص ١٩٦ . ويبدو ان قصة ايوب دخلت العهد القديم من وادي الرافدين . انظر ما سيأتي حول ايوب (عليه السلام) فقد أفردنا له مبحثاً خاصاً بعد ابراهيم ولوط عليهما السلام .

لم يولد لأم طفل بلا خطيئة
ان الطفل البريء لم يكن في الوجود منذ القدم
لقد طرد شيطان المرض ... والمرض الذي ضربه مثل ... قد أزاله وبدده وبدل مصير السوء .
وبدّل عذاب الرجل فرحاً وحبوراً[148] .
وهذا رقيم طيني مقتطع يصف قدرة الاله
« والانهار لولاه ما جبلت مياهها الفيض والارواء
ولولاه ما وضع السمك بيضة في الاهوار
ولما بنت أطيار السماء أعشاشها في الأرض الواسعة
وفيَ السماء لولاه ما جاءت بمائها السحب السائرة
ولولاه ما نمت النباتات والاعشاب التي يزهو بها السهل
ولما نتجت الاشجار النابتة في غابة الجبل أثمارها[149] .

ويقول كريمر : هناك عقيدة سومرية كانت تطغى على ميادين السلوك والمثل العليا عند السومريين تلك هي « ان الانسان صنع من طين ليخدم الآلهة »[150] .

نص يصف جنة عدن او الجنة
« في دلمون لا ينعق الغراب الاسود
ولا يفترس الاسد والذئب لا يفترس الحمل ـ ولم توجد الارملة ـ وما من أرمد يشتكي ويقول (عيني مريضة) وعجوز دلمون لا تقول أنا عجوز ـ ولا يقول الشيخ (أنا شيخ طاعن في السن) والعذراء لا تستحم ـ ومن عبر نهر الموت لا يتفوه ويقول ... (النص منخرم »[151] .

إن هذه النصوص تؤكد لنا حقيقة واحدة وهي أن كل الوجود ينطق بالايمان بدءاً منذ فجر الانسانية حتى عصرنا الحالي وان الدين يمثل الخطاب الالهي للانسان اينما وجد ومتى كان كما يقول كريمر « وأذا كنت في ريب من الاخوة البشرية والانسانية المشتركة بين جميع الاقوام والاجناس فارجع الى اقوالهم السائدة

---

(١٤٨) كريمر / م . س / ص ٢١٣ .
(١٤٩) كريمر / م . س / ص ١٧٨ .
(١٥٠) كريمر / م . س / ص ١٩٧ .
(١٥١) كريمر / م . س / ص ٢٤٥ .

وأمثالهم وحكمهم ووصاياهم ونصائحهم فإنها اكثر من نتاج أدبي تخترق قشره الاختلافات الحضارية وفروق البيئة وتكشف أمام أعيننا طبيعة البشر الاساسية حيثما وأنى عاشوا . وقد جمعت الامثال السومرية ودونت قبل نيف وخمسة وثلاثين قرناً . وهذه نصوص بعض أمثالهم :

« لو وضعت في الماء لفسد »

« كتب علينا الموت فلننتفق »

« من ملك الفضة الكثيرة فقد يكون سعيداً ومن ملك شعيراً كثيراً فقد يكون سعيداً ولكن من لا يملك شيئاً في وسعه أن ينام ! ! »(١٥٢) .

ان نظرة السومريين للدين وعقيدتهم حول الآلهة تعبر تعبيراً قوياً حول تاثر هذه العقيدة بالنبوات اذ ليس من المعقول ان يمتلك العقل البشري في تلك الفترة هذه التصورات وينسجها خياله من العدم لو لم تكن هناك محاولات لانبياء حاولوا تصحيح عقيدة التوحيد والايمان أو التبليغ بوجود اله خالق مبدع هو الذي خلق الانسان والسموات والارض وكل ما في الوجود .

ان التقارب في التصورات الاساسية للعقيدة الدينية ابتداءاً من التصورات البشرية حول الإله الخالق ومروراً بتصوراتهم حول خلق الانسان الهادف وتحديد هذا الخلق ومكوناته وكذلك التصورات التي تجمع بين عقيدة القدر والابتلاء والصبر على البلاء والخطايا والذنوب كل هذه الامور تضع أمام الباحثين نسيجاً متقارباً من الصورة حتى بين المراحل المختلفة والاقوام والامم المختلفة وهو ما يؤكد وحدة الاصل والمصدر .

لقد كان المجتمع السومري ينظر الى قوى الطبيعة على انها انعكاس لقدرة الآلهة « وقد استمرت الآلهة السومرية بوصفها ممثلة لقوى الطبيعة على القيام بدورها جزءاً من التراث الحضاري المشترك للمجتمع السومري ككل(١٥٣) . ولذلك كانت الحضارة السومرية تمثل المحاولات الاولى للارتقاء الانساني على سلم الحضارة ، وكانت النبوات قد وضعت خطا الانسان باتجاه تحقيق هذا الانجاز ، وقد انعكس هذا الأثر على صور الحياة وطبيعتها المدنية والفكرية والادبية والعمرانية في المجتمع السومري وكما تساءل توينبي « ما هو التجديد الجوهري في هذا النوع من

---

(١٥٢) كريمر / الواح سومر / ص ٢١٧ - ٢١٩ .

(١٥٣) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ط١ ص ٨١ .

المجتمع الذي اوجده السومريون ؟ فائض في الانتاج وتباين في الطبقات ، والكتابة ، والعمارة الضخمة والمستقرات المدنية والحرب ، كانت جميعها مظاهر جديدة ومميزة ولكن التغيير الجذري كان في صفة الآلهة ووظيفتها(١٥٤) .

إن أعظم أثر نلاحظه على الحضارة السومرية هو أثرها العالمي الامر الذي يؤكد هيمنة هذه الحضارة على عقل الانسان المعاصر لها وتأثره بها حيثما كان . ان ظهور الحضارة في هذا المكان من وادي الرافدين في عصر يصعب فيه الاتصال وينعدم وجود إمكانية امتلاك وسائل صناعية للسيطرة على الظروف البيئية يثير تساؤلاً عن سر هذا الظهور المفاجيء وانه يعكس لنا ان الأمر كان يمثل استجابة لأمر إلهي . إراد الله لهذه البلاد ان تكون مركزاً روحانياً وحضارياً حيث شاءت ارادته ان تستقبل هذه الارض المهاجرين القادمين من الجزيرة وتعدهم حضارياً فينطلقون منها الى الارض يبلغون رسالات الله . فعلى أرضها انطلق أبو البشر الثاني نوح (عليه السلام) يعلم الانسانية دروساً في التحمل والمواجهة ومن هذه الارض اندفع أبو الانبياء إبراهيم يعلم الانسانية الحكمة ويقيم عليها الحجة . ولذلك لو استحضرنا هذه المعاني والاحداث سوف ندرك أن أرض الرافدين قد هُيأت بأمر الله لامر عظيم حتى إن بعض الباحثين يتعجبون من قيام الحضارة على هذه الرقعة دون غيرها ويتساءلون عن خصوصية هذا الاختيار حيث يقول توينبي « وانه أمر يدعو الى العجب ان تظهر أقدم المدنيات القائمة اقتصادياً على ترويض المستنقعات لا في مصر العليا بل في الحوض الادنى لدجلة والفرات ، فالسومريون لم يسبقوا المصريين فقط في مغامرتهم بل تفوقوا عليهم ، فالسومريون جازفوا بمستقبلهم اعتماداً على استغلال مادة واحدة فقط من المواد الخام وهي الغرين وقاموا باستيراد معظم احتياجاتهم من أحجار التماثيل والنحاس وان استيراد الحجر الصالح للنحاس في سومر كانت كلفته ككلفة استيراد الذهب او الفضة . وفاق السومريون المصريين بالتجارة ايضاً وكانوا اكثر نشاطاً منهم توسعوا تجارياً الى نهر السند وتوسعوا تجارياً في الخليج العربي ولكن أهم عمل كبير في النقل والمتاجرة كان توسع السومريين التجاري في الاتجاه الشمالي الغربي(١٥٥) . لقد أثرت المدنية السومرية

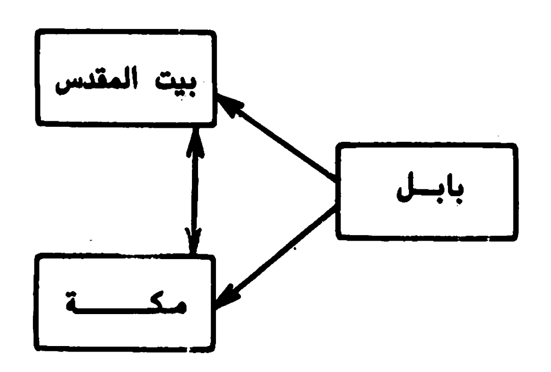
---

(١٥٤) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ط١ ص ٨٠ .

(١٥٥) توينبي / أرنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٨٧ . وهذا يؤكد تهيئة هذه المنطقة لكي تؤدي ←

في المدنيات المعاصرة لها جميعاً ، فقد ثبت أثرها على الفرعونية وعلى العيلامية التي كانت مقتبسة من السومرية في كثير من ملامحها ، وعلى السندية وتسمى مدنية (الشرهيسوختا) التي قامت في حوض السند في النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد ، وهو الوقت الذي قامت فيه مدنية في آسيا الصغرى كانت تدور في فلك السومرية »(١٥٦) .

وبعد ان توضحت لنا معالم صورة العالم القديم يمكننا ان نرسم مخطط يوضح ظهور الانبياء وارتباطه بالرقعة الجغرافية . حيث شكلت ارض الرافدين رأس المثلث الروحي للانطلاق نحو النقاط الاخرى . ويوضح كذلك التفاعل بين مهد الجنس البشري والانبياء ، ويمكن التعرف على الروابط الوثيقة والعلاقة الروحية التي كانت قائمة بين مدن الشرق الادنى .



المثلث الروحي الذي يمثل العلاقة التاريخية بين المدن الثلاث ، المدينتان المقدستان مكة وبيت المقدس مع بابل

← دورها التاريخي وتتواصل مع فلسطين لتحتضن النبوات حتى يحين دور مكة ومحمد (ﷺ) .

(١٥٦) توينبي / م . س / ج١ ص ١١٠ .

١ - قال تعالى ﴿ وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ﴾[157] ، ذكر بابل يدل على انها كانت مركز القوة والسلطة الى عصر سليمان (عليه السلام) قبل الميلاد بحدود عشرة قرون ، وفي عصر سليمان بني بيت المقدس ، أراده سليمان ان يكون اعظم مسجد على الارض حتى سأل ربه ثلاث خصال « أيما رجل خرج من بيته لا يريد الا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » رواه احمد والنسائي . وقال ابن كثير بعد ان أورد الثالثة : « فرجح ان تكون الثالثة لنا وان الله قد أعطانا إياها »[158] ، يعني مكة . وأقام سليمان سوراً حول القدس (مدينة أورشليم) ويبدو ان تسمية أورشليم متأثرة بأسماء المدينة العراقية القديمة أور ، أو أن بابل كانت (باب ايل) اي باب الاله[159] ، فكانت أورشليم وتعني أور السلام .

٢ - قال تعالى ﴿ إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكة ﴾[160] أول رمز للتوحيد كان مكة ، وفي روايات ان الله أمر آدم ببنائها والطواف حولها ، وروايات ان الارض دحيت من مكة ، وقد ذكرت هذه الروايات وتخريجها .

٣ - قال تعالى ﴿ سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله ﴾[161] .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اختتن ابراهيم (عليه السلام) وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم » .

رواه البخاري ، والقدوم اسم مكان كما ذكر ذلك شراح الحديث .

---

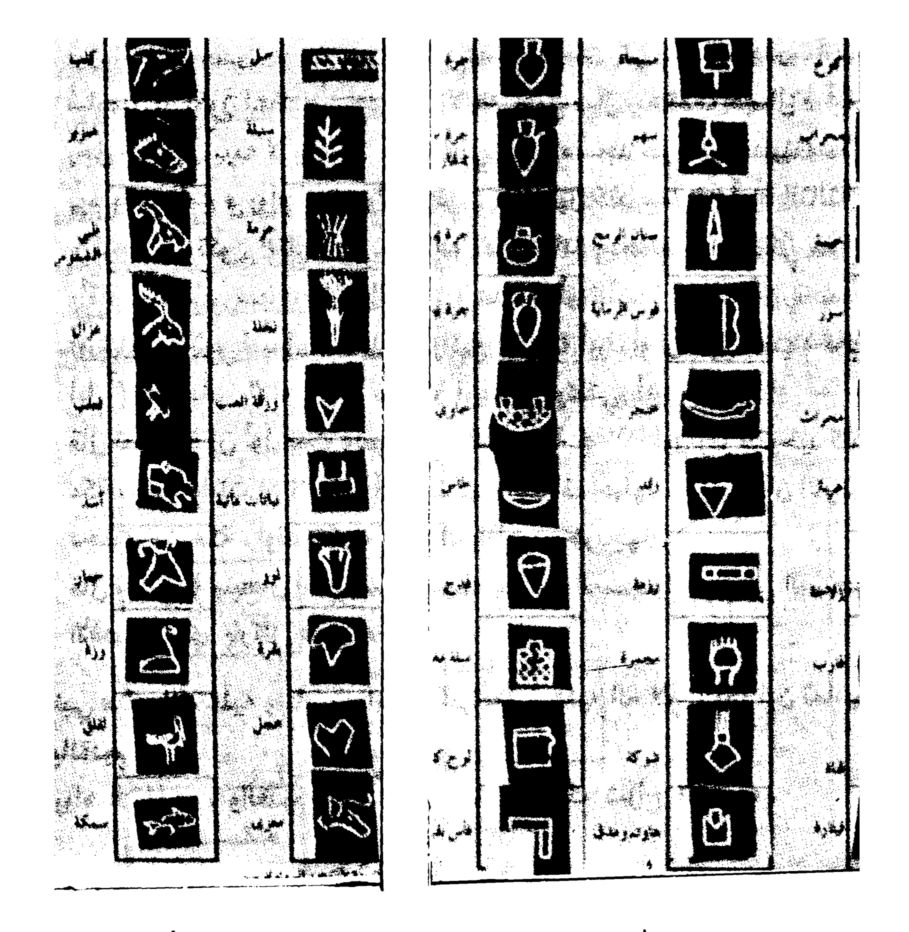
(١٥٧) سورة البقرة / ١٠٢ .

(١٥٨) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٧٠ .

(١٥٩) الشوك / علي / الاساطير / ص ١٢١ .

(١٦٠) سورة آل عمران / ٩٦ .

(١٦١) سورة الاسراء / ١ .



- بارو / اندرييه / سومر فنونها وحضارتها

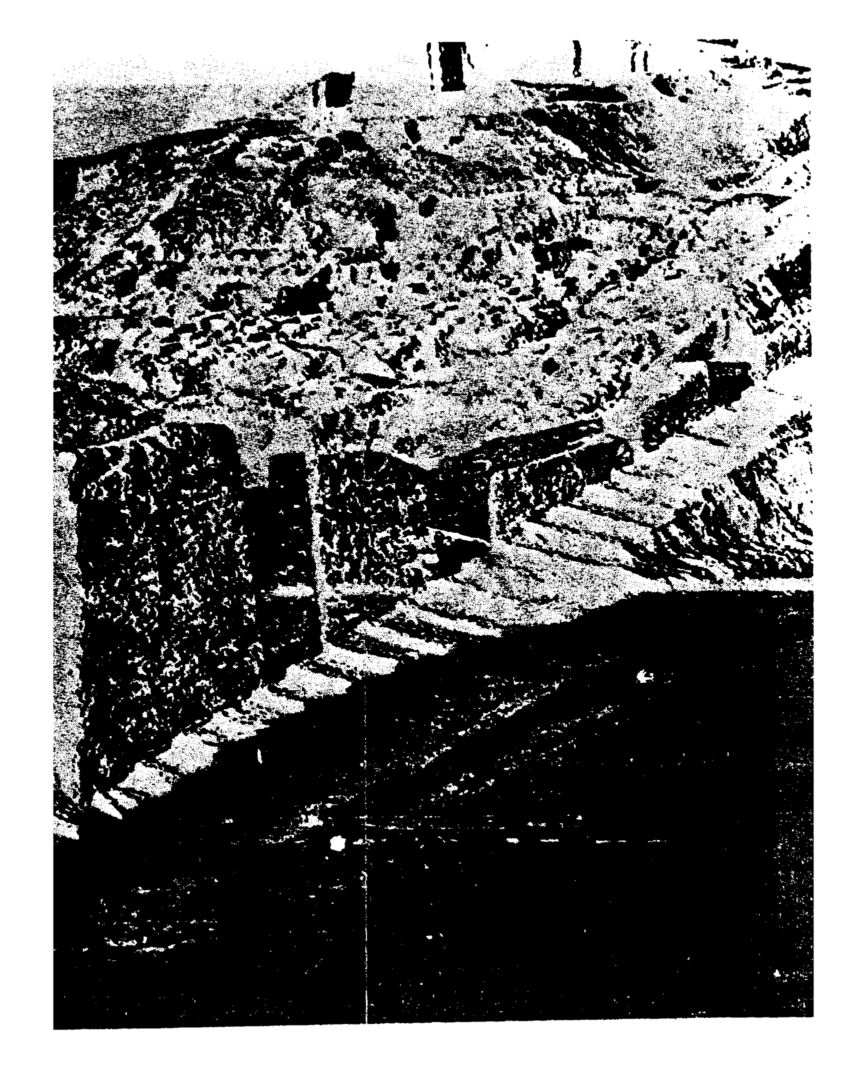
الكتابة الصورية التي كانت تعبر عن الفكرة بالصورة

وهي تمثل المرحلة السابقة للكتابة ويلاحظ أمام صورة القضيب (esex

عبرت عن الختان مما يرجح ان الختان قد عرف في المجتمع العراقي القديم وهذه

دلائل أثر النبوات في المجتمع العراقي القديم إذ إن الختان يمثل أول تكليف

معاناة وقسوة لا يستجيب له الانسان ما لم يكن تحت وازع الدين



٨٦ـ الوركاء المعبد الابيض (النصف الثاني من الالف الرابع ق . م .)
بارو / اندريه / سومر فنونها حضارتها ص

- لوح صغير خمبابا (اوائل الالف الثاني ق . م .) المتحف البريد
شكل يمثل الشيطان الذي عُرف بملحمة جلجامش خمبابا
في المتحف البريطاني ويعبر عن قبح صورة الشيطان في ذهن الفنان
القديم
بارو / اندريه / سومر فنونها حضا

صورة لرقيم طيني فيه تمرين هندسي
القديم نحو ١٨٠٠ ق.م. في حساب مساحة اجزاء اا
بوستفيت / نيكولاس / حضارة العراق

متعبدون (النصف الاول من الالف الثالث ق . م .) (أ) و (ب) تما
خفاجي . (ج) و (د) تماثيل من تل اسمر



متعبدون متحف دمشق

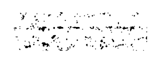
في الحديث قال النبي (
« إنا معشر الانبياء أ
نمسك بأيماننا على ش
رواه الطبراني في الكبير وقال إسناده

أشكال لتماثيل من مواقع أثرية مختلفة تمثل حال التعبد
ت الايادي اليمنى على اليسرى مما يؤكد حالة العبادة الذي ذكرها ا
(ﷺ) من سنن الفطرة وضع اليمنى على اليسرى
/ نيكولاس / حضارة العراق وآثاره
رو / اندريه / سومر فنونها وحضارتها
ا ان كل تمثال او نقش يصور حالة عبادة او يرتبط بعبادة يصور حالة وض
اليمنى على اليسرى

٨١ـ النسخة الافضل حالًا من قائمة الم
الجانب اسماء الملوك قبل ال

٨٢ـ تظهر الاختام الطينية التجارة في م
يستعمل في ختم الاكياس

نيوكلاس / حضارة الم



الفصل الثاني

النبي نوح (عليه السلام)
أبو البشرية الثاني

متابعة تاريخية للتعرف على عصر النبي نوح (عليه السلام)

ان القرآن الكريم سجل لنا أهم الاحداث التي مرت على البشرية وقد أكد القرآن الكريم على معنى واحد وبرزه ذلك هو مدى ارتباط الحدث بالهدف الذى أراده الله للانسان وهو تحقيق العبودية لله على الارض . ولعل أهم الاحداث التي كانت تمر على البشرية هي زمان إرسال الرسل واعلان هؤلاء الرسل هذا النبأ او الحدث على ملأهم ودعوتهم الى التخلي عن الانحرافات التي دعت الى إرسال الرسول . وكان تواصل السماء غير منقطع عن الارض وما ترك الله أمة الا وارسل اليها رسولًا او نبياً ولم يحدث انقطاع في حياة البشر ولكن منهم قصَّ علينا القرآن قصته مع قومه ومنهم من لم يقصص كما قال تعالى مخاطباً نبيه محمد (ﷺ) ﴿ ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما ﴾[1] . فكان الانبياء يتواصلون في النسب ذرية بعضها من بعض قال تعالى ﴿ اولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية ابراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ﴾[2] . فتواصلت بعد آدم في ذريته النبوة ولكن القرآن الكريم سلط الضوء

---

(١) النساء / ١٦٤ .

(٢) مريم / ٥٨ .

على النبوات والرسالات التي كانت تمثل أهمية قصوى في حياة البشرية وذكرهم كان يعطي البشرية دروساً في الاحساس بالمسؤولية التي كان يتمتع بها هؤلاء والامانة .
وينوع الاساليب التي عرضها القرآن والتي استخدمها هؤلاء الانبياء في دعوة اقوامهم فكانت حصيلة دعواتهم تتركز في نهاية المطاف عند خاتمهم وأفضلهم محمد (ﷺ) فقد مثل محمد (ﷺ) الانموذج المتكامل للرسالة التي تستوفي شروط البقاء حتى آخر يوم من أيام عمر الانسان على الارض فكان آدم الاول ومحمد الخاتم عليه صلوات الله وسلامه . وبين آدم ومحمد (ﷺ) أنبياء ورسل ، والرسول هو الذي يوحىٰ اليه ويحمل رسالة الى قومه ويكلف بتبليغها والنبي هو الذي يوحى اليه بشرع ولم يكلف بالتبليغ[٣] . فالرسالة أعلى من النبوة وكل رسول نبي ولا عكس .

إن ظهور الانبياء صفة ملازمة للانسانية وهبة ربانية حبا الله الانسان بها فكان الانبياء والرسل يعلمون الناس الخير ويحذرونهم من الشر ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ . لقد كان عدد الانبياء كثيراً جداً « وقد وردت روايات بأن عددهم يزيد على مائة وعشرين الفاً اما الرسل منهم فقلة والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الايمان بهم تفضيلًا وهم (٢٥) خمسة وعشرون »[٤] .

إن أهم صفة تميزت بها دعوة الانبياء هي تثبيت عقيدة التوحيد في حياة البشر ونبذ الشرك وعبادة غير الله قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾[٥] .

لقد أرسل الله تعالى الانبياء والرسل بصورة متعاقبة وبعقيدة واحدة مع شريعة تتناسب مع عصر الرسول المبعوث . وكان كل رسول يذكر قومه بالتجربة التي سبقته وعاقبة الاقوام الاخرى التي كذبت او عاندت . قال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ﴾[٦] الى ان ذكرهم بمن قبلهم ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بصطة فاذكروا آلاء الله

---

(٣) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ١٣ .
(٤) الصابوني م . س / ص ١٤ / يذكر رواية عدد الانبياء والرسل عن الامام احمد .
(٥) النحل / ٣٦ .
(٦) الاعراف / ٦٥ .

لعلكم تفلحون ﴾[7] . ثم جاءت بعد عاد ثمود وانطلق نبيهم ينذرهم بمن قبلهم ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً. فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴾[8] .

لقد وضع القرآن الكريم الحدث التاريخي ضمن اطار العبرة واستخلاص التجربة لبناء موقف جديد يتسم بالتماسك والقدرة على الثبات في مواجهة الصراع الذي يحصل بين المجتمع الجاهلي والانبياء واتباعهم من جهة أخرى . ﴿ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا * من أعرض عنه فأنه يحمل يوم القيامة وزرا * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا ﴾[9] ومن خلال القاء الضوء على هذه المساحات الهائلة من التاريخ القديم وضمن هذه التجارب التي خاضها الانبياء تتعزز المقدرة على تحمل أعباء المسؤولية ضمن العصر الاخير للانسان على الارض فقد كانت هذه القصص التي قصها القرآن وسيلة تربوية لاعداد المجتمع المسلم وبناء الامة التي اكتسبت افضلية الشهود على الامم ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ﴾[10] فكان محمد (ﷺ) سعيداً وهو يتلقى تلك الشحنات من الطاقة الهائلة التي تحملها آيات القرآن وهي تقص عليه أنباء أخوته الانبياء من قبله .

لقد أثبت القرآن الكريم في ثنايا آياته التي كانت تعرض مواقف الانبياء وتكشف النقاب عن جذور الاحداث والوقائع « بأن التاريخ لا يتحرك فوضى وعلى غير هدف وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والاشياء . سواء بسواء . وإن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة . والقانون هو الذي يحكم التاريخ تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم »[11] . ان القرآن الكريم عندما عالج الوقائع من الجانب التاريخي تجاوز تفاصيل ودقائق كثيرة وعرض الواقعة من خلال وحدة الزمن وأزال حواجز الاختلافات العصرية فعندما كان يعرض القرآن الكريم قضية إعلان استخلاف آدم نجده ينتقل

---

(٧) الاعراف/ ٦٩ .

(٨) الاعراف / ٧٤ .

(٩) طه / ٩٩-١٠١ .

(١٠) البقرة / ١٤٣ .

(١١) خليل / د. عمادالدين / حول اعادة تشكيل العقل المسلم / ص ٣ / بغداد مطبعة منير / ١٩٨٥ .

الى بني اسرائيل[١٢] فيضع امام المتأمل احداثاً جرت من أزمنتها لكي يعطي خلاصة العبرة من الحدث التاريخي ولكن عندما كانت العبرة تحتاج في ابرازها الى عنصر الزمن وتأسيس مقياس حسي فقد نكر القرآن الكريم بصورة تواصل العصر السابق مع اللاحق بالنسبة الى عاد الذين ذكّرهم بعصر نوح (عليه السلام) وثمود الذين ذكّرهم بعصر عاد . إن هذا التذكير وظف التاريخ لهدف عرض التجارب البشرية والاعتبار بعواقبها « واثارة الفكر البشري وإزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الانسان »[١٣] .

واذا عدنا الى محاولة تحديد عصر نوح (عليه السلام) لابد ان ندرك حقيقة وهي ان المسألة ليست بالسهولة بحيث تعالج بطريقة سطحية تلقائية بل ان الاضطراب الحاصل في رؤية كثير من دارسي التاريخ القديم يجعل الصورة فاقدة الملامح يتعذر معها تحديد او ربط أو استنتاج علمي يكتسب القدرة على إقناع القارىء بوجود معلومة موثقة في تحديد عصره او مكانه . لذلك نجد ان معظم قراءات التاريخ القديم مشوشة واذا كان القدماء غلبت على طروحاتهم الخرافات والاساطير فان المعاصرين غلبت عروضهم للتاريخ القديم الاوهام والاهواء والظنون كما يقول ديورانت « معظم التاريخ ظن وبقيته من املاء الهوى »[١٤] .

والقضية ليست عصر نوح او مكانه مما يعجز متخصصو التاريخ القديم ان يبتّوا فيه ولكن معظم قضايا التاريخ القديم هي قضايا معلقة مفتوح فيها الباب أمام الافتراضات والنظريات التي لا تنتهي ، ولا يمكن تصديقها او تكذيبها بحال . ومن أمثلة معضلات التاريخ القديم أصل الانسان او اللغة وكيفية ارتباطها بالانسان او الكتابة ! واستخدام الوسائل او تطويرها عند الانسان ابتداءاً من الزراعة وتخزين الطعام والنار واستخدامها والمعادن . ثم أول تجمع سكاني متى وأين ! وهكذا كل القضايا التي تبرز امام الباحثين عن طريق الحفريات والآثار تبدأ معها اوهام

---

(١٢) يمكن متابعة هذه الحالة في سورة البقرة بعد عرض قصة آدم ينتقل القرآن الكريم الى بني اسرائيل وفي أحداث كثيرة في القرآن يمزج القرآن الكريم الوقائع ويعرضها في مستوى واحد لبيان وحدة الاصل في المعلومة لانها من الله الخالق ووحدة العنصر المتلقي وهو الانسان في كل زمان ومكان . (فعبرت القضية عن ارتباط المخلوق بالخالق) .

(١٣) خليل / د. عمادالدين / التفسير الاسلامي التاريخي / ص ١٠٦ .

(١٤) ديورانت / وول / قصة الحضارة / ج١ص ٢٣ سبق ان أشير الى هذه العبارة .

المؤرخين واستنتاجاتهم وما قضية أصل السومريين او العراقيين القدامى عنا ببعيدة .

لقد كان القرآن واضحاً في عرضه اسس التعامل مع القضايا الحاسمة والتي تعد نقاط مفترق الطرق بين المناهج البشرية التي وضعها الفلاسفة والمفكرون مثل المادية والمثالية التي حاولت حل الاشكاليات على وفق مستوى النظر للعقل البشري . لقد اعطى القرآن مزيجاً متوازناً بين الايمان بقدرة الخالق اللامحدودة وقدرة الانسان المستمدة من القابليات والاستعدادات التي اوجدها الله سبحانه وتعالى عند الانسان فكانت النظرة القرآنية للحدث التاريخي تعطي الانسان احساساً بالواقعية وانسجاماً مع نواميس الوجود وسننه .

وبذلك ابتعدت القراءة الاسلامية عن الخرافة وعن الوهم وعن الهوى والتعصب . فكان تركيز المؤثرات لايجاد الحالة الفعالة في أقصى مداه يحصل عند تأمل النص القرآني وتحليله بدون ان يحدث تقاطع مع المنهج العقلي والعلمي المتجرد .

ومنذ اللحظة الاولى لالتقاء الطين مع الارادة الالهية كانت القضية واضحة بكل أبعادها وشموليتها وواقعيتها . فكان الايمان بالغيب يضع الاطار المتناسق للمادة الطينية وينتهي من صياغتها وفق أحسن تقويم فيكون الابداع الإلهي غير محدد بالاشكال الطينية التي عبرت عن الحياة في اروع مثال فتبارك الله أحسن الخالقين . فكان آدم الانسان يعيش على الارض ولا ندري مقدار السنين التي عاشها الانسان المقوم على صورته[١٥] البشرية وهو يعيش حياته ويتدرب على الاستعداد لتلقي الوظيفة الربانية وهي الخلافة على الارض كم كانت هذه السنين ؟ عشرات الآلاف ! مئات الآلاف ! ملايين أمرٌ في عالم الغيب[١٦] .

وفي حديث يرويه ابن عباس ان (بين آدم ونوح عشرة قرون)[١٧] ورواية ابن

(١٥) في الحديث (خلق الله آدم على صورته وعودة الضمير على الخالق او على آدم وفي كل الحالات في الاولى المعنى الرمزي يتفق مع الثانية في تكريم الانسان .

(١٦) هناك اتفاق بين العلماء الحفريات (الآثارية) والانثربولوجي على ان الانسان العاقل ظهر بحدود ٤٠ ألف سنة ق . م . ولكن الانواع البشرية التي قبل العاقل لا يوجد تحديد دقيق لبداية ظهورها على الارض .

(١٧) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ١٤٣ والحديث عن ابن عباس لم ينكر رواية البخاري موقوفة أم مرفوعة والراجح أنها موقوفة .

عباس هذه في البخاري وفيها زيادة (عشرة قرون كلهم على الاسلام) وحديث ابي أمامه الذي رواه ابن حبان في صحيحه : إن رجلًا قال : يا رسول الله أنبي كان آدم ؟ قال : نعم مكلَّم ، قال : فكم كان بينه وبين نوح ؟ قال : عشرة قرون)[18] .

وقد اختلف العلماء في القرون المذكورة هل القرن مائة عام ؟ وقال بعض العلماء ان القرن يعني جيلًا كما في قوله (ﷺ) (خير القرون قرني) وقوله تعالى حكاية عن فرعون ﴿ قال فما بال القرون الاولى ﴾[19] .

وفي القرآن الكريم آية حددت المدة التي قضاها نوح يدعو قومه للتوحيد وهي قوله تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً الى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ﴾[20] . هذه الآية سلطت الضوء على قضية غريبة وهي طول المدة . إن ألف عام إلا خمسين تعد تجاوزاً للمقاييس الطبيعية لعمر البشر . ويبدو ان بقاء نوح لم يكن بصيغة معزولة وغير متجانسة عن المجتمع الذي يعيش فيه بل ان سياق الآية يؤكد إن الامر لم يكن غريباً او خصوصية للنبي نوح تميز بها عن قومه لكي يتحداهم عن طريق بقائه ومكثه الطويل بل جاءت الآية لتؤكد اصرار قومه على موقفهم وصبر نوح على التبليغ ومن المعلوم ان القدماء كانوا يعتقدون بأطوال غير منطقية لاعمار العظماء من البشر[21] .

وهناك طريقة اتبعها السومريون الاوائل في تدوين مدد حكم ملوكهم « فمن جملة مدوناتهم ان ثمانية من ملوكهم حكموا قبل الطوفان (٢٤١٢٠٠) وفي جدول آخر يرتفع هذا الرقم الى (٤٥٦٠٠٠) سنة وهذه الارقام الخيالية في تدوين اعمار الاشخاص مازالت لغزاً لم يتوصل الى حله حتى الآن[22] . لقد حاول بعض العلماء ان يحل هذا الاشكال وان يفسر هذه الارقام الخيالية على أساس ان

---

(١٨) الصابوني / ق.م / ص ١٤٣ .

(١٩) سورة طه / ٥١ .

(٢٠) سورة العنكبوت / ١٤ .

(٢١) انظر محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى السبي البابلي / ٥٤٩ ويذكر (ان هذه الاعمار مازالت لغز يحير العلماء لانها كانت شائعة في المدونات القديمة سواء في بلاد ما بين النهرين أو في مصر .

(٢٢) سوسة / د. أحمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤١٥ / دار الرشيد بغداد ١٩٨١ .

القدماء كانوا يعدون الشهور سنيناً وبعضهم ذهب الى ان بعضه ايام تعدل سنة وقد فسر عالم الآثار ادوارد كبيرا هذه الظاهرة وهي « ان مؤرخي اليهود الذين حاولوا ملء الفراغ ، الواقع بين ما اعتقدوا انه التاريخ الصحيح لخلق العالم والفترات التاريخية التي اعتمدوا في تعيينها على ما عندهم من تدوينات موثوق بها بعض الثقة فوجدوا عدداً من الاسماء ليستعينوا بها في ملء الفراغ وبدلًا من أن يبتكروا اسماءً جديدة مدوا في حياة الاشخاص الذين عندهم ليسدوا هذا الفراغ في السنين[٢٣] ، وهذا التحليل غير سليم ولا يخلو من تعميم غير دقيق اذ ان هذا الكلام قد ينطبق على مدوني التوراة ولكن كيف نفسر قائمة إثبات الملوك السومرية وهي اقدم من التوراة وتاريخ تدوين التوراة . بل اذا اردنا ان نكون منطقيين لابد ان نعزو أثر هذه الظاهرة وانتقالها من السومريين الى مدوني التوراة . ولكن لابد ان نعلم بأن هذه الظاهرة موجودة في الحضارة العراقية القديمة ولابد ان نبحث عن أصل هذه الظاهرة . اننا نعلم من متابعة قصة الحضارة وما توصل اليه علماء الآثار بأن المجتمع البشري كان محدوداً في بداياته الاولى . وكان المحيط الحيوي للانسان في العصر الجليدي الرابع (١٠٠,٠٠٠ ـ ١٥,٠٠٠) ق . م . ويسمى عصر ورم كان المحيط الحيوي محدود وليس بالسعة الحالية . وكان العراق وبلاد الشام مع شبه الجزيرة العربية ثم أجزاء من افريقيا ، كانت هذه المساحة تشكل . محيطاً حيوياً يوفر للانسان وسائل الاستقرار الحياتي . واذا كان احمد سوسة يؤيد ادوارد كبيرا فيما ذهب اليه فنحن لا نتفق معهما اذ إن القضية لم تقتصر على التوراة ولا على قائمة إثبات الملوك السومرية بل ان القرآن الكريم ذكر بوضوح المدة التي قضاها نوح (عليه السلام) يدعو قومه الى عقيدة التوحيد . كما استشهدنا بالآية من سورة العنكبوت بأن بقاء نوح يدعو قومه تسعمائة وخمسين سنة . وهذا يدل على ان عمره (عليه السلام) اكثر من هذه المدة المذكورة للدعوة . ويبدو ان اعمار البشرية في مراحلها الاولى كانت تمتاز بالطول اذ ان عمر نوح النبي لم يكن غريباً على قومه بل ان القرآن الكريم ذكر في مواضع اخرى بان إطالة العمر على سبيل الاعجاز واردة ولكنها تبقى ضمن حدود الحكمة التي ارادها الله وهي اطالة العمر للتحدي للكافرين ثم ينتهي دور الانسان الذي أجرى الله عليه هذا الاعجاز كما حصل بالنسبة لفتية أهل الكهف حيث ذكر

---

(٢٣) انظر سوسة / د. أحمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الاثارية والمصادر التاريخية / ص ٢٠٢ .

القرآن الكريم ان الله انامهم ثلثمائة وتسع سنين وبعد يقظتهم تغيرت مظاهر الحياة بالنسبة اليهم والى مجتمعهم فاصبحوا غرباء لا دور لهم فأماتهم الله . وكذلك بالنسبة لعزير المذكور بدون اسمه في سورة البقرة حينما أماته الله مائة عام ثم بعثه فإن القرآن الكريم عندما أجرى هذه الخوارق ركز على حالة التحدي وتغير نواميس الحياة . فكيف لا يذكر هذا الأمر عندما يذكر مدة مكوث نوح في قومه ولم ينبه القرآن على هذه المسألة وهي طول الفترة . فدل ذلك على ان الاعمار كانت في تلك العصور تمتاز بطول السنين وقد عقب سيد قطب حول هذه الظاهرة بقوله « وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الافراد ولكننا نتلقاه من أصدق مصدر في هذا الوجود ـ وهذا وحده برهان صدقه ـ فإذا اردنا تفسيراً فإننا نستطيع ان نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلًا ومحدوداً ، فليس ببعيد ان يعوض الله هذه الاجيال عن كثرة العدد طول العمر . لعمارة الارض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الارض لم يعد هناك داع لطول الاعمار . وهذ الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الاحياء . فكلما قل العدد وقل النسل طالت الاعمار كما في النسور وبعض الزواحف كالسلحفاة حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الاعوام . بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه اكثر من اسبوعين »[٢٤] .

وهذا يؤكد لنا ان الاعمار القديمة للانسان امتازت بهذه الصفة وقد ورد اثر عن ابن عمر (رضي الله عنهما) عن مجاهد قال : قال لي ابن عمر (رضي الله عنهما) كم لبث نوح (عليه السلام) في قومه ؟ قلت : ألف سنة الا خمسين عاماً. قال : فإن من كان قبلكم كانوا أطول أعماراً ، ثم لم يزل الناس ينقصون في الاخلاق والآجال والاحلام والاجسام الى يومهم هذا)[٢٥] .

ويبدو ان نوح (عليه السلام) قد عمّر اكثر من جيله ضمن الحدود الطبيعية للمعمرين حتى أنه شهد أولاد جيله وكيف تواصلوا على تكذيبه والإعراض عنه وإشارة الى هذا جاء قوله تعالى حكاية عن نوح (عليه السلام) ﴿ رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا ﴾[٢٦] .

---

(٢٤) قطب / سيد / في ظلال القرآن / ج٥ ص ٢٧٢٧ .

(٢٥) السيوطي / عبدالرحمن جلال الدين / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / مجلد ص ٤٥٦ / دار الفكر سنة ١٩٨٣ .

(٢٦) سورة نوح / ٢٦ - ٢٧ .

فان نوح (عليه السلام) عانى وشهد هذه الحالة وكان يرى الاب يوصي أبنه بأن يتخلص من نوح ومن دعوته .

وعلى هذا الاساس فان حديث ابن عباس يمكن حمله على ان القرن قد يصل الى الف عام اعتباراً بمعدلات أعمار البشر في تلك العصور فيكون بين آدم ونوح (١٠,٠٠٠) عشرة آلاف سنة . وفي ذلك يقول ابن كثير « وان كان المراد بالقرن الجيل من الناس كما في قوله تعالى ﴿ وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح ﴾[٢٧] وقوله ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾[٢٨] وقوله ﴿ وقروناً بعد ذلك كثيرا ﴾[٢٩] . فقد كان الجيل قبل نوح يعمرون الدهور الطويلة . فعلى هذا يكون بين آدم ونوح الوف من السنين والله اعلم[٣٠] . اما رواية ابن عباس بأنهم كانوا على الاسلام فانه يدل على ان الاغلب كانوا على الاسلام او ان الاسلام كان هو الغالب ولا يمنع من وجود كافرين أو أن من القرون المتأخرة التي سبقت نوح لم يكونوا على الاسلام[٣١] .

ولقد مثل عصر النبي نوح (عليه السلام) تكاملاً في استقرار المجتمع البشري ومرحلة من مراحل تمكين الانسان في الارض وتقادم في الزمن على بعثة آخر نبي اليهم أو من كان يدعو البشرية الى طريق الحق . وهذه الحالة تعكس ان غروراً أصاب المجتمع البشري ونسياناً لقدرة الله وتنكراً للقيم والعقائد الصحيحة التي آمن بها من قبلهم ومن خلال الآيات المذكورة في القرآن الكريم تدل على تطبّع المجتمع بالمادية وإصرارهم على الموقف الخاطىء ونظرة طبقية كانت تحكم المجتمع بحيث عيبوه بأتباعه الاراذل[٣٢] (الفقراء) .

لقد مثلت رسالة نوح مرحلة جديدة من مراحل البشرية حتى عُدَّ نبي الله نوح (عليه السلام) (ابو البشرية الثاني) بعد آدم (عليه السلام) وإذا كانت ملامح البشرية منذ آدم حتى نوح يكتنفها الغموض ولم يتحدث القرآن الكريم عن أسماء أنبياء او مجتمعات بعد آدم حتى نوح . وذلك بتقديرنا لأن البشرية كانت تسير ببطء

---

(٢٧) سورة الاسراء / ١٧ .

(٢٨) سورة الفرقان / ٣٨ .

(٢٩) سورة المؤمنون / ٣١ .

(٣٠) ابن كثير / ابو الفداء إسماعيل / قصص الانبياء / ص ٦٨ - ٦٢ .

(٣١) انظر ابن كثير / م . س / ص ٦١ .

(٣٢) انظر الآيات حول نوح في سورة هود .

وتتغير بصورة متباعدة وكانت اعداد المجتمعات البشرية ضئيلة وأقدم تجمع سكاني اكتشف ضمن المكتشفات الآثار هو موقع جرمو في شمال العراق وقد سبق هذا الحدث بداية العصر الحجري الحديث او بالتحديد عصر توسط العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث وقد امتاز هذا العصر بميزات بسبب اعتدال المناخ « وهو عصر تمهيد بين الاقتصاد المستهلك للطعام والمعتمد على صيد الحيوانات والاسماك وجمع الفواكه وبين الاقتصاد المنتج للطعام بالزراعة والرعي . وبسبب الدفء الحاصل والاعتدال بالمناخ ظهرت مجالات جديدة للاستيطان في مواقع مفتوحة على شواطىء الانهار ومصباتها وعند العيون . بعد ان انتفت الحاجة الى الكهوف والملاجىء الصخرية والقلبات وحصل تقدم كبير في صناعة الآلات والادوات الحجرية . وفي موقع كريم شهر الذي يبعد قليلاً عن مدينة السليمانية استخرجت مناجل ورحي وعظام حيوانات وتبين ان نصف تلك العظام يعود الى حيوانات مدجنة[٣٣] وقد قدرت تواريخ هذا العصر قياساً على المواد المكتشفة في مواقعه حسب كاربون ١٤ الاشعاعي ان تاريخ هذا العصر ١٠٥٦٠ + ٦١٠ سنة وفي مصر وجدت آثار تعود الى نفس العصر[٣٤] وقد لاحظ علماء الآثار ان نسبة عظام الحيوانات المدجنة كلما تأخرنا في الزمن تزداد « حيث تم احصاء بقايا عظام الحيوانات المستخرجة من موقع بالي كورا يعود تاريخه الى اواخر العصر الحجري القديم الاعلى ومن موقع كريم شهر يعود تاريخه الى العصر الحجري المتوسط ومن قرية جرمو التي يعود تاريخها الى العصر الحجري الحديث وتدل الارقام على تغيير نسبة عظام المعز والاغنام المدجنة من ٣٠٪ الى ٥٠٪ الى ٩٥٪ على التوالي »[٣٥] .

ان الثورة الزراعية مثلث اعظم حدث حياتي يرتبط بطبيعة حياة الانسان وانتقاله الى مرحلة جديدة من مراحل وجوده على الارض « واقدم القرى الزراعية المكتشفة لاول مرة كانت جرمو هذه القرية حدد تاريخ بقايا انتاجاتها الحضارية باكثر من ٦٧٠٠ ق . م . وتقع القرية في ثنايا تل مرتفع مساحته خمسين كيلومتر شرق مدينة جمجمال . وتبعد اربعين كيلومتراً الى الشرق من مدينة كركوك . نقب فيها

---

(٣٣) الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجادر / عصور ما قبل التاريخ / ص ١٢٦ / مطبعة جامعة بغداد ١٩٨٣ .

(٣٤) الدباغ / د. تقي مع وليد الجادر / نفس م . / ص ١٢٨ .

(٣٥) الدباغ / د. تقي / م . س / ص ١٣٤ .

بريد وود وكشف عن بيوت سكن يقدر عددها خمسة وعشرين بيتاً وقدر بريد وود عدد سكان التجمع السكاني في هذه القرية الزراعية بحوالي (١٥٠) نسمة واستمر هؤلاء في السكن بالقرية نحو الاربعة قرون[٣٦] .

لقد عثر في الطبقة الخامسة من موقع جرمو على فخاريات تتميز بكونها سمجة الصناعة سميكة الجدران هشة بفعل شيها في درجات حرارة منخفضة نسبياً وطينتها غير نقية وغير مزخرفة . الا ان بعض الاواني كانت ملونة باللون الاسود »[٣٧] . ان طبيعة هذا العصر امتازت بنقلة نوعية بعد ان خرج الانسان من الكهوف واستقر في السهول وعند مصبات الانهار ودجن الحيوانات وطور صناعات بسيطة كالاواني والحلي والالات الزراعية تتلاءم مع طبيعة المجتمع الزراعي .

وان هذا العصر يمكن حصره بين ١٠,٠٠٠ ـ ٧,٠٠٠ ق . م . كانت فيه طبيعة الحياة زراعية بسيطة تتطور ببطء كما ذكرنا .

إذا عدنا الى النصوص القرآنية التي تحدثت عن المجتمع الذي عاصر نوح (عليه السلام) نجدها تؤكد على النعم الزراعية وارتباط الماء بالزرع والنباتات والجنان وهو ما يؤكد بأن عصر نوح كان عصراً زراعياً بحيث حاول نوح (عليه السلام) ان يذكّرهم بنعم الله عليهم ليردهم الى طريق الحق ﴿ فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[٣٨] . ذكرهم بنعمة المطر والاموال المذكورة هي الانعام والحيوانات المدجنة اذ لم يكن في عصره مفهوم للمال غير هذا المفهوم وذكّرهم بالانهار والجنان التي تزهو بخضرتها على أطراف الانهار . وهذا وصف للطبيعة التى يمكن أن تكون مرسومة في ذهن الانسان المعاصر لنبي الله نوح (عليه السلام) .

نستطيع بعد هذه الملاحظات ان نؤكد بأن أول استقرار للانسان كان يقترن بالزراعة « وقد اتفق العلماء بشبه اجماع على ان الحضارة البشرية ومدنية الانسان

---

(٣٦) الدباغ / د. تقي / م . س / ١٣٤ .

(٣٧) الدباغ / د. تقي / ن . م . / ص ١٣٨ .

(٣٨) سورة نوح / ١٠ ـ ١٢ ويؤيد ما ذهبنا اليه حول مفهوم المال ما ذكر د. جواد علي : « وقد كان الجمل مقام (النقد) اي مقام الدينار والدرهم فبعدد من الابل يقدر مهر الفتاة وبعدد من الابل تقدر الديات وتفض الخصومات » / المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / ج١ ص ١٩٧ .

القديم بدأتا اول ما بدأتا مقترنة باختراع الزراعة
ان بلاد العرب وبخاصة شبه جزيرة العرب هي
الزراعة التي تعتمد على الري اول مرة في تاريخ
مدة الدورة الجليدية الرابعة التي دامت أكثر
الجيلوجيون عمر الارض الى فترات احدثها بليس
اربع دورات جليدية مع مراحلها الدفيئة ،
الجليدية[٤٠] :-

	اسم الدورة
١ -	دورة كنز (Gunz) الفترة الدفيئة الاولى (كنز - مندل)
٢ -	دورة مندل (Mindl) الفترة الدفيئة الثانية (مندل - رس)
٣ -	دوري رس Riss الفترة الدفيئة الثالثة (رس - ورم)
٤ -	دورة ورم (Wurm) الفترة الدفيئة الرابعة

ان الذي يهمنا هو الدورة الرابعة عصر ور
ظهروا في مجتمعات متمدنة ومارسوا دعوتهم
تأسست عند الاسس الاولى للحياة الانسانية

(٣٩) سوسة / د. احمد / م . س / ص ١١٤ .
(٤٠) سوسة / د. احمد / م . س / ص١٢١ وكذلك د
وادي الرافدين .
(٤١) انظر سوسة /د. احمد / م . س / ص ١٢١ و
د. وليد الجادر .

وبدأت التطلعات الروحية والعاطفية والفكرية تصطبغ بها الحياة الانسانية علماً ان الدورة الرابعة معظمها مغطى بما يسمى بالعصور الحجرية وقد دعيت بالعصور الحجرية لان الانسان الذي عاش تلك العصور كانت معظم (أدواته من الحجارة) وسميت أحياناً ب (عصور ما قبل التاريخ) »[٤٢] وهذه العصور الحجرية قسمت كذلك وأهم عصر يعنينا هو العصر الحجري الحديث نيوليثيك (Neolithic) ويبدأ هذا العصر في حدود الألف الثامنة او السابعة الى سنة ٥٦٠٠ ق . م . ومن مظاهر النهضة الحضارية في هذا العصر :-

١ - الزراعة .
٢ - استئناس الحيوان .
٣ - تطور في صناعة الخزف (الفخار) .
٤ - الآلات الحجرية المصقولة بدلًا من المشظاة[٤٣] وقد قسم هذا العصر الى أقسام يمكن تحديدها كما يلي :-
   ١ - دور جرمو تاريخها ٦٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق . م .
   ٢ - دور حسونة تاريخها ٤٨٠٠ ق . م .
   ٣ - دور سامراء تاريخها ٥٥٠٠ - ٤١٠٠ ق . م .

ثم يبدأ العصر الحجري المعدني او البرونزي (الكالكولثيك Calcolithic) ٥٦٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م . وقسم هذا العصر الى اربعة أدوار :-

١ - دور حلف تاريخه الى ما قبل ٥٠٠٠ ق . م .
٢ - دور العبيد تاريخه ٥٠٠٠ - ٤٥٠٠ ق . م .
٣ - دور الوركاء ٣٨٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م .
٤ - دور جمدة نصر ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ ق . م .

عصر ورم المرحلة الدفيئة الرابعة الواقعة ضمن حدود ١٥٠٠٠ ق . م . وفي دور جرمو بالتحديد في حدود الالف السابعة ق . م . يمكن ان نضع عصر النبي نوح (عليه السلام) ، لأن ميزات دور جرمو يمكن ان نجدها في عصر نوح حيث الزراعة كما ذكرنا ذكرها نوح (عليه السلام) لقومه وكذلك تدجين الحيوانات والانعام وقد

---

(٤٢) سوسة / د. احمد / تاريخ وادي الرافدين / ص ١٢٣ .
(٤٣) سوسة / ن . م / ص ١٢٧ .

ذكرها نوح لقومه (بأموال) اي انعام وقد ذكر القرآن الكريم نعمة امتلاك الانعام بقوله ﴿ أو لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت أيدينا انعاماً فهم لها مالكون ﴾[٤٤] . فدلّ ذلك على أن الاموال المذكورة في سورة نوح هي من صنف تلك الانعام . والصفة الثالثة الفخار وفي آية[٤٥] إشارة الى الطوفان كانت فوران التنور والتنور مكان النار والنارُ قرينة على صناعة الفخار قال ابن كثير « نبعت الارض من سائر ارجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار[٤٦] » وصناعة الفلك تدل على استعداد وبدايات لتطوير قابليات الانسان نحو الصناعة فجاء أمر الله ببناء السفينة ضمن امكانية واستعداد الجماعة التي كانت مؤمنة مع نوح (عليه السلام) ، وحول السفينة هناك إشارة وردت حول استعمال القار الاسود فقد ورد في الاثر عن الثوري : « أمره أن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار »[٤٧] واذا قارنا بالفخاريات التي عثر عليها في موقع جرمّو فقد كان قسم منها مطلي بالالوان السوداء وان القار قد شاع استخدامه في ذلك العصر . كما سنتعرف على ذلك من خلال الدراسات الآثارية .

مكان النبي نوح (عليه السلام) ومجتمعه

(دراسة تحليلية ومقارنة)

ليس من السهولة ان نحدد المكان الذي ظهر فيه النبي نوح (عليه السلام) ولكننا سنحاول ان نحلل النصوص القرآنية ونمزج التحليل ونقارنه مع الحفريات والمكتشفات الآثارية لكي نجمع صورةً حول عصره ونسلط الضوء على دعوته والمجتمع الذي بعث فيه والمكان الذي كان مسرحاً لأحداث رسالته وبذلك تتكامل العبرة وتتعزز أدلة الايمان بأن دعوات الانبياء هي أصل المدنيات والحضارات ويزداد المؤمنون ايماناً ويتوقف الرافضون لطرح القرآن حول نشأة الانسان ومستقبل وجوده

---

(٤٤) سورة يس / ٧١ .

(٤٥) وهي قوله تعالى ﴿ فاذا جاء امرنا وفار التنور... ﴾ سورة المؤمنون / ٢٣ .

(٤٦) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ٧٨ .

(٤٧) ابن كثير / ن . م / ص ٧٧ .

في رحلته على الارض ويتعزز دور القرآن بوصفه مصدراً مهماً لدراسة التاريخ القديم كذلك نعد هذا العمل يغطي طموح الانسان وحاجته لمعرفة تاريخه كما يقول فولتير « احب أن أعلم الخطوات التي سارها الانسان من الهمجية الى المدنية »[٤٨] .

لقد كان نوح يمثل اول الرسل الى المجتمع البشري ولا يهمنا مصير المجتمعات التي كانت موجودة في عصره ولم نعرف خبرها لاننا نحاول ان نتابع جهود الانبياء في تغيير المجتمع البشري وآثارهم فيما بعد . ونحن نعلم ان التوراة تصدت لذكر النبي نوح ودعوته وفصلت عملية الطوفان الذي حل في عصره وهذا يعد أقوى دليل على بقاء أثر النبي نوح على البشرية فنقل اليهود عبر توراتهم جزءاً من أخبار النبي نوح (عليه السلام) وانتقل هذا الأثر الى المسيحية ثم جاء القرآن وتصدى وفصّل دعوة النبي نوح (عليه السلام) وموقف قومه معه ومصيرهم فما من مسلم اليوم الا وهو يعلم بأن نوح (عليه السلام) أحد أهم خمسة من الرسل الذين بعثهم الله وسماهم القرآن الكريم (اولي العزم) وما من مسيحي الا ويعلم دور النبي نوح (عليه السلام) وكذلك اليهود . اذن ديانات التوحيد الثلاثة تعرف شخصية النبي نوح (عليه السلام) وأثره في حياة البشر .

وقد سلط القرآن الكريم الضوء على مجتمع نوح وأعطى بعض الملامح التي تساعدنا على رسم صورة لأقدم مجتمع بشري استشرى فيه الانحراف العقائدي والاخلاقي بعد آدم (عليه السلام) وأنبياء أدوا دورهم لا نعرف عنهم شيئاً ولكن القرآن الكريم يتوقف في أكثر من موضع يعرض علينا صوراً لانحراف المجتمع في عصر نوح ويعرض لنا المحاولات العديدة التي مارسها نوح مع قومه لكي يغيرهم ويعيدهم الى اصل اعتقادهم ويضع خطاهم على الطريق المستقيم الذي علّمه الانبياء للبشر . ولكنهم كانوا يرفضون كل المحاولات ويصدون عن النبي بشتى الوسائل ﴿ قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونهارا فلم يزدهم دعائي إلا فرارا وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصرّوا واستكبروا استكبارا ﴾[٤٩] .

إصرار عجيب يوضحه لنا القرآن الكريم من خلال صور من الصدّ والإعراض جعل الاصابع في الآذان وتغطية الوجوه والعيون بالثياب وقلنا بأن مسألة الملابس

---

(٤٨) هذا القول يستشهد به ديورانت في قصة الحضارة م١ ص١ .

(٤٩) سورة نوح/ ٥ ـ ٧ .

منذ آدم جعل الله الفطرة الملابس والانحراف عن الفطرة هو التعري وكشف السوءات وفي هذه الآية نستدل على ان عصر نوح كان متميزاً بالملابس والمنسوجات . وقلنا انه عصر زراعي مع بداية تشكلت نحو الصناعة مثل الآلات والفخاريات وما أن حل عصر العبيد نحو ٥٠٠٠ ق . م . الا وقد عم المحيط الحيوي القديم نماذج من القرى وبدايات المدن الصغيرة ومنذ بداية الالف السابع حتى الالف السادس كانت تتكامل نحو أشكال اكثر تعبيراً عن المجتمع والسلوك الاجتماعي . ولقد اكتشفت آثار وفخاريات تعود الى عصر العبيد على مدى شبه الجزيرة العربية والعراق وسوريا ومصر وفلسطين[٥٠] .

ومنذ عصر آدم الذي مثل البداية ورمز الى العوامل والاسس التي بنى عليها المجتمع البشري وأراد الله أن يجعل من آدم النموذج الانساني الذي سيمثل الارادة الالهية على الارض بضعفه وقوته بخطأه وصوابه بالخير والشر الذي فيه . والأمر لا يمكن ان يوضع في موقعه الا من خلال هذه الصورة التي رسمتها الارادة الالهية . وليست القضية ميثولوجيا كما يتصورها البعض بل هي حقيقة كبرى قام عليها الوجود واذا كانت هذه ميثولوجيا فانهم يقفون عاجزين عن اعطاء الانسان التفسير المنطقي لوجوده ومسيرته وتتحول إجاباتهم الى ميثولوجيا من نوع آخر غير منطقية قد تصل الى حد الخرافة كما عرفنا ذلك في الفصل الاول من هذه الدراسة عندما كان علماء الانثروبولوجي يتابعون مسألة تطور الحياة .

وكما أختار الله جلت قدرته آدم واصطفاه وكرمه بالنبوة ومنحه شرف مسؤولية الخلافة أختار الله نوحاً كذلك . وشخصية نوح القرآنية هي غير نوح التوراتية المشوهة وقد صور اليهود هذا النبي الكريم وصورته توراتهم شارباً للخمرة ويشربها حتى يثمل ويتحول كالقرد يترنح ويفقد اتزانه وعقله ويكفر بالله[٥١] . ان اليهود يريدون ان يملكوا تاريخ العالم لكي يسيطروا على الامم . ومن خلال تشويه الانبياء وشخصياتهم والافتراء عليهم بالبهتان والزور واتهامهم بشرب الخمور[٥٢] والشذوذ

---

(٥٠) انظر الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجادر / عصور ما قبل التاريخ / الفصل الخامس الشرق الادنى في العصر الحجري الحديث . وكذلك سوسة / د. احمد تاريخ حضارة وادي الرافدين .

(٥١) الشوك / علي الاساطير بين المعتقدات الدينية / ص ١١٣ .

(٥٢) نص العهد القديم (واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرماً وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل ←

والفواحش لكي يقولوا للعالم ان الرذيلة هي أصل الوجود الانساني ولا وجود للفضيلة في عالم البشر بل هو عالم حيواني تحركه الشهوة وقد استطاعوا ان يمتلكوا القدرة على وضع الانسانية في موضع الشك والارتياب والاتهام من خلال استهداف الانبياء وطمس حقائق دعواتهم وتشويه اكثر شخصياتهم وبذلك استطاعوا ان يغيبوا المعالم الواضحة والتي أرادها الله أن تكون القدوة للانسانية بشخصيات الانبياء . وحولوا حياتهم الى خمرة وجنس وبحث عن شهوة التسلط وصراع مع الله سبحانه وتعالى . وتراكمت في نفوس البشر معاني الحقد والسواد . وهي محاولة لتغيير الفطرة باتجاه هدف الشيطان في زرع العداوة والبغضاء محل الاخوة والتسامح والسلام والمحبة .

لقد رسم القرآن الكريم شخصية النبي نوح (عليه السلام) بالقوة والعزيمة والطاعة لله والارتباط به وامتلك نوح صفات اجتمعت فيه الشجاعة والصبر قال تعالى ﴿ **كذّبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر** ﴾[٥٣] وقال تعالى عنه ﴿ **سلام على نوح في العالمين * انا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين * ثم أغرقنا الآخرين** ﴾[٥٤] .

ولا يوجد في القرآن الكريم اي معلومة حول آباء نوح وأبنائه على عكس التوراة التي تفصّل أخباراً صيغت بأسلوب اسطوري حول آباء ونسب النبي نوح وعن ذرية نوح . وإنه ولد له سام وحام ويافث وإنه كان لحام ولد اسمه كنعان « وهو الذي أبصر جده نوح في حالة سكر وعري وقام باخصاء جده . وان حام هو جدُّ الجنس الاسود لأن نوح دعا عليه وعلى ذريته بالسواد وأن تكون ذرية حام خدم لذرية سام ويافث . وان الغرض من هذه السطور كما يقول (غريفز وباتاي) هو لتبرير استعباد العبريين للكنعانيين . وفي أحد المقاطع المدراشية أضيفت خطيئة الشذوذ الجنسي الى خطايا حام وفي سفر اللاويين يرد تعداد طويل للخطايا الجنسية الكنعانية »[٥٥] .

في القرآن الكريم إشارات مقتضبة حول ذرية نوح ﴿ **ولقد نادانا نوح فلنعم**

← خيمته . فشاهد حام ابو الكنعانيين عرى ابيه » الكتاب المقدس / العهد القديم / التكوين ٩ : ٢٠ .

(٥٣) القمر / ٩ .

(٥٤) الصافات / ٧٩ ـ ٨٢ .

(٥٥) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديم والتوراة / ص ١١٣ .

المجيبون ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾[٥٦] .
﴿ فأوحينا اليه أن إصنع الفلك بأعيننا ووحينا فإذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول منهم ﴾[٥٧] . وقال تعالى ﴿ فكذبوه فأنجينا الذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾[٥٨] .
﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾[٥٩] وقال تعالى ﴿ وأوحي إلى نوح إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون... حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن * وما آمن معه إلا قليل ﴾ الآيات من سورة هود . وتتعرض آيات في سورة هود حول ابن نوح الذي كفر وأعرض عن دعوة أبيه فاغرقه الله مع القوم الظالمين ﴿ ونادى نوح ربه فقال ربي إن إبني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم * وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴾[٦٠] وفي نص آخر ﴿ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ثم أغرقنا بعد الباقين * إن في ذلك لآية ﴾[٦١] . ﴿ فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناهم آية للعالمين ﴾[٦٢] . ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾[٦٣] . وفي إشارة واحدة الى والدي نوح (عليه السلام) وهي آخر آية في سوة نوح ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين الا تبارا ﴾[٦٤] هذه معظم النصوص الي تحدثت عن ذرية نوح وشملت الآيات القرآنية مع ذريته من آمن من قوم نوح واتبعوه وأشارت الآيات الى إنهم كانوا قليل . ولم يوجد في القرآن الكريم ما يروج له منظّروا النظرية السامية وأن الساميين

---

(٥٦) سورة الصافات / ٧٥ ـ ٧٨ .
(٥٧) سورة المؤمنون / ٢٦ ـ ٢٧ .
(٥٨) سورة الاعراف / ٦٤ .
(٥٩) سورة يونس / ٧٢ .
(٦٠) سورة هود / ٤٧ .
(٦١) سورة الشعراء / ١١٩ ـ ١٢١ .
(٦٢) سورة العنكبوت / ١٥ .
(٦٣) سورة الصافات / ٧٧ .
(٦٤) سورة نوح / ٢٨ .

يمثلون العقل المبدع والجنس الصافي الذي كان مصدر الالهام والابداع في حياة البشرية . لكي يبرر اليهود عقيدتهم التي تمنحهم حق الاستعلاء واستعباد الشعوب على أساس إنهم الجنس السامي الوحيد الذي لم تختلط دمائه بدماء ملوثة نقلت الخطيئة من حام وكنعان .

ان البيئة التي عاشها نوح وقومه يمكن تصورها بانها بيئة زراعية وفيها بساتين وعلى مقربة من ضفاف الانهار لأن الله عندما أمره بصناعة الفلك انما كان هذا العمل ضمن حدود الامكانية المتاحة له ولقومه لان الله سبحانه وتعالى لم يأمر خارج حدود طاقة الانسان . فاقتضى ان يكون نوح ومن معه يملكون تصوراً حول السفن والقوارب ويتعاملون بالنقل المائي ولا يمكن ان يكون هذا المكان عند البطائح والاهوار لانها ارض مسطحة لا مرتفعات فيها وقد أشار القرآن الكريم الى البيئة التي كان فيها قوم نوح فيها من المرتفعات او الهضاب مع السهول بحيث ذكر تعالى حكاية عن نوح عندما بدأ الطوفان وأشار نوح الى ابنه ان يركب معهم في السفينة ﴿ قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ﴾ . ويذكر السيد ويلكوكس ان العرب يطلقون لفظة الجبل على كل مرتفع حتى لو كان تلّاً فيقول : « فلما اقتربنا من الشنافية لاحت لنا من بعيد أراض صحراوية واطئة فسألت الفلاحين عنها فقالوا في الحال : إنها الجبل . وفي الحقيقة لم تكن تلك الاراضي اكثر من تل بسيط وربما كانت لا تشبه الجبل اكثر من شبه تل »[٦٥] . ونحن لا نتفق مع هذا التعميم لان النص القرآني يذكر بأن نوح عندما طلب من ابنه الصعود الى السفينة كان جواب ابنه بأنه سوف ينجو من هذا الماء بالصعود على جبل عالٍ فاللجوء الى تل بسيط لم يكن يعطي شعوراً بالامان في أجواء الفيضان العارم الذي جرف الموجودات من مساكن وأشجار .

ويذكر السيد ويلكوكس أن سفينة نوح « ظهرت عائمة على سطح الماء اول مرة في احدى المدن التي كانت موجودة في تلك الايام في الفرات الادنى (في فرع كوش المندرس اليوم) فسارت الى جهة الجنوب الشرقي مدفوعة بقوتي تيار الماء والرياح المندفعتين من الشمال والشمال الغربي . وكانت مياه دجلة القديم تأتي من الشمال مدفوعة بقوة التيارفتلتقي بمياه الفرات في اور الكلدانيين فلابد ان يكون التيار قد جرف الفلك بعد أن وصلت الى هذا المكان فدفعها الى المنطقة الصحراوية الواقعة

---

(٦٥) ويلكوكس / وليم / من جنة عدن الى عبور نهر الاردن / ص ٢٣ / تعريب د. محمد الهاشمي بغداد ١٩٢٩ .

في جنوب مدينة أور القديمة »[٦٦] .

وهذه المعلومات على ما فيها من تحليلات ومتابعة من قبل خبير آثار متخصص بالري ويملك رؤية علمية يحاول من خلالها ان يوفق بين ما موجود في التوراة والمعلومات المتولدة من نتائج الحفريات . الا انه كان يسترسل مع ما موجود في مخيلته نتيجة لقراءة التوراة ولذلك من المجازفة قبول هذه الآراء مباشرة . ان المساحة التي كانت من المحتمل أن تكون مسرحاً لعصر نوح (عليه السلام) لا يمكن حصرها بسهولة لأن الفيضان قد أتى على كل المخلفات التي كان من الممكن ان نعثر عليها ونحللها ونقارنها مع نصوص القرآن الكريم ولكن حدوث الفيضان او الطوفان كأكبر حدث في عصر النبي نوح أعطانا فرصة ذهبية لتحديد مقياس لعصر ومكان النبي نوح وقومه . لأن الطوفان قد ترك آثاره على هذه البقعة وعلى العصر الذي حدث فيه والعصور التي تلته وهي تنقل حدوث طوفان هائل هز العالم الذي كان موجوداً في ذلك العصر .

وكما ذكرنا سابقاً فإن العراق كان يمثل وحدة جغرافية مع شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام . ولذلك يمكننا ان نعد إن وجود النبي نوح في العراق كان يعني ان تأثيره قد وصل الى شبه الجزيرة والى الشام وتشكلت وحدة فكرية وعقائدية في المنطقة وهو ما يجعل الحديث عن العراق يعني الحديث عن هذه المنطقة .

وهذه المسألة يمكن التعرف عليها بصورة أكثر تفصيلاً عندما نقرأ وصف نوح لمجتمعه وعقائده في قوله تعالى ﴿ ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خساراً ومكروا مكراً كبّارا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولاتذرن ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا ﴾[٦٧] . هذه الآلهة التي ذكر ابن عباس أنها أسماء لرجال صالحين وبعد موتهم استدرج الشيطان قوم نوح وقذف في فكرهم طريقة تعظيمهم بأن يصوروا تماثيل لهؤلاء الاشخاص وبعد جيل او جيلين تحول المجتمع الى عبادتهم[٦٨] ولكننا نجد ذكر لأسماء هؤلاء الاصنام في الشعر الجاهلي . فنجد (ودّاً) (بفتح الواو وضمها) الذي ذكر الاخباريون « إن هذيلاً عبدته مع كلب بن وبره وعبدته قريش

---

(٦٦) ويلكوكس / وليم / من جنة عدن الى عبور نهر الاردن / ٢٣ .

(٦٧) سورة نوح / ٢١ - ٢٤ .

(٦٨) انظر ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / م ٤ ص ٤٢٦ . وكذلك ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٦٩

ويبدو من اسماء الرجال (اي الذين تسموا به مثل عبدود) ومن الشعر الجاهلي انه كان معبوداً عند كثير من القبائل . قال الحطيئة العبسي :

فحيـــاك وَدٌّ مـــا هـــداك لفتيـــه
وخـــوصي بـــاعلى ذي طـــوالـــة هُجَّـدِ

ويبدو هذا الصنم ضارياً في أعماق التاريخ فنجده عند الآراميين باسم هدد وهو عندهم (اله البرق) ونجده باسم أدد Adad عند البابليين والآشوريين . وهو عندهم قوة مدمرة سخية معا . وود معبود ثمود كما تدل النقوش الثمودية ومن معبودات اللحيانيين والمعينين »[٦٩] « فعبادة ود أعم مما ذكره ابن الكلبي وأشمل ، واقدم في تاريخ الشرق وأوغل وقد صدق رب العزة ـ وكل ما قاله حق ـ اذ رد عبادته بدءاً الى قوم نوح (عليه السلام)[٧٠] . اما سواع فقد ذكر الشهرستاني ان هذيلاً عبدته فقال « وسواع لهذيل وكانوا يحجون اليه وينحرون اليه »[٧١]

وهكذا كانت أصنام عصر نوح (عليه السلام) تفرض سطوتها وتاثيرها على بلاد العرب وقد ذكر زيدان في انساب العرب عن هذه الاصنام : « (بأن ود كان على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر) وقد عرف الاخير بصيغته الآرامية (نشرا) عده التلمود وبعض الوثائق السريانية إلهاً عربياً »[٧٢] . ونجد ان هذه الآلهة قد انتشرت وعمت شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام كما ذكر المؤرخون بأن القبائل العربية في شبه الجزيرة قد أخذت هذه الاصنام وعبدتها فكان ود لكلب في دومة الجندل وهي بالشام شمال الجزيرة . وهكذا اخذت باقي القبائل هذه الاصنام[٧٣] . وقد وجدنا ان هذه الآلهة قد حوتها كتابات أوغاريت اللبنانية فقد وجدت نصوص تذكر الآلهة التي كانت

---

(٦٩) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في شعر ذؤيب الهذلي الجاهلي / ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٧٠) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في شعر ذؤيب الهذلي الجاهلي / ص ١٢٩ ـ ١٣٠ .

(٧١) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة عن الملل والنحل / ص ١٢٧ .

(٧٢) الحوت / محمود سليم / في طريق الميثولوجيا عند العرب / ص ٥٧ / دار النهار بيروت ط٢ سنة ١٩٧٩ .

(٧٣) انظر ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج٤ ص ٤٢٦ .

منتشرة في بلاد أوغاريت الكنعانية التي كانت في أوج حضارتها المادية ونشاطها الاقتصادي كانت عقيدتها الوثنية قد أخذتها من الاقوام القريبة منهم . لهم اتصالات معهم وكان الالف الثالث قبل الميلاد الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد يمثل سطوة النفوذ السياسي والتجاري لبلاد الكنعانيين والتي كانت تشمل أوغاريت ضمن حدود مملكتها الى غزة وبين الصحراء السورية ومن سهول ادنه في جنوبي آسيا الصغرى الى صحراء النقب . وشيدت مدن حول الخلجان فكانت موانىء ذات شأن . وقد اكتشفت في أوغاريت رأس الشمرا (١٢ كم شمال اللاذقية) لوحات عليها كتابات مسمارية (بالخط البابلي) . وقد ورد في هذه النصوص ذكر الاله (م ت) وهو (موت) ويلقب بـ (مدد . إل) أو (ي د د . إل) ولفظه (مدد) أو (يدد) تعني شيئاً واحداً : الحبيب ، من جذر سامي مشترك : ود فهو حبيب الاله إيل أو الذي يحبه إيل »[٧٤] .

وإيل هو أعظم الآلهة وقد يكون هذا اللفظ يقصد به الله وهو الارجح وإيل لفظة قديمة استخدمت عند البابليين بكثرة واستخدمها العبرانيون أو اليهود وقد سمي يعقوب (عليه السلام) بـ (اسرائيل) أي (عبدالله) و (صموئيل) تعني اسماعيل . وتعني (المنذور إلى الاله إيل)[٧٥] . فإذا كان (ود) هو (ود . إل) في الاوغاريتية فهذا يؤكد ما ذهب اليه علماء التفسير وما ذهب اليه ابن عباس رضي الله عنه وآخرون بأن هذه المسميات هي لأناس صالحين . وذكر ابن كثير رواية عن الباقر « أن وداً كان رجلًا صالحاً وكان محبباً في قومه . فلما مات عكفوا حول قبره في أرض بابل وجزعوا عليه . فلما رأى ابليس جزعهم عليه تشبه في صورة انسان ثم قال : إني أرى جزعكم على هذا الرجل ، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون في ناديكم فتذكرونه به ؟ قالوا نعم ، فصور لهم مثله ، قال : فوضعوه في ناديهم وجعلوا يذكرونه . فلما رأى ما بهم من ذكره قال : هل لكم أن أجعل في منزل كل واحد منكم تمثالًا مثله

---

(٧٤) انظر فريحه / انيس / ملاحم واساطير من أوغاريت (رأس الشمرا) / ص ١٨ ـ ٥٢ بتصرف / دار النهار بيروت ١٩٨٠ .

(٧٥) انظر سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٩٣ . ولكن د. سوسة يقول معنى اسماعيل (اسمع ايها الإله ايل) ويفرق بينه وبين صموئيل ولكننا نرجح ان صموئيل هو نفسه اسماعيل ثم حدث التغير في النطق لاحقاً . لان اسماعيل هو الذبيح او المنذور الى الله .

ليكون له في بيته فتتذكرونه ؟ قالوا : نعم . قال : فمثل لكل أهل بيت تمثالاً مثله فأقبلوا فجعلوا يذكرون به . قال : وأدرك أبناؤهم فجعلوا يرون ما يصنعون به . قال : فتناسلوا ودرس أمر ذكرهم إياه حتى اتخذوه إلهاً يعبدونه من دون الله أولاد أولادهم . فكان أول ما عبد غير الله (ود) الصنم الذي سموه (وداً)[٧٦] .

ان انتشار الثقافة الوثنية او العقائد الوثنية على هذا المدى الواسع يؤكد لنا هيمنة ثقافة وادي الرافدين على منطقة الشرق الادنى في العصور القديمة فقد أثبت لنا الشعر الجاهلي أن الميثولوجيا التي كان يتغنى بها الشعراء كانت مستقاة من بلاد الرافدين كما وردت روايات ذكرناها في كتب التفسير والتاريخ تؤكد هذا المَعنى . وكذلك الرقم الحجرية التي اكتشفت في أوغاريت أكدت انتشار الثقافة البابلية في العالم القديم كله . إن بقاء هذه المعتقدات بعد الطوفان يؤكد إن حدث الطوفان قد حدث في مساحة محددة شملت حدود الارض والرقعة الجغرافية التي كانت تمثل العالم كله بالنسبة لمجتمع النبي نوح وعصره وذلك لصعوبة المواصلات والاتصال البطيء مع العالم الخارجي . ولذلك بعد الطوفان استمرت بعض الاقوام على وثنيتها التى أخذتها من قوم نوح قبل الطوفان لقد أثبتت الابحاث الآثارية بأن العراق شهد طوفاناً عظمياً أثر على العصر الذي حدث فيه وامتد تاثيره خارج حدود وادي الرافدين وتناقلته البشرية وامتد الى عصور لاحقة وتحول الى أسطورة ضخمتها أخيلة الادباء والقصاصين وتحول الى قصائد ملحمية واشعار حِكَمية تعبر عن علاقة الانسان بالخالق وتضع التفسيرات التي عكسها الطوفان على ذهنية الانسان القديم الذي نُقلت اليه رواية الطوفان عبر الاجيال فتحول الطوفان من حقيقة جاءت لتحقق اعجاز الله سبحانه وتعالى ولتنقل للاجيال اللاحقة صورة الغضب الإلهي على المجتمعات الكافرة . تحول ملحمة شعرية تعبر عن معاناة الانسان الذي يبحث عن الحقيقة وسط ركام من الافكار الجاهلية قال تعالى ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم الف سنة الا خسمين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾[٧٧] . فكانت نجاة نوح (عليه السلام) ومن معه آيةً للعالمين وبهذا تتضافر الادلة لتؤكد حقيقة واحدة وهي ان العراق كان

---

(٧٦) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٧١ . وانظر تفسير القرآن العظيم / ج٤ ص ٤٢٧ يورد نفس الرواية .

(٧٧) سورة العنكبوت / ١٤ ـ ١٥ .

يمثل المكان المناسب للنبي نوح (عليه السلام) واحداث عصره ودعوته ورسالته كانت على أرض الرافدين . وقد أكد الجيولوجيون والآثاريون إن أرض الرافدين قد شهدت اول الاستيطانات البشرية المرتبطة بالزراعة التي تعتمد على سقي الانهار وقد أكد الباحث الآثاري الجيولوجي نوزل « إن أعمق وأبعد مدى لجذور الحضارة أو ما يصطلح عليه (Up to) كان يشكل نواة جذور حضارة وادي الرافدين . وقد كانت المستوطنات البشرية تتجمع في الاماكن المرتفعة لتجنب الفيضانات ، وقد نجد آثار أقدم المستوطنات في وادي الرافدين قد تركزت في ثلاثة انواع من المناطق المرتفعة وهي) : (١) في بداية تشكل الانهار كانت المستقرات على ضفاف هذه الانهار . (٢) ثم نجدها على قمم الجبال الموازية لسلسلة جبال زاجروس التي تغطيها في العصر الحالي السهول الغرينية . (٣) ونجدها كذلك على أعلى التلال ضمن سلاسل من الجبال او التلال او الكثب التي تشكلت خلال العشرات الآلاف من السنين بسبب الرياح . ومن المعقول جداً ان الاستقرار البشري قبل الالف الرابع (ق . م .) قد أخذ موضعه في المناطق الاكثر ارتفاعاً لكي تكون هذه المستقرات في مأمن من الفيضانات »[٧٨] .

---

(٧٨) W. Nutzel: To which depths are (prehistrical civilizations) to be found breath the present alluvial plains of Mesopotania: Sumer. Vol. 34. 1978 - p. 17-25.

المبحث الثاني

دعــوة النبي نوح (عليه السلام)

دراسة اجتماعية مقارنة بين نصوص القرآن الكريم والآثار

كان عصر النبي نوح (عليه السلام) يمثل تكاملاً منطقياً وعقلياً ونضجاً في المجتمع البشري بحيث أصبح الانسان فيه كامل الوعي وتخلص الانسان عبر آلاف السنين من أمور بدائية كثيـرة واستجمع في ذاكرته تراكم المنجزات التي احدثها عقل الانسان وهو يتعامل مع الطبيعة ويواجه أنواع شتى من التحديات ، استطاع ان يدجن كثيراً من الحيوانات التي هياها الله سبحانه وتعالى لتتآلف مع الانسان وتمنحه جزءاً من حاجاته التي اوجد الله من خلال توافق تكوين هذه الحيوانات في خلقتها ووظيفتها لكي تؤدي خدمة لحياة الانسان على الارض فأحس الانسان بقرب الحيوانات المخلوقة خصيصاً لتتوافق مع حاجاته وكان حواراً حصل بين الانسان وهذه الحيوانات فوجد الانسان أن الامر مهيأ لتذليل هذه الحيوانات . وكذلك اكتشف هذا الانسان من خلال المخزون المعرفي الذي اودعه الله فيه الزراعة واستطاع ان يزرع انواعاً من الحبوب . التي وجدها تلبي حاجته وتوفر له أمناً غذائياً . واستطاع ان يطور بعض الادوات وأن يتأمل فيما حوله من حياة واشكالها ومن خلال المحاكاة والتطوير اكتشف النار وبدأت مرحلة الصناعة . وكانت التغيرات التي تحدث في حياة الانسان تسير ببطء . وكان التغيير يسير بخطى بطيئة الحركة . ولكن « نحن نعرف من دراستنا للتاريخ والآثار انه قد حدث في حضارات كثيرة أن مدداً طويلة من التغير

البطيء والهدوء النسبي قد اعقبتها مدد تتميز بالتغير السريع المصحوب بالتطور . وقد ارتبطت بفترات التغير السريع عمليات تكنولوجية جديدة مثل الزراعة . أو على نطاق اصغر تصنيع الحديد التي خلقت إمكانيات حضارية جديدة واضحة سرعان ما استغلها الانسان[٧٩] .

وكانت حركة التطور السريع التيّ تحدث نقله في حياة المجتمعات كانت تمثل مراحل فاصلة في العصور القديمة . وهذه من الامور الملفتة لنظر الباحثين وكأن دورة الحياة على الأرض محددة بصعود مستويات لتغيير طبيعة الحياة على الأرض بحيث تسير المجتمعات بصورة بطيئة وفجأة تتسارع خطوات التغيير لترسم صورة جديدة من الحياة بعد سبات طويل[٨٠] .

لقد كانت البشرية في عصر نوح قد وصلت الى عهد من الرخاء والاسترخاء وابتعدت عن عوامل شدها الى السماء بسبب هذا ألواقع الجديد الذي طغى على حياة المجتمع حيث الانحراف العقائدي وانتشار الوثنية وعبادة الاصنام واتّباع الشهوات والاهواء وعبادة المال كما حدد القرآن هذا المفهوم بقوله تعالى حكايةً عن نوح : ﴿ واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ﴾[٨١] واستعلت طبيعة المترفين واصابها الغرور بحيث عدّوا ان دعوة النبي نوح تمثل حرباً عليهم ومحاولةً لتجريدهم من مراكزهم الاجتماعية والاقتصادية . وقد ذكر القرآن الكريم الوضع النفسي الذي كان يعاني منه الكافرون واسباب صدهم وإعراضهم وحربهم لنوح (عليه السلام) كما في قوله تعالى ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ﴾[٨٢] .

هذه النقاط التي حددها النص القرآني تؤكد رفض هذه الطبقة لنبوة نوح بوصفه انساناً عادياً مثلهم وهذا يثير فيهم حسداً وحقداً . وكذلك العقلية التي كانت سائدة ، تكوينها الثقافي والايديولوجي يعيش في أوهام وميثولوجيا تتوقع أن يكون النبي فوق البشر وهذا المرض يعود عند كثير من الناس عند كل نبوة ونبي . وكذلك اتّباع الفقراء

(٧٩) لنتون / رالف / شجرة الحضارة / ص ٩١ .

(٨٠) لنتون / رالف / شجرة الحضارة / ص ٩١ وما بعدها .

(٨١) سورة نوح / ٢١ .

(٨٢) سورة هود / ٢٧ .

والمحرومين للنبي يؤكد وجود ظلم اجتماعي وطبقي يعبّر عن نفسه في رفضٍ لكل قيم ومُثلٍ تؤمن بمساواة البشر ولا فَضل لاحد على احد . لان هذه القيم سوف تحرم المترفين من الاستمتاع بخدمة الفقراء والمستضعفين وامتهانهم وتسخيرهم لتحقيق شهواتهم ومتعهم .

لقد وضع القرآن الكريم مقياس التكريم للعمل الذي يؤديه الانسان وقد أشارت الآيات التي تحدثت عن أحد أبناء نوح الذي رفض الهدى الذي جاء به نوح واختار لنفسه طريقاً آخر . وقد أكدت هذه الآيات بطلان سيادة الدم وتفاضل الاجناس منذ بداية البشرية وان سيادة العالم مسخرة لمن يستجيب لناموس الله الذي أودعه في المجتمع البشري . وعندما تحركت عاطفة الابوة في نوح قال : رب إن ابني من أهلي . حسم القرآن هذه القضية وتجاوز الرب جلت قدرته العواطف التي من شأنها ان تفسد الحياة اذا كانت هي الفاعلة والمؤثرة في المقاييس الانسانية فحدد الله جلّت قدرته بآيات وكلمات قليلة أساس العلاقة معه من بني الانسان ﴿ انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ هكذا بكل وضوح وضعت القضية ضمن مسارها الصحيح . العمل الصالح هو نسب الانسان . ان القرآن الكريم في تعاليمه كان يؤسس قواعد ويضع الموازين لمحاصرة الباطل وفتح المجال امام الانسان لكي يتحرك لعمارة الارض بوحي القيم السماوية الخالدة . ولا يوجد تفضيل لانسان على انسان ولا مجتمع على مجتمع الا بمقتضى المقاييس التي وضعها الله سبحانه . وقد الغت هذه الآيات الاعتبارات التي تشبث بها اليهود ليبرروا سيطرتهم على العالم من خلال إرهاب الفكر الذي يعادي السامية ولذلك جاءت نظريات الحتمية البايولوجية(٨٣) رد فعل ضد السامية فعدت « الآسيويين والافريقيين واليهود منحطين وراثياً »(٨٤) . ان هذه النظريات تدور في فلك الصراع على التاريخ وهذا يعني الصراع على المستقبل وكلها يحكمها الهوى والتعصب والاستعلاء على الانسانية « لأن التحكم الاجتماعي بمعناه الوراثي

---

(٨٣) الحتمية البيويولوجية آخر صرخة في الحضارة الغربية المعاصرة وهي نظرية تعصبية تؤكد على ان الشعوب المتخلفة تخلفها وراثي ولا جدوى من محاولة اصلاحها انظر المصدر أدناه .

(٨٤) روز/ ستيفن/ وآخرين/ علم الاحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية/ ص ٣٤/ سلسلة عالم المعرفة ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمي .

النهائي يعني سلب انسانية الانسان »[٨٥] وحتى لو سلمنا بوجود تأثير وراثي للسلوك « لكن اتصال الجماعات الانسانية القديمة ببعضها والتنافس بينها عمليتان استمرتا منذ أقدم العصور »[٨٦] وهو ما أدى الى تمازج الدماء الى حد يجعل نقاء الجنس أشبه بالاسطورة[٨٧] .

لقد بعث الله نوحاً الى مجتمع يعرف كيف يراوغ واستمرأ الحياة الدنيا وركن اليها . وكان هذا المجتمع قد وصل مستوى نقله الى المرحلة الثانية لانطلاقة البشرية بعد آدم الذي مثل عصره نواة الانطلاقة الاولى للانسانية فكان نوح (عليه السلام) يسمى (أبا البشرية الثاني) وكانت البشرية قد نست أباها الأول وانقطع التاريخ وطوت صفحات النسيان الاسس التي وضعها آدم (عليه السلام) لذريته من بعده . فطال الزمان آلاف السنين انفصلت البشرية عن عبوديتها للخالق بفعل مؤثرات كثيرة جعلها الله أسباباً يختبر بها عباده الذين يثبتون على الحق ولا يغيرون ولا يبدلون . وكان الشيطان يراقب الانسان ويبحث له عن فرصة لكي يزيّن للناس عبادة غير الله من الاشياء التي يوهمهم بها بأن لها أثر على الحياة . تارة يدخل عن طريق غير مباشر كما دخل على قوم نوح (عليه السلام) عندما أغراهم بنصب يذكرون بها صالحيهم ثم انحرفوا من الذكرى الى العبادة وتارة يوهمهم بآثار الكواكب والشمس والقمر وقد يصل الامر الى حيوانات واحجار يؤلهها الانسان لكي يشبع غريزة التدين وفطرته التي قذفها الله في أعماقه . فكانت الرسالة في عصر نوح تمثل احتياج الجسد الى الروح . وتمثل الماء من السماء الى الارض اليابسة العطشى . لقد كانت ضرورة أكثر من ضرورة الهواء الى الحياة لانها وضعت المَعلَم العظيم لحياة الانسان على الارض فكان الدين المتكامل في العقيدة والمنهج بحيث يلائم ما وصل اليه المستوى التصوري للانسان حول إحساسه بذاته ووجوده ووظيفته على الارض وعمقت رسالة نوح الاحساس بضرورة الدين للحياة وأصّلت الطريق الذي وضعه الله للانسان على الارض . لقد عبرت رسالة نوح عن قضيتين في حياة البشر الاولى العقيدة وهي الايمان بالاله الواحد والثانية تشريع يتلاءم مع طبيعة العصر عبّر عنها

---

(٨٥) روز/ ستيفن/ ن.م/ ص ١٠٦ .

(٨٦) لنتون/ رالف/ شجرة الحضارة/ ج١ ص ٦٤ .

(٨٧) انظر علي/ د. فاضل عبدالواحد/ من الواح سومر الى التوراة/ ص ٤٩ وما بعدها .

القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ أعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾[٨٨] .

ولقد أسست قصة نوح (عليه السلام) القرآنية مبدأ ومقياساً للقيمة الانسانية وهو الايمان والعمل الصالح والغت اي تأثير للاعتبارات العرقية والعنصرية وقد تمثل هذا المعنى في قضية ابن نوح الكافر وزوجه الكافرة . ويعد هذا المبدأ من اعظم المبادىء التي عرفتها البشرية ومازالت الانسانية تحاول وتكافح من اجل هذا المبدأ العظيم الذي الغى العنصرية والعرقية والعصبية والبشرية وما تزال تعاني من هذه الامراض وتحتاج الى استعادة هذه المعاني العظيمة التي أصلتها وثبتتها رسالة نوح (عليه السلام) . ومما يؤسف له ان اليهودية بتوراتها وتلمودها وفكرها شكلت محوراً لتدمير هذه الاسس والمعاني والقيم وذلك من خلال السامية والمناداة بها ومحاربة من يرفض هذه الفكرة المزيفة . وان من رحمة الله وأثر رسالة نوح (عليه السلام) ان هذه القيم أصبحت معلماً لا سبيل الى محوه من عقل الانسانية . او من رصيدها الواعي .

وقد عبرت دعوة نوح (عليه السلام) عن نظام ديني متكامل من خلال عبادة الله الواحد مع قيم ونظام اخلاقي (يعبر عنه بالتقوى) وشريعة تتمثل بطاعة النبي والتزام توجيهاته بوصفه موجهاً للمجتمع الذي يعيش عصره ويعبر عن الدين بواقعية الحياة . لا شك ان تطور وسائل الحياة والعيش مر بمراحل طويلة منذ آدم الى نوح وقد مثلت توجيهات آدم الاسس التي يقوم عليها المجتمع البشري ووضعت الانسان ضمن مستوى التكريم الإلهي . ونحن تابعنا المظاهر الاولى التي عبر عنها القرآن بكلمات مقتضبة تتلاءم مع بدايات بسيطة فكانت استجابة آدم وزوجه الى توجيهات الرب جلت قدرته هي المحور الاساسي وفي المخالفة الشقاء والمعاناة وقد طبقت التجربة بكل دقائقها عارضة نموذج الانسان الذي يخطأ ويعود وقد نجح فيها آدم وعبر عن النموذج البشري الانساني الكامل ، ثم كانت الآيات القليلة تضع ملامح الصورة الصحيحة للانسانية من خلال التأكيد على الملابس واستبشاع العري وتقبيحه لتؤكد ان أسس الحضارة الحقيقة تقوم على قيم ومبادىء أخلاقية وقد أحسن ديورانت عندما وصف شروط قيام الحضارة عندما قال : « والحضارة مشروطة بطائفة من العوامل هي التي تستحث خطاها او تعوق مسراها أولها العوامل الجيولوجية والعوامل الجغرافية والعوامل الاقتصادية وما هذه العوامل المادية

---

(٨٨) سورة نوح / ٣ .

والبيولوجية الا شروط لازمة لنشاة المدنية لكن تلك العوامل نفسها لا تكون مدنية ولا تنشئها من العدم . إذ لابد ان يضاف اليها العوامل النفسية الدقيقة فلابد ان يسود الناس نظام سياسي ولا مندوحة كذلك من وحدة لغوية الى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الافكار ثم لا مندوحة ايضاً عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة او الاسرة او المدرسة او غيرها حتى تكون هناك في لعبة الحياة قاعدة يرعاها اللاعبون ويعترف بها الخارجون عليها »[٨٩] .

ثم نقلنا القرآن الكريم الى الجيل الذي بعد آدم ومنذ البداية الاولى حيث قصة ابني آدم وكيف عرض القرآن الكريم العلاقة بين الانسان في مجتمع بدائي يحمل خصائص الارتقاء وقد عبّر القرآن الكريم عن نوعين من الانسان الاول يمثل الاستجابة للخير وكبت نوازع النفس المرضية كالهوى والحسد والثاني يمثل النوع الآخر الذي أحبط في الارتقاء واستجاب لغواية الشيطان فكانت اول جريمة على الارض وبينت هذه القصة ان الانسان لا يتغير في باطنه فهو انسان بما يحمل من خير وشر فهو يعيش في صراع مستمر في حياته ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾[٩٠] . ولكن في ثنايا القصة عرضت لنا الآيات مشهداً عرفنا من خلاله ان الانسان البدائي لم يكن يعرف الدفن ورسم لنا القرآن الكريم صورة من صور تطور التصور الانساني للحياة من خلال دفن الجثث والموتى . وكيف بدأ يتخلص الانسان من الصور الوحشية البدائية ويهذب في تصوراته ووسائل عيشه من خلال ازالة المناظر المستقبحة وتنظيف البيئة . والانسان الهمجي متحضر ايضاً كما يذكر ديورانت ضمن مفهوم واقعه وتكيفه لذلك الواقع . فهو يرى ان الانسان عندما بدأ يخزن طعامه بدأت معاناته « ذلك ان الانسان اذا ما بدأ يفكر في غده فقد خرج بذلك من جنة عدن الى وادي الهموم ، وحلت به صفرة الغم . وها هنا يشتد فيه الجشع وتبدأ الملكية[٩١] والانانية « ولكن مع تطور أساليب إدخار القوت كان يتبلور نظام سياسي واجتماع الناس لتحصيل

---

(٨٩) ديورانت / اول / قصة الحضارة / م١ ج١ ص ٣ ـ ٧ .

(٩٠) سورة الشمس / ٧ ـ ١٠ .

(٩١) ديورانت / وول / قصة الحضارة / م١ ج١ ص١١ ويذكر ديورانت مثل عند قبيلة البوشمن في افريقيا (اما وليمة او مجاعة) ويقول ان في قصر النظر هنا لحكمة صامتة .

القوت أعان على قيام الدولة»[٩٢] .

لقد علّمنا القرآن من خلال قصة ابني آدم أن الانسان البدائي (الذي كان يعيش عصر الهوموسابينز في بداياته الاولى) لم يكن يعرف كيف يدفن موتاه ولذلك ندرت الهياكل القديمة كحفريات (Foossils) لأن عدم دفن الموتى كان يعني «ترك الجسد ملقى في العراء الذي يصبح بدوره عنصراً اقتصادياً يضاف الى ما تقدمه الطبيعة . اذ تتولى امر ذلك الجسد الجوارح من الصقور وأبناء آوى وجميع أنواع آكلة الرمم ، حتى البكتريا التي تتغذى على الدم وعلى نخاع العظام والقوارض التي تأتي في النهاية على تلك العظام لأجل ما تحويه من الهلام (الجيلاتين) والجير »[٩٣] . فكان دفن الموتى من أقدم الاشياء التي اكتسبها الانسان من مظاهر التحضر والتخلص من التوحش . عندما وصلت البشرية الى عصر نوح كانت البشرية قد تأسست في تصوراتها قواعد المدنية وبناء المجتمعات ونواة الاستقرار والقرى والمدن حيث استطاع الانسان ان يشكل ظاهرة « التمدين (Urbanisation) التي يمكن أن تعد بحق أرقى انجاز توصل اليه الانسان في استقراره على الارض . فالمدنية وليدة الحضارة أو انها في الواقع هي الحضارة وهي الانسان متموضعاً ضمن اطار جغرافي اجتماعي محدد يعبر عن نظرته الى العالم . وعن تطلعاته وهمومه »[٩٤] لقد وصل الانسان في عصر نوح الى مستوى من الوعي الثقافي وكان يملك تصورات حول الله سبحانه وتعالى والآخرة وعكست لنا الآيات القرآنية مستوى ثقافي وحجج عقلية كان يجادل بها قوم نوح نبيهم حيث قال تعالى : ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين * ان هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين ﴾[٩٥] . لقد كان هؤلاء يعرفون ان هناك خالقاً هو الله وكانوا يعرفون هناك ملائكة وصرحوا بأن ثقافتهم الدينية التي تلقوها من آبائهم لم تذكر لهم أن الله كان يرسل بشراً رسلاً ولذلك برروا رفضهم لدعوة نوح (عليه السلام) . وقد وصفوا نبيهم

---

(٩٢) انظر ديورانت / ن . م / ص ١٢ .

(٩٣) انتون / رالف / شجرة الحضارة / ج١ ص٢٨ .

(٩٤) مصطفى / شاكر / المدن في الاسلام حتى العصر العثماني / م١ ص ١٠ / ط١ الكويت ١٩٨٨ .

(٩٥) سورة المؤمنون / ٢٤ - ٢٥ .

بانه مجنون أصابه مس من الجنون فعليهم الانتظار ومراقبة احواله لعله يهلك فيتخلص المجتمع من هذه المنغصات التي أظهرها هذا النبي ودعا اليها . ونحن نعلم أن المترفين هم الذين تصدوا لنوح (عليه السلام) وحاربوا دعوته لانهم وجدوا هذه الدعوة تعني الغاء الامتيازات التي حصلوا عليها في الطبقية التي كانت سائدة في ذلك العصر . وعندما صرح هؤلاء بأنهم ما سمعوا بما يدعيه نبيهم من آبائهم الاولين ولم ينقل لهم من الاجيال السابقة لهم ما جاء به نوح (عليه السلام) . وهذا يؤكد لنا أن الدين أصل وفطرة فطر الانسان عليها ولم يتطور هذا الدين حسب تطور عقل الانسان وحاجته ولم تبتدعه افكار الانسان بل هو المنهج الاصيل في حياة البشر ولم تسبق الافكار العقائد « وبعبارة أخرى سبقت الديانة الفلسفة »[٩٦] . ينظر الغربيون على ان الدين تولد في نفس الانسان نتيجة لمؤثرات قاهرة انعكست في حياة الانسان على شكل عقيدة دينية عبر من خلالها الانسان عن استجابته لبعض التحديات التي عجز عن التمكن منها والتغلب عليها ومن العوامل التي يعتقد هؤلاء الغربيون انها كانت تؤثر على خلق العقيدة الدينية « الخوف من الموت والدهشة لما يسبب الحوادث التي تأتي مصادفة او الاحداث التي ليس في مقدور الانسان فهمها . وكان أهم ما تعلقت به دهشتهم وما استوقف انظارهم بسرّه العجيب هما الجنس والاحلام . لقد بهت الانسان البدائي لهذه الاعاجيب التي يراها في نومه وفزع فزعاً شديداً حين شهد في رؤاه أشخاص اولئك الذين يعلم علم اليقين أنهم فارقوا الحياة[٩٧] . إن أعظم ما هو موجود عند الانسان هو ذلك المخزون المعرفي الذي يحويه في باطنه في مساحة هائلة وراء الوعي لا تزال سراً من أسرار الخلق . ان الانسان الذي اودع الله فيه سراً من التعامل مع البيئة في كل العصور منذ آدم (عليه السلام) هو نفسه لم يتغير انما تغيرت الظروف نتيجة لعوامل عديدة منها الخبرة المتراكمة التي تنتقل من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر كان الانسان خلالها يحور ويطور ويعدل ففي كل عصر لم يكن هناك خلق ولكن تطوير وكشف لأن الانسان لا يخلق ولكن الخلق صفة للخالق فالانسان « الهمجي هو ايضاً متمدن

---

(٩٦) ديورانت / وول / قصة الحضارة / م١ ج١ ص١٠١ .

(٩٧) ديورانت / وول / قصة الحضارة / م١ ج١ ص١٠٠ . وانظر كذلك شبلنجر / اسوالد / تدهور الغرب / ج ١ ص ٢٢٠ حيث يقول : « انها الاديان ذاتها التي ولدت ضمنها نفس وليدة في الشرق . نفس تسيل من جديد بخمرة الاحلام والمخاوف والتوحد .

بمعنى هام من معاني المدنية لانه يعني بنقل تراث القبيلة الى أبنائه . وما تراث القبيلة الا مجموعة الانظمة والعادات الاقتصادية والسياسية والعقلية والخلقية ، التي هذبتها أثناء جهادها في سبيل الاحتفاظ بحياتها على هذه الارض والاستمتاع بتلك الحياة واننا حين نطلق على غيرها من الناس اسم (الهمج) او (المتوحشين) فقد لا نعبّر بمثل هذه الالفاظ عن حقيقة موضوعية قائمة بل نعبر بها عن حبنا العارم لانفسنا لا اكثر . ولا شك اننا نبخس من قيمة هاتيك الشعوب السانجة التي تستطيع ان تعلمنا كثيرا جداً من الجود وحسن الخلق . فلو أننا أحصينا أسس المدنية ومقوماتها لوجدنا ان الامم العريانة قد أنشأتها او أدركتها جميعاً إلا شعباً واحداً . ولم تترك لنا شيئاً نضيفه سوى تهذيب تلك الاسس والمقومات لو استثنينا فن الكتابة »[٩٨] وهذا الكلام وان كان يعبر عن وجهة نظر فيلسوف ومؤرخ وعالم غربي يصدر عن مؤثرات حضارته واننا لا نتطابق معه في الآراء ولكن تبقى بعض الحقائق والمفاهيم مما لا يختلف عليه . وتدل على اتفاق منطقي في عقول البشر اينما وجدوا ومتى ما وجدوا .

ولذلك عندما حدثنا القرآن الكريم عن قوم نوح لم يكن يعبر عن صفة مميزة لهذا المجتمع البشري بل كان القرآن يرسم صورة المجتمع بجذوره وكأنه لم يتغير على مدار العصور والدهور . ومنذ وضع القرآن جميع الامم في مستوى واحد لكي يعطي خلاصة تجربة هؤلاء الاقوام ومصائرهم لتتشكل العبرة والعظة للانسانية على مدار الزمان قال تعالى ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله * جاءتهم رسلهم بالبينات فردّوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب ﴾[٩٩] وقد تكرر هذا الموقف في القرآن الكريم لكي يتعلم الانسان أن الجاهلية واحدة في مفهومها وصفاتها وأهدافها ولكن قد تتغير صورها وأشكالها وكذلك دعوة الانبياء دعوة واحدة تحمل حقيقة واحدة وهي التوحيد والدعوة الى عبادة الاله الواحد « والذي يقرأ القرآن يلحظ ولا شك التركيز على هذا المعنى في أكثر من مناسبة وفي أكثر من صورة . ان الانبياء جميعاً قد جاءوا بكلمة واحدة يقولونها لاقوامهم) ﴿ اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ وأن أقوامهم ـ في جاهليتهم ـ وقفوا من أنبيائهم موقفاً واحداً ، هو رفض الايمان بلا إله

---

(٩٨) ديورانت / وول / قصة الحضارة / م١ ج١ ص٩ .

(٩٩) سورة ابراهيم / ٩ .

الا الله . وتارة يوجه الحديث الى الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة كما في سورة فصلت ﴿ ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ﴾[100] . قولة واحدة ، وموقف واحد مكرر . ان هؤلاء الملأ المتجبرين على أقوامهم الذين يستعبدون البشر بسلطانهم انما يغتصبون في الحقيقة سلطاناً ليس لهم . انما هو حق الله سبحانه وتعالى وانهم يكونون غارقين في الترف الفاجر الى أنقانهم حريصين على الاستمتاع بهذا الترف الذي حصلوا عليه من ابتزاز حقوق العبيد واستغلال كدحهم وجهدهم . فيكرهون تحرر اولئك العبيد من سلطانهم . ثم تقع سلسلة من الاحداث تتشابه في كل جاهلية او تتماثل »[101] . نريد ان نثبت حقيقة تستند الى نصوص القرآن وهي ان عصر نوح عصر اول الرسالات ومنه بدأت سلسلة الرسل والانبياء ولذلك عرض القرآن الكريم عصر نوح أول العصور في كل استعراض يستعرض فيه مجموعة رسالات ودعوات .

قال تعالى مخاطباً محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيين من بعده وأوحينا الى ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾[102] والسنة تثبت ما اثبته القرآن وتجعل اول رسول الى الارض هو نوح (عليه السلام) « فكان أول رسول بعثه الله الى أهل الارض كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي حيان عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير . عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة (قال فيأتون آدم فيقولون : يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك واسكنك الله الجنة ، الا تشفع لنا الى ربك ؟ الا ترى ما نحن فيه وما بلغنا ؟ فيقول : ربي قد غضب غضباً شديداً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ونهاني عن شجرة فعصيت ، نفسي نفسي ، اذهبوا الى غيري ، اذهبوا الى نوح فيأتون نوحاً فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل الى أهل الارض وسماك الله عبداً شكورا ، الا ترى الى ما نحن فيه . الا ترى الى ما بلغنا ؟ الاتشفع لنا الى ربك عز وجل ؟ فيقول : ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده

---

(١٠٠) سورة فصلت / ٤٣ .

(١٠١) قطب / محمد كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٧٠ ـ ٧٩ بتصرف .

(١٠٢) سورة النساء / ١٦٣ ـ ١٦٥ .

مثله . نفسي نفسي) وذكر تمام الحديث كما أورده البخاري في قصة نوح .. »[١٠٣]
نوح (عليه السلام) أول رسول الى الارض ونحن نقرر هذه الحقيقة تواجهنا إشكالية في نظرتنا الى التاريخ واحداث عصره ومجتمعه ورسالته . هل كان نوح (عليه السلام) رسولاً يمثل رسالة عالمية الى كل الانسانية ؟ أم كانت رسالته خاصة بقومه ؟ هل كان هناك أنبياء أو رسل يعاصرونه الى أقوام آخرين ؟ وإذا كان نوح يمثل رسالة عالمية عمت جميع الارض ولم يكن هناك أنبياء أو رسل عاصروه فما هو مصير البشر الذين لم يصل اليهم تأثير رسالة نوح ؟ وهذه الاشكالية نفسها التي واجهتنا عند حديثنا عن آدم (عليه السلام) وعن الاقوام الذين كانوا قبله . والاقوام الذين عاصروه وهل يوجد حقاً أناس قبل آدم ؟ وهل كان هناك من البشر من عاصر آدم ؟

ذكرت آيات في سورة هود أمراً يبعث على التساؤل ، هذه الآيات هي قوله تعالى ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾[١٠٤] . يا ترى من المقصود بقوله تعالى ﴿ وأمم سنمتعهم ﴾ فهم غير ﴿ أمم ممن معك ﴾ فهل كان هناك بشر يعاصرون قوم نوح في بلاد أخرى أخبر الله تعالى انه سيمتعهم أو يبارك لهم ويعذب آخرين[١٠٥] قال ابن كثير : « قال محمد بن كعب : دخل في هذا الكلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة الى يوم القيامة » . وقد نوه الشيخ عبدالكريم المدرس الى وجود آراء تقول بعدم وقوع الطوفان شاملاً لكل الارض استناداً الى هذه الآية بقوله « ومما يحسن الاطلاع انه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الارضية او اختصاصه بأقليم سيدنا نوح (عليه السلام) ونحن اذا نظرنا الى النصوص علمنا عمومه »[١٠٦] .

---

(١٠٣) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / قصص الانبياء / ص ٧٠ - ٧١ .

(١٠٤) سورة هود / ٤٨ .

(١٠٥) ويذهب هذا المذهب الدكتور محمد بيومي مهران في كتابه / دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ج٤ ص٩٢ حيث يقول : الا يفهم من قوله تعالى ﴿ أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم ﴾ أن هناك آخرين لم يشملهم الطوفان وان الله سبحانه وتعالى سيمتعهم الى حين ثم يمسهم عذاب اليم ؟ .

(١٠٦) المدرس / عبدالكريم / مواهب الرحمن في تفسير القرآن / ج٤ ص٣٤ .

ولكننا نعود ونؤكد ان الجواب على هذه الاسئلة لا نملكه ولا يمكن أن نجزم بالحقيقة حول هذه القضايا . لاننا لم نشهد التاريخ منذ البداية ولم نخلق الانسان ونحن غير مسؤولين الا عن واقعنا . الماضي نعتبر احداثه ونتأمل وقائعه لتعزيز الخبرة لمعالجة الواقع . أما المستقبل فلا سبيل الى معرفته ولكن معرفة الماضي تعيننا على إدراك الواقع وتمنحنا إحساساً متوازناً بالمستقبل غير منقاد للاهواء والعواطف فيكون الانسان المرتبط بالماضي اكثر حكمة وهو يرى المستقبل ترتسم صورته في مخيلته فلا يستدرج للألم والشقاء اذا كانت الصورة لهذا المستقبل سلبية تعاني من نقص عن مستقبل يطمح اليه ذلك الانسان فيعود الى واقعه يعدل فيه ويصحح لكي يصل الى النتائج التي يريدها في مسيرته التي يعيشها على الارض .
هذه الاطر للتعامل مع التاريخ هي الاطر الواقعية التي ينبغي للانسان ان يذعن لها وقد ثبت القرآن الكريم هذه المعاني وهو يتحدث عن أخطاء الماضي بالنسبة للامم سبقت فأراد القرآن الكريم أن يضع أنظار الانسان امام الواقعية بعيداً عن المثالية ورسم حدود المساحة الخارجة عن التأثير فيها او التأثر بها فقال تعالى ﴿ تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ﴾ القرآن الكريم يحدد هنا المسؤولية ويجعلها ضمن حدود الواقع فلا يُسأل الانسان عن أعمال الماضين ولا يكتسب شيئاً من أجر العاملين الماضين . وهذه قاعدة قرآنية يمكن أن نضعها أمام الباحثين وهم يكتبون التاريخ . فلابد ان يتحرك الباحث عن التاريخ ضمن المساحة التاريخية الواضحة التي ينعكس استيعابها على الدارس وعياً وفهماً لزيادة رصيد التجربة الانسانية ولا يسبب تشويشاً وغبشاً في الرؤية ويضع الانسانية تحت الحدود المكرمة حيث التصورات الحيوانية والمقاييس البيولوجية .
لذلك نجد معظم الباحثين والمتخصصين في التاريخ القديم قد تأثروا بالمفاهيم التي أفرزتها الحضارة الغربية مثل نظرية التطور والتفسيرات المادية للتاريخ فجاءت تفسيرات التاريخ مشوشة وتخمينات غير دقيقة منساقة وراء ظنون وأهواء . وفي كثير بل في معظم نقاط التاريخ هناك معضلات لا سبيل الى حلها أو حل الغازها وكما ذكرنا سابقاً بأن المؤرخين لا يملكون سوى الافتراضات والتوقعات بل أدى غياب الحقائق الى جعل التاريخ عبارة عن ميثولوجيا شعرية أو متعة خيالية لا جدوى من متابعة دقائقها . ولا فائدة في محتواها . على إننا لا ننكر الجهود المخلصة والجادة والابحاث المتوازنة الباحثة عن الحقيقة الرافضة للتشويه المتعمد لتاريخ الانسانية

والاعتراف بجهود الامم في بناء تاريخ الانسانية جمعاء .

وإذا عدنا الى الاسئلة المطروحة سابقاً بإمكاننا ان نطمئن الى القرآن الكريم لانه وحده الذي حفظ لنا أهم احداث تاريخ البشرية لاننا اذا قرأنا التاريخ القديم قراءة غربية فإننا سوف نتيه وسط ركام من الاخبار التي نسجتها أخيلة الفلاسفة والمفكرين وسوف نجد أن هناك إغفالاً وطمساً متعمداً لمساحات هائلة من التاريخ وتهميشاً لادوار كثير من الامم بسبب التعصب والهوى . « ولم يحدث أن دون إغريقي عظيم حدثاً من شانه أن يساعد على تثبيت مظاهر التجربة والخبرة للبصيرة الداخلية . ولم يقم أي من الناس بالتأمل في التاريخ تأملاً جدياً »[١٠٧] . في التاريخ القديم كل الاشياء وظفت لخدمة النص القرآني ولإثبات دلالته على التاريخ . ومن خلال هذه الرؤيا نستطيع أن نفهم سر تقدم المصريين في تحنيط الموتى . سنجد ان فرعون الخروج الذي خرج يطارد موسى (عليه السلام) ومن معه الذي هلك غرقاً قام المصريون بتحنيطه ليكون لمن خلفه آية كما حدّث القرآن الكريم بذلك .

ان دراسة نصوص القرآن الكريم التي تعرضت للتاريخ القديم والمفقود أكدت أن القرآن الكريم قد حافظ على هذا التاريخ رحمة للانسانية ليطلعها على حقيقة تاريخها فتتأمل فيه وتكتسب العبرة والخبرة قال تعالى مخاطباً محمد (ﷺ) ﴿ ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين ﴾[١٠٨] وقوله تعالى : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون ﴾[١٠٩] . آيات كثيرة في القرآن تدعو الى التوقف والتأمل وتؤكد بان الله سبحانه وتعالى قد نقل الينا في قرآنه الكريم ما ينفع الانسان من أحداث ووقائع وعبّر بتفاصيل دقيقة إذا احتاج الامر الى بيان وتوضيح وأحياناً مروراً عابراً في حالة سرد عدة وقائع لتأكيد حقيقة واحدة كما في قوله تعالى : ﴿ واذكر في الكتاب ادريس انه كان صدّيقاً نبيا * ورفعناه مكاناً عليا ﴾[١١٠] ولم يحدّث القرآن عن إدريس اكثر من هذه المعلومات وجاءت في معرض الكلام عن مجموعة من الانبياء فكانت رواية المعلومة القرآنية لغرض تعزيز

---

(١٠٧) شبلنجر/اسوالد/ تدهور الغرب/ ج١ ص ٥٦ ـ ٥٩ .

(١٠٨) سورة القصص/ ٤٥ .

(١٠٩) سورة آل عمران/ ٤٤ .

(١١٠) سورة مريم/ ٥٦ ـ ٥٧ .

دور الانبياء وتحملهم أمانة دعوة الناس الى الحق عبر الأجيال والعصور التي عاشها هؤلاء الانبياء . وعند تأمل نصوص القرآن نجد ان الهدف من ذكر أخبار الانبياء جاء لتأكيد حقيقة واحدة وهي ان الله سبحانه وتعالى لم يترك البشرية ، بل تواصل إرسال الرسل والانبياء الى البشرية كلما انحرفت عن هدي السماء وأطبقت الوثنية والكفر على الارض فيرسل الله تعالى نبياً او رسولاً لانقاذ البشرية من ضلالتها وحيرتها . فتحصل لدينا من آثار هؤلاء الانبياء على الحياة وبقايا آثار نبواتهم على البشرية أن الدين أصيل في الحياة وعميق في داخل الذات الانسانية ولا يمكن ان نجد إنساناً عاقلاً منذ أن وجد الهوموسابينز حتى يومنا الحالي الا والدين يظهر على سلوكه وينعكس على حياته يعبّر عنه أحياناً بالايمان بالحياة الاخرى والبعث بعد الموت وأحياناً يعبّر عنه تعبيراً منحرفاً بعبودية أشياء وحيوانات اعتقد الانسان بانها تملك تاثيراً على حياته أو موته[111] فاستسلم لها خائفاً طالباً منها أن تمنحه إحساساً بالراحة التي يملكها العابدون ولكننا ونحن نقرأ التاريخ القديم تبرز أمامنا مشكلة معقدة تربك الباحثين الذين يحاولون أن يخضعوا التاريخ للفهم الديني فنجد أن الرؤية الدينية للحدث التاريخي تبدو منسحبة من ميدان التاريخ القديم لان الذين كتبوا التاريخ وحلّلوا آثاره كانت تحكمهم افرازات الحضارة الغربية وانجازات العقل الغربي فكانت هذه التحليلات تُطوع لملاءمة القناعات العلمية المادية وقليل من الدراسات نبهت على حقائق مهمة مثل متابعة عقيدة التوحيد وآثارها في العصور القديمة أو ارتباط أحداث التاريخ وشخصياته بالاديان المعروفة . بل عكس ذلك وجدنا طمساً لمعالم الانبياء وإنكاراً لوجود شخصياتهم ما عدا محاولات قليلة كان هدفها خدمة التوراة والعهد القديم الذي تعرض الى ذكر الانبياء واحداث التاريخ القديم (ما قبل الميلاد) فكانت بعض المؤسسات المرتبطة بهذه الاهداف تخصص

---

(١١١) الطوطم : ديانة بدائية عبد الانسان فيها الحيوانات « هنود أوجبوا (OJIBWA) أطلقوا اسم طوطم على حيوانهم الخاص الذي يعبدونه وعلى العشيرة التي تعبده وعلى كل عضو من تلك العشيرة ثم جاء علماء الاجناس البشرية فاخذوا هذه الكلمة وجعلوها اسماً على مذهب (الطوطمية) الذي يدل دلالة غامضة على عبادة لشيء معين وعادة يكون الشيء المعبود حيواناً او نباتاً وقد وجدنا انواعاً مختلفة من الطواطم في اصقاع مختلفة من الارض ليس بينها رابطة ظاهرة » ديورانت / وول / قصة الحضارة / ص ١٠٦ .

منح مالية لدعم الباحثين الذي يخدمون أهداف التوراة وينتصرون لما مذكور فيها[112] .

ان عقيدة التوحيد التي نبحث عنها في الآثار سوف لن نجدها . لان التوحيد يعبّر عن وحدانية الخالق وهذه العقيدة ترفض جعل اي شيء مادي واسطة للارتباط بالله ولذلك كانت فترات ظهورها على الارض كعقيدة يدين بها البشر كانت فاقدة لكل أثر مادي يمكن أن يدلل عليها خصوصاً قبل الكتابة وعصور ما قبل التاريخ . أما بعد اختراع الكتابة فإن المدونات الباقية على الرقم الطينية كانت تمثل السلطة السياسية والملوك والطبقة المترفة التي كانت تقف مع السلطة لمحاربة الانبياء كما عرفنا من خلال الآيات التي تعرضت لمجتمع النبي نوح (عليه السلام) . إلا إن العقيدة الوثنية وعبادة الاصنام التي ظهرت في عصر نوح وتحدث عنها القرآن الكريم نجدها تظهر ايضاً في عصر ابراهيم وقد أشار القرآن الكريم الى الحوار الذي دار بين إبراهيم وقومه وتسفيه عبادة الآلهة المتعددة التي تمثلها الاصنام . وهكذا نجد مظاهر الانحراف العقائدي التي ابرزها القرآن الكريم كانت هي الواقع الذي تشهد به الرقم الطينية في تمجيد الآلهة العديدة التي كانت منتشرة في العالم القديم الذي يمثله الشرق الادني والذي كان مركزه بلاد وادي الرافدين . ولكننا لو حللنا بعض النصوص القديمة الموجودة في الرقم الطينية يمكننا أن نستشف وجود محاولات وتطلعات نحو التوحيد « ففي قصيدة الخلق ان إله بابل يظهر إلهاً بين الإله الاخرى لا شك انه يفوقها جميعاً ولكنه ليس بعد الاله الوحيد للكون . الا ان في الخاتمة سطرين بهذا الشأن يرنان بنبرة فريدة فإذ يتكلم الآلهة عن مردوخ يهتفون : « إذا انقسم البشر بشأن الآلهة ، أما نحن فبجميع الاسماء التي اطلقناها عليه ليكن هو إلهنا » ، (اللوح ٤ ، السطر ١١٩ - ١٢٠) وكاني بالشاعر هنا وهو يستشف وحدانية الله . يتخيل ان هذه الصيغة العليا من الشعور الديني تظل فوق متناول فكرة البشر المتقلبة ولا يمكن إدراكها الا بالعقل الإلهي ولكنها مع ذلك مذكورة هنا . إن الديانة البابلية لم تتقدم هكذا دون أن تظهر ميولًا وتطلعات نحو وحدانية الله »[113] .

إن تحليل هذه العبارات يرجح شعوراً كامناً في نفس الشاعر كما ذكر ذلك لابات

---

(١١٢) انظر باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٣٩ وما بعدها .

(١١٣) لابات / رينيه / المعتقدات في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية (ترجمة الاب البير أبونا ود. وليد الجادر / ص ٧٤ / جامعة بغداد ١٩٨٨ .

كان هذا الشعور الذي أضاء لنا إشارة واضحة بأن الفكر البشري كان يحاول الارتقاء لاستيعاب التوحيد العقيدة التي شوهتها أفكار البشر وأوهامهم وثبتت انحراف البشر مصالح الملوك والمترفين والكهنة ورجال الدين الذين لم يكونوا بأي حال يرغبون ان يتجردوا عن الامتيازات المادية التي حصلوا عليها نتيجة إطباق ظلام الجهل على عقول المستضعفين الذين رفعوا مكانة الكهنة وحكّموهم في حياتهم كما قال تعالى ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ﴾ . ولو توفرت دراسات جادة وأمينة لتحليل نصوص الكتابات المسمارية للتعرف على حقيقة العقائد الدينية وآثار الاديان على المجتمعات القديمة لاستطعنا ان نخرج بنتائج يكون لها أثر حاسم في تاريخ الاديان ، وبذلك نستطيع ان نوظف دراسات التاريخ القديم لخدمة الحقيقة وتأصيل التوازن والعلمية الهادفة ونبتعد عن التعصب والهوى والاحكام المسبقة المنغلقة .

بالاضافة الى ذلك يمكننا دراسة نصوص التوراة لخدمة الحقيقة وذلك لان التوراة تعد أقدم نص تحدّث عن التاريخ القديم وذكر شخصياته ومدنه وأهم الاحداث والوقائع . ولكن بشرط استبعاد الاساطير والروايات التي تهدف الى تكريس سيطرة اليهود على العالم والروايات التي أثبت العلم خطأها ويكون ذلك باعتبار جوهر القضية المذكورة في التوراة اذا تطابقت مع القرآن الكريم فيمكن ان نعتبر ذكر جوهر الحدث يدعم ويخدم النص القرآني خصوصاً عند دراسة النص القرآني سوف نزداد استقراراً بأن ما يتضمنه القرآن الكريم خالي من الاخطاء الواضحة التي تبنتها التوراة . وقد حث القرآن الكريم الى اخراج التوراة الحقيقة لان القضية واحدة وان المسلمين يعتقدون بأن الكتب السماوية مصدرها واحد وهو الله جلت قدرته ولكن هذه الكتب لم تسلم من التحريف والاضافة . ما عدا القرآن الكريم الذي تكفل الله بحفظه ولذلك لا يمكن ان تجد التناقضات الموجودة في الكتب الاخرى هذه التناقضات لا يمكن ان تجدها في القرآن الكريم[١١٤] قال تعالى ﴿ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين ﴾ .

---

(١١٤) انظر / محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ وأحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل / ستار برس القاهرة ـ ١٩٩٢ . وكذلك بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة .

بقيت قضية نود أن نحسمها ونحن ننهي هذه الفقرة ، وهي القضية التي أثارتها الاسئلة السابقة حول عالمية رسالة نوح (عليه السلام) . وهل هناك بشر كانوا يعاصرونه لم تصل دعوته اليهم ؟ وقد أكدنا إن الجواب عن هذه الاسئلة ليس مهماً بقدر الحقائق التي عرضتها آيات القرآن الكريم وهي تتصدى لمعالجة رسالة نوح (عليه السلام) وعصره والانحرافات التي كانت تسود البشرية في عصره . ولكننا لا نشك بين رسالة نوح (عليه السلام) كانت عالمية بحدود المفهوم للعالم في عصره[115] . لأن العالم في عصره لم يكن بالسعة الحالية وكما قلنا فإن أرض الرافدين كانت تشكل وحدة جغرافية مع أرض الشام وشبه الجزيرة العربية وهي تشكل بذلك معظم العالم الذي كان يعاصر النبي نوح (عليه السلام) . وقد أثبتنا أن الثقافة التي كانت سائدة في العالم المذكور كانت الثقافة الوثنية التي كانت في قوم نوح . وأكدت ذلك المكتشفات الآثارية في أوغاريت وذكر أسماء الاصنام التي ذكرها القرآن الكريم في عصر نوح (عليه السلام) في الرقم الحجرية الموجودة في أوغاريت وكذلك الشعر الجاهلي في شبه الجزيرة نقل لنا أسماء أصنام قوم نوح وشيوعها في شبه الجزيرة . كما أن أسماء هذه الاصنام موجودة في الكتابات المسمارية في بابل وأرض الرافدين « شيدوا معبداً لاَدد في المدينة »[116] . ويبنو ان الاتصال كان موجوداً في حدود هذه المساحة وكانت التأثيرات تنتقل الى جميع المدن والقرى المنتشرة في هذه البلاد الواسعة . ومن المعلوم لدى المسلمين ان الله لا يعذب أحداً حتى يبعث اليهم رسولا يقيم عليه الحجة ويزيل الشبهة وقد وردت أحاديث بهذا المعنى وقال ابن كثير : « أما النار فانها دار عدل لا يدخلها احد الا بعد الاعذار اليه وقيام الحجة عليه وفي حديث رواية الامام احمد. ان رسول الله (ﷺ) قال : أربعة يحتجون يوم القيامة : رجل أصم لا يسمع شيئاً . ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في فترة ، فأما الاصم فيقول رب قد جاء الاسلام وما اسمع شيئاً . وأما الاحمق فيقول

---

(١١٥) لقد حدد القرآن الكريم رسالة نوح بقومه ولقلة اعداد البشر والوحدة الجغرافية للمنطقة ساعد على انتقال تأثير ثقافة قوم نوح سواء الجاهلية ام الرسالة التي بلغها نوح الى قومه . وقد جاءت أحاديث تؤكد ان كل الانبياء أرسلوا الى أقوامهم ما عدا النبي محمد (ﷺ) فقد بعث الى الناس كافة . كما أكدت ذلك الاحاديث النبوية الصحيحة .

(١١٦) انظر لابات / رينيه / المعتقدات الدينية في بلاد وادي الرافدين / ص ٢٦ (اتراخاسيس) .

رب قد جاء الاسلام والصبيان يحذفوني بالبعر وأما الهرم فيقول رب لقد جاء الاسلام وما اعقل شيئاً ، وأما الذي مات في الفترة فيقول رب ما أتاني لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه فيرسل اليهم ان ادخلوا النار ، فوا الذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً[117] . وقد أورد عشرة أحاديث بهذا المعنى وقال عنها بعضها صحيح والآخر ضعيف يعضد بعضه بعضاً ويتقوى بالصحيح فهي تفيد الحجة . وأجاب عن اعتراض امتحان الرب لهؤلاء في عرصات يوم القيامة عندما يأمرهم بالدخول في النار وقالوا بأن الدار الآخرة ليست دار تكليف وانما دار جزاء وقال ان هذا لا ينافي التكليف في عرصاتها قبل دخول الجنة او النار كما ثبت ذلك في عقيدة أهل السنة والجماعة . حاصل ما تقدم بأن الناس الذين لا تصل اليهم دعوة الانبياء يختبرهم الله تعالى يوم القيامة فيأمرهم بدخول النار فان اطاعوه كانت النار برداً وسلاماً عليهم ويدخلهم الجنة وإن خافوا ولم يدخلوها يقول لهم الرب : لقد عصيتموني فانتم لرسلي أكثر عصياناً فيؤمر بهم الى جهنم . وهذا الامر يوضح لنا أحوال كثير من الناس الذين لم يدركوا الانبياء او لم يسمعوا بدعوتهم فان الله سبحانه وتعالى لن يظلم ولا يعذب احداً الا بعدله وحكمته . لذلك إذا عدنا الى مقالتنا فان من عاش من البشر في عصر نوح او عصر آدم او عصر اي نبي ينطبق عليهم هذا الكلام . كما وان الله سبحانه وتعالى أقام الحجة على الناس بالانبياء والفطرة كما في قوله تعالى ﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾[118] . « فالحجة انما قامت عليهم بالرسل والفطرة التي فطروا عليها ، كما قال تعالى ﴿ رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴾[119]»[120] فان هذا الاشهاد هو إشهاد الفطرة فكل إنسان لابد أن يكون في داخله ايمان بوجود الله فالإيمان أصيل « ولا شك أن الاقرار بالربوبية أمر فطري والشرك حادث طارىء والأبناء تقلدوه عن الآباء ، فإذا احتجوا يوم القيامة بأن الآباء

---

(١١٧) انظر ابن كثير/ ابو الفداء/ تفسير القرآن العظيم/ ج٣ ص ٢٩ .

(١١٨) سورة الاعراف/ ١٧٢ .

(١١٩) سورة النساء/ ١٦٥ .

(١٢٠) ابن ابي العز/ علي بن علي بن محمد ت ٧٩٢ هـ/ شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق شعيب الارناؤوط عبدالله بن عبدالمحسن التركي/ ج١ ص ٣١٢ / مؤسسة الرسالة .

أشركوا ونحن جرينا على عادتهم كما يجري الناس على عادة آبائهم في المطاعم والملابس والمساكن يقال لهم انكم كنتم معترفين بالصانع مقرين بأن الله ربكم لا شريك له وقد شهدتم بذلك على انفسكم »[١٢١] . وبذلك توضح لدينا ان البشر الذين لا تصل اليهم دعوة الانبياء أمرهم موكل الى الله ولا ندري ما الله فاعل بهم ولا يهمنا ان نعرف مصيرهم ولكن نحن نعلم كذلك ان الله حكيم عادل رحمن رحيم لا يظلم ويغفر ويرحم بعلمه وحكمته فان شاء عذبهم فبعدله وإن شاء رحمهم فلحكمةٍ يعلمها كما قال تعالى حكاية عن عيسى (عليه السلام) ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[١٢٢] فقال عزيز حكيم ولم غفور رحيم لانه قد يرحم أناساً ظاهرهم يستحقون العذاب ولكن شاءت حكمة الله ولأمر غاب عن عقول البشر أن يغفر لهم ويرحمهم . وليس أمراً مستبعداً على الله أن يعامل أهل الفترة ومن لم تصله دعوة الانبياء معاملة الحيوانات بعد أن يقضي بينهم فيما كانوا يتظالمون به في الحياة الدنيا ويقتص للمظلوم من الظالم ثم يحولهم الى تراب كما ذكر تعالى ﴿ ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا ﴾[١٢٣] « أي يود الكافر ذلك حين يحكم الله بين الحيوانات التي كانت في الدنيا فيفصل بينها بحكمه العدل الذي لا يجور حتى انه ليقتص للشاة الجماء من القرناء فاذا فرغ من الحكم بينها قال لها كوني تراباً فتصير تراباً فعند ذلك يقول الكافر ﴿ يا ليتني كنت تراباً ﴾ اي كنت حيواناً فأرجع الى التراب »[١٢٤] إذ قد تكون رحمة الله بهم أن يحولهم الى تراب وتلك أمنية الكافرين ، أما الاحتمال الآخر وهو الذي وضحته أحاديث كثيرة كما ذكرنا وإن الاحاديث ذكرت ان هؤلاء يحتجون ويختبرهم رب العزة ليظهر طاعتهم وحقيقة معدنهم فينكشف أمرهم ويعرف قدرهم ومنزلتهم التي يعلمها الله في علم الغيب ولكن شاءت ارادته أن يقيم حجته على خلقه فيحكم الانسان على نفسه . فإذا عرفنا ذلك ادركنا ان الامر يعود الى حالة القرآن الكريم عندما سأل فرعون موسى عن القرون الاولى فقال له موسى ﴿ علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى ﴾[١٢٥] وهذا هو موقف المؤمن بقدرة الله ،

---

(١٢١) ابن ابي العز/ علي بن علي بن محمد / شرح العقيدة الطحاوية / ج١ ص ٣١٤ - ٣١٥ .
(١٢٢) سورة المائدة/ ١١٨ .
(١٢٣) سورة النبأ/ ٤٠ .
(١٢٤) ابن كثير/ ابو الفداء/ تفسير القرآن العظيم/ ج٤ ص٤٦٦ .
(١٢٥) سورة طه / ٥٢ .

وعظمته فلا يسأل وانما يكل الامور الى بارئها فان الله تعالى ﴿ له الامر والحكم ﴾ ولا تبديل لكلمات الله . والامر لم يقتصر على عصر نوح او عصر موسى وعيسى وإنما يشمل دعوة خاتم الانبياء محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث يوجد على الارض بشر لم يسمعوا ولم تصلهم دعوة الرسول (صلى الله عليه وسلم) . وهذه المسألة موجودة على مدار الرسالات والنبوات والله سبحانه وتعالى هو الذي خلق وهو الذي لا يغيب عن علمه دبيب النملة السوداء على صخرة صماء في ليلة ظلماء فهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين .

أما دليلنا على وجود بشر في عصر نوح (عليه السلام) لم تصلهم دعوته او كانوا خارج محيط دعوته على الارض فقد استشهدنا بآية ذكر الله تعالى فيها نوعين من الامم [أمم من مع نوح) و (أمم أخرى) وذلك في قوله تعالى ﴿ قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك * وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ﴾[126] . إن المفسرين فسروا هذه الآية بأن السلام عليه وعلى من معه « ودخل في هذا السلام كل مؤمن ومؤمنة الى يوم القيامة وكذلك في العذاب والمتاع كل كافر وكافرة الى يوم القيامة »[127] وذكر بعض المفسرين المعاصرين « انه دار الكلام بين المفسرين ولا سيما المتأخرين منهم حول عموم الطوفان للكرة الارضية أو اختصاصه بالاقليم الذي كان فيه سيدنا نوح (عليه السلام)[128] وهذا الكلام ذكره في معرض تفسيره للآية المذكورة . وهذا النص القرآني اشكل على المفسرين لانه ذكر أمماً غير الامم التي مع نوح في السفينة مما يشعر بوجود هذه الامم ووقت الطوفان وقد يفسر النص على أساس ان المذكورين أمم لاحقة ولكن القول بوجود أمم وقت الطوفان لا يتعارض مع النص . ولو عضدنا هذا الفهم بآيات أخرى تتوضح لنا المسألة بصورة أفضل فقد ذكر الله تعالى قوم نوح (عليه السلام) في معرض ذكره لاقوام آخرين وهذا يعني إن قوم نوح (عليه السلام) كانوا هم المعنيين بالرسالة ولا يمنع ان ينتقل تأثيرها الى بقية المناطق وشمول معظم البشر بدعوته ولكن سبب ضعف المواصلات وبدائية الحياة وبساطتها كل هذا لا يمنع وجود أقوام تعذر وصول دعوته اليهم أو أن الله تعالى قد بعث أنبياء محدودي التأثير الى قراهم أو أقوامهم

---

(١٢٦) سورة هود / ٤٨ .

(١٢٧) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج٢ ص ٤٤٨ .

(١٢٨) المدرس / عبدالكريم / مواهب الرحمن / ج٤ ص٣٠٤ .

ونحن لا نعلمهم وهذا أمر غيبي لا سبيل الى الوصول اليه . وهذ الآيات التي ذكرت دعوة نوح (عليه السلام) هي ﴿ كذبت قوم نوح المرسلين إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون إني لكم رسول أمين ﴾[129] ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ﴾[130] ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله ﴾[131] . وقوله تعالى ﴿ كذّبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الاوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب ﴾[132] .

ولكن دعوة نوح (عليه السلام) كانت بداية الرسالات واتخذت معلماً من معالم الحياة الانسانية على الارض كما اعتبرت نبوة آدم (عليه السلام) المعلم الاول للبداية الفاضلة المكرمة كانت رسالة نوح (عليه السلام) المعلم الثاني ولذلك أعطى القرآن الكريم أهمية خاصة لرسالة سيدنا نوح (عليه السلام) فكان عندما يتحدث عن تاريخ الرسالات يبدأ به (عليه السلام) ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه ﴾[133] . ونحن نعلم ان قبل نوح هناك أمم وأجيال بعد آدم (عليه السلام) كما ذكر الحديث الصحيح الذي استشهدنا به في البداية بأن هناك عشرة قرون كلها على الاسلام . وهذه الرواية في صحيح البخاري . كيف يكونون على الاسلام بدون أنبياء ؟ لقد كان هناك أنبياء لكن القرآن الكريم لم يذكرهم لأن القرآن الكريم أرخ لبداية الرسالات من رسالة نوح (عليه السلام) لاهميتها ولذلك قد يهمل القرآن الكريم صفحات من تاريخ البشر او يسكت عنها لعدم أهميتها أو لا حاجة لذكرها ومن هذا المفهوم نستطيع أن نستوعب نصوص القرآن الكريم التي عدت آدم أبا البشر بوصفه (عليه السلام) الانسان المصطفى الذي تتشرف البشرية التي يبدأ تاريخها من عنده أن تنتسب اليه . فعندما ينطق القرآن بـ (ذرية آدم) فقد يعني تغليب الاكرام على الكل او تشريف الكل بإرجاع نسبها الى الاصل المكرم وكذلك قوله تعالى : ﴿ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً

---

(١٢٩) سورة الشعراء / ١٠٥ .

(١٣٠) سورة التوبة / ٧٠ .

(١٣١) سورة ابراهيم / ٩ .

(١٣٢) سورة ص / ١٢ - ١٣ .

(١٣٣) سورة غافر / ٥ .

شكورا ﴾[١٣٤] . ذكر ان البقية من البشر انما من ذرية من كان مع نوح (عليه السلام) . وقد استعمل القرآن الكريم هذه الطريقة وهي جعل الانبياء آباء البشر كما في قوله تعالى حكاية عن لوط (عليه السلام) : ﴿ هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴾[١٣٥] وهو يدعوهم الى الزواج من بنات القرية . وقوله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقين ﴾[١٣٦] . وقال تعالى : ﴿ أولئك الذين أنعم عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا ﴾[١٣٧] .

اذا كان الانبياء قبل نوح من ذرية آدم فمجيء ذكر من حمل مع نوح يؤكد ان الامر جاء على العموم ولتغليب كرامة الانبياء إذ إن الواقع يؤكد أن النبي من ذرية رجل وامرأة ويغلب ذكر الرجل كما في قوله تعالى : ﴿ من ذرية ابراهيم وإسرائيل ﴾ ولذلك عندما ذكر النص من حمل مع نوح لم يذكر الذرية وكان يقصدها لان السياق يدعو الى ذلك فدل على أن الذرية تعني الارتباط اي ان الانبياء مرتبطون بعضهم ببعض برابطة نسب نقية اصطفاها الله تعالى ولا يشترط أن تكون بمعناها الخاص المباشر وهي أن يكون كل نبي ابن نبي ولكن قد يكون الارتباط غير مباشر عبر أجيال سابقة كما الامر مع كثير من الانبياء مثل ابراهيم (عليه السلام) فقد كان أبوه كافراً وكذلك لم نعرف شيئاً عن احوال آباء كثير من الانبياء مثل نوح وموسى وداود وادريس ويونس وغيرهم عليهم صلوات ربي وسلامه . وكذلك فان عيسى ابن مريم لم يكن له أب . فيتضح لنا من ذلك بأن القرآن عندما يذكر الذرية انما يعني بذلك الارتباط غير المباشر (وهو ارتباط الكرامة) وهذا الخطاب مستعمل في القرآن الكريم كثير عندما يذكر (بني آدم) وكذلك عندما ذكر دعوة لوط (عليه السلام) قومه للزواج من بنات قومه « قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من بنات أمته وكل نبي أبو أمته وكذا روي عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج أمرهم أن يتزوجوا النساء ولم يعرض عليهم سفاحاً وقال سعيد بن جبير يعني نساؤهم هن بناته هو نبيهم ويقال في بعض القراءات (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) وكذا

---

(١٣٤) سورة الاسراء / ٣ .

(١٣٥) سورة هود / ٧٨ .

(١٣٦) سورة الحديد / ٢٦ .

(١٣٧) سورة مريم / ٥٨ .

روي عن الربيع ابن انس وقتادة والسدي ومحمد بن اسحق وغيرهم[١٣٨] وبذلك نستطيع أن نتحدث عن احتمال وجود أقوام خارج محيط التأثير لرسالة نوح كما إننا من نص القرآن الذي يتحدث عن الناجين مع نوح ﴿ ونجيناه وأهله من الكرب العظيم * وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾[١٣٩] نفهم من النص أن أهله المذكورين هم الذين آمنوا به مع أهله فاستوعبت أهله من آمن معه من قومه لان كل مؤمن يرتبط بنبيه رباط الاهلية وكل كافر ولو كان من ذرية نبي فهو ليس من أهله كما ذكر القرآن الكريم ذلك وكذلك قوله تعالى ﴿ وجعلنا ذريته هم الباقين ﴾ يؤكد ما ذهبنا اليه بأن الذرية المقصودة ليست الذرية المباشرة من نوح (عليه السلام) ولكن ذريته المؤمنة مع ذرية المؤمنين من قومه . وقد ذكر القرآن الكريم لفظة تعبر عن خاص الخاص وهي (ذرية نوح) وأراد به ذرية قومه فهي من باب إطلاق الخاص ويراد به العام أو ذكر الخاص واشتماله للعام . وكذلك قد غلب القرآن الكريم هذا الخاص الذي يشمل نوح وقومه على العام الذي يشمل من موجود من البشر ولم يكن لهم اعتبار يستحق الذكر لان مقصود الحق جلت قدرته إعطاء الاهمية للرسالة والكرامة للرسول ولمن آمن به وتبعه وأهمل الآخرين لانهم لم يكونوا بالاهمية من الرسول واتباعه .

لقد ارسل الله نوحاً الى قومه وكل الآيات أكدت ارتباط دعوة نوح (عليه السلام) الى قومه وفي قوله تعالى ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾[١٤٠] ولم يذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أرسل نوحاً الى العالمين بينما ذكر القرآن الكريم عالمية رسالة محمد (ﷺ) بقول تعالى ﴿ وما أرسلناك الا رحمة للعالمين ﴾ .

فإن القرآن الكريم تحدث عنه وعن قومه وفي كل الآيات التي تحدثت عن نوح (عليه السلام) فانها تذكر قوم نوح ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه ان انذر قومك من قبل ان يأتيهم عذاب اليم ﴾ ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود ﴾ ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ ومع هذه الحقيقة تصر الروايات على جعل نوح (عليه السلام) قد بعث ولم يكن على الأرض الا قومه . وهذا يخالف المنطق والعقل ولم يرد نص يقول بأن الارض كانت خالية من البشر الا قوم نوح . وهذه

---

(١٣٨) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج٢ ص٤٥٣ .

(١٣٩) سورة الصافات / ٧٦ - ٧٧ .

(١٤٠) سورة نوح / ١ .

القناعة المتأثرة بالرواية التوراتية انتقلت الى الطوفان فجعلته عاماً لكل الارض ولكل البشر وان السفينة وحجمها قد صورت بطريقة مرتبطة بتصور عموم الطوفان وان هذه السفينة هي من عدة طوابق وفيها جميع أنواع الحيوانات الى غير ذلك من الاسرائيليات وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان الطوفان لا يمكن ان يعم الكرة الارضية لان الماء الذي ارتفع الى اعلي مستوى وغطى الجبال هذه الكمية من الماء لا يمكن تصريفها إذا كان الماء قد غطأ جميع سطح اليابسة على الكرة الارضية[١٤١] .

وقد أكد القرآن الكريم ان هذا الماء من الارض ولم يأت من خارجها ﴿ وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي فاذا كان هذا الماء هو ماء الارض وما نزل من السماء هو من الارض أيضاً لانه جاء من المطر والمطر نتيجة لتبخر مياه البحار والمحيطات . واذا كان ماء الارض هذا قد غطى جميع الارض فالتقت بذلك مياه الحيطات والبحار بمياه الطوفان فكيف نتصور ان الكرة الارضية قد تحولت الى كرة مائية ؟ وكيف تسنى للارض ان تبتلع الماء مرة اخرى وتظهر اليابسة ؟ كل هذا يؤكد ان فكرة عموم الطوفان فكرة تتعارض مع العقل والمنطق وان القرآن الكريم عندما أطلق كلمة الارض بقوله تعالى ﴿ وفجرنا الارض عيونا ﴾ انما اراد ارض القوم الذين كذبوا واعرضوا وهي ارض قوم نوح (عليه السلام) وقد ذكر ابن الجوزي استخدام القرآن الكريم لكلمة الارض يمكن ان تعيننا على فهم الارض المذكورة في الآية اعلاه . فقد قال :

« الارض تذكر ويراد بها ارض الاردن : ﴿ ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴾
ويراد بها القبر : ﴿ لو تسوى بهم الارض ﴾ .
ويراد بها أرض مكة : ﴿ كنا مستضعفين في الأرض ﴾ .
ويراد بها أرض المدينة : ﴿ ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ﴾ .
ويراد بها أرض الاسلام : ﴿ ويسعون في الارض فساداً ﴾ .
ويراد بها ارض التيه : ﴿ يتيهون في الارض ﴾ .
ويراد بها الارضون السبع : ﴿ وما من دابة في الارض ﴾ .

---

(١٤١) اطلعت على دراسة باللغة الانكليزية تثبت رياضياً وبحساب حجوم الماء طبقاً للرواية التوراتية التي اكدت عموم الطوفان للكرة الارضية فقد اثبتت هذه الدراسة استحالة ان يكون الطوفان قد عم جميع الارض وبالمستوى الذي تذكره الكتب الدينية .

ويراد بها أرض مصر : ﴿ اجعلني على خزائن الارض ﴾ .
ويراد بها القلب : ﴿ واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض ﴾ .
ويراد بها أرض الغرب : ﴿ مفسدين في الارض ﴾ .
ويراد بها الجنة : ﴿ الحمد لله الذي أورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث تشاء * فنعم أجر العاملين ﴾ .
ويراد بها أرض الروم : ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ .
ويراد بها أرض فارس : ﴿ وأرضاً لم تطئوها ﴾ .
ويراد بها أرض القيامة : ﴿ يوم تبدل الارض غير الارض ﴾ .
﴿ وأشرقت الارض بنور ربها ﴾ .....[١٤٢] .
وهذا يرجح لدينا أن الطوفان لم يكن عاماً بل كان موضعياً .

---

(١٤٢) ابن الجوزي / ابو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد ٥٩٧ هـ / المدهش ص ٢٤ .

المبحث الثالث

الطوفـــان

دراسة مقارنة بين الرواية القرآنية والتوراتية والرقم الطينية

أولًا : الطوفان في الرواية القرآنية :ـ

(العقوبات الربانية في مفهوم القرآن)

لقد خلق الله تعالى الانسان ومنحه عقلًا وأعطاه قابلية التعلم ولكن الانسان وهو يملك هذه الميزات التي جعلته فوق الخلائق الحيوانية التي تعيش معه على الارض لم يُترك هملًا ﴿ أيحسب الانسان أن يترك سدى ﴾[143] . فكان إرسال الرسل السنة التي وضعها الرب جلت قدرته لإقامة الحجة على البشر بأن الخلق قد اوجـده خالقه لغاية . وهذه الغاية هي تحقيق العبودية لله . فكان الرسل يحققون الاتصال بالسماء من خلال الوحي ويعلّمون البشرية جوانب من عالم الغيب أُخفي عليهم لمحدودية العقل والفكر البشري . ومنذ آدم وحتى نوح (عليه السلام) كان الدين يمثّل النَفَس الذي تحيا به البشريةُ الحياةَ الحقيقية ولذلك فإن الاسلام وما مثله من عقيدة التي يتركز فيها التوحيد وهو إفراد الخالق بالعبودية والتخلص من سطوة

---

(١٤٣) سورة القيامة / ٣٦ .

العقائد الجاهلية التي تتشكل عقائدها التى يبتدعها عقل البشر وتتغير هذه العقائد بحسب الواقع والبيئة ولكنها كانت دائماً تتجه باتجاه المادية المجسدة بالاصنام او الحيوانات أو الأفلاك وروحها الخرافة والاسطورة ومحركها الهوى والشهوة . ولهذا فإن الاسلام دين الفطرة ودين الانبياء جميعاً من لدن آدم ونوح الى محمد (ﷺ) كلهم جاءوا بكلمة التوحيد : لا إله الا الله وكلهم دعوا الى اخلاص العبادة لله ونبذ الشرك ونبذ الآلهة المدعاة في أي صورة من الصـور بشراً كانوا أم أصناماً أم كائنات أخرى مما خلق الله في الكون . وأن الاصل في البشرية الايمان والكفر الطارىء كما أخبر رسول الله (ﷺ) . لا كما يقول علم الاجتماع الجاهلي ولا علم تاريخ الاديان الجاهلي ولا علم مقارنة الاديان الجاهلي وأن هذه العقيدة لم تتطور كما تزعم تلك العلوم الجاهلية إنما تتطور هو الشرك لانه صناعة بشرية ومن ثم يتأثر بأحوال البشر ومدى ما لديهم من علم ومدى احتكاكهم بالكون المادي والبيئة من حولهم ولكن هذا كله من الخط المنحرف عن الدين وليس خط الدين ! إنما خط الدين هو خط الاسلام هو الذي كان عليه آدم (عليه السلام) وعشرة أجيال من بعده (كما ورد في الحديث الصحيح) وكان عليه نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم جميعاً[١٤٤] ولذلك كان الانبياء يبذلون جهوداً عظيمة للمحافظة على هذا الخط الاصيل في الحياة البشرية وكان كل نبي يذكّر قومه بأحوال القوم الذين كذبوا قبلهم كما ذكّر هود قومه عندما أعرضوا ذكّرهم بقوم نوح وذكّر صالح قومه بقوم هود . وكانت البشرية تخطو خطوات باتجاه تطوير المنجزات العقلية وهي ترث مخلفات القوم الآخرين فكان العقل البشري يزداد رصيده في التطور المادي ولا يمنعه وضعه المتطور من التصدي للانبياء والانكار عليهم وتحدي السماء بل العكس كان يحصل حيث يزداد الانسان طغياناً وكفراً كلما أحس بأن البيئة التي أحيطت به أصبحت اكثر اذعاناً واستجابة لما حدث من تطوير في وسائل تسخير الوجود . فهذا هود (عليه السلام) يذكّر قومه بما حصل لقوم نوحد ويذكّرهم بنعم الله عليهم من مظاهر القوة وزيادة البسطة وكثرة البنيان واتخاذ المصانع والبحث عن الخلود وهو الوهم الذي زرعه الشيطان في حياة البشر منذ آدم (عليه السلام) ﴿ هل أدلك على شجرة الخلد وملك لايبلى ﴾ .

---

(١٤٤) قطب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٥٧ .

وقال هود لقومه : ﴿ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فأذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ﴾[١٤٥] ويقول لهم في موضع آخر ﴿ أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون واذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون ﴾[١٤٦] وهكذا كانت الانسانية تتراكم عندها الخبرة في السيطرة على البيئة والابداع في وسائل الاسترخاء والعيش . « ولذلك إن أي جاهلية من جاهليات التاريخ لم تخل من (براعات) بشرية في مختلف نواحي الحياة ولم تخل من تحقيق بعض الخير للناس ولكن هذا الخير الجزئي لا يؤتي بثماره الكاملة في حياة الناس . ويضيع أثره في النهاية . بسبب الشر الجوهري الاكبر وهو رفض الهدى الرباني واتباع منهج الحياة غير منهج الله . وحتى لا يفتن الدارس بمظاهر التقدم العلمي والعمراني الموجود في بعض الجاهليات فيظن من أجل ذلك أنها ليست جاهليات »[١٤٧] لقد كانت سنة الله في الحضارات او الجاهليات او القرى كما يسميها القرآن ثابتة لم تتغير في كل مرة يحدث انحراف عن الخط الاصيل وهو توحيد الخالق بالعبودية وتتلبس الاهواء أفكار الناس فيلبسوا الحق بالباطل فيبعث الله رسولًا ليصحح المسار ويعيد البشرية الى منهجها الاصيل وتغيرت أحوال وأمم وظروف ولكن القضية بقيت واحدة كما تغيرت جاهليات في صورها وأنواع الشرك فيها كان الخطاب يأتي بما يلائم البيئة والظروف التي كان يعيشها القوم ﴿ وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه ليبين لهم ﴾[١٤٨] . وأخذت سنن التغير طابعها المميز الذي لا يتخلف وهو إهلاك المعرضين ونجاة الرسول وأتباعه المؤمنين ويحدثنا القرآن الكريم ان معظم القرى لم تكن ممن يستجيب لدعوة الرسول ﴿ وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين ﴾[١٤٩] . فكان النبي ومن معه يرثون مخلفات المرحلة التي سبقتهم وهذه الوراثة ليست مادية وممتلكات وإنما وراثة التمكين في الارض وبسط النفوذ ويتقادم الزمان ويخلف النبي وجيله أجيال تبعد عن المنهج الاصيل وقد حدثنا القرآن عن هذه السنة بقول تعالى : ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم

---

(١٤٥) سورة الاعراف / ٦٩ .

(١٤٦) سورة الشعراء / ٢٨ـ ٣١ .

(١٤٧) قطب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / ص ٤٥ .

(١٤٨) سورة ابراهيم / ٤ .

(١٤٩) سورة الاعراف / ١٠٢ .

بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ﴾(150) . وتقرأ ما كتبه ابن كثير في تفسيره لهذه الآية « قال ابن عباس(رضي الله عنه) او لم يتسنى لهم ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم . وقال أبو جعفر بن جرير في تفسيرها يقول تعالى او لم يتسنى للذين يستخلفون في الارض من بعد اهلاك آخرين قبلهم كانوا اهلها فساروا سيرتهم وعملوا اعمالهم وعتوا على ربهم ﴿ ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ﴾ يقول ان لو نشاء فعلنا بهم كما فعلنا بمن قبلهم . قلت وهكذا قال تعالى ﴿ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ان في ذلك لآيات لأولي النهى ﴾ وقال تعالى : ﴿ أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون ﴾ وقال : ﴿ أو لم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال وسكنتم في مساكن الذين ظلموا انفسهم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الانهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين ﴾ وقال تعالى بعد ذكره إهلاك عاد ﴿ فأصبحوا لا ترى مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ إلى أن قال تعالى ﴿ ولقد أهلكنا من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون ﴾ وقال تعالى ﴿ فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فأنها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على حلول نقمه بأعدائه وحصول نعمه بأوليائه »(151) .

نريد ان نؤكد عدة حقائق من خلال استشهادنا بهذه النصوص القرآنية منها :

١ - إن الناجين من الانبياء وأتباعهم يستأنفون الحياة بعد العقاب الذي نزل بقومهم وهؤلاء يرثون مجالات الانشطة الحضارية المادية وينقلونها الى الاجيال اللاحقة .

٢ - إن سنة الله في المعرضين إنزال العقاب والهلاك وفي الموالين للمنهج الاصيل التوحيدي هي النجاة والعيش في ظل النعيم الوارف . في الحياة الدنيا والرحمة والغفران والنعيم المقيم في الآخرة .

٣ - إن القرآن الكريم دعى للاعتبار من خلال التاريخ وآثار الاقوام السابقة وقد

---

(١٥٠) سورة الاعراف / ١٠٠ .

(١٥١) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج٢ ص ٢٣٤ .

وضع القرآن الكريم التاريخ في اولويات برنامج التذكير الرباني للانسانية .
لقد كانت العقوبات تمثل المعالجة الاخيرة للاعراض والاصرار على الموقف الخاطىء للانسان ولم تكن هذه العقوبة خارجة عن اطار السنن ولكنها متناسقة تماماً مع الموقف الذي يمثله المعرضون فيكون الجزاء من جنس العمل وقبل العقوبة يحاول النبي أن يخفف ومن ثم يعدل انحدار قومه نحو الهاوية ويحاول ان يمسك بوسائل التأثير ويحفز فيهم كوامن الخير من خلال النصح والتذكير وقد يضطره قومه الى طلب خرق نواميس الوجود من خلال المعجزات لإحداث صدمة شعورية في نفوس الناس يحاول النبي من خلال هذه المعجزة ان يزيل طبقات الران المتلبد على قلوب ومشاعر قومه الذين انغمسوا في ماديتهم وابتعدوا في انحرافاتهم وانقلبت مقاييسهم للخير والحق .

ولقد بينت لنا الآيات القرآنية في أكثر من موضع « ان الدمار التاريخي بأبعاده المختلفة ما كان ليحيق بجماعةٍ ما إلا أن يُمارِس في نطاقها ، قواعد وقيادة ، ظلماً وفجوراً وترفاً وإجراماً ولقد كانت مشيئة الله تمنح هذه الجماعة البشرية الفرصة الكاملة للحياة الطيبة العادلة السعيدة المؤمنة ولكنها كانت تضيّع هذه الفرصة فتضيع »[١٥٢] .

لقد كانت هذه العقوبات التي أنزلها الله بالاقوام المكذِّبة لأنبيائه ورسله متنوعة وقد احتلت أخبار هذه الاقوام ومصائرها التي آلت اليها في القرآن مساحة واسعة وحددت آيات قرآنية بتفاصيل دقيقة ألوان العذاب والعقاب الذي أصاب الذين كانوا يعوقون عمل الانبياء . « ونحن نتكلم عن الفعل الإلهي المباشر أمام قوتين كونيتين يسخرها الله لتحقيق كلمته : قوة الطبيعة المنظورة ، وقوة الروح غير المنظورة . في الاولى نلتقي بنماذج شتى من اعتماد القوى الطبيعية لمواجهة العنت والشرك والتكابر البشري : السيل ، الجفاف ، الحاصب ، الصيحة ، الخسف او الزلازل أو الرجفة ، الغرق ، الصاعقة ، الطوفان ، الحشرات ، المطر العنيف ، الاوبئة ، الريح العاتية ، الاماتة الجماعية ، تمزيق المجتمعات ، الخوف الجوع ، ثم الدمار الشامل دون الإشارة الى الوسيلة بالذات . وفي الثانية نلتقي بجند الله الذين لا يرون وبحشود الملائكة وبالطاقات الروحية التي لا تحدها حدود ، والتي تستطيع في لحظات ان تقلب الهزيمة الى نصر وأن تمنح القلة المجاهدة مقدرة هائلة على

---

(١٥٢) خليل / د. عماد الدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / ص ١٤١ .

المقاومة والثبات »[153] . وفق هذا المنظور نستطيع ان نستوعب التاريخ ومن خلال الايمان بالغيب تتكامل عندنا التصورات الواعية لاحداث التاريخ وان عدم الايمان بالغيب يعني أننا نغمض أعيننا ونصمت وندع أحداث التاريخ وحقائقه يسدل عليها ستار النسيان ونكون بذلك قد مارسنا اخفاءً متعمداً لحقائق التاريخ وزوّرنا القيمة الحقيقية للوثائق التي بين أيدينا وهي ما تحكي لنا قصة الانسان على الارض .

وهذا الخط الفاصل بين المؤرخ المسلم الذي يحس بسمؤوليته تجاه تدوين الحدث التأريخي وهو يحلل الوثائق التي يمتلكها وبين المؤرخ الذي لا تربطه بالايمان بالخالق والايمان بالحق أية رابطة وإنما هو يُخْضِع التاريخ لعقله المحدود الذي يعجز عن ايجاد ابسط التفسيرات لابسط الحقائق التاريخية والتي سبق وأن تِحدثنا عنها مثل أصل الحياة أصل الانسان ، أصل اللغة أصل الكتابة . وأصل الحضارة وجذورها .

---

(١٥٣) خليل / د. عماد الدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / ص ١٣١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر سورة القمر/ ٩ ـ ١٦ .

لقد تحدثت نصوص كثيرة في القرآن الكريم حول هذا الطوفان ولكنها لم تتعرض الى تفاصيل خارج إطار الهدف المرسوم للقصة في القرآن الكريم وعلى العكس من ذلك فقد وقعت التوراة أو العهد القديم بمغالطات وأخطاء جعلت رواية الطوفان تأخذ مسار الاسطورة بينما حافظ النص القرآني على تماسكه وإعجازه ولم يدع أي مجال وثغرة لتخطيئها واكتشاف تناقضات في ثنايا عرض قصة الطوفان في مواضع مختلفة من سور القرآن الكريم . وسنحاول فيما يلي القيام بعملية إحصاء واستشهاد بالآيات والنصوص القرآنية التي تعرضت للطوفان وسنقوم بعملية دراسة متأنية لهذه النصوص للخروج بنتائج وتصورات ضمن معطيات النص والرواية القرآنية للطوفان . من خلال نصوص القرآن يبدو ان تطوراً ونضجاً قد وصل اليه إنسان عصر نوح حتى تبلورت قابليات هذا الانسان في الدفاع عن الطبقية الاجتماعية وتبرير الظلم والانتقاص من الرسالة بسبب انتماء المستضعفين اليها . وهذا يعكس لنا أن إنسان عصر نوح قد انتقل من البدائية الى عصر الزراعة ويمكن القول كذلك بأن عقل الانسان في هذا العصر قد تأسست عنده الاسس الفكرية الاولى نتيجة تراكم الخبرة منذ عصر آدم (عليه السلام) حتى هذا العصر . أول نص يطالعنا في القرآن حول قوم نوح ورسالته في سورة الشعراء في خمس آيات من سورة الشعراء قصة نوح ودعوته وبإيجاز . وقد أكدت معظم الآيات التي تعرضت لقصة نوح (عليه السلام) بأن الله قد أرسل نوحاً الى قومه وقد ارتبطت دعوة نوح بقومه وفي آيات سورة الاعراف إشارة الى العالمين اي المحيط خارج قوم نوح وقد ذكر نوح (عليه السلام)

بانه ﴿ رسول من رب العالمين ﴾[154] . وهذا يؤكد ان دعوة ورسالة نوح (عليه السلام) قد ارتبطت مباشرة بقومه وبصورة غير مباشرة بالعالم خارج قوم نوح . وهذه القضية تدفعنا الى التساؤلات القديمة حول من كان يعيش من البشر خارج المحيط الانساني او البشري لقوم نوح فمن الواضح بأن نوح قد أرسل الى قومه ومن المعقول جداً أن ينتقل تأثير رسالته الى المجتمعات القريبة او التي تعيش ضمن مساحة جغرافية يمكن الاتصال بها ضمن وسائل الاتصال المتاحة في ذلك العصر . وقد تتسع هذه المساحة لأن أعمار البشر كانت أطول فكان طول العمر يتيح فرصة للانسان لكي يتحرك على أوسع مدى ويهاجر ويغير مستقراته طلباً لموارد الطبيعة التي تحقق له نوعاً من الامن الغذائي له ولحيواناته وينقل الانسان معه في تنقلاته معتقداته وطرائق تفكيره ووسائل عيشه فيكون المحيط الثقافي خصوصاً في بداية تكون المستقرات البشرية يكون بمستوى ثقافي متقارب وطابع الحياة وأسلوب المعيشة يتشابه ولذلك كانت العصور الحجرية يطلق عليها أسماء مواقع اكتشفت فيها أدوات ذلك العصر « ففي العصر الحجري القديم الاوسط من ١٢٠,٠٠٠ سنة الى ٣٥,٠٠٠ ظهرت صناعة الشظايا الليفولوازية نسبة الى بلدة ليفولوا القريبة من باريس وظهرت الشظايا الموستيرية نسبة الى موقع موستييه في حوض الدوردون بفرنسا . اما العصر السولتيري فقد سمي كذلك نسبة الى منطقة سلوتره بمقاطعة الساوون حيث وجدت آلاته في احد الكهوف أما العصر الاخير يسمى العصر المكدليني نسبة الى موقع مكدلين في منطقة الدوردون بجنوب فرنسا »[155] . الذي نريد تأكيده أن ثقافة حياة عصر ما وصناعته وطبيعة حياته نجدها في مواقع مختلفة من دول مختلفة بل قد تصل الى قارات[156] مختلفة فمن الممكن ان نجد أدوات العصر

---

(١٥٤) اقرأ الآيات ٥٩ ـ ٦٤ من سورة الاعراف .

(١٥٥) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور/ ص ١١ ـ ١٣ .

(١٥٦) ويذهب بعض الباحثين بأن تطور الصناعات للعصور الحجرية كان محلياً « وانها كانت نتيجة لتطور صناعة الآلات الحصوية المحلية ويؤكد ذلك التشابه حضارة الفؤوس اليدوية في كل من افريقيا وآسيا واوربا » أنظر ـ الدباغ / د. تقي ود. الجادر / عصور قبل التاريخ / ص ١٠٧ . ولكن في موضع آخر ينفي هذا الاستنتاج حيث يذكر العديد من الباحثين ان شمال افريقيا الاصل لمثل هذه الادوات المتقنة الصنع وقد انتشرت منها أساليب استخراجها الى مناطق أخر/ ص ١١١ .

المكدليني في فلسطين وفرنسا والمغرب وهذا من أقوى الادلة على انتقال طرق العيش والوسائل التي يستخدمها الانسان في عصور ما قبل التاريخ بين مناطق متباعدة الامر الذي يدل على حدوث هجرات ونقل خبرات بين بني البشر في عصور ما قبل التاريخ وان هذه الظاهرة قد تقلصت الى أبعد الحدود بعد استقرار الانسان وتكوّن المستقرات الحضرية وبداية تكون الحضارات . وقد أكّد المنقبون أن طبيعة الحياة المعيشية للتجمعات السكانية الاولى كانت قليلة الاستقرار ويغلب عليها التنقل ولكن في عصر جرمو (القرية التي اكتشفت في شمال العراق في الالف السابع قبل الميلاد) بدأت الحياة الاجتماعية تاخذ طابع الاستقرار لسنوات طويلة قد تصل الى عدة قرون كما ذكرنا ذلك حول جرمو . وليس من السهل أن نجد أدلة مادية على انتقال او تاثير حضارة وادي الرافدين في حضارة وادي النيل ولم تكن بالسهولة نفسها التي كان يعثر فيه على أدوات حجرية تتميز بميزات عصر من العصور الحجرية القديمة ومع ان العكس هو الذي يذهب اليه المنطق والعقل لان تطور الحياة وتدجين انواع اكثر من الحيوانات يوفر سهولة الاتصال بين الجماعات البشرية وبذلك يتعزز لدينا انتقال أدوات الاستخدام لإنسان العصور الحجرية قد تم بناءٍ على زيادة في اعمار الانسان مما يساعد على زيادة في الانتقال ومعدلات الهجرة عن العصور المتأخرة التي بدأ فيها عصر الانسان الطبيعي في معدلات اعماره وذلك عندما بدأت معدلات النمو السكاني بالازدياد وبدا التوازن الطبيعي في حياة الانسان يتشكل مع زيادة الحركة البشرية وزيادة في الانتاج .

واذا عدنا الى النصوص القرآنية التي تتحدث عن الطوفان الذي أهلك قوم نوح فسنجد أن أكثر السور تفصيلًا لحدث الطوفان وما قبله وما بعده هي سورة هود الآيات من ٢٥ ـ ٤٩ . ونذكر هنا فقط الآيات التي تتحدث عن الطوفان ونبدأ من قوله تعالى ﴿ واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا * إنهم مغرقون * ويصنع الفلك وكلما مر عليه قومه سخروا منه * قال إن تسخروا منا فإنا نسخرُ منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم * حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك الا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل * وقال أركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها أن ربي لغفور رحيم * وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح أبنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال

لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين * وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضي الامر واستوت على الجودي وقيل بُعداً للقوم الظالمين * ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وان وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح انه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم اني أعظك أن تكون من الجاهلين * قال ربي إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين * قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب اليم * تلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾[١٥٧] .

لقد تعرضت الآيات قبل ذكر السفينة الى الحوار الذي كان يحصل بين نوح (عليه السلام) وقومه وكيف كان يحاول إقناعهم للتخلي عن عنادهم وكفرهم وكيف كانوا يجادلون ويسخرون وقد تكررت قصة عنادهم في معظم النصوص القرآنية التي تحدثت عن رسالة نوح (عليه السلام) وفي هذا تاكيداً لسريان سنة الله في الاقوام التي تكفر بالرسالات بأن الله يرسل اليها رسولًا ويقيم عليها الحجة وتُستخدم معهم كل الوسائل الممكنة في عصرهم ثم ينذرهم نبيهم بسوء العاقبة إذا استمرت أوضاعهم على النحو الذي يلقون به دعوة الله حتى يصل حالهم في التحدي والصلف ان يطلبوا من نبيهم أن ياتي ما يخوفهم به من العذاب **﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ﴾**[١٥٨] . ثم ان الله أخبر نوحاً بعاقبة القوم أنها ستكون غرقاً وأمره بصناعة السفينة وتعرضت نصوص قرآنية لهذا الامر وهو بناء السفينة وان هذا البناء كان تحت رعاية الله وبتوجيه منه لان نوح (عليه السلام) لم يكن يملك الخبرة في تصميم السفن أو لم يكن يمتلك تصوراً حول وظيفة هذه السفينة وحجمها وكيفية الاغراق وطبيعة الطوفان . أخبر الله تعالى **﴿ وأصنع الفلك بأعيننا ووحينا ﴾** أي تحت رعايتنا بتهيئة مستلزمات انجاز هذا العمل ويكون بناء السفينة بموجب أمر الله وقد اوحى الله تعالى لنبيه تصميم هذه السفينة قال ابن كثير « **﴿ وأصنع الفلك ﴾** يعني السفينة **﴿ أعيننا ﴾** اي بمرأى منا

---

(١٥٧) سورة هود / ٣٧ - ٤٩ .

(١٥٨) سورة هود / ٣٢ .

﴿ ووحينا ﴾ تعليمنا لك ما تصنعه »[159] . وهذا يوضح لنا بأن السفينة قد صممت بمقتضى وحي الله وانها صممت لتلائم حاجة النبي نوح (عليه السلام) لكي تتم عملية انقاذه ومن معه من المؤمنين وما يحمل معه من الحيوانات التي لا تستطيع السباحة التي كانت تعيش ضمن البيئة التي يعيش فيها قوم نوح . وأن الله قد أمره يحمل من كل زوج أثنين أي ذكر وأنثى من كل نوع لاستمرار النوع حتى لا ينقرض . وأن هذا الامر جاء يتوافق مع خطة وضعها الله لاستئناف الحياة بعد الطوفان بالنسبة للناجين من قوم نوح . حتى تعود الحياة الى اوضاعها الطبيعية ضمن مدة منطقية لزيادة الانواع وتكاثرها وبذلك تستانف الحياة نشاطها . وهذا الامر يساعدنا على فهم طبيعة الطوفان وأنه لم يكن غطى عموم اليابسة في كل الارض إذ لو كان كذلك لعجز نبي الله نوح عن إحصاء جميع أنواع الحيوانات التي تدب على سطح الكرة الارضية وكيف كان يتسنى له أن يطوف في الارض ليحضر من كل نوع زوجين ؟ وكم كان يستغرق من الوقت من أجل إنجاز هذا العمل الغير منطقي ؟ وهل يمكن ان يتصور أن بمقدور انسان أن يجمع من كل انواع المخلوقات على الارض زوجين ؟ ونحن نعلم ان كل بيئة فيها أنواع من الحيوانات تتلاءم حياتها مع هذه البيئة وقد أستغرق انتشار هذه الحيوانات على الارض منذ ان أوجدها الله وتكاثرت وتنوعت استغرق هذا الامر ملايين السنين ثم ان أمر بناء السفينة وإخبار الله لنبيه بنتيجة القوم ﴿ انهم مغرقون ﴾ هذا الامر كان يحتم عليه الانشغال كلياً ببناء السفينة خصوصاً إن المؤمنين الذين كانوا معه قلة فلم تكن عنده من الايدي العاملة الكثيرة مما يساعد على انجاز سفينة بضخامة ما يتصور أنها تستوعب كل أنواع المخلوقات الحيوانية في عصره . ثم ان استجابة الله لنوح كانت سريعة كما يوحي سياق النص في سورة القمر ﴿ فدعا ربه أني مغلوب فأنتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر ﴾[160] . فلا يمكن مع هذه العجلة وسرعة الحدث ان ينصرف نوح (عليه السلام) لجمع أصناف الحيوانات ليضعها في السفينة لو لم تكن هذه الحيوانات المتواجدة في البيئة حول بيوت القرية ومع الانسان في بيوت القرية بالنسبة للمدجنة منها . ولو قيل أن الزمن من أمر البناء الى البناء استغرق وقتاً طويلاً في بعض روايات الحديث النبوي وهي ضعيفة وموقوفة

---

(١٥٩) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج٢ ص ٤٤٤ .

(١٦٠) سورة القمر / ١٠ - ١٢ .

على بعض علماء السلف[١٦١] أن الله أمره ان يغرس شجراً ليعمل منه السفينة فغرسه وانتظره مائة سنة ثم نجره في مائة أخرى وقيل في أربعين سنة . وهذا الامر لا يصمد أمام النقد في الرواية ولا يخلوا من الغرابة في المتن . وكذلك فان نص القرآن الكريم لم يوجد فيه أي ذكر لانصراف نوح في البحث عن انواع الحيوانات أو أي إشارة الا حين التنفيذ ﴿ حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا أحمل فيها من كل زوجين أثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل ﴾[١٦٢] . ولم يتطرق النص القرآني حول ابعاد السفينة وشكلها إلا إشارات في بعض الآيات حول وصف السفينة وهي قوله تعالى ﴿ وحملناه على ذات الواح ودُسُر ﴾[١٦٣] . وهو ما يعطينا فكرة حول تكوين السفينة وأنها بنيت من الواح الخشب والدُسُر تعني المسامير وتعني الحبال التي تربط السفينة[١٦٤] ونحن نعلم ان استخدام الخشب قديم حيث وجد علماء الآثار بأن إنسان عصور ما قبل التاريخ قد استخدم الخشب في حياته اليومية « فقد عثر في تل الصوان في الطبقات تعود الى الالف السادس قبل الميلاد على آثار لطبقات عارضة خشبية على جانبي المدخل بين غرفتين تشير الى وجود عارضة كانت تسند سقف المدخل وعلى ارتفاع ٩٠ سم من ارضية الطبقة الثالثة دور (A)[١٦٥] كما نرى انه لابد أن يكون سكان تل الصوان قد استخدموا نوعاً من العوارض الخشبية لتسقيف الوحدات البنائية ولكن ليس لدينا دليل أثري يثبت ذلك »[١٦٦] . وهذا بسبب تعرض الخشب للتلف . وقد وردت روايات « عن الثوري : بأن الله أمره أن يطلي ظاهرها وباطنها بالقار وأن يجعل لها جؤجؤاً أزور (أي صدر السفينة مائل يشق الماء »[١٦٧] ومعروف عند علماء الآثار كذلك أن استعمال القار كان شائعاً في عصور ما قبل التاريخ « وقد عرفت مادة القير في مواقع

(١٦١) انظر ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٧٧ .

(١٦٢) سورة هود / ٤٠ .

(١٦٣) سورة القمر / ١٣ .

(١٦٤) الرازي / محمد بن ابي بكر / مختار الصحاح / ص ٢٠٤ . وكذلك الزبيدي / محمد مرتضى / تاج العروس / ج١١ ص ٢٩٠ . وكذلك ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٨١ .

(١٦٥) وهو دور يمثل قسم من طبقات الحفر في الموقع الاثري .

(١٦٦) جورج / دوني / عمارة الالف السادس ق . م . في تل الصوان / ص ٧٥ ـ ٨٠ . وتل الصوان موقع على نهر دجلة جنوب سامراء بـ ١٠ كم .

(١٦٧) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٧٧ .

عديدة في وادي الرافدين كمادة عازلة للرطوبة والماء وفي تل الصوان عرف استخدامها منذ زمن الطبقة الاولى فقد عثرنا في تحرياتنا الموقعية على بقايا القير في الركن الداخلي من الزاوية الغربية من الغرفة وفي عمليات الموسم الاول عثرنا على بارية وهي مغطاة بالقير على ارضية إحدى الغرف لأبنية الطبقة الاولى وقد تمثل هذه بقايا سقف متساقطة على ارضية الغرفة واذا صح هذا يمثل اسلوب متطور في عزل السقوف بالحصران ثم تغطيتها بمادة القير »[١٦٨] . اما الدُسُر وهي كلمة أختلف في تفسيرها منهم من قال أنها المسامير ومنهم من قال « خيط من ليف تُشدُّ بها الواحها[١٦٩] والرأي الثاني أرجح لان عصر نوح زراعي ولم يستخدم المعدن في عصره وفي القاموس ايضاً : « الدوسر : نبات يجاوز الزرع في الطول »[١٧٠] وهذا يرجح استخدام حبال مصنوعة من ألياف النباتات لتثبيت الالواح وهذا يؤكد بأن عمل السفينة كان قد تم بوسائل متوفرة في البيئة الزراعية ولم تكن بالضخامة التي يتصورها بعض المفسرين متأثرين في ذلك بمعلومات التوراة . حتى قال ابن كثير : « وهي السفينة العظيمة التي لم يكن لها نظير قبلها ولا يكون بعدها مثلها »[١٧١] وهذا لا يمكن بحال لأن بعد عصر نوح وحتى عصرنا الحاضر قد تطورت صناعة السفن وأصبحت بعض السفن مدن مصغرة وهذا كله بسبب اعتقاد معظم المفسرين بعموم الطوفان للكرة الارضية .

ومن خلال النص القرآني يتضح لنا أن قرية نوح (عليه السلام) لم تكن على النهر مباشرة وانما كانت تبعد عن ضفاف النهر ولذلك كان قومه يسخرون منه عندما ينظرون اليه وهو منصرف لبناء السفينة ويتعجبون من عقله وكذلك عندما كان نوح يذكرهم بنعم الله كان يذكرهم ويرغبهم بما تتطلع اليه نفوسهم من جنات وبساتين وانهار وزروع وفيرة وأنعام كثيرة ﴿ فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا * يُرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا ﴾[١٧٢] . وهذا يدل على انهم كانوا بحاجة الى هذه النعم فالنعم الموجودة قليلة يكثرها والماء

---

(١٦٨) جورج / دوني / عمنوئة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان / ص ٧٨ .

(١٦٩) الزبيدي / محمد مرتضى / تاج العروسة / ج١١ ص٢٩٠ .

(١٧٠) الزبيدي / م . س / ج١١ ص ٢٩١ .

(١٧١) ابن كثير / قصص الانبياء ؟ ص ٧٦ .

(١٧٢) سورة نوح / ١٠ - ١٢ .

المفقود يرسل السماء عليهم مدرارا . وان الامتنان بذكر إجراء الانهار وجعل الجنات يوحي بأن قوم نوح كانوا قد عرفوا الجنان والانهار ولكنها لم تكن عندهم بالوفرة الكثيرة فكان الكلام بترغيبهم فيها اسلوباً يرجى منه أن يؤثر فيهم ويربطهم بمفاهيم الايمان بالله وقدرته . كما وان الطوفان عندما وصفته نصوص القرآن الكريم لم تكن هناك إشارة الى أن الانهار قد ارتفع الماء فيها ولم يرد أي ذكر لاي نهر فقد ورد في القرآن الكريم أن الطوفان حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وتفجر عيون الماء من الارض ﴿ **ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجّرنا الارض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر** ﴾[173] . وفي آيات أخر من سورة هود ﴿ **وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي** ﴾[174] . وقد ذكرت نصوص القرآن بأن مستوى الماء قد غطى أعلى مرتفع في المنطقة ومن سياق النص يتوضح بأن المنطقة كانت فيها مرتفعات وهي على شكل هضبة وهي أعلى مستوى من الارض المجاورة ولذلك تولد تيار مائي وصفه القرآن الكريم ﴿ **وهي تجري بهم في موج كالجبال** ﴾ فان تولد الموج نتيجة لتلاقي وتلاطم تيارات تجري بانحدار سريع وعلى ضوء ذلك يمكننا تصور المنطقة التي كانت عليها قرية نوح (عليه السلام) بأنها لم تكن على ضفاف الانهار وقد تكون قريبة منها وذلك ان نصوص القرآن الكريم لم تذكر ان الطوفان حدث بسبب فيضان النهر بل ان جميع نصوص القرآن التي تصدت لشرح الطوفان لم تذكر من قريب أو من بعيد حول احتمالية تأثير مناسيب مياه الانهار على الطوفان . وكذلك نستطيع أن نستبعد وجود قرية نوح على المسطحات الجنوبية من العراق لانها لو كانت هناك وحدث الطوفان لم تحدث تيارات ماء لعدم وجود انحدارات تؤدي الى جريان الماء كالجبال . ويذكر النص القرآني بأن نوح (عليه السلام) قد حمل معه أهله ومن آمن معه من قومه وقد حددت الرواية القرآنية أن الذين آمنوا معه كانوا قليل ﴿ **وما آمن معه الا قليل** ﴾ . وقد حمل نوح (عليه السلام) في السفينة أهله . ولم يفصل القرآن الكريم من هؤلاء الأهل ؟ وقد استثنى منهم ﴿ **الا من سبق عليه القول** ﴾ وقد أوضح أهل التفسير أنها (زوجه) التي كانت كافرة ولم تتبع زوجها نوح وقد ورد ذكر لابوي نوح (عليه السلام) حتى انه دعى لهما بقوله ﴿ **رب أغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً**

---

(١٧٣) سورة القمر / ١١ ـ ١٢ .

(١٧٤) سورة هود / ٤٤ .

وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا ﴾[175] ودعاء نوح (عليه السلام) لوالديه يشعر بانهما كانا معه مؤمنين . خصوصاً ان القرآن لم يعقب على دعائه كما عقب على دعاء ابراهيم لابيه **﴿ وما كان دعاء إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه أن إبراهيم لأواه حليم ﴾[176]** .

وأن القرآن الكريم قد نهى رسول الله (ﷺ) أن يستغفر للمشركين ولو كانوا اولي قربى . والنص يوضح حقيقة أخرى وهي أن الاهل يشمل الزوجة والابناء لانه عندما أمره بحمل أهله أستثنى منهم الكافرين وعندما دعا نوح أبنه ليركب معه وكان كافراً وكانت آخر محاولة من نوح الذي كان يحمل مشاعر الابوة والعطف على الولد . هذا الولد الذي أصر إلى آخر لحظة أن يكون مع الكافرين وعندما اختفى عن أنظار نوح (عليه السلام) خلف الامواج تحركت في قلبه عاطفة قوية دفعته الى اللجوء إلى الله لكي يتدخل لإنقاذ ابنه وقال نوح **﴿ ربي إن ابني من أهلي ﴾** الآية . فنهاه الله تعالى عن الدعاء لإنقاذ ولده . لإنه أصر أن يكون مع الكافرين . ولانه سبحانه وتعالى يريد من قلب المؤمن أن يتوجه بكل ما يحمل من عواطف ومشاعر نحو الحقيقة الكبرى في الوجود وهي الايمان بالخالق وبذلك يتخلص الانسان من كل مؤثر دنيوي يدفعه بالاتجاه الخاطىء الذي يفسد الاسس الصحيحة التي تقوم عليها الحياة وتنصلح بها فيتخلص من التعصب والهوى والمحاباة والظلم والحقد وكل الامراض الاجتماعية التي تعاني منها المجتمعات الجاهلية وقد حدد النص القرآني العلاقة الحقيقية التي تربط أفراد المجتمع وتكون الامة قد بنيت على أساسها **﴿ انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح ﴾** . وهذا الاساس للعلاقة الانسانية يصلح أن يرتبط من خلاله جميع البشر من خلال الاعتبار الانساني والعمل الصالح وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في مواضع عدة **﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾** . وعلى منهجية القرآن المعجزة لم يذكر القرآن الكريم اسم هذا الولد . ولم يذكر كذلك من كان معه من أولاده وما هي اسماؤهم وما يتشبث به بعض المفسرين من ذكر لاسماء ونسج لروايات وقصص كلها لم تثبت وهو مما نقله أهل الكتاب ودخل في تفسير الرواية القرآنية كذلك في النص القرآني لم يتطرق إلى أصناف الحيوانات التي حملها وقد وردت

---

(١٧٥) سورة نوح / ٢٨ .

(١٧٦) سورة التوبة / ١١٤ .

روايات تفسيرية[177] بأنه حمل الوحوش والحيات والحيوانات المستأنسة الاخرى وجعل السفينة طوابق وهذا كله خارج دلالة النص القرآني ولم يثبت فيه حديث صحيح . ولكن الظاهر من النص بأنه حمل معه ما كان ضمن بيئته وقريبه منه من أنعام وحيوانات من كل نوع ذكر وأنثى وكما ذكرنا سابقاً كان الهدف من هذا العمل هو تثبيت الواقعية التي يدعو اليها القرآن وأن الامر لا يحتاج أن يوضع ضمن إطار غيبي ميتافيزيقي أشبه ما يكون حديث خرافة خصوصاً وإن سياق الآيات لم يذكر بأن هناك حديث حول معجزة ضمن أجواء تحدٍّ وإنما أخذ بأسباب الحياة وأتبّاع السنن التي تنهض بها الحياة فان نوحاً والناجين معه بعد الطوفان كانوا يحتاجون الى ما يكمل حياتهم وقد جعل الله تعالى حياة الانسان على الارض تتكامل مع الحيوان والنبات والكل يحقق التوازن بالقدر الالهي للحياة والكل يؤدي وظيفة تتكامل مع النوع الآخر وكذلك الشمس والقمر والنجوم والانهار والطيور لقد جعل الله من هذا التركيب والمزيج والنقص الموجود والذي يتكامل بالتعايش جعله سبباً من أسباب الايمان به لكي يدرك الانسان من خلال حاجته للمخلوقات الاخرى بانه ليس إلهاً ولا يستطيع ان يستغني عن الحياة . كما لو ان الامر كان فيه معجزة لذكرها النص كما كان يذكر حول معجزات المسيح (عليه السلام) ﴿ **يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله . وينفخ من الطين كهيأة الطير فتكون طيراً بإذن الله** ﴾[178] ولما لم يذكر النص القرآني حاجة قوم نوح خصوصاً ان الذين كانوا معه في السفينة مؤمنين ولما لم يذكر النص وجود مثل هذه الحاجة نجد أنه من الضروري عدم الخروج عن دلالة النص القرآني الا اذ وجد نص حديثي . وعلى هذا فان الروايات الكثيرة التي تتحدث عن أمور غير منطقية والتي تسربت الى التفسير من الاسرائيليات لابد من الابتعاد عنها وتنقية التفسير من هذه الخرافات . فانهم يذكرون بأن ابليس تعلق بذنب الحمار وتعثر الحمار عند صعوده الى السفينة بسبب ذلك . لماذا يصعد ابليس الى السفينة ؟ وإنه غير مادي لا يتأثر بالطوفان . وكذلك يذكرون أن الفارة آذت قوم نوح فعطس الاسد فخرجت القطة . وهذا كله لم يعد يقنع عقلية الانسان المعاصر ومن الخطأ

---

(١٧٧) انظر ابن كثير/ تفسير القرآن الكريم العظيم / ج٢ تفسير سورة هود ص ٤٤١ .

(١٧٨) نص الآية ﴿ **ورسولا الى بني اسرائيل اني جئتكم بآية من ربكم اني أخلق لكم من الطين كهيأة الطير فانفخ فيه فيكون طيراً بأذن الله وأبرء الاكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله ...** ﴾ الآية / آل عمران / ٤٩ ونص آخر في سورة المائدة آية ١١٠ .

الاستشهاد به في كتب التفسير .

ونعود الى النص القرآني فنجده يحدثنا عن لحظات الطوفان الرهيب وكيف إن السفينة أخذت تجري بهم في موج كالجبال جريان السفينة كان يعني أنها انحدرت من المستوى المرتفع من الشمال نحو الجنوب . وقد كانت السفينة تسير سيراً محدد الهدف ﴿ وحملناه على ذات ألواح ودُسُر . تجري بأعيننا جزاءً لمن كان كفر ﴾[١٧٩] فأنها كانت تسير بعناية الله ورعايته . وقد أراد لها ان تستقر على (الجودي) . وهنا نجد الخلاف في الروايات حول مكان هذا الجبل الذي سماه القرآن (الجودي) « قال مجاهد وهو جبل بالجزيرة : وقال الضحّاك : الجودي جبل في الموصل وقال بعضهم هو الطور وفي أثر عن نوبة بن سالم قال رأيت زر بن حبيش يصلي في الزاوية حين يدخل من أبواب كندة على يمينك فسألته أنك لكثير الصلاة ههنا يوم الجمعة قال بلغني أن سفينة نوح أرست من هنا »[١٨٠] .

إن تحديد مكان الجبل والتعرف عليه من العبث خصوصاً ان منهجية القرآن كما أشرنا في دراستنا لا ترتبط بالاسماء عند عرض الحدث لأن الهدف من سياق الرواية هو استخلاص العبرة . وإن القرآن الكريم لم يصدر من بشر وإنما جاء من عند الله وهو العليم الحكيم والمسلم عندما يتلقى الرواية القرآنية على أساس التصديق واليقين . ولكن ونحن نتأمل النص القرآني يدفعنا شوق الى معرفة المجهول وذلك عندما يصرّح النص بأسم الجبل وإن أسمه (الجودي) في مثل هذه الحالة منحنا النص القرآني وضوحاً أكثر وبدت صورة الحدث وقد أخذ جوهر القضية معظم مساحتها ولكن مع هذا الجوهر ظهرت بعض العلامات الخافتة يشوبها بعض الضباب والتضاؤل وكانت أكثر هذه الاشياء إثارة للتساؤل هو (الجودي) . إن هذه التسمية بحروفها وبنائها تدل على أنها عربية وقد ذكر أحمد سوسه ذلك « ان الفلك (استوت على الجودي) وهي كلمة عربية الامر الذي يؤيد أنها رست على مرتفع من الصحراء جنوب شرقي الفرات عند حدود سلسلة مرتفعات التي تعلو عن سطح البحر بما يقارب (٦٥ متر) . »[١٨١]

---

(١٧٩) سورة القمر / ١٣ - ١٤ .

(١٨٠) انظر ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج٢ ص ٤٤٧ .

(١٨١) سوسة / د. احمد مقالة عن موطن الطوفان واستقرار فلك نوح / ص ١٨٥ - ١٩٢ . ورد هذا الكلام في كتاب (معجزة القرآن والطوفان) المهندس سعد حاتم مرزة ص ٩٩ .

وهذا الكلام يبقى ضمن الاستنتاجات حول مكان استقرار السفينة وقد ورد أسم الجبل في التوراة بـ (أرارات) « وقد جاء في التوراة العبرانية (استقر الفلك على جبل ارارات) وهو جبل يقع في أرمينيا بينما تذكر التوراة السامرية أنه جبل سرنديب وهو يقع في سريلانكا »[١٨٢] . وتذكر ملحمة كلكامش البابلية أن أسم الجبل الذي استقرت عليه السفينة هو (جبل نصير)[١٨٣] .

ويذكر المرحوم د. طه باقر أن معنى جبل النصير « اذا صحت قراءة اسم الجبل في الملحمة (نصير) فلعل معناه جبل الخلاص . وان هذا الجبل يقع بموجب أخبار الملك الآشوري (آشور ناصربال) الثاني الى جنوبي الزاب الصغير »[١٨٤] ويذهب كذلك الدكتور طه باقر الى ان الجبل الذي استقرت عليه السفينة بحسب رواية (بيروسوس) (برعوشا الكاتب البابلي ، القرن الثالث ق . م .) سمي هذا الجبل باسم الـ(كوردبين) . » ويستنتج الدكتور طه بأن معنى (كوردبين) الاكراد . »[١٨٥] وكما توضح بأن الامر لا يعدو الاستنتاجات والتوقعات لعدم وجود دليل مادي يحسم المسألة . ولكن ذكر أسم الجبل في ملحمة كلكامش بـ(جبل النصير)لا يتعارض مع التسمية القرآنية لانه يحمل اسماً من البيئة وله معنى (جبل الخلاص) وقد يكون اطلاق هذه التسمية جاءت لتعبر عن النجاة اكثر من ارتباطها باسم جبل ارتباطاً حرفياً أو يقصد بها جبل بعينه كذلك رواية الكاتب البابلي لا يشترط أن تتطابق مع تحليل واستنتاج د . طه باقر بل أن أسم جبل (كوردبين) قد تتعرض هذه الكلمة للنحت فتتحول بمرور الزمن الى الجبل (الكودبين) أي تتطابق مع التسمية القرآنية التي تنزلت لاحقاً فكانت اللفظة التي استخدمها القرآن الكريم تتطابق مع اللفظ الاخير للكلمة وهو « الكودي » أو (الجودي) . وقد حاول كتبة التوراة الابتعاد عن البيئة العربية فاعطوا أسماء لا تنسجم مع سياق أحداث الطوفان فاطلقوا اسم جبل ارارات وهو في أرمينيا بينما

---

(١٨٢) محمد / محمد قاسم / التناقض في التواريخ واحداث التوراة من آدم حتى السبي البابلي / ص ١٣ .

(١٨٣) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ١٤١ .

(١٨٤) انظر باقر / د. طه / م . س / ص ١٤١ .

(١٨٥) انظر / باقر / د. طه / م . س / ١٤١ .

حددت التوراة السامرية الجبل بأنه سرنديب في سريلانكا[١٨٦] . وليس غريباً ان يعتم مدونو التوراة على معلومات من شأنها ان تسلط الضوء على تاريخ العرب فقد أزالوا من التاريخ أخبار أنبياء العرب مثل هود وصالح . ولذلك نرجح ان الجبل الذي استقرت عليه السفينة كان في جزيرة العرب لهذا السبب وسبب آخر وهو ان قوم هود كانوا في الاحقاف جنوب الجزيرة العربية في اليمن . وأن نبيهم بُعِث اليهم ذكرهم بقوم نوح . فقال هود ﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون[١٨٧]. عندما ذكّرهم نبيهم هود بقوم نوح إنَّ هذا يعني أنهم كانوا قريبين منهم مازالوا يسمعون أخبار نوح وقومه وكيف كانت احوالهم ؟ . وكذلك هناك سبب ثالث يدفعنا الى هذا الرأي وهو أن الله تعالى علّم نوحاً أن يدعوه ويطلب منه ان ينزله في مكان مبارك وذلك في قوله تعالى ﴿ وقل ربي انزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين ﴾[١٨٨] . ولا يمكن ان يكون جبل في ارمينيا أو سريلانكا منزلًا مباركاً ! وهل البركات الا في ارض العرب وبلادهم وأخصُّ بلاد العرب « أمُّ القري وما حولها » اي مكة وما حولها . نزل نوح (عليه السلام) بمباركة الرب له الى ارض مباركة ومع أمة مباركة وهكذا انتهت مرحلة الصراع وبدأت البشرية مرحلةً جديدةً وهي ما بعد الطوفان واعتُبرت بداية لمرحلة جديدة بعد ان تجاوزت التجربة السابقة وعلى هذه المجموعة التي اجتازت الامتحان مع نبيها (عليه السلام) أن تخطو خطوات تستأنف بها دورها لأنها الجماعة المؤمنة الوحيدة على الارض وكان عليها برغم قلة عددها أن تؤدي دورها لايصال الحق الذي نزل اليهم الى المجتمع البشري الذي كان يتواجد على الارض في ذلك العصر . وبعد استقرار نوح وقومه المؤمنين وبمرور السنين وهم على شبه جزيرة العرب بدأوا يتكاثرون وتزداد أعدادهم ثم بدأت مرحلة الهجرة والتفرق وكان الحنين الى بلاد الرافدين الهاجس الاول . وهكذا بدأت الهجرة تأخذ دورتها في الحياة . لقد اخرج آدم من جنته على ارض الرافدين الى ارض

---

(١٨٦) « ويؤكد د. بلاشير Blachere وفي رأي هذا الكاتب ان هناك كتلة جبلية بهذا الاسم (الجودي) بالجزيرة العربية انظر بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٤٨ .

(١٨٧) سورة الاعراف / ٦٩ .

(١٨٨) سورة المؤمنون / ٢٩ .

التكليف والوحي والرسالات الى مكة وما حولها ثم عاد أبناؤه الى ارض الخير والبركات والانهار الى ارض الرافدين والقصة تتكرر هنا مع نوح حيث أخرجه الطوفان من أرض الرافدين الى مكة « وقد روى ابن جرير والازرقي عن عبدالرحمن ابن سابط او غيره من التابعين مرسلاً ان قبر نوح (عليه السلام) بالمسجد الحرام »[١٨٩] .

وهكذا نرى ان المجتمع البشري بدأ يخطو خطواتٍ نحو النضج في الوعي وبدأت أشكال الحياة في الواقع تتطور بخطى متسارعة منذ آدم (عليه السلام) حتى نوح ولقد حدث تطور في الوعي وأساليب الحياة في زمن نوح . وبدأ الانسان في عصر نوح يمتلك وعياً وخبرة متراكمة وقد ذكر القرآن الكريم نصاً في سورة نوح في سياق تذكير نوح لقومه بنعم الله عليهم يذكرهم بأن الله خلقهم أطوراً في قوله تعالى ﴿ ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا ﴾[١٩٠] وهذه الكلمة (أطوارا) الذكر الوحيد في القرآن الذي جاءت به في هذا الموضع ومن الجائز أن يكون نوح يذكرهم بمن قبلهم من البشر وأطوارهم التي كانوا فيها وكيف امتن الله عليهم وجعلهم بأحسن تقويم[١٩١] وقد قال المفسرون أن أطواراً تعني مراحل التخليق للجنين في الرحم . وهذا ممكن لكن هذه الملاحظة لا تثير في قوم نوح الاحساس بقدرة الخالق في عصرهم .

---

(١٨٩) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٣ .

(١٩٠) سورة نوح / ١٣ - ١٤ .

(١٩١) انظر بوكاي / موريس / أصل الانسان / ص ١٩٧ - ١٩٨ ويقول تعقيباً على هذه الآية (ولم يرد في السورة اي ذكر لنمو الجنين قبل الولادة وهي الظاهرة التي فسرها المفسرون التقليديون القدماء من خلال كلمة (أطوارا) . وهذه الآية توضح بدرجة كافية وشافية ان الشكل البشري يتعرض لتحولات لدرجة أننا لو رفعنا الآية لم يتغير المعنى .

ثانياً : الطوفان في الرواية التوراتية

إن استشهادنا بالرواية التوراتية لا يعني إننا نقبل هذه الرواية او نعتمدها ولكنا وجدنا ان معظم مَنْ كَتَبَ في التاريخ القديم قد استقى معلوماته منها أو من شروحاتها أو ما كتبهُ أحبار اليهود وهذ يعني ان التاريخ القديم ويضمنه تاريخ الانبياء بيد اليهود ولذلك فانا نعتبر هذه الظاهرة من أخطر الظواهر التي استقرت في أذهان الباحثين من القدم والمحدثين ولابد من التصدي لها من خلال البحث العلمي ونشر الحقائق التي تتوضح للدارسين وقد عتَّمَ عليه اليهود واحتكروا مصادر تعليمها . وقد مارس اليهود هذا الدور في بداية البعثة النبوية لرسول الله (ﷺ) حيث كانوا يحتفظون بمعلومات تاريخية حول فتية أهل الكهف وذي القرنين[١٩٢] . وما ذلك الا لقناعة اليهود بأن إحكام السيطرة على التاريخ يعني أحكام السيطرة على المستقبل . وكذلك إذا استطاع يهود ان يحجبوا المعلومات التاريخية ويتحكموا فيها فأن هذا يعني انه لم يبق مصدر يرجع اليه الباحث عن التاريخ الا التوراة وهذا يجعل اليهود يعدون التوراة هي عهد الله لشعبه الذي أختاره ولذلك وبصورة غير مباشرة يقول يهود للعالم نحن سادتكم وما في توراتنا هو الحق ولا حق غيره . وقد استطاع مفكروهم أن يقنعوا الباحثين والمتخصصين بأن الاخطاء التي في التوراة هي أخطاء بسبب بشر وليس من الله وبذلك تخلصوا من احتمالية الغاء اعتبار التوراة بسبب تصادمها مع الحقائق العلمية التي أصبحت ثابتة في عصرنا ولا تقبل المراجعة . وقد ذكر جان جيتون (Jean Guiton) هذه حقيقة في كتابة التعليم المسيحي الموجز الصادر ١٩٧٨ حيث يقول « ان الاخطاء العلمية في التوراة هي أخطاء البشرية . فقد كان الانسان منذ زمان طويل مثل الطفل يجهل العلم »[١٩٣] ومن المؤسف ان يدافع المسيحيون عن التوراة بهذه الطريقة التي يغلب عليها التعصب وهو أمر غريب حقاً عندما يتحدث الاب ديفو في كتابه (مدخل الى سفر التكوين « ان التوراة لا

---

(١٩٢) انظر ابن كثير/ ابو الفداء/ تفسير القرآن العظيم/ ج٣ ص ٧١ ـ ٧٢ .

(١٩٣) بوكاي/ موريس/ دراسة في الكتب المقدسة/ ص ٥٨ .

تنتمي الى اي من هذه الدراسات العلمية »[١٩٤] وهو في معرض حديثه عن التناقضات بين العلم والتوراة.

« وفي الوثيقة المسكونية الرابعة الصادرة من المجمع المسكوني للفاتيكان الثاني (١٩٦٢ - ١٩٦٥) هناك جملتان خاصتان بالعهد القديم (الفصل الرابع ص ٥٣) تشير الى الشوائب وبطلان بعض النصوص ويشكل لا يسمح بأية معارضة تقول : (بالنظر الى الوضع الانساني السابق على الخلاص الذي وضعه المسيح تسمح أسفار العهد القديم للكل بمعرفة من هو الله ومن هو الانسان بما لا يقل عن معرفة الطريقة التي يتصرف بها الله في عدله ورحمته مع الانسان غير ان هذه الكتب تحتوي على شوائب وشيء من البطلان ، مع ذلك ففيها شهادة عن تعليم الهي) ترى هل يبقى التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة او سيتبعه تغير في الموقف »[١٩٥] وقد كان للعلماء المسلمين موقف قديم من التوراة ومعلومات أهل الكتاب أو ما يسمى بالاسرائيليات وعلى الرغم من التحسس الموجود تجاه المعلومات المنقولة عن أهل الكتاب إلا اننا نجد ان معظم المفسرين والمؤرخين الذين تكلموا حول مواضيع التاريخ القديم او حتى ما قبل التاريخ مثل بدء الخليقة وخلق الانسان . فإن هؤلاء قد طفت على كتاباتهم الاسرائيليات ولذلك لا نجد اي كتاب في التفسير او التاريخ من الكتب التي ألفها القدماء الا وتوجد فيه نسبة من الاستشهادات الاسرائيلية وهذا الاتجاه ينسجم مع ثقافة عصرهم اذ لا سبيل الى استيعاب النصوص القرآنية والحديثية بالنسبة لعصرهم الا من خلال معلومات هؤلاء . وقد وجدت أحاديث نبوية تحذر المسلمين من اعتماد معلومات أهل الكتاب كمصدر لتكوين ثقافة اسلامية ولكن هناك نصوص لأحاديث نبوية أخرى تسمح للمسلمين أن يستعينوا بمعلومات أهل الكتاب هناك نصوص في القرآن الكريم تذكر بأن التوراة فيها هدىً ونور ولكنها حرفت وبدلت كما دلت على ذلك نصوص وآيات في القرآن الكريم وفي نص من القرآن الكريم يطالب ويتحدى اليهود بأن يأتوا بالتوراة لمطالعتها ومعرفة ما فيها ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾[١٩٦] وحديث البخاري عن عبدالله بن عمرو بن العاص الذي فيه « وحدثوا عن بني اسرائيل ولا حرج » . ويقول « الدكتور رمزي

---

(١٩٤) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص٥٨ .

(١٩٥) بوكاي / موريس / دراسة في الكتب المقدسة / ص ٦٠ - ٦٢ بتصرف .

(١٩٦) سورة ال عمران / ٩٣ .

نعناعة : إن وجه التوفيق بين هذه الاحاديث التي تفيد سؤال أهل الكتاب وحديث عبدالله بن عمرو بن العاص الذي يجيز التحدث عنهم ، يتبين لنا من شرح حديث عبدالله بن عمرو ومعناه ، فإن معنى قوله (ﷺ) : « وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » حدثوا عنهم بما تعلمون صدقه وهو ما يوافق القرآن او السنة الصحيحة ، لما في الحديث عنهم من العظة والاعتبار ولا يجوز ان يكون المعنى : حدثوا عنهم بكل حديث حق او باطل . إذ من المعلوم بالضرورة أن النبي (ﷺ) لا يجيز التحدث بالكذب »[١٩٧] . التوراة بناءً على ما تقدم يمكن الاستفادة منها بوصفها من أقدم المصادر التاريخية فإذا اتفق النص القرآني مع التوراة كان هذا بمثابة تعزيز للنص وتاكيد على أهمية القرآن كمصدر للتاريخ القديم خصوصاً إن النص القرآني خالي من كل شوائب وتناقضات وكل ما يتنافى ويتعارض مع البحوث العلمية والحقائق الثابتة . فإذا تحدث القرآن عن الطوفان وتحدثت التوراة كذلك فإن هذا يدل على تاكيد الحدث . وان هذا القرآن من عند الله ولا يمكن ان يكون من محمد (ﷺ) إذ لو كان من عند محمد (ﷺ) لتكررت الاخطاء التي توجد في النص التوراتي وأعيدت في النص القرآني وبما ان الذي يحدث العكس وهو خلو النص القرآني من الاخطاء الواضحة والمؤكدة والتي وقعت فيها التوراة فاننا نستطيع ان نؤكد بالنسبة لدارسي النص القرآني من غير المسلمين أن هذا القرآن من عند الله ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافات كثيرة . على وفق هذا المنهج سندرج النص التوراتي للطوفان ونحاول ان ندرس هذا النص ونقارن مع النص القرآني وسنخرج بنتائج من شأنها تسليط الضوء على هذا الحدث العظيم الذي جعله الله عبرةً للاجيال كما قال تعالى ﴿ وحملناه على ذات الواح ودُسُر * تجري بأعيننا جزاءً لمن كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾[١٩٨] يبدأ العهد القديم رواية الطوفان عند الاصحاح السادس من سفر التكوين واستغرقت الرواية ثلاثة إصحاحات (٦ ، ٧ ، ٨) وسوف نأخذ بكتابة هذه الاصحاحات نقلًا عن الكتاب المقدس الذي يتلوه المسيحيون والذي يتضمن العهد القديم (التوراة وما أضيف اليها) والعهد الجديد (الانجيل) بمجموع رواياته الاربع ورسائله .

---

(١٩٧) نعناعة / د. رمزي / الاسرائيليات واثرها في كتب التفسير / ص ٢٧٣ نقلا عن كتاب (نو القرنين القائد والفاتح والحاكم الصالح) محمد خير رمضان يوسف / ص ٧١ .

(١٩٨) سورة القمر / ١٣ ـ ١٥ .

سفر التكوين : الاصحاح ٦ : حقبة الجبابرة :

وحدث لما ابتدأ الناس يتكاثرون على سطح الارض وولد لهم بنات انجذبت أنظار أبناء الله الى بنات الناس فرأوا أنهن جميلات فاتخذوا لانفسهم منهن زوجات حسب ما طاب لهم . فقال الرب : « لن يمكث روحي مجاهداً في الانسان الى الابد . هو بشري زائغ . لذلك لن تطول أيامه اكثر من مائة وعشرين سنة فقط » وفي تلك الحِقَب كان في الارض جبابرة وبعد أن دخل أبناء الله على بنات الناس ولدت لهم أبناءً . صار هؤلاء الابناء أنفسهم الجبابرة المشهورين منذ القدم .

عقاب الله للبشرية : ورأي الرب ان شر الانسان قد كثر في الارض وان كل تصور فكر قلبه يتسم دائماً بالاثم . فملأ قلبه الاسف والحزن لانه خلق الانسان وقال الرب : « أمحو الانسان الذي خلقته عن وجه الارض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لاني حزنت أني خلقته » . أما نوح فقد حظي برضا الرب .

نــــوح يصنع فلكـــاً :

وهذا سجل مواليد نوح : كان نوح صالحاً كاملًا في زمانه وسار نوح مع الله وأنجب نوح ثلاثة أبناء هم سام وحام ويافث واذ ساد الشر الارض امام الله وعمها الظلم نظر الله واذا بها فاسدة لان كل بشر على الارض قد سلك في طريق الاثم . فقال الله لنوح : « قد أزفت نهاية البشر جميعاً أمامي . لانهم ملأوا الارض ظلماً . لذلك سأبيدهم مع الارض . ابن لك فلكاً من خشب السرو . واجعل فيها غرفاً تطليها بالزفت من الداخل والخارج أصنعه على هذا المثال . ليكون طوله ثلاثمائة ذراع (نحو مائة وخمسة وثلاثين متراً) وعرضه خمسين ذراع (نحو اثنين وعشرين ونصف متراً) . واجعل له نافذة على انخفاض ذراع . (نحو خمسة واربعين سنتمتراً) من السقف وباباً تقيمه في جانبه وليكن للفلك طوابق سفلية ومتوسطة وعلوية . فها أنا أغرق الارض بطوفان من المياه لابيد كل كائن حي فيها ممن تحت السماء كل ما على الارض لابد ان يموت ولكني ساقيم معك عهداً فتدخِل إنت مع بنيك وامرأتك ونساء بنيك الى الفلك وتاخذ معك في الفلك زوجين ذكراً وانثى من كل كائن حي ذو جسد لاستبقائهم معك . تدخل معك أثنين من كل صنف من أصناف الطيور والبهائم والزواحف على الارض حفاظاً على استمرار بقائها . وتدّخر لنفسك من كل طعام يؤكل وتخزنه عندك ليكون لك ولها غذاء . وفعل نوح تماماً بمقتضى ما أمر الرب به .

الاصحاح : ٧ الامر بملء الفلك :

وقال الرب لنوح «هيا ادخل أنت وأهل بيتك جميعاً الى الفلك لأني وجدتك وحدك صالحاً أمامي في هذا الجيل خذ معك من كل نوع من الحيوانات الطاهرة سبعة ذكور وسبع إناث وزوجين ذكراً وأنثى من كل نوع من الحيوانات الأخرى غير الطاهرة وخذ معك من كل نوع من الطيور سبعة ذكور وسبع إناث لاستبقاء نسلها على وجه كل الارض . فإني بعد سبعة أيام أمطر على الارض اربعين يوماً ليلًا ونهاراً فامحوا عن وجه الأرض كل مخلوق حي » . وفعل نوح بموجب كل ما أمره الرب به وكان عمر نوح ستمائة سنة عندما حدث طوفان الماء على الارض فدخل نوح الى الفلك مع زوجته وابنائه وزوجاتهم (لينجوا) من مياه الطوفان وكذلك الحيوانات الطاهرة وغير الطاهرة والطيور والزواحف دخلت مع نوح الى الفلك زوجين زوجين ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً .

الطوفـــان :

وما إن انقضت الايام السبعة حتى فاضت المياه على الارض ففي سنة ستمائة من عمر نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر منه فتفجرت المياه من اللجج العميقة باطن الارض وهطلت أمطار السماء الغزيرة وأستمر هذا الطوفان على الارض ليلًا ونهاراً مدة اربعين يوماً في ذلك اليوم الذي بدأ فيه الطوفان دخل وزوجته وابناؤه . سام وحام ويافث وزوجاتهم الثلاث الى الفلك ودخل معهم ايضاً من الوحوش والبهائم والزواحف والطيور وذوات الاجنحة كل بحسب أصنافها من جميع المخلوقات الحية أقبلت الى الفلك ودخلت مع نوح زوجين زوجين ذكراً وانثى دخلت من كل ذي جسد كما أمره الله ثم أغلق الرب عليه باب الفلك . ودام الطوفان اربعين يوماً على الارض وطغت المياه ورفعت الفلك فوق الارض وتكاثرت المياه على الارض وطغت جداً فكان الفلك يطفو فوق المياه وتعاظمت المياه جداً فوق الارض حتى أغرقت جميع الجبال العالية التي تحت السماء كلها وبلغ ارتفاعها خمس عشرة ذراعاً (نحو سبعة امتار) عن أعلى الجبال فمات كل كائن يتحرك على الارض من طيور وبهائم ووحوش وزواحف وكل بشر مات كل ما يحيى ويتنفس على اليابسة وباد من على سطح الارض كل كائن حي سواء من الناس ام البهائم أم الزواحف أم الطيور أبيدت من الارض ولم يبقى سوى نوح ومن ومعه في الفلك وظلت المياه طاغية على الارض مدة مائة وخمسين يوماً .

الاصحاح : ٨ : تناقص المياه :

ثم افتقد الله نوحاً وما معه في الفلك من وحوش وبهائم فأرسل ريحاً على الارض فتقلصت المياه وانسدت ينابيع اللجج وميازيب السماء واحتبس المطر وتراجعت المياه عن الارض تدريجياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقر الفلك على جبل أرارات في اليوم السابع عشر من الشهر السابع للطوفان ، وظلت المياه تتناقص تدريجياً حتى الشهر العاشر وفي اليوم الاول من الشهر العاشر بدت قمم الجبال .

إرسال الغراب والحمامة : وبعد أربعين يوماً أخرى فتح نوح النافذة . التي كان قد عملها في الفلك وأطلق غراباً فخرج وظل يحوم متردداً الى الفلك حتى جفت المياه عن الارض ثم أطلق نوح حمامة من الفلك ليرى ان كانت المياه قد تقلصت عن وجه الارض ولكن الحمامة لم تجد موضعاً تستقر عليه رجلها فرجعت اليه في الفلك لان المياه كانت ما زالت تغمر سطح الارض فمد يده وأخذها » .

وهكذا يستمر النص في وصف أحوال ما بعد الطوفان ففي الآية ١٣ من الاصحاح ٨ يصف ظهور الارض وكيف رأى سطح الارض قد أخذ في الجفاف . وحتى الآية ١٥ يبدأ نوح بالخروج من السفينة بأمر الله وفي الآية ٢٠ تصف بناء نوح مذبح للرب وفي الاصحاح التاسع يبرم الرب ميثاقاً وعهداً مع نوح ومن معه بأنه لا يبيد بالطوفان كل جسد ثانية وعلامة العهد ظهور قوس من السحاب ، نقاط كثيرة تلتقي فيها قصة الطوفان في التوراة مع قصة الطوفان في القرآن وتختلف ايضاً في نقاط كثيرة قد تكون جوهرية وسوف نبين أدناه نقاط الاتفاق بدون تعقيب لانها يعضد بعضها بعضاً فتشكل حقيقة تاريخية بالنسبة لنا غير قابلة للمراجعة وهذه النقاط هي :

١ - شخصية النبي نوح (عليه السلام) وهو النبي الذي تدخّل الرب جلّت قدرته لنصرته فأغرق الكافرين من قومه وقد أطلق القرآن والتوراة اسم النبي نوح وهذا الاتفاق على التسمية يؤكد تطابق القصة والحدث وأن الطوفان الذي في القرآن هو نفسه في التوراة .

٢ - الطوفان حدث عقوبة من الرب للبشر العاصين وأنجى الله المؤمنين مع نوح في سفينة أمره ببنائها وقد اتفقت التوراة مع القرآن بأن هذه السفينة من ألواح الخشب .

٣ - تتفق التوراة مع القرآن بأن الطوفان حدث نتيجة لهطول أمطار غزيرة وخروج الماء من ينابيع الارض .

٤ - تتفق التوراة مع القرآن على ان المياه ارتفعت الى أعلى نقطة موجودة وغطت الجبال .

٥ - تتفق التوراة مع القرآن على ان السفينة استقرت على جبل وتختلف تسمية هذا الجبل ففي التوراة اسمه (ارارات) وفي القرآن اسمه (الجودي) .

٦ - تتفق رواية التوراة مع القرآن على ان الله أمر نوحاً بأن يضع في السفينة معه من الاحياء من كل نوع زوجين (ذكر وأنثى) .

مع ملاحظة أن هذه الاتفاقات هي من حيث العموم أي أن هناك اختلافات في التفاصيل الدقيقة كما في الاتفاق على استقرار السفينة على جبل والاختلاف على التسمية . أما الاختلافات فيمكن تحليلها كما يأتي :

١ - النظرة الى شخصية النبي نوح (عليه السلام) والى وضع البشرية في عصره ففي نص التوراة في حقبة الجبابرة هناك تصور خاص يعطي صفة خاصة لنوع من البشر كأنهم أعلى من الانسان العادي « انجذبت أنظار أبناء الله الى بنات الناس » من هم أبناء الله ؟ ومن هنَّ بنات الناس ؟ وكان مدوّني التوراة ارادوا منذ البداية وضع أصل اليهود بوصفهم « أبناء الله واحباءه » كما في نص القرآن الكريم أرادوا منذ البداية أن يوجدوا لهم مكاناً فوق البشرية . ولم يتطرق النص القرآني في كل مواضعه الى مثل هذا الاتجاه الغريب .

٢ - مبدأ العقوبة الذي وضعته التوراة على لسان الرب يعكس صورة لا تليق بالرب الخالق بحيث يندم على خلق البشر وينزع منه الحكمة والعدل ويعطيه الغضب للانتقام حاشاه وتعالى علواً كبيراً . « فقال الرب : لن يمكث روحي مجاهداً في الانسان الى الابد . هو بشري زائغ » ...... « فملأ قلبه الاسف والحزن لانه خلق الانسان » وقال الرب « أمحو الانسان الذي خلقته عن وجه الارض مع سائر الناس والحيوانات والزواحف وطيور السماء لاني حزنت أني خلقته » .

٣ - النص التوراتي تعامل منذ البداية مع عموم البشرية في عصر النبي نوح وكأن التوراة تتحدث عن البشرية في كل بقاع الارض وهي حالة ممتدة منذ عصر

آدم لم يتغير الخطاب . بينما في النص القرآني كان الخطاب دائماً ينحصر في قوم نوح ﴿ كذبت قبلهم قوم نوح ﴾ ﴿ ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴾ ﴿ إنا أرسلنا نوحاً الى قومه * أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ﴾ . وجميع الآيات التي تحدثت عن دعوة نوح في القرآن الكريم كانت توجه الخطاب نحو نوح وقومه . وهذه حقيقة جوهرية في النظرة الى الطوفان لأن الذين دَوّنوا التوراة تعاملوا منذ البداية على أساس عموم الطوفان وقد شمل كل البشر وعم كل الارض . وتأسيساً على هذه الفرضية أضطر مدوّنوا التوراة الى ان يجنح خيالهم نحو تضخيم حجم السفينة والتوسع في ذكر أصناف الحيوانات والطيور التي وضعها نوح في السفينة ومما يؤسف له إن هذه العدوى انتقلت الى الاسلاميين من مفسرين ومؤرخين فاقتبسوا هذه المعلومات ووضعوها في كتبهم ودفعهم هذا الامر الى الاعتقاد كذلك بعموم الطوفان لكل الارض مع ان « القرآن يقدم كارثة الطوفان باعتبارها عقاباً نزل بشكل خاص على شعب نوح . وهذا يشكل الفارق الاساسي الاول بين الروايتين »[١٩٩] .

٤ - لم يذكر النص القرآني اية تفاصيل أو مسميات ترتبط بالطوفان فلم يذكر أسماء أبناء نوح الذين ركبوا معه في السفينة ولم يذكر أسم ابن نوح الذي هلك في الطوفان . كذلك لم يتطرق الى انواع الحيوانات أو تفاصيل أكثر من ذكر الزوجين في الحيوانات التي أمر نوح (عليه السلام) بإدخالها في السفينة ولم يتطرق كذلك النص القرآني الى ابعاد السفينة وطبيعة شكلها . وكذلك حدد القرآن زوجة نوح بأنها ممّن سبق عليه القول وقد وُصِفَت بالخيانة الكفرية لانها لم تستجب الى دعوة نوح . في حين سكتت التوراة عن زوجته بل ذكر النص التوراتي بأنها كانت مع نوح في السفينة . وهذه المنهجية التي اتبعها القرآن الكريم في الرواية التاريخية كانت مطردة في عدم الخوض في المسميات والتفاصيل الدقيقة الجانبية وذلك لأن النص القرآني أريد له ان يعبّر من خلال المطلق الذي هو كلام الله على المحدود الذي هو الحدث التاريخي المتلبس بالبشر وكلام الله المقدس عندما يتحدث عن حياة البشر

---

(١٩٩) بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة / ص ٢٤٧ .

لا يمكن ان يتموضع في غير المقدس وهو الحدث ولذلك نجد ان القرآن الكريم يرتفع عن المباشرة وإنما يسمو نحو الرمزية والتشابه ومن خلال استيعاب حالة المتشابه نتوصل الى المحكم . فلكي لا تأخذ المسميات الصفة القدسية لذلك ابتعد القرآن الكريم عنها ولكي يمنح البشرية المعاني المطلقة والعبر المحكمة ابتعد النص القرآني عن التلبس في التفاصيل والمسميات وهو بذلك يوضّح المنهج الاصيل للعلاقة بين البشر والوحي المتنزل من السماء وهم يتفاعلون معه .

٥ ـ حددت التوراة ان الطوفان حَدَثَ عندما كان عمر نوح ستمائة عام ولم يتطرق النص القرآني الى اي تحديدات زمنية لا عمر نوح ولا مدة الطوفان وغيرها من التحديدات الزمنية . وإن تحديد الطوفان عندما كان عمر نوح ستمائة سنة من النقاط التي عدت من الاخطاء العلمية التي تتضارب فيها نصوص التوراة بعضها ببعض « إن الرواية الكهنوتية حددت زمن الطوفان عندما كان عمر نوح ٦٠٠ عام غير انه من المعروف بحسب الانساب المذكورة في الاصحاح الخامس من سفر التكوين ان نوحاً قد ولد بعد آدم بـ ١٠٥٦ عام (وهذه الانساب كهنوتية المصدر هي ايضاً) . وينتج عن ذلك أن الطوفان قد وقع بعد ١٦٥٦ عاماً من خلق آدم ومن ناحية يخرى فجدول نسب ابراهيم الذي يعطيه سفر التكوين يسمح بتقدير ان إبراهيم كان يعيش في نحو ١٨٥٠ ق . م . فإن زمن الطوفان يتحدد اذن على حسب التوراة بـ (٢١ أو ٢٢) قرناً قبل المسيح . وهذا الحساب يتفق بمنتهى الدقة مع إشارات كتب التوراة القديمة التي تحتل فيها هذه التحديدات التاريخية المتسلسلة مكاناً طيباً قبل نص التوراة . كيف يمكن اليوم تصور كارثة عالمية قد دمرت الحياة على كل سطح الارض (باستثناء ركاب السفينة) في القرن ٢١ أو ٢٢ ق . م . ؟ ففي ذلك العصر كانت هناك على نقاط عدة من الارض حضارات قد ازدهرت وانتقلت أطلالها الى الاجيال التالية وبالنسبة لمصر على سبيل المثال كان ذلك في الفترة الوسطى التي تلت نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة الوسطى وبالنظر الى ما نعرف عن تاريخ هذا العصر فانه يكون مضحكاً القول بأن الطوفان قد دمر في ذلك العصر كل الحضارات »[٢٠٠] .

---

(٢٠٠) انظر بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٤٥ . ويؤكد بوكاي « منذ ان حصل ←

ويضيف بوكاي في صفحة أخرى « إن البشرية والامر هكذا تكون قد أعادت تكوين نفسها ابتداءً من اولاد نوح وزوجاتهم ، بحيث أنه عندما يولد ابراهيم بعد ذلك بثلاثة قرون تقريباً ، فانه يجد الانسانية قد أعادت تكوين نفسها في مجتمعات . كيف يمكن لاعادة البناء هذه أن تتم في زمن قليل الى هذا الحد ... ؟ إن هذه الملاحظة البسيطة تنزع عن النص أية معقولية »(٢٠١) .

وهكذا نجد إن الرواية التوراتية ليست نصاً ولا وثيقة تاريخية وإنما هي قصة تمتلىء بالاخطاء والتعديل والتحريف . كما وأنها تمثل روايتين الرواية الكهنوتية والرواية اليهودية وإن تعدد المصادر للحدث نفسه يفقده القيمة التاريخية . وهكذا نجد ان العلماء المسلمين لم يكونوا على مستوى من الدقة عندما استشهدوا بالاسرائيليات لتفسير النص القرآني ولو ترك النص القرآني وحده يعبّر عن الحقيقة لتخلّصنا من التشويشات والاضطراب في عملية فهم النص . وهكذا يتعمق لدينا شعور بأن الاستغناء عن النص القرآني في دراسة التاريخ القديم خسارة لا تعوض وان هذا القرآن لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد ولا تشبع منه العلماء ولا تلتبس به الاهواء وصدق الله العظيم ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾(٢٠٢) .

← المتخصصون على بعض المعلومات عن تسلسل الاحداث في العصور القديمة . كفت هذه الحوليات الوهمية لكتاب العهد القديم الكهنوتيين ان تكون موضع تصديق سارع المسؤولون بحذفها من كتب التوراة لكن المعلقين المحدثين على هذه الأنساب ـ التي احتفظ بها ـ لا يلفتون انتباه قراء كتب التعليم الديني العامة نحو الاخطاء التي تحتويها » . هامش ص ٢٤٥ .

(٢٠١) بوكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٥٣ .

(٢٠٢) سورة فصلت / ٤٢ .

ثالثاً : الطوفان في الروايات التاريخية والرقم الطينية

لم يترك حدث في تاريخ البشرية آثاراً في ذاكرة التاريخ كما ترك الطوفان . فقد تناقلته الشعوب والامم وشكل تراثاً يتردد على السنة البشر . الاجيال تناقلته والشعراء انفتحت قرائحهم في استلهامه . وكان ذلك من أهم أسباب حفظه وإشاعة ذكره على مر العصور . « وقد أكد اليكساندر كوندراتوف الذي ناقش موضوع الطوفان ـ ان قصص الطوفان ليست مقصورة على شعب من الشعوب فهي متداولة بين سكان الجزر الشرقية في اوقيانوسيا (المحيط الهادي) واليابانيين ، والصينيين والبورميين والهنود الحمر فضلًا عن شعوب البحر المتوسط . وهناك طوفانات موضعية تحصل لسبب أو آخر نتيجة ذوبان مفاجيء وسريع للثلوج أو أعاصير مصحوبة بالمطر أو احتياج موجي ناجم عن اضطرابات او اهتزازات في قاع البحر او زلازل الارض والبحر او انفجارات بركانية . وفي حدود عمر الانسان المتحضر لم تحصل كارثة ذات بعد مدمر على صعيد كوني فلماذا إذن يقول كوندراتوف تتواتر حكايات الشعوب عن الكوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم ؟ ويمكن الاجابة عن ذلك على ضوء الحقيقة الآتية : ان أفق العالم المحيط باي شعب من الشعوب القديمة محدود بالرقعة التي يوجد فيها أو أوسع منها الى هذا الحد أو ذاك فبالقياس الى ساكن الجزيرة فان العالم يقتصر على جزيرته فقط أو مجموعة من الجزر المحيطة به وبالنسبة لسكان وادي من الوديان لا يتجاوز العالم حدود الجبال المحيطة به وهكذا فان حدوث كارثة موضعية سيترك انطباعاً عندما تطالهم الكارثة . بأن أركان العالم تتهاوى على أبنائه لانهم لا يعرفون شيئاً عن الاصقاع الاخرى »[٢٠٣] وبغض النظر عن أهداف الدراسة العلمانية التي قام كوندراتوف والتي استشهد بها علي الشوك فإننا نجد أنفسنا أمام استنتاجات تخدم الاهداف المتجردة عن القناعات المسبقة التي تحكم عقول معظم الباحثين اليوم في هذا المجال . وان هذه الاستنتاجات لا تتقاطع مع حقيقة قصة الطوفان في النصوص القرآنية . ان شيوع قصة الطوفان بين الشعوب وصياغة هذه القصة صياغات متعددة

---

(٢٠٣) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ١٠٩ ـ ١١٠ .

« الذي يدعى طوفان ديوكاليون (Deucalion) الجد المزعوم لليونانيين كما يذكر تتغير بمقتضى البيئة المختلفة للشعوب كما في أسطورة القارة المفقودة اتلنتا « والتي يغلب عن الظن أنها من نسج مخيلة افلاطون » وقصة الطوفان اليوناني روبرت غريفز في كتابه (الاساطير الاغريقية) » وهي قصة تكاد تتشابه مع طوفان نوح التوراتي وطوفان كلكامش الاكدي « ويقول روبرت غريفز إن أسطورة طوفان ديوكاليون نقلها الهيلاديون من آسيا وتذكرنا بأسطورة نوح التوراتية وعشتار البابلية »[٢٠٤] . ان هذا الانتشار الواسع لحدث الطوفان يؤكد بما لا يقبل الشك حدوث طوفان هائل انتقلت اصداؤه الى العالم . وإذا كان التعبير عن هذه الطوفانات اخذ طابع الاساطير « فان الاساطير القديمة مهما احتوت من المبالغات في بناء أحداثها ولكنها مع ذلك مستندة الى معلومات تاريخية حقيقية . وهذا يعني ان الاسطورة لا تصنع من الخيال المجرد ، بل تعمل فقط على تجسيم تلك الحقائق التاريخية والمبالغة فيها »[٢٠٥] وكذلك عد الطوفان موضعياً تفسير منطقي وتبرير مقنع عندما يصف تصور الذين حلت عليهم الكارثة وإن الصورة الانطباعية المتروكة لدى الناجين منهم بأن الارض كلها قد حلت بها الكارثة . لشدة هول الصدمة ولصعوبة الاتصال بالمجتمعات الاخرى . وان تفسير كوندراتوف لظاهرة وجود الهنود الحمر في العالم الجديد وسكان استراليا القدماء كان بسبب مرحلة جليدية مرت على الارض قبل ٢٥ ألف سنة أدت الى انخفاض مستوى المياه في البحار والمحيطات مما أدى الى ظهور جسور برية بين القارات ساعدت على انتقال النوع البشري والحيوانات والنباتات بين القارات وبعد فترة من الزمن بحدود ٥ ـ ٨ آلاف من السنين ما لبثت هذه الجسور أن انغمرت مرة اخرى بمياه المحيطات بعد ان ارتفعت مناسيبها بالتدريج »[٢٠٦] إن هذا التفسير معقول جداً ولكننا لا نتفق معه على تفسير الطوفان بأنه حدث بعد فترة دفء مرت على الارض بعد الفترة الجليدية كانت سبباً في نوبان الثلوج وحدوث طوفان عم الارض وسمى هذا بالدفء الفلاندري (نسبة الى مقاطعة فلاندر البلجيكية) لان هذا يقود الى الفرضيات والخيال العلمي ويفرض سؤال نفسه لماذا حصل هذا الدفء وما هي أسبابه ؟ فلا يستطيع الاجابة عنه

---

(٢٠٤) الشوك / علي / الاساطير / ص ١٠٢ .

(٢٠٥) رشيد / د. فوزي / سرجون الاكدي اول امبراطور في العالم / ص ٢٠ ـ ٢١ .

(٢٠٦) الشوك / علي / الاساطير / ص ١١٠ .

ويحيله الى فرضيات واستنتاجات .

إذن ان ترديد الطوفان في تراث الشعوب وأدب الملاحم يضع أمامنا حقيقة تستدعي أن نشد اليها انتباهنا ونتساءل عن سر تخليد الطوفان وجعله معلماً من معالم تاريخ المعتقدات والاديان حتى ان البشرية تؤرخ لبدايتها منذ الطوفان فيقولون (ما قبل الطوفان وما بعد الطوفان) . ان هذه الظاهرة وهي تواتر حكاية الطوفان هي التي جعلت كوندارتوف يتساءل عن سرها ويقول : لم يحدث حدث أو طوفان كوني في حدود عمر الانسان المتحضر فلماذا تتواتر حكايات الشعوب عن كوارث فيضانية مدمرة على صعيد كوني كما تزعم ؟ وهو سؤال يستحق الوقوف عنده . ان القرآن الكريم عندما تحدث عن الطوفان ونجاة نوح ومن معه ختم الكلام عن الطوفان بقوله تعالى ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾[٢٠٧] « وقال قتادة : أبقى الله سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الامة . والظاهر ان المراد من ذلك جنس السفن كقوله تعالى ﴿ وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون ﴾ »[٢٠٨] . بحسب رأي قتادة إن الله جعل السفينة آية لتتذكر الاجيال قدرة الله وبطشه بالمكذبين المعاندين ولكن تحللت أخشاب السفينة وتحولت الى رماد وتراب أين الآية ؟ الآية في ذكر الشعوب لحدث الطوفان . هذه الآثار والرقم الطينية هي الآية المتروكة لمن يريد أن يتذكر . وهذا يربطنا بآية أخرى جعلت الاثر المادي دليلاً على قدرة الله تلك الآية هي جثة الفرعون الذي خرج يطارد موسى وبني اسرائيل فاغرقه الله ثم أخرج جثته وألقيت هذه الجثة على الساحل فأخذ المصريون جثته وحنطوه واحتفظوا بهذه الجثة على عادتهم في تحنيط ملوكهم مصدقاً لقوله تعالى ﴿ فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾[٢٠٩] (في عصر النبي محمد (ﷺ) كان كل شيء مجهولاً عن هذا الامر ولم تكتشف جثث الفراعنة الذين شك الناس في العصر الحديث ان لهم علاقة بالخروج والتي كانت مدفونة بمقابر وادي الملوك بطيبة على الضفة الاخرى للنيل امام الاقصر الحالية . وكما يقول القرآن فقد انقذ بدن هذا الفرعون وأياً كان هذا الفرعون فهو الآن في قاعة المومياءات الملكية في المتحف المصري بالقاهرة

---

(٢٠٧) سورة القمر / ١٥ .

(٢٠٨) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل / تفسير القرآن العظيم / ج٤ ص ٢٦٤ .

(٢٠٩) سورة يونس / ٩٢ .

ويستطيع الزوار أن يروه . وقد علق الاب كوراوييه (R. P. Couroyer) الاستاذ بمدرسة الكتاب المقدس حول موت فرعون : « يشير القرآن اليه (اي موت فرعون) في سورة يونس الآيات من ٩٠ ـ ٩٢ . وعلى حسب التراث الشعبي فان فرعون قد ابتلع بجيشه (وهذا ما لا يقوله النص المقدس ـ يعني التوراة) . وهو يسكن الآن قاع البحر ويحكم مملكة انسان البحر اي عجول البحر »(٢١٠) إذن : القرآن الكريم قال بنجاة الجثة والتوراة لم تذكر شيئا حول جثته والتراث الشعبي يقول انه يسكن قاع البحر ويحكم مملكة انسان البحر اي آيةٍ عظيمة أعلنها القرآن وتحدى فيها عقول البشر وهو يعلن استبقاء جثة الفرعون لتبقى لمن خلفه آية . وإذا كان التحنيط الذي برع به المصريون القدماء أريد له أن يخدم الحقيقة التي أراد أن يثبتها القرآن فإن هذا التوافق يشكل معجزة أخرى لمقدرة الله تعالى . وتحنيط الفرعون يقابل الرقم الطيني الذي حفظته الارض من البلى والذي يحكي قصة الطوفان كأقدم شاهد مادي على هذه المعجزة والآية التي تندرج تحت قوله تعالى ﴿ ولقد تركناها آية فهل من مدكر ﴾(٢١١) . فقد أبدع الشاعر العراقي في إعطاء صورة مؤثرة في وصف الطوفان فكانت ملحمة كلكامش كنز عظيم لا يقدر بثمن لانها اعطتنا تصورات ووضحت لنا إشكاليات ما كان لنا أن نتخيلها أو تمر على بال الباحثين في هذا المجال وفي التاريخ الانساني بصورة عامة . ويعد الادب العراقي أقدم الآداب في العالم فقد سبق أدب وادي النيل وأدب أوغاريت الكنعانية والادب العبراني الذي تمثل التوراة أقدم وثائقه »(٢١٢) . ومع هذا القدم الذي امتاز به الادب العراقي « فالسومريون لم يتصوروا أنفسهم حديثي عهد في المدنية والحضارة بل عدوا أنفسهم ورثاء ما ضي بعيد مجيد ، اذ تخيلوا ذلك الماضي على هيئة عصر « ذهبي » كان السلام والوئام فيه يسودان العالم . فلا خوف ولا حزن ولا بغضاء وكان الخير يعم الكون وكان البشر (بلسان واحد يمجدون الاله انليل »(٢١٣) وهذه المعاني تتفق مع النصوص الاسلامية التي تؤكد ان البشرية كانت على الاسلام ثم اجتالتهم الشياطين وبدأت

---

(٢١٠) بكاي / موريس / دراسة الكتب المقدسة / ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩ .

(٢١١) سورة القمر / ١٥ .

(٢١٢) انظر باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٩ . / نشر وزارة الاعلام بغداد / سنة ١٩٧٥ .

(٢١٣) انظر د. طه باقر / م . س / ص ١٠ / ينقل عن :

S.N. Kramer, Sumerian Methology

الانحرافات منذ عصر نوح (عليه السلام) حيث طغت الوثنية وتعدد الآلهة والفساد الاجتماعي والظلم وبذلك تتعزز القناعة بأن عصر نوح مثل الجذور الحقيقية لحضارة وادي الرافدين التي تعد اقدم حضارة عرفتها البشرية . فرصة عظيمة تركها لنا العراقيون القدماء فقد تعرفنا من خلال الرقم الطينية على معتقداتهم الدينية وحياتهم الاجتماعية وأنظمتهم السياسية في صورة يعجز الوصف في التعبير عن الامتنان لهم بها وهي معجزة حقاً ان تكون الكتابة على أرض الرافدين أقدم الوثائق المدونة في العالم ومن الغريب ان يسبق أهل الرافدين غيرهم في تدوين حياتهم على الواح الطين في عصور موغلة في القدم وعلى وفق طريقة ليست من السهولة بمكان ، فلكي يكتب العراقي القديم قصيدة شعرية او عقد أو وثيقة بيع أو وثيقة حكم قضائي فعليه ان يهيىء لوح الطين ويكتب عليه وهو رطب ثم يتركه يجف تحت أشعة الشمس لعدة أيام ثم يحتفظ بهذه الالواح كالواح الخشب(٢١٤) . لقد ارتبطت ارض الرافدين بالنبوات ارتباطاً غريباً فعلى هذه الارض بدأ الانسان قصة الدين الاولى منذ آدم وذريته حتى نوح (عليه السلام) لقد عبّر الانبياء عن أهم قضية ترتبط مع حياة الانسان هذه القضية هي قضية الدين . العلاقة مع الخالق ، فكان لابد لهذه العلاقة من أن تحتفظ شواهدها منذ بداياتها الاولى حيث فجر الرسالات . فكان لابد لهذا الشعب ان يهيىء الله له أسباب الكتابة لكي يحفظ من خلالها الاسس التي قامت عليها الحياة الفكرية والروحية للبشرية فكانت هذه التجربة منذ آدم حتى نوح تمثل المرحلة الاولى لعلاقة الانسان بالخالق . وكانت المرحلة الثانية تبتدىء بإبراهيم (أبو الانبياء) وشاء الله لهذه المرحلة ان تبتدىء من أرض الرافدين كذلك . وكانت المرحلة الثالثة التي تمثلت بخاتم الانبياء محمد (ﷺ) أرسله الله للبشرية لكي يمثل آخر التجارب على الارض والذي استجمعت رسالته كل القيم والمبادىء التي بُعث عليها الانبياء . فكانت تتصل بعمق فتشكل الامتداد المنطقي منذ آدم (عليه السلام) حيث تتماسك القصة وتتصل لتعلن بوضوح عن وحدة المصدر لأهم قضية على الارض وهي التوحيد أو عبادة الخالق الواحد الاحد . وتستوعب المستقبل لتشكل حلاً سماوياً لكل العقبات التي تواجه الانسان على الارض حتى قيام الساعة . وشاء الله أن يرتبط محمد (ﷺ) بإبراهيم ابي الانبياء ومن خلاله ارتبط

---

(٢١٤) C. E. Van Sickle/ A political and cultural/ history/ VIP 43 .

محمد (ﷺ) بالعراق والعراقيين القدماء وإن من الاشياء التي تثير التساؤلات أنَّ هذا التراث المتكون من آلاف الرقم الطينية لم يتطرق الى هذه المحاولات التي قام بها الانبياء لانقاذ أقوامهم من سطوة الجاهليات والاهواء والمظالم التي كانت تنوء بها حياتهم ! ان هذه الرقم الطينية لم تتكلم عن آدم وشيث وإدريس ونوح وإبراهيم وغيرهم من الانبياء الكثير . وإن الباحث يصيبه الاحباط وهو يبحث عن الانبياء الذين ذكرهم الله في كتبه التي أنزلها على البشر فلا يجد ذكراً لهم . وإنما يجد الوثنية ومسميات الآلهة آنو (Anu) وانليل (Enlil) وانكي (Enki) ونسمع عن كلكامش وأوتونابشتم واترخاسيس وحمورابي . أين القصة الحقيقية وسط هذا الركام من الاساطير ؟ أين الانبياء وسط هذا التمجيد لأبطال اسطوريين ؟ لابد أن تكون القضية متلبسة لباساً غير طبيعي أبعدها عن المصدر الحقيقي . إننا أمام احتمالات وتحليلات لهذه الظاهرة . وهذه التحليلات تؤكد لنا عدة استنتاجات منطقية لعل أهمها : إما ان تكون الاديان التي جاء بها الانبياء أوهام ولم يكن هناك أنبياء وإن اليهودية والنصرانية والاسلام قد وضعتها عقول موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وقد وضعوا تاريخاً مزيفاً وأسماءً مزيفة لخداع أقوامهم والبشرية جمعاء . وإما أن تكون هذه الرقم الطينية أوهام وإنَّ قراءتها وترجمتها غير صحيحة وخدعنا من قال بأنه استطاع ان يحل رموز هذه الرقم وينقل الينا ما فيها . فإذا لم يكن هذا وذاك ننتقل الى الاحتمال الثالث وهو أن هناك تعتيماً على محتويات بعض الرقم الطينية التي فيها من المعلومات ما يعزز وينتصر للدين ورموزه وأنبياء التاريخ القديم (قبل اليهودية) . وإننا نتوقع وجود مثل هذه المحاولات خصوصاً من قبل اليهود الذي ليس من مصلحتهم معرفة الحق بالنسبة لغير اليهود . وقد ذكر القرآن الكريم جانباً من محاولاتهم تحريف الحقائق وإخفاء معلومات تاريخية تخص بعثة الرسول (ﷺ) ومنها التواء ألسنتهم لإيهام الناس بأن الكلام الذي يقولونه هو كلام الله ومن الكتاب الذي أنزل وما هو من الكتاب . إذن ليس غريباً على اليهود هذا السلوك وهو إلباس الحق بالباطل وكتمان الحق وخلط الاوراق وينقل لنا الدكتور احمد سوسة حالة من حالات تغيير المعلومات التاريخية على ضوء الايديولوجيات السياسية فيقول :

« ان الخبير الآثاري المعروف (سيتون لويد) الذي كان يعمل خبيراً دائرة الآثار العراقية عدة سنوات كتب مقالًا عن اريدو نشر في مجلة سومر سنة ١٩٤٧ يستغرب فيه كيف يجرأ كرامر الخبير الآثاري في موضوع (السومريات) ان يصرح في كتابه

الاساطير السومرية) الصادر مؤخراً - ١٩٤٤ - ان معظم اراضي السهل الرسوبي من بلاد ما بين النهرين كان بلا شك يسكنها الساميون عندما نزح السومريون الى العراق من غير أن يخشى العاقبة فيقول ما نصه : (كرامر لم يخش أن يصرح في كتابه (الاساطير السومرية) بأن معظم أراضي ما بين النهرين دجلة والفرات كان بلا شك يسكنها الساميون) .

[in "Sumerian Mythology" published as recently as 1944 Karmer is not afraid to assert at the time of the sumerian invasion much of the land between the Tigris and Euphrates was no doubt inhabited by the Semits].

سومر م٣ ، العدد (١٩٤٧) القسم الانكليزي ص ٩١ .

ويذكر الدكتور سوسة ان كرامر حنف كلامه فيما بعد من كتابه في الطبعات الجديدة سنة ١٩٦١ . ولم يكتف كرامر بذلك بل أصدر كتاباً جديداً لتاكيد اتجاهه الجديد سماه (التاريخ يبدأ في سومر) سنة ١٩٥٩ وعنوانه باللغة الانلكيزية (History begins at Sumer)[٢١٥] ويغض النظر عن الهاجس الذي كان يسيطر على د. سوسة والذي ردده في كتبه بأن الساميين هم نواة الحضارة وإن وجودهم سابق لغيرهم ومناقشاته حول أصل السومريين . فان هذا لا يعنينا لاننا نؤمن بأن الدين والنبوة فضل من الله يصيب به من يشاء وان الانبياء يختارهم الله جلت قدرته . ولا علاقة للقضية العرقية ولا الجنس في اختيار الانبياء فكما أختار الله انبياءه من بني اسرائيل اختار أنبياءه من العراقيين القدماء كما اختار محمداً (ﷺ) من العرب واختار منهم هوداً وصالحاً وشعيباً كما ورد في صحيح ابن حيان عن ابي ذر من حديث طويل في ذكر الانبياء المرسلين قال فيه : « منهم أربعة من العرب هود وصالح ، وشعيب ونبيك يا ابا ذر »[٢١٦] . ولكن هذا لا يعني الغاء أسباب التفضيل ومبررات الاختيار . فان هناك ارتباطاً موضوعياً بين النبي المختار وبين قومه فما اختار الله سبحانه وتعالى محمداً (ﷺ) دون مناسبة فقد كانت الامة العربية قد وصلت الى النضج والتكامل في الاستعداد لأداء دور حضاري لقيادة العالم فكانت القيم التي يؤمن بها العرب والأخلاق والفضائل تنسجم في معظمها مع الرسالة وكذلك فقد

---

(٢١٥) انظر سوسة / د. احمد / حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين / ص ٢٠ .
(٢١٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٩٤ .

وصلت لغتهم الى مرحلة النضج والتكامل لكي تحمل كلام الله وتكون لغة القرآن الذي أنزله الله تعالى منهجاً متكاملاً الى جميع البشر عربيهم وأعجميهم . وقد ذكر الطبري « أن أهل التوراة يزعمون ان لا ذكر لعاد ولا لثمود ولا لهود ولا صالح في التوراة وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والاسلام كشهرة ابراهيم وقومه »[٢١٧] . وهذا يثبت لنا أن اليهود قد مارسوا عملية اخفاء المعلومات حتى عند كتابة التوراة . ويذكر مالوان الباحث الآثاري في مذكراته حادثة تؤكد القضية . حيث يقول « وذات مرة ظن الخبير في النقوش الذي كان يعمل معنا خطأً إنه قرأ اسم ابراهيم على لوح طيني منقوش وتسرعت الى الكتابة الى صديق في انجلترا وذكرت الاكتشاف . وعندما علم وولي أنني فعلت ذلك ويخني بشدة وجعلني أبعث ببرقية التمس فيها من صديقي التزام الصمت حتى يحين وقت اعلان النبأ . غير ان ذلك الوقت لم يحن ابداً »[٢١٨] . وإذا أحسنّا الظن وقلنا بأنه لا يوجد تعتيم على نتائج الحفريات والآثار فهناك احتمال رابع لِمَا نحن بصدده . وهو ان قراءة الرقم الطينية والتاريخ القديم . لم تكن تقرأ بعقلية تؤمن بالدين حيث ان معظم المستشرقين والآثاريين الغربيين تكونت ثقافتهم نتيجة إفرازات عصر النهضة الذي قام على إنكار الدين وتشكلت عقلياتهم بموجب رد الفعل ضد الكنيسة وما كانت تتبناه من افكار خاطئة تصطدم بالعلم التجريبي ونتائج بحوث العلماء . لذلك جاءت معظم قراءات الآثاريين خاضعة لهذا المفهوم فهم يفسرون الطوفان بأنه حالة فيضان وارتفاع في مناسيب المياه ، مما كان يحدث في بلاد ما بين النهرين باستمرار[٢١٩] وعندما يجدون الاصنام والتماثيل يفسرونها بأنها انعكاس لمعاناة الانسان في واقعه وبيئته كما ذكر ديورانت « بأن الموت والاحلام التي كان يراها الانسان للموتى كانت سبباً في تجسيم فكرة الارتباط بهؤلاء الاشخاص »[٢٢٠] وبالجملة فانهم استبعدوا الغيب والايمان به وجعلوا عقائد

---

(٢١٧) الطبري / محمد بن جرير / تاريخ الرسل والملوك / ج١ ص٢٣٢ .

(٢١٨) مالوان / ماكس / مذكرات مالوان / ص ٥٨ .

(٢١٩) اقرأ كل ما كتب حول الطوفان فان التفسير المشترك له هو ارتفاع مستوى الماء في دجلة والفرات ، كما قال كوندراتوف وولي وويلكوكس وكريمر ونوزول حتى من كتب من العراقيين والعرب تأثر بهذه الآراء انظر كتابات احمد سوسة . ود. فاضل عبدالواحد ود. سامي سعيد الاحمد وغيرهم .

(٢٢٠) انظر ديورانت / وول / قصة الحضارة / المجلد الاول حول نشوء الديانة .

الناس صدى للخوف من الحوادث الطبيعية والموت والرغبة والشهوة . وانه لأمر مؤسف حقاً أن تفسر انشطة الانسان الروحية وأفكاره بأنها مرتبطة ارتباطاً لا يتعدى الجسد المادي الذي يشترك فيه الانسان مع الحيوان . وتلغى الروح والعقل ويهمل التراث الضخم الذي سجل فيه الانسان أرقى انتصاراته في ميدان العقائد والنشاط الروحي والعقلي حيث أعلن الانسان من خلالها تفرده واستعلاءه على عالم الحيوان . من خلال الاديان وتكريم عقل الانسان .

والحق الذي نريد ان نقول أنه يبدو ان الامر مشترك بين هذه الاحتمالات مما أدى الى هذا الفهم للتاريخ القديم . والاوهام والاساطير لم تفتأ ملازمة لحياة الانسان فكانت عملية تلبس الوهم بالحقيقة دائمة الظهور في حياة البشر فالصراع بين التوحيد والوثنية لم يتوقف منذ أن أعلن الله سبحانه وتعالى نبأ استخلاف الانسان فاعلن الشيطان على اثر هذا الاستخلاف الحرب على الانسان وتعهد بغوايته وتلبيس الحقائق عليه بالاوهام وبما ان الدين حاجة فطرية مجبول عليها الانسان فما ان يترك التوحيد حتى ينحط الى الوثنية لانه لا يستطيع الحياة بلا دين والذي يعيش بلا دين فانه فاقد للوعي . فكان لابد من دين وإله يركن اليه الانسان وهنا يُزين الشيطان للانسان طريق الاوثان وقد ذكر ابراهيم هذا المرض النفسي القديم الذي كان يعاني منه الانسان ﴿ واجنبني وبنيّ أن نعبد الاصنام ۞ ربّ إنهن أضللن كثيراً من الناس ﴾[٢٢١] . وكذلك لابد ان نعتقد بأن هناك عمليات تعتيم وهناك عمليات تضخيم لخدمة أهداف غير معلنة تخدم اليهود . وان كان هذا لا يعني بأن الامر محكوم بهذا القانون ومتحكم فيه وفق هذا المفهوم . فأننا ندرك أن هناك معلومات لو نشرت لأدى ذلك الى إحداث تغيير في عقائد الناس او تنهار على أثر نشرها مشاريع مخطط لها من قبل اليهود . تماما كما تحجب بعض الدول وثائقها ولا تظهرها الا بعد خمسة وعشرين عاماً او خمسين عاماً أو بعض الوثائق لا يمكن كشفها على الاطلاق . وكذلك علينا ان نعلم بأن القراءة الغربية للتاريخ القديم معظمها خاضع لمفهوم العلمانية التجريبية التي لا تؤمن بكل شيء لا يدخل المختبرات ولا يخضع للتجربة . ملحمة كلكامش هي الوثيقة العظيمة التي احتفظت لنا بمعلومات مهمة عن الطوفان وهي أروع ما تركه لنا العراقيون القدماء « والتي يصح لنا أن نسميها أوديسة العراق القديم يضعها الباحثون ومؤرخو الادب المحدثون بين الشوامخ من الادب العالمي . ولعلني

---

(٢٢١) ابراهيم / ٣٥ - ٣٦ .

لا أبالغ إذا قلت إنه لو لم يأتنا من حضارة وادي الرافدين من منجزاتها وعلومها وفنونها شيء سوى هذه الملحمة لكانت جديرة بأن تتبوأ تلك الحضارة مكانة سامية بين الحضارات العالمية القديمة »[٢٢٢] . هذه المحلمة الشعرية كتبت على الواح طينية عددها إثنا عشر لوحاً أول من اكتشف أهميتها البريطاني جورج سمث « حيث أعلن عام ١٨٧٢ م نبأ اكتشاف خبر الطوفان في محاضرة ألقاها على الجمعية الآثارية للتوراة في لندن فأثارت ضجة وحماساً بالغين في العالم مما حدا بجريدة (ديلي تلغراف) ان تتبرع بألف جنيه لينفقها جورج سمث في مواصلة الحفر في خرائب نينوى وقد نجح فعلًا في العثور على أجزاء أخرى مكملة ونشر بحوثه قبل وفاته المبكرة في عام ١٨٧٦ « وهو في السادسة والثلاثين من عمره »[٢٢٣] ثم استمرت على اثر هذه المحاولة محاولات عديدة استغرقت سنيناً طويلة حتى تم تجميع الواح هذه الملحمة . وبعد نشر جورج سمث ابحاثه ، أخذت الابحاث والدراسات تزداد وتعددت الترجمات لهذه الملحمة العظيمة . ولا تزال الدراسات والابحاث مستمرة عنها الى هذا التاريخ وقد وجدت نسخ عديدة من الملحمة في أماكن متفرقة من العراق والبلاد القريبة « فقد وجدت نصوص من الملحمة في موضع (سلطان تبه) في جنوب تركيا قرب حران وفي العاصمة الحثية (حاتوشاش) وجدت بعض الاجزاء تعود الى اللوح الخامس . وفي (مجدو) في فلسطين عثر على كسرة تعود الى الملحمة . مما يؤكد الاتصال المباشر بين العبرانيين وبين المآثر الادبية والدينية في حضارة وادي الرافدين »[٢٢٤] وقد نقلت الينا هذه الملحمة جوانب عديدة مما كان يفكر فيه العراقيون القدماء وكذلك سلطت الضوء على جوانب من المجتمع العراقي وتكوينه وطبيعته وكذلك جانباً من الوضع السياسي وموقع الملوكية في المجتمع العراقي القديم ولعل أهم قضية تعالجها الملحمة هي قضية الموت وكيف حاول كاتب الملحمة ان يعطي قارىء الملحمة نوعاً من الراحة وهو يمنحه العزاء والسلوى « في مغالبة مصائب الزمان ونكبات الدهر ومنها الموت وملخص الملحمة أنَّ حتى كلكامش الذي اختصته الارباب بالرعاية والحب فأعطته قوة البدن وجمال الشكل وحكمة وافرة وطولًا فارعاً (اثني عشر ذراعاً) ونسباً

---

(٢٢٢) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٠ .
(٢٢٣) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٣٩ .
(٢٢٤) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٤٠ ـ ٤٢ .

مرتبطاً بالآلهة حيث كانت أمه (حسب الاسطورة) الربة ننسون وأبوه ملك عظيم لوكال باندا وبذلك صار ثلثاه الهاً وثلثه انساناً وحصل على ما تطلبه نفسه وتشتهيها من لذات الدنيا حيث لم يترك بنتاً لابيها أو زوجة لبعلها وهو الذي صرع انكيدو الوحش الذي لا يقهر وقتل العفريت الكبير أصل الشر في العالم خومبابا المخيف فحتى هذا البطل السومري العظيم قد توفي فعليك ايها الفرد الاجتماعي ان تتفهم الواقع وترضخ لناموس الكون وتترك القلق على الموت والبكاء على من يرحل »[225]
تتكون الملحمة من اثني عشر رقيماً تشكل مزيجاً غير متجانس في معالجة مواضيع مختلفة ولكن صياغتها الادبية الرائعة وعمق الفكرة الرمزية تمنحها وحدة في الصياغة والاسلوب ففي اللوح الاول يدور حول شخصية كلكامش وكيف كان يتمتع بلا حدود يعكس لنا بانه كان يمارس شهواته دون أي اعتبار للآخرين وهذا يوحي بانه ملك جبار امتاز بقوة الجسد ودهاء العقل حيث يسلط على انكيدو امرأة عاهرة لكي تغريه وتستدرجه اليه . واللوح الثاني يتابع لقاء انكيدو مع كلكامش ويبين لنا اللوح كيف اراد كلكامش الدخول على عروس (قبل زوجها لانه كان يمثل السيد المطاع) . وكيف بدأ الصراع بين انكيدو وكلكامش وفي اللوح الثالث تتحول العلاقة بين انكيدوا وكلكامش الى علاقة صداقة ويتفقان على القضاء على العفريت خمبابا اساس الشر في العالم وتستمر الالواح الرابع والخامس والسادس في وصف الرحلة نحو خمبابا للقضاء عليه وفي الالواح السابع والثامن والتاسع والعاشر تصف مرض انكيدو وموته وحزن كلكامش عليه ثم قرار كلكامش بالبحث عن الخلود ثم ناتي الى اللوح الحادي عشر وهو لوح الطوفان وقصة الطوفان حكاها أوتونابشتم الى كلكامش وفي اللوح الثاني عشر وصف لاحوال العالم السفلي وكيف كان انكيدو يعيش في العالم السفلي . وكيف قال انكيدو لكلكامش « اذا وصفت لك العالم السفلي الذي شاهدته فسوف تجلس وتنتحب » فتأوه كلكامش وألقى بنفسه في التراب »[226] لقد كانت ملحمة كلكامش بالنسبة لدارسي حضارة وادي الرافدين « منجماً زاخراً لاستقاء اوجه ومقومات أساسية عن أحوال العراق القديم كعقائد القوم الدينية والهتهم وآرائهم في الحياة والكون وأحوالهم الاجتماعية وجوانب مثيرة من حياتهم

---

(٢٢٥) الاحمد / د. سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ١٤ المقدمة .

(٢٢٦) انظر الاحمد / سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ٢٨ ـ ٣٠ بتصرف عن المقدمة .

العاطفية »[٢٢٧] إن الملحمة كتبت بشكلها النهائي وشاعت في زمن يعرف بالعهد البابلي القديم (الالف الثاني ق . م .) (فقد وجدت نسخ كثيرة لها في حواضر العراق القديم في ادوار ازدهار الحضارة البابلية[٢٢٨] . ووجدت آخر نشرة لها كاملة في خزانة كتب الملك الاشوري (آشور بانيبال) الشهيرة وهي من القرن السابع قبل الميلاد والملحمة فيما يبدو لمن تصدر عن حالة واحدة بلورت الملحمة ولكن المرجح أنها جمعت من مصادرها وأخذت شكلها النهائي (فهي وان جاءت الينا من ناحية الفن القصصي على هيئة وحدة قصصية الا انها كانت اقرب ما تكون الى الجمع الادبي . أي أنها مؤلفة من عدة قطع واجزاء تدور حول أعمال وحوادث مختلفة »[٢٢٩] لذلك فان أصول حوادثها قد جاء من التراث السومري . كما يقول المرحوم د. طه باقر : « فقد ابان البحث الحديث أنها ترجع الى مصادر سومرية »[٢٣٠] ولكن د. احمد سوسة ينفي اصلها السومري ويقول : « ابان البحث الحديث ان الملحمة ترجع الى مصادر قديمة ثم بدأت تتبلور في عهد سيطرة السلالة الاكدية التي أسسها سرجون الاكدي الشهير في حدود سنة ٢٣٧٠ ق . م . ودونت كاملة في العهد البابلي القديم (اي مطلع الالف الثاني ق . م . حتى اصبح متفقاً عليه بين النقاد ان هذه الملحمة بشكلها المتكامل الاكدي تعد نتاجاً ادبياً بابلياً صرفاً . وبما ان جلجامش ارتبط اسمه بسلالة الوركاء الاولى وهو الذي شيد سورها القديم والمقصود هنا زمن الوركاء ما قبل التاريخ قبل ان يكون السومريون قد ظهروا على مسرح الاحداث ولما كانت آثار الوركاء ومعبد الوركاء قد وجد مثيلها في سورية السامية وهي ترجع الى زمن اقدم من دور الوركاء فيمكن الاستدلال من ذلك ان ملحمة كلكامش ترجع الى اصل سامي ايضاً »[٢٣١] . ان هذا الكلام ابتعاد عن الحقيقة وتكلف في رد كل انتاج فكري وأدبي الى أصل ساميّ ومن الصعوبة أن تقنع الآخرين بمقتضى هذه التفسيرات والتأويلات التي تفتقر الى الادلة الكافية . فنحن نعلم ان هناك افكاراً وقطعاً موجودة في

---

(٢٢٧) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٣ .

(٢٢٨) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٤ .

(٢٢٩) باقر / د. طه / ن . م . / ص ٣٤ .

(٢٣٠) باقر / د. طه / ن . م / ص ٣٥ .

(٢٣١) سوسة / د. احمد حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الاثارية والمصادر التاريخية/ ص ٢٠٨ .

الملحمة وجد ما يقابلها في الادب السومري « ومن الحقائق المعروفة عن أصول التراث الحضاري وفي وادي الرافدين انه كان للسومريين الفضل الاكبر في ابتداع مقوماته الاساسية ثم جاء من بعدهم الساميون (ابتداءً من العصر البابلي القديم) فقاموا بجمع وتنسيق هذا التراث فتمخض عنه نتاج جديد في شكله ولكنه قديم في اصوله »[٢٣٢] وقصة الطوفان السومرية شاهد على ذلك « لقد وصلنا من قصة الطوفان السومرية رقيم واحد فقط كان قد اكتشف في مدينة نفر ونشره لاول مرة الاستاذ بويل عام ١٩١٤ . ولم يصل هذا الرقيم كاملًا اذ لم يبق منه الا ثلثه الاخير فقط وقد وردت إشارات في نصوص سومرية ادبية ـ دينية تتعلق بالملك اشمي ـ دكان (Ishmedagan ١٩٥٣ ـ ١٩٣٥ ق . م .) . وهذه الاشارات تتعلق بالطوفان »[٢٣٣] . وقد عكست الملحمة العلاقة بين الساميين والسومريين من خلال العلاقة بين جلجامش السومري[٢٣٤] . والذي مثل السلطة التي كانت تحكم بلاد الرافدين وانكيدو السامي الذي مثل رمز البداوة والاقوام التي عاشت على الفطرة حتى لا تعرف التحضر ولا مظاهره (العطور وأنواع اللبس الفاخرة والوانها الزاهية) وبينت لنا كيف استطاع كلكامش ان يتحد مع انكيدو ويشكّلا وحدة لتخليص البلاد من الاشرار وكيف عبر كلكامش عن حبه ووده للقادمين من الصحراء . وهذا هو سر قوة العراقيين القدماء الذين استطاعوا ان يحققوا توحداً لمزيج غير متجانس من الاقوام فكان الابداع يمثل أروع حالات وحدة الانسانية التي جسدها العراقيون القدماء .

أهم شخصية مرتبطة بالطوفان في الرقم الطينية :

أهم شخصية ترتبط بالطوفان هي شخصية أوتونابشتم في ملحمة كلكامش وهي الشخصية التي تقابل شخصية النبي نوح (عليه السلام) في حادث الطوفان

---

(٢٣٢) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٢٠ .

(٢٣٣) علي / د. فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٢١ .

(٢٣٤) يحاول الدكتور سوسة على عادته التشكيك بسومرية كلكامش ويحاول أن يقربه الى الاصل السامي فيقول : « وفي ترجمة الاستاذ كرامر لاثبات الملوك السومريين ترد من بعد أسم جلجامش عبارة ابوه كان بدوياً مع علامة الاستفهام . وهذا ما يؤيد ذلك اي ارتباط جلجامش بالصحارى » تاريخ حضارة وادي الرافدين / ص ٢١ . ولكنه لا يستطيع التصريح لان اقدم كتابه ذكرت اسم كلكامش جاءت في الالواح الصورية (الكتابة الشبيهة بالصور) التي وجدت في شروباك ويرجع زمنها الى اواخر عصر جمدة نصر .

وتقابل شخصية زيوسدرا في قصة الطوفان السومرية وتعبر كذلك عن شخصية اتراخاسيس في قصة الطوفان البابلية « ومن الجدير بالذكر ان الاقدمين أنفسهم طابقوا بين اوتونابشتم وبين زيوسدرا في قصة الطوفان السومرية حيث وردت الصيغة السومرية Ziu-sud-ra مرادفة للصيغة البابلية Ut-napish-tim في أحد النصوص المسمارية »[٢٣٥] ومن المعروف ان زيوسدرا قد ورد ذكره في قصة الطوفان في النسخة السومرية (وقد ذكره المؤرخ البابلي بيروسيس بنفس الصيغة تقريباً (Xisouthros) وخصص له مرحلة حكم خيالية قدرها ٦٤٠٠٠ سنة ولكن هذا الملك لم يذكر في النسخة الرئيسية من قائمة الملوك السومرية . وان هذا لا يهمنا ولكن الذي نحن بصدده هو معنى أسم زيوسدرا . « فان هذا الاسم يتكون من ثلاثة مقاطع سومرية Zi بمعنى (الحياة) و U بمعنى (يوم) و Sud بمعنى (طال أو أطال »[٢٣٦] .

وهذا يعني ان معنى اسمه (الرجل الذي طال عمره أو طالت حياته) وبعيداً عن الارتباطات الاسطورية حول هذه الشخصية فان هذا المعنى يتفق مع وصف القرآن لطول حياة النبي نوح (عليه السلام)[٢٣٧] ﴿ فلبث فيهم ألف سنة الا خمسين عاماً ﴾[٢٣٨] .

وفي قصة الطوفان البابلية وردت الاشارة الى بطل القصة الذي يقابل أوتونابشتم بأسم اتراخاسيس Atrahasis « ويتكون هذا الاسم البابلي من مقطعين (Atra) بمعنى كثير ، زائد من الفعل (ataru) كثر ، زاد . و hasis بمعنى يحس ، أصغى ، فهم »[٢٣٩] وهذا يعني ان اسم اتراخاسيس يحمل معنى الرجل الكثير الاحساس والعاطفة[٢٤٠] أو مفرط الحس مع الحكمة وقد ورد في

---

(٢٣٥) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٣٩ حيث يأخذ هذه المعلومة من : (Thompson, The Epic of Gilamesh, P. 83).

(٢٣٦) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٣٥ .

(٢٣٧) ذكر النووي في التهذيب « ان نوح أطول الانبياء عمراً » انظر السيوطي / الاتقان في علوم القرآن / ج٢ ص ٢٩٩ .

(٢٣٨) العنكبوت/ ١٤ .

(٢٣٩) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٣٨ .

(٢٤٠) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٦ .

المصادر الاسلامية إن (نوح قال الكرماني معناه بالسريانية : الشاكر . وقال الحاكم في المستدرك إنما سُمّي نوحاً لكثرة بكائه على نفسه وأسمه عبدالغفار »[٢٤١] الذي يتحصل لدينا من خلال هذه المقارنة أن :

(أوتونابشتم / بابلية) = (زيوسدرا / سومرية) = الرجل الذي طال عمره .

وأن اتراخاسيس البابلية = المفرط الحس صاحب الحكمة وهذا المعنى يقابل ما ذكرته المصادر الاسلامية من وصف حول نوح (عليه السلام) انه شاكر والشاكر يقابل الذي يحس بالنعمة فَيَشْكُرُ عليها وان الشكر يأتي من الاحساس بالنعم وكذلك البكاء والنوح والألم صفات يمتلكها الذين يتحسسون بالمسؤولية وقد وصف القرآن الكريم أنبيائه بهذه الصفات عن إبراهيم ﴿ أواه حليم ﴾ وعن نوح ﴿ انه كان عبداً شكورا ﴾ وعن محمد (ﷺ) ﴿ ولقد نعلم انه ليحزنك الذي يقولون ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ كل هذا يعزز لنا الحقيقة القرآنية التي حفظتها هذه الرقم الطينية بأن أوتونابشتم وزيوسدرا واتراخاسيس كلهم شخصية واحدة هي شخصية النبي نوح (عليه السلام) . فما حفظته الرقم الطينية من أسماء لبطل الطوفان يكاد يتطابق تطابقاً كلياً مع اسم النبي نوح (عليه السلام) ووصفه ولا يضرنا الخلاف حول شخصيات هذه الاسماء فأنها حتماً قد أضيف حولها ووضعت ضمن إطار الاسطورة التي تعبر عن أخيلة الكتّاب والشعراء والادباء المهم أننا استطعنا ان نمسك بخيط يقودنا الى الحقيقة التي اختفت وسط الاساطير . الحقيقة التي لا مراء فيها هي حدوث الطوفان فأن ترديد هذا الحدث ضمن الاساطير يؤكد وقوع هذا الطوفان « وانه كان بالاصل حدثاً تاريخياً واقعياً حدث في طيات الماضي البعيد وكان من جسامة التأثير وقدامته انه ترك أثراً بليغاً في عقول الاجيال المختلفة فتناقلته بالروايات الشفوية وشوهت تفاصيله الواقعية »[٢٤٢] وان هذا الطوفان موغل في القدم حتى تحول الى اسطورة سومرية في بدايات الالف الثالث قبل الميلاد « وتاريخ آخر طوفان بجنوب العراق حدث سنة نحو ١٤ ألف قبل الميلاد » كما تذكر المصادر التي تهتم بالدراسات الجيولوجية والآثارية[٢٤٣]

---

(٢٤١) السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ / الاتقان في علوم القرآن / ج٢ ص٢٩٨ .

(٢٤٢) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / ص ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢٤٣) احمد / سامي سعيد / ملحمة كلكامش / ص ٢٣ . / ينقل هذا التاريخ لآخر طوفان عن دراسة كتبها ورنر نوزل في مجلة سومر العدد ٣١ سنة ١٩٧٥ ص ١٠١ ـ ١٠٩ .

(الانثروبولوجيا) والحقيقة انه لا توجد اي دلالة تشير الى الطوفان الذي تتحدث عنه الكتب المقدسة (القرآن والتوراة) وان ما ذكره مستر وولي حول اكتشافه آثار ترسبات غرينية في اور من دور العبيد (حدود ٤٠٠٠ ق.م .) بلغ ثخنها زهاء (١١) قدماً وقد عثر عليه قريب من المقبرة الملكية ولكنه لم يعثر على بقايا مماثلة من هذا الدور في المواقع الاخرى مثل اريدو القريبية من أور »[٢٤٤] وقد اختلفت الآراء حول نظرية مستر وولي حول الطوفان . فمنهم من خالفه الرأي كلياً مثل الاستاذ بيك

ويتساءل البعض بحق لماذا توجد طبقة من طمى الطوفان من نهاية عصر العبيد في مدينة اور ولا توجد مثل هذه الطبقة في مدينة اريدو المجاورة التي لا تبعد عنها سوى ١٥ ميلًا فقط ؟ »[٢٤٥] قد استبعد مالوان فرضية وولي حول الطوفان قد وقع في عصر العبيد لعدم وجود آثار لمثل هذا الطوفان في مدن أخرى خارج اور ولكنه انتصر لرأي جديد واعطى تفسيراً جديداً للطوفان . ويضع مالوان عصر هذا الطوفان في عصر فجر السلالات الثاني (حوالي ٢٩٠٠ ق.م .) في كيش حيث وجدت آثار طوفان »[٢٤٦] والسبب الذي دفع مالوان الى ذلك كما يذكر د. فاضل عبدالواحد هو ذكر ملحمة كلكامش للطوفان يؤكد الى ان الطوفان قد حدث في زمن ليس بعيد عن عصر كلكامش . مع الملاحظة ان هذه الفرضيات والتحليلات كلها قائم على أساس ان الطوفان حدث بفعل ارتفاع مناسيب المياه في دجلة والفرات او بسبب ذوبان ثلوج كلها قائم على استبعاد ربط الطوفان بالقضية الدينية التي هي محور الرقم الطينية و (الرواية التوراتية والرواية القرآنية . ومن الغريب ان الذين يرجعون حدوث الطوفان الى الامطار كما في رواية التوراة . إن هؤلاء على الرغم من ذكرهم لهذه الحقيقة فانهم يذهبون الى الاساطير ويتابعون روايتها ويعمدون الى تحليلها للوصول الى نتائج علمية حول حقيقة الطوفان حيث يقول د. فاضل عبدالواحد : « والملاحظ عن الطوفان في النصوص المسمارية وفي التوراة ايضاً انه لم يكن ناتجاً عن ارتفاع

(Werner Nutzel: The Formation of the Arabian Gulf From 14000-3500 B.C.).

(٢٤٤) سوسة / د. احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري / ص ٢٠٦ ياخذها من طه باقر تاريخ الحضارات .

(٢٤٥) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ١٠٥ .

(٢٤٦) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / م.س / ص ١٠٩ .

مناسيب مياه الانهار بقدر ما كان بسبب هطول الامطار الغزيرة وتدفق مياه العمق أبسو. التي كان مسؤولًا عنها الإله أكي (أيا) وفي الحقيقة لم يكن الفيضان النهري حتى في حساب كاتب قصة الطوفان البابلية بدليل أن سفينة رجل الطوفان أوتونابشتم قطعت مسافة ٤٥٠ كم وباتجاه معاكس لتيار نهري دجلة والفرات لترسو في شمال القطر وعلى قمة جبل ارتفاعه (٩٠٠٠ قدم) ولهذا فانه من غير المستبعد كما لاحظ بعض الباحثين ان التفاصيل التي دوّنها الكتاب السومريون والبابليون عن الطوفان حدث في عصر فجر السلالات المبكر انما تعكس في الوقت نفسه رواسب بعيدة في القدم مما علق في ذاكرة البشرية عن الطوفان أو أكثر حدثت في عصر البلايستوسين الذي يتميز بأمطار غزيرة في الشرق الادنى وبانجماد كثيف في اوربا »[٢٤٧] أصبح من الواضح الآن إن كل التفسيرات التي ذهبت الى وجود آثار لطوفان هائل كلها غير دقيقة ولا يمكن الاعتقاد بها أو الاقتناع بها لافتقارها الى الادلة وعدم سلامتها من الانتقاض والتناقض وكذلك بالنسبة الى الرقم الطينية فانها تخدمنا في حالة واحدة فقط وهي تاكيد حدوث طوفان هائل في زمن موغل في القدم لا سبيل الى تحديده بواسطة هذه الرقم لغلبة الطابع الاسطوري على معلوماتها وقد كتبت وصيغت هذه الرقم بموجب تأثير البيئة الجديدة في عصر الكتابة فمثلًا أمر بناء السفينة في الرواية البابلية كان على ما يلي : « أبن سفينة كبيرة ..... وليكن بناؤها كلياً بالقصب ...... »[٢٤٨] والمعروف ان القصب كان ومازال ينمو بغزارة في جنوب القطر الذي نريد ان نقدره ان الرقم الطينية تعبر عن انعكاس مضخم للطوفان صيغ بأسلوب شعري ادبي وتتشابه قصص الطوفان السومرية زيوسدرا والبابلية اتراخاسيس والرقيم الحادي عشر في ملحمة كلكامش حول وصف الطوفان وكيف كان مهولًا لا يستطيع الاخ تميز اخيه لهول الدمار . ونكتب أدناه قطعة من ملحمة كلكامش تصف لحظات الطوفان .

ولما حصل الرعب من الإله أدد الى عنان السماء
وتحطمت الارض الواسعة مثلما يتحطم الإناء
إستحال كل نور الى ظلمة
وظلت ريح الجنوب يهب يوماً كاملًا

---

(٢٤٧) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ١١١ .
(٢٤٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٧٥ .

وتزايدت سرعتها وهي تهب حتى (غطت جبال)
وفتكت بالناس مثل حرب ضروس
فلم يستطع الاخ ان يرى أخاه
ولم يكن بالمستطاع تمييز الناس من السماء
حتى ان الآلهة ذعروا لهول الطوفان
فاخذوا يتراجعون الى خلف حتى وصلوا الى سماء الآله آنو
وأستكان الآلهة وكأنهم كلاب تربض بمحاذاة الجدار[٢٤٩] .

واستمر الحال على هذا المنوال سبعة أيام وسبع ليالٍ ثم ندرج أدناه قطعة من هذا الرقيم تصف الحال بعد الطوفان . وهي تعبر عن الكلام أوتونابشتم لكلكامش :-

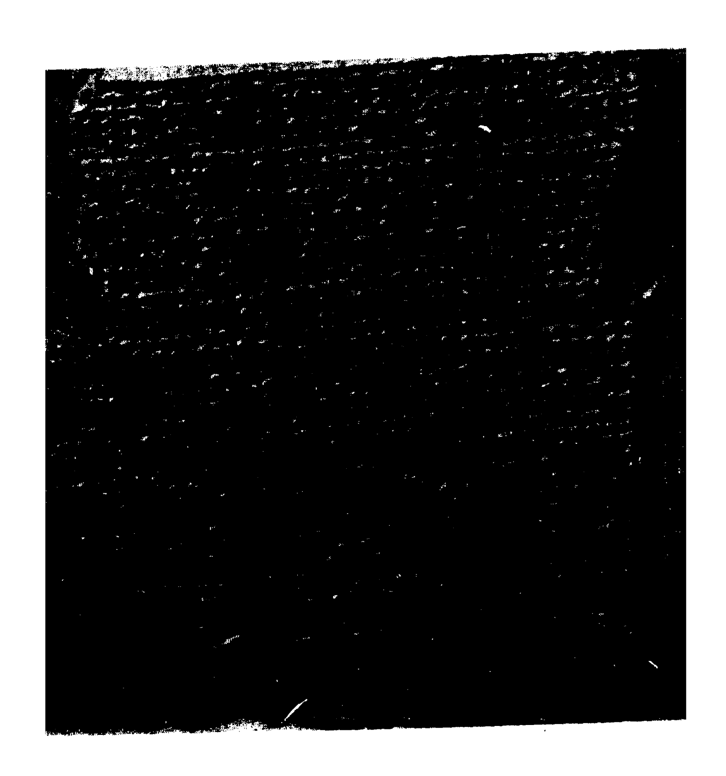
« ثم فتحت نافذة (في السفينة) فسقط النور على وجهي
فسجدت وجلست باكياً
والدموع تجري على وجهي
ثم أخذت أتطلع الى سواحل البحر الواسع
فبانت الأرض من مسافة أثني عشر ميلًا مضاعفاً ....)

وفي تلك الاثناء استقرت السفينة على جبل أسمه نيسير (Nisir) ومضت ستة أيام وجبل نيسير ممسك بالسفينة ولا يدعها تتحرك . على حد قول أوتونابشتم . وبتعبير آخر إن السفينة قد بلغت مستقرها الأخير »[٢٥٠] ويخالف الدكتور فاضل عبدالواحد المرحوم د. طه باقر حول قراءة نيسير بالصاد نصير أي (جبل الخلاص) ويقول : هذا في اعتقادنا غير محتمل لصعوبة مثل هذا الاشتقاق اللغوي في الاكدية . لان الفعل Nasaru غير Nisir في الشكل بالنسبة للكتابة المسمارية) . وينقل رواية بيروسيس المؤرخ البابلي الذي يذكر بأن سفينة زيوسدرا رجل الطوفان في القصة السومرية (قد استقرت على جبال Gordyaen في أرمينيا »[٢٥١] في حين يذكر د. طه باقر بان كوردبيين الذي يذكره بيروسيس يعني جبل الكورديين اي الكرد . وقد سبق وأن تكلمنا حول هذا الجبل عند الحديث عن النص

---

(٢٤٩) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٨٧ .
(٢٥٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / ص ٩٤ .
(٢٥١) علي / د. فاضل /م . س / ص ٩٤ .

لفظه جبل الجودي في القرآن . وهذه التخريجات ومع ا
، فانها تمثل وجهات نظر شخصية .

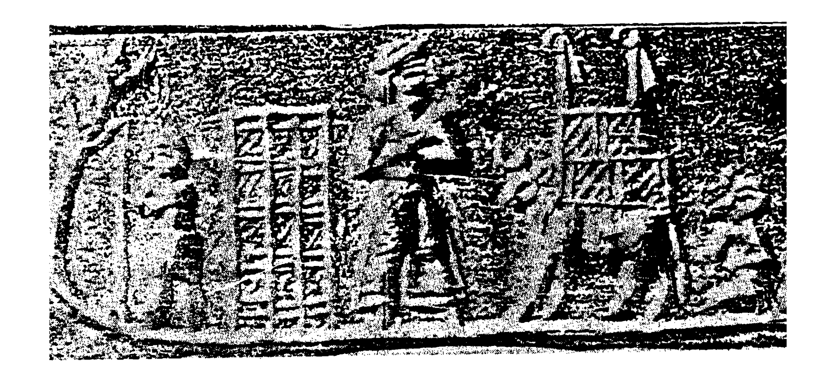


صورة لرقيم طيني الذي يروي قصة الطوفان
وهو اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش ومحفوظ
في المتحف البريطاني

بوستغيث / نيكولاس / حضارة العراق وآثاره / ص ١٩

شكل يمثل رقيم الطوفان

مدون في القرن السابع ق . م . محفوظ في المتحف الايطالي



صورة لختم يمثل زورقاً مقدساً لعصر الوركاء

متحف برلين وهو ما يشير الى اثر الطوفان في الفن والاختام



صورة لختم لمنظر تعبدي
محفوظ في المتحف العراقي موجود عليه ايضاً الزورق المقدس

الفصل الثالث

ابراهيم الخليل (عليه السلام)
أبو الأنبياء

المبحث الاول

العصر والملامح (متابعة تاريخية)

ان حركة التاريخ لم تتوقف في القرآن الكريم ولم يكن هناك مفهوم ثابت وانما الحركة هي السمة الاساسية لعمليات التغييرالتي أحدثها الانبياء وقادوا أتباعهم اليها . وهذه القضية أشار اليها ابن خلدون في مقدمته « فهو يرى ان الحركة التاريخية لا تنقطع ابداً والانسانية لا تقف ولكن يوجد حد يقف عنده كل مجتمع ومنه يجب أن يستانف الى السير مجتمع جديد . ولم يسبق ابن خلدون احد الى تلك الفكرة العامة عن السير الابدي للمجتمع ،لم يتصور أحد حتى عهده او يقرر شيئاً يشبه ذلك القانون الذي نسميه (قانون الاطوار الثلاثة . وان ذكاءه الخارق هو الذي استطاع الاستفادة من القسم الذي يجيد معرفته من التاريخ وسنرى انه يُخضع القرآن لنظريته)[1]

استطاع ابن خلدون وبثقافته الاسلامية ان يؤسس مدرسة وافكاراً لفهم التاريخ أودعها في مقدمته ولكنه مع الاسف الشديد لم يطبق أفكاره التي وضعها في مقدمته على التاريخ الذي كتبه ولذلك بقي القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي دون التاريخ بموجب منهجيةٍ ودقةٍ متناهية وبقيت هذه المنهجية لم ينتفع منها المؤرخون وهذه

---

(١) حسين / طه / ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية / ص ٨٤ .

الحقيقة تدفع المؤرخ المسلم « أن يراجع القرآن لان مراجع القرآن سوف تبين له ان الوسائل هي الوسائل كذلك والاهداف هي الاهداف وهو الذي يؤكد له فساد مصادر ومراجع ما يسمى بالتاريخ القديم التي تتجاهل بضعة آلاف عام من التاريخ الاسلامي والتي زيفت وشوهت التاريخ الاسلامي بما في ذلك تاريخ الرسل والأنبياء »[٢] ومن خلال القرآن الذي يبين لنا ان تاريخ الانسانية هو تاريخ الأنبياء وهو تاريخ الملة الموحدة وهو تاريخ دين الاسلام الذي جاء به الانبياء جميعاً من آدم الى محمد صلوات الله عليهم . وان هذا التاريخ تحكمه سنن ونواميس خاضعة لارادة الله يتفاعل معها الانسان لتحقيق قدر الله على الارض وأن مما يؤسف له ان نجد بعض المؤرخين يتجاهل هذه الحقيقة بل يعلن ان هذه الحقيقة غير أصيلة ولا تستند الى دليل علمي : «ومن الامور المعروفة ان اليهود لم يقدموا لمدنية العالم القديم سوى شيئين أظهرت الادلة الحديثة عدم أصالتهما اولهما العهد القديم الذي يتضح ان اكثر ما جاء به مستمد من آداب العراق القديم ومصر والكنعانيين الامر الذي عكس ربما لاول مرة فلسفة للتاريخ تجعل أحداثه مسيّرة من قبل الله والثاني المعتقد اليهودي الذي نعرف الآن عن كونه مزيجاً من معتقدات أديان العراق ومصر وكنعان وقد تأثر بما تأثرت به هذه الاديان نفسها في مسيرتها التاريخية »[٣] . اننا نتفق مع د. سامي سعيد في كون التوراة ليست كتاباً مقدساً وانما هي « روايات مضللة وأخبار أسطورية ينقصها الدليل والسند التاريخي »[٤] « وان هذه التوراة ليست التوراة التي نزلت على موسى »[٥] . ولكننا لا نعتقد ان الدين ويضمنها المعتقد اليهودي قد تطور او جاء نتيجة تطورات وتأثيرات ، لان هذا المنهج يتعارض مع دور الأنبياء ومصدر الدين وقد أثبت القرآن حقيقتين من خلال عرض سيرة الأنبياء . الحقيقة الاولى : « وحدة دين الله وتصديق هذا الدين لما قبله »[٦] . والحقيقة الثانية هي دور اليهود في التلاعب وتزوير التاريخ الاسلامي للانبياء . لان القرآن الكريم عرض وحدة المصدر

---

(٢) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. وفاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في التاريخ / ص ٤٠٤ .

(٣) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(٤) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(٥) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. وفاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في التاريخ / ص ٤٠٦ .

(٦) محمد مسعود / م . س / ٤٠٩ .

وحدة المنهج . والمصدر لكل الرسالات هو الله سبحانه وتعالى والمنهج كان يمثل الاسلام في عصر النبي المرسل ، وهذه الحقيقة أثبتها القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[7] . وهذا يعني ان تاريخ الامة الاسلامية لا يبدأ فقط ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وإنما يرجع الى زمن خلق آدم (عليه السلام) مسلماً موحداً »[8] . وان الانبياء لم يكونوا يمثلون أنفسهم أو أهدافاً بشرية دفعتهم للاصلاح ولم يكن موسى (عليه السلام) في مفهوم القرآن منقذاً ومصلحاً وزعيماً ولكنه قبل كل شيء كان نبياً رسولاً بعثه الله الى بني اسرائيل . ان الذين كتبوا في التاريخ القديم وتصدوا لمناقشة الاديان والأنبياء معظمهم ان لم نقل كلهم قد سيطرت عليهم فكرة أن الدين قد اخترعه البشر وتطور كما تطورت باقي الجوانب في حياة البشر وهذه من أعظم الاخطاء التي وقع فيها هؤلاء المؤرخون وعلى الجانب الآخر كان هناك مؤرخون اعتمدوا على التوراة في بناء نظرتهم الى التاريخ القديم فتكونت عندهم صورة مشوهة مضطربة عن الأنبياء والأديان لان المصدر مشوش ومنحرف وزعم هؤلاء « أن إبراهيم وذريته كانوا يهوداً واعتمدوا في مصادرهم على ما الفه كُتّاب اليهود قديماً وأسموه بالتوراة ويدخل في ذلك ما يسمى بالعهد القديم والتلمود . وما يسمى بـ (دائرة المعارف الاسلامية) التي ألفها المستشرقون . وقصة الحضارة لديورانت والحضارات السامية لموسكاتي ، والشرق الخالد لعبدالحميد زيد وحضارة مصر والشرق القديم ، والموسوعة العربية الميسرة »[9] وغيرها ، ومن المؤسف حقاً كما يقول د. سامي سعيد الاحمد : أن الذين كتبوا عن تاريخ فلسطين القديم (أو تاريخ الأنبياء بصورة عامة) قد اعتمدوا اعتماداً كلياً على العهد القديم الذين لا يمكن بأية حال من الاحوال أخذ معظم ما جاء به كحقائق تاريخية » وناسف نحن كذلك عندما نجد ان الذين يعيبون على هذا الفريق من المؤرخين اعتماده على رواية العهد القديم وتاثروا بها فإن هؤلاء قد ابتعدوا عن الحق كثيراً عندما جعلوا التراث الضخم للاديان

---

(٧) سورة آل عمران/ ٨٤ .

(٨) محمد مسعود / م . س / ص ٣٩٩ .

(٩) محمد مسعود / د. جمال عبدالهادي مع د. وفاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في التاريخ / ص ٤٠٥ .

والانبياء عبارة عن حالة طبيعية من حالات الوجود الانساني يخضع لمفهوم المادية والاسباب الطبيعية التي أدت الى ظهور الاديان كحاجة غريزية تعبّر عن استجابة الانسان لحالات الضعف التي تعتريه إذ ينكر د. سامي سعيد :.«ولم تكن عبادة الاشجار بالامر الغريب على الشرق الادنى القديم فقد قدس الفينيقيون الاشجار وقرنوا بعضاً منها كالصنوبر والياس والنخل بأربابهم مثل عشتروت . ويرتبط وجود الرب كذلك بالصخور المقدسة (المازيبا) التي استخدمت كمذابح وظلت تمثل وجود الرب للعبرانيين الاوائل حتى إصلاحات الملك جوزايا وكذلك نرى ارتباط المعتقد العبري بالطوطمية واضحاً في تقديسهم للحيوانات على الرغم من تحذير الوصايا العشر وقد نجد أن بعض بطون القبائل العبرية تنتسب الى حيوانات مثل الاورديين (Arodites) اي عشيرة الحمار والتولاتيين (Tolaites) أي عشيرة الدود والكلبيين (Calbites) اي عشيرة الكلب وربما تكون هذه بقايا لنظم ومعتقدات طوطمية سابقة »[١٠] وعن موسى يقول : « ولكن مَنْ هو موسى الذي يقرنه الكثيرون بتأسيس الدين اليهودي ؟ هناك حقيقة مهمة هي أنه ليس لدينا حالياً أية وثائق تاريخية عن موسى معاصرة له يمكن أن ترسم له شخصية تاريخية »[١١] إن هذا المنهج في تحليل المعلومات التاريخية لم يقتصر على مؤرخ واحد او مفكر واحد ولكنا نجده عاماً لم يتخلف عنه كل الذين كتبوا في مقارنة الاديان وتاريخها فإننا نجد في كتاب علي الشوك الذي هو متابعة لكتاب (الاساطير العبرية) لروبرت غريفز وروفائيل باتاي . فقام علي الشوك بالتعقيب على هذا الكتاب ونشره تحت اسم (الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة) وهذا الكتاب نموذج يصلح ان يكون صورة مشحونة بالتحليلات وربط الحوادث المعبّرة عن العقائد بالاساطير والغاء تام للايمان بالله والانبياء وعزا أساس المعتقدات الى حالات من التفاعل بين الانسان والظواهر الكونية . وهذا انموذج لما جاء في هذا الكتاب :) نقرأ في كلام غريفز وباتاي مؤلفاً (الاساطير العبرية) : « وكانت الغربان مكروهة محبوبة عند العبرانيين على حد سواء وفي سفر أيوب (٢٨ : ٤١) والمزامير (١٤٧ : ٩) نجدها موضع عطف الرب لكنها في سفر التثنية (١٤ : ١٤) تصنف مع الطيور النجسة ومن المحتمل ان الغراب وليس حاماً ، استحال لونه الى السواد عقاباً

---

(١٠) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين القديم / ص ٣ .

(١١) الاحمد / د. سامي سعيد / م . س / ص ١٧ .

له »[١٢] ويعقب علي الشوك على هذا النص في كتابه فيقول : « على ان الغراب كان في الاساطير اليونانية طائراً نبوئياً يُزعم انه كان يسكن روح الملك المقدس بعد التضحية به . ولابد ان الحمامة كانت طوطماً عند بعض القبائل السامية . وكذلك الغراب ويمكن أستنتاج ذلك من أسم القبيلة العربية بني حمامة وذلك على غرار قبيلة اسد وكلب وضبيان وأوس وثور وعقاب وقضاعة وغيرها مما يعني ان هذه الحيوانات ربما كانت طوطماً للقبائل التي تسمت بأسمها وفي دراسة للمؤرخ الهولندي جي فلكن (Wilken) عن المجتمع الامومي عند العرب . ونقلها الى العربية بندلي جوزي جاء ما يأتي : (ان الحمامة كانت تُعد آلهة الكعبة ومثلها الظبي وبهما تسمت بنو حمام وبنو ظبي »[١٣] . هذه المدرسة التحليلية التي سادت العقل الغربي في عصر النهضة أو عصر التنوير كما يسمونه ومن روادها دارون ، وفرويد الذي أوغل فيها وفسر التاريخ تفسيراً جنسياً حيث جعل الدين والسلوك الاجتماعي الاخلاقي للمجتمع البشري ضمن (مضامين عدوانية ـ جنسية) تكمن في داخل النفس وتعود الى فاعليتها في وقت لاحق . ويصرح بذلك عندما يتحدث عن أصل الدين : « لقد قلت بهذه الاطروحة منذ حوالي ربع قرن من الزمن في عام ١٩١٢ في كتابي (الطوطم والتابو) . ففي الازمنة البدائية كان بنو الانسان يحيون على شكل عشائر صغيرة يحكم كل عشيرة منها ذكر ذو بأس وقوة وليس في مستطاعنا تحديد ذلك الزعم بدقة . يبدو هذا التأريخ ، بالطريقة التي نسرده فيها ، في منتهى التكثيف »[١٤] ويمضي فرويد في وصف طبيعة كيفية تكوين المجتمع البدائي وكيف كان فيه دور الاب وسلطانه الذي لا حدود له وكيف أعقبت هذه الحالة مرحلة جديدة من التنظيم الاجتماعي يقوم فيه الاولاد الكبار الذين يطردهم الاب بتكوين جماعات صغيرة يقومون خلالها بقتل الاب ثم يحدث صراع على من يخلف الاب ومن ثم يدرك هؤلاء خطورة هذا الصراع فيقودهم هذا التفكير الى نوع من التفاهم والى نوع من عقد اجتماعي ونجم عن ذلك الشكل الاول من التنظيم الاجتماعي يقوم على نكران الغرائز وعلى القبول بالتزامات متبادلة . والاعلان عن محرمات (وزبدة القول نجم عن ذلك ابتداء الاخلاق والقيم .وقد تخلى كل امرىء عن الحلم في أن يحتل مكان والده أو أن

(١٢) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ص ٣-٤ .

(١٣) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ص ٦ ١ .

(١٤) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٣ .

يمتلك أمه أو أخته ، وهكذا جرى تنظيم حب المحارم . وسُنّ قانون الزواج الخارجي وأنتقل قسم لا بأس به من السلطة المطلقة عند موت الاب الى النساء وبذلك قام نظام الامومة . ولبثت ذكرى الاب ثابتة راسخة ووقع الاختيار على حيوان مفعم قوة ، كان هو الآخر على الارجح مهاب الجانب في سالف الازمان . وقد حافظت العلاقات مع الحيوان الطوطمي على ازدواجية العواطف التي يوحي بها الاب فكان الطوطم روحاً حامية للعشيرة ولكنه كان يلاقي مصيراً مشابهاً لذاك الذي لاقاه الاب . فيجتمع أبناء العشيرة وينفذون فيه حكم الموت وياكلونه (الوليمة الطوطمية على حد تعبير روبرتسون) . لقد تطورت الطوطمية وتقدمت باتجاه أنسنة (HumaniSation) الكائن المعبود . فقد حلت محل الحيوان آلهة إنسانية لا يخفى علينا أصلها الطوطمي وحافظ الإله على شكله الحيواني أو في الاقل على رأس حيوان »[١٥] ويمضي فرويد في نسج فرضياته عن تطور الدين والصراع بين المجتمع الامومي وعودة نظام الابوة وكيف يعود المجتمع الى نظام الاب الواحد ولكنه يقرر « بأنه لا مندوحة من التسليم بأن هذه اللمحة التاريخية مليئة بالثغرات تحفها الريب والشكوك في أكثر من ناحية ومع ذلك لا يسع أحداً أن ينعت طريقتنا في فهم التاريخ البدائي وتصوره بانها تشط في الخيال الا اذا استهان عظيم الاستهانة بغنى المادة التي تستند اليها وبقوتها على الاقناع »[١٦] لقد أغرى فرويد بالاسترسال في هذه الافتراضات وجود تشابه في وقائع وحوادث في صورتها وهو ما يعطي انطباعاً بتشابه الاصل بين الفرضية والواقع ونراه يحدثنا عن هذا التشابه : « إن بعض الوقائع وجدت وقائع مطابقة لها شبه حرفية . فقد أبدى أكثر من مؤلف دهشته من التشابه القائم بين طقس تناول القربان المقدس لدى المسيحيين ـ وبه يتمثل المؤمن رمزياً جسد الهه ودمه ـ وبين الوليمة الطوطمية التي لها دلالة مماثلة . كذلك تشتمل الخرافات والحكايات الشعبية على عدد لا حصر له من بقايا العصر البدائي المنسي ومخلفاته »[١٧] . لقد أراد فرويد من خلال حشد هذه الظواهر التي تعبر عن ربط لا يخلو من الحذاقة والصناعة أن يلغي مبدأ الايمان بالدين والروح والحكمة من الخلق بجعل هذه التصرفات خاضعة لمفهوم الاستجابة

---

(١٥) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٦ .

(١٦) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٧ .

(١٧) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٧ .

الطبيعية لتطور الحياة الانسانية من خلال نشاطها الاجتماعي الذي يعبر الدين عن أرقى اوجهه . ان التطور بموجب البرنامج الذي صاغه فرويد من الطوطم الى المجتمع الابوي ثم المجتمع الامومي ثم الانقلاب والعودة الى المجتمع الابوي ثم الاب الواحد ثم الرب الواحد « التوحيد » هذا البرنامج يعبر عن خداع وتضليل وتهديم الاديان وهو يربط بين المسيحية والطوطمية ويقول : ان لكل واحد من واضعي الاناجيل الاربعة حيوانه المفضل »[١٨] . انه يهدم الاساس الرباني للدين الذي جاء به عيسى (عليه السلام) وينسف اليهودية كذلك[١٩] عندما يجعل موسى مصرياً وزعيماً انضم اليه الموحدون أتباع أخناتون وبقايا بني اسرائيل ومجاميع من المستضعفين وقاد عملية التغيير . ان اليهود يريدون تهديم الاديان فإذا وصلوا الى زرع هذه العقيدة في نفوس العالم حتى من خلال تهديم اليهودية فإنهم يكونون قد حققوا غايتهم وهدفهم في عزل العالم غير اليهودي (الامميين) عن الحقيقة وبذلك يتمكنون من بسط نفوذهم وهيمنتهم على العالم .

إن نقل القضية الى ساحات غير ساحتها وصناعة الاوهام لعقول الناس تجعل هذه الاساليب التي سادت الغرب وتبناها علماؤه عملًا مضللًا وتؤدي الى جمود العقل وتبلد الحس وتنتكس بها تطلعات الانسانية وتؤدي هذه النظرة الى الايمان بالمادية والتسليم بنتائج محتومة وان فرويد عندما يفترض (ان الله خرافة ثم يحاول أن يفسر سبب ايمان الناس بهذه الخرافة وهو لا يورد اي ذكر للحجج المؤيدة او المناقضة لوجود الله وينهج دارون نهجاً مشابهاً لهذا . ففي كتابه (أصل الانسان) (The Descent of Man) نراه لا يناقش مسألة الله او عدم وجوده بل يقصر حديثه على الايمان بالله وبالخلود ثم يرجم بالغيب الطريقة التي يمكن فيها ظهور هذه المعتقدات بوصفها نتيجة (ثقافة متقادمة العهد) وهذه اجراءات طبيعية ومنطقية إذا افترضنا أن لا حقيقة الا في حقيقة المادة »[٢٠] . إن تفسير السلوك على أساس

---

(١٨) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ص ١١٩ .

(١٩) اذ يقول : لقد كانت اليهودية ديانة الاب فغدت المسيحية ديانة الابن وانحطت مكانة الإله القديم الإله الاب الى المرتبة الثانية ، انظر موسى والتوحيد / ص١٢٢ .

(٢٠) أغروس / روبرت ج. وجورج ن. ستانسيو / العلم في منظوره الجديد ترجمة د. كمال الخلايلي / الجديد / ص ١٣٥ .

عملية استرجاع للخبرة المتراكمة في اللاشعور ليس تفسيراً[٢١] وإنما وصف لأن السلوك يرتبط بالشعور وهذا الشعور شيء غير مادي وفي هذا الصدد يذكر (أكلس) النظرة الجديدة عن التفكير فيقول : « تعلمت بالتجربة الثابتة إنني بالتفكير والارادة أستطيع ان اتحكم بافعالي إذا شئت ذلك وليس في وسعي أن أفسر تفسيراً علمياً كيف يستطيع التفكير أن يؤدي الى الفعل . ولكن هذا العجز يأتي مصداقاً لكون علوم الفيزياء والفسيولوجيا في وضعها الراهن بدائية للغاية . وحين يؤدي التفكير الى الفعل أجدني مضطراً كعالم متخصص في الاعصاب الى افتراض أن تفكيري يغير بطريقة تستعصي على فهمي تماماً انماط النشاط العصبي التي تؤثر في دماغي »[٢٢] وهكذا نجد ان العلم الحديث قد نقض الافكار التي كانت سائدة في القرن الماضي ولقرنين من الزمان أو ثلاثة . إن الغائية والحكمة للوجود في كل مظاهره والجمال والاحساس والذوق والاخلاق والاحلام والرؤى والسحر وما وراء الطبيعة[٢٣] والاحساس عن بعد (التليباثي) والدين وما يفرضه العقل من قناعات منطقية مثل وجود العلاقة الزوجية بين انواع الحياة المختلفة كل هذا يدفع الى الايمان بقدرة الخالق وعظمته .

لقد اضطرنا الكلام عن منهجية القرآن في عرض الواقعة التاريخية الاستشهاد بآراء الذين تابعوا مناهج أخرى في متابعة الحدث التاريخي وقد رأينا انه من المفيد ان نسلط الضوء على هذه المذاهب لتاكيد أهمية القرآن ودراسته من قبل دارس التاريخ من أجل تكامل المعرفة وبناء منهج يفسر التاريخ يعتمد كلياً على النصوص القرآنية والاحاديث الصحيحة ، ولابد ان نؤكد التعامل مباشرة مع النص القرآني ضمن قواعد فهم النصوص اللغوية والشرعية ونبذ ما تعلق بالنصوص من مفاهيم وتصورات بنيت أساساً على الاسرائيليات وثقافات اصطبغت بصبغة العصر الذي أفرز ذلك الفهم من النص القرآني ، ومن المعلوم ان التطور الذي حصل في مجالات العلوم والثقافة أتاح لقارىء النص فهماً جديداً يختلف عن الفهم الذي دونت فيه آراء

---

(٢١) انظر جعفر / د. نوري / الفكر طبيعته وتطوره / الكتاب كله مكرس لهذا المعنى .

(٢٢) أغروس / روبرت / العلم في منظوره الجديد ص ٣٩ .

(٢٣) انظر ولسن / كولن الانسان وقواه الخفية دراسة في القوة الكامنة التي يملكها البشر للوصول الى ما وراء الحاضر / ترجمة سامي خشبة . والكتاب يؤكد عودة الحياة الانسانية الى القوة الروحية والايمان بها وذلك لعجز المادية .

المفسرين القدامى . ونحن نتلقى النص القرآني لفهم التأريخ لابد ان نقرر أيضاً ان الاسلام لا يلغي المصادر الاخرى ولا سيما الكتب المقدسة التوراة والانجيل ولكن يتعامل معها بحذر وتمحيص ، ونحاول ان نستعين بهذه المصادر لتسليط الضوء على المداخلات التي تتلبس الحدث التاريخي الذي يعرضه القرآن الكريم ويغفل هذه المداخلات على ان تكون هذه المعلومات التي تضيفها هذه المصادر غير متعارضة مع جوهر الهدف القرآني وغير متقاطعة مع العقل والعلم . ولذلك فإننا لا نسلم بأن التوراة قد أخذت وتأثرت كلياً بالحضارات السابقة لتدوينها وتلقت معلوماتها منها إن القرآن الكريم أكد إن التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون وقد اعترف القرآن الكريم ضمناً بالكتب المقدسة التي سبقته وقد ذكر القرآن الكريم صحفاً غير التوراة والانجيل مثل ﴿ ان هذا لفي الصحف الاولى صحف إبراهيم وموسى ﴾ منذ عهد إبراهيم (عليه السلام) إذ ظهرت على سطح الارض مظاهر الحضارة والكتابة وأنزل الله صحفاً وكذلك قوله تعالى ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوة ﴾ و ﴿ آتينا داود زبورا ﴾ لقد شكلت هذه الكتب والصحف الاساس للانسانية في علاقاتها مع السماء من خلال الانبياء الذين أنزلت عليهم هذه الكتب . وكذلك نحن نقر بأن تفاعلاً قد حصل أثناء تدوين هذه الكتب مما جعل احتمالية التأثر بالحضارات المعاصرة لتدوين هذه الكتب ممكنة وبخاصة إن تدوين هذه الكتب قد حصل بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) الذي بلغها او بعد غيابه عن الارض بمئات السنين الامر الذي جعل عملية التدوين تخضع لأهواء شخصية وظروف خاصة لازمت عملية تدوين هذه الكتب . ولكن هذا لا يعني عندما تتحدث التوراة عن طوفان نوح او عن آدم وأيوب أو أي حادثة تاريخية يمكن ان يجدها في الرقم الطينية ، إن التوراة قد أخذت هذه المعلومات من البابليين أو الكنعانيين أو الفراعنة . ونحن ننظر الى القضية من اتجاه آخر إذ يؤكد لنا تطابق المعلومات بين الرقم الطينية والرواية التوراتية مع الرواية القرآنية بأن لهذه الحادثة أصلاً حقيقياً يتيح للباحث التمسك بتاريخ حقيقي يمثل جوهر الحدث وتترك التفاصيل التي تلبست رواية الرقم الطينية والتوراتية والتي افرزتها عقول البشر في عصر تدوين هذه النصوص ونلجأ الى النص القرآني لنأخذ منه التفاصيل ونتابع الرواية القرآنية ونستلهم منها تجربة من سبقنا من البشر . وبذلك يوضع التاريخ في الموقع الفعال والايجابي لخدمة حاضر الانسان ومستقبله من دون اللجوء الى الفرضيات والنظريات التي تتحدث عن إمكان اعادة التأريخ وقياسه بالعلوم الطبيعية والنظريات

المعارضة لها التي تؤكد استحالة تكرار الواقعة التاريخية وبين وتلك آراء وآراء[٢٤] ولابد أن نؤكد منهجية القرآن من خلال استعراضنا السابق للآراء ونثبت هذه المنهجية ضمن النقاط الآتية :

١ - ارتباط كل واقعة تاريخية يعرضها القرآن الكريم ارتباط وجود بالخالق الذي أوجدها ﴿ ما أصاب من مصيبةٍ في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبلِ ان نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكي لا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختالٍ فخور ﴾[٢٥] .

إن ربط الحدث بالمُحْدِث والوجود بالموجِد يعني أن كلَّ فعلٍ وحدث قد جاء متوافقاً مع إرادة الله حتى الفعل الذي يباشره الانسان فإن حقيقته مرتبطة بالله ﴿ وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى ﴾ وهذه العقيدة لا تعني سلب الانسان حريته وإرادته الخاصة ولكن وجود هذا الشعور يولد قلقاً في نفس الانسان قبل الحدث وهذا القلق يدفعه نحو مباشرة السبب واستجماع كامل الطاقة فيتولد الابداع وقد أبدع الدكتور عبدالعزيز الدوري في وصفه لأسباب ملاءمة المجتمع المكي للتغيير عند ظهور الاسلام حين قال : « ومن ناحية ثانية ظهرت بوادر قلق اجتماعي في بعض المجتمعات المستقرة مثل مكة نتيجة التحول من اقتصاد بدوي الى اقتصاد تجاري . وعرفت مكة بحكم مركزها وفعالياتها القلق والتنبه في آن واحد . وفي هذا الوعي القلق لا في جفاف الجزيرة كما ظن البعض تكمن بوادر الحيوية »[٢٦] وهذا القلق ليس القلق الذي تحدث عنه ديورانت وجعل زوال علامة على بداية الابداع فذاك قلق موضوعي ضمن إطار اليأس وهذا قلق مفتوح باتجاه آفاق التغيير والامل . فالقلق الذي يتولد عن الظلم لا يمكن أن يغير او يكون سبباً في التغيير اما القلق الذي يتولد في أجواء بعيدة عن الكبت والظلم وعلى أساس الوعي والبحث عن الحقيقة هو الذي يوصل الى نتائج ايجابية . وكذلك ان الشعور الذي يصاحب الحدث ويخلقه عندما يكون هذا الشعور الذي يخلف الحدث يمثل عقيدةً في نفس الانسان ، بأن ما حدث لم يكن تفاديه ممكناً عندها

---

(٢٤) انظر بوبر/ كارل/ بؤس التاريخية ترجمة سامر المطلبي .

(٢٥) سورة الحديد/ ٢٢ - ٢٣ .

(٢٦) الدوري/ د. عبدالعزيز/ مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي/ ص ١١ - ١٢ .

يتجاوز الانسان كل الآثار السلبية لهذا الحدث على ألا يستخدم هذا الشعور لتبرير المواقف السلبية في الحياة قبل حدوث الحدث . هذه عقيدة الايمان بالقضاء والقدر عند المسلمين تكمن في روح التاريخ .

٢ - ان حركة التاريخ في النصوص القرآنية تتبع حركة المجتمع وان التغيير الذي يضعه القرآن الكريم هدفاً للنبوات والأنبياء هو تغيير المجتمع وتحويله الى مجتمع ينسجم مع نبوة عصره ، ولذلك لم نجد في نصوص القرآن الكريم التي تعرضت لمحاولات الانبياء في التغيير أنها وضعت برنامجاً مباشراً لتغيير السلطة التي تعاصر النبي وإنما كان الحوار بين السلطة والنبي يقوم على أساس السماح للنبي بالعمل على إحداث التغيير من دون التعرض له . وقد أدركت مؤسسات السلطة التي واجهت الأنبياء خطورة هذا الاسلوب وان مآله في النهاية تغييرها وأزالتها من مراكزها التي كانت تحكم عليها بقبضة من حديد . فيبدأ الصراع . وقد شكلت الهجرة مع الجماعة المؤمنة أحد المعالم الاساسية لمسيرة الأنبياء وقد تابعنا الهجرة كحدث اكتسب أهمية في حياة الأنبياء وذكرنا إن الهجرة يمكن ملاحظتها في عصر آدم (عليه السلام) بالخروج من الجنة اذ مثلت الهجرة العكسية والغريب ان الهجرة كانت إحدى معالم الحياة الانسانية قبل نشوء الحضارات ومن المعلوم ان الهجرات التي خرجت من شبه الجزيرة باتجاه وادي الرافدين وأرض الشام من الوضوح بحيث لا تحتاج الى إعادة وتثبيت . وكانت الهجرة في عصر نوح (عليه السلام) تتمثل بالخروج مع المؤمنين على ظهر السفينة . أما في عصر إبراهيم (عليه السلام) فإن الهجرة قد تمثلت بأبعادها ومعالمها الواضحة ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده ﴾[٢٧] .

---

(٢٧) سورة الممتحنة / ٤ .

عصر إبراهيم (عليه السلام) :

تابعنا أحداث التاريخ منذ عصر آدم (عليه السلام) مروراً بعصر نوح (عليه السلام) ونتوقف الآن عند عصر إبراهيم (عليه السلام) ومن خلال هذه المتابعة تشكلت لدينا نظرة عن هذه المسيرة التاريخية لعل أهم ملامحها حدث تكرر مع هؤلاء الأنبياء هذا الحدث هو (الهجرة) وهذه الهجرة ليست هي نفسها التي تحدث عنها الذين تابعوا التاريخ القديم وتكلموا عن هجرات الاقوام من شبه الجزيرة العربية الى المناطق المجاورة (أراضي الهلال الخصيب) وأطلقوا عليها هجرات الاقوام السامية وتحدثوا عن جذور حضارات وادي الرافدين والنيل وأرض الكنعانيين والشام . وهذه الهجرة من نوع آخر يمكن أن نسميها الهجرة الدينية التي مثّلت وعبّرت عن سلوك ديني مرتبط بأمر السماء ويمكن ان نرصدها في عصر آدم (عليه السلام) من خلال خروجه من الجنة التي تحدثنا عنها وقلنا ان العلماء منهم اسلاميون ومنهم لاهوتيون أو مستشرقون هؤلاء جميعاً قالوا أن جنة آدم على الارض وحصروا مكانها في وادي الرافدين وهم على خلاف في تحديد دقيق لمكان جنة عدن (بين أعالي الفرات الى جنوب العراق عند التقاء دجلة والفرات) ومنهم من قال ان هذه الجنة هي دلمون التي تتحدث عنها الرقم الطينية ومكانها في البحرين وآخرون قالوا ان الخليج العربي في حقبة من الحقب كان منسحباً نحو الجنوب الغربي وكانت الاراضي التي يغمرها الماء الآن اراضٍ يابسة وكانت حدود العراق ممتدة الى البحرين .

وقال آخرون ان الخليج العربي كان متقدماً نحو الشمال ومدن العراق القديمة أور وغيرها كانت على سواحله . وهذا الخلاف لا يمكن حسمه لانه قائم على فرضيات وتوقعات لا تستند الى أدلة قوية .

وتحدثنا بأن آدم (عليه السلام) قد استقر في مكة بعد خروجه من الجنة وقد خرّجنا أحاديث نبوية تشير الى ان الله أمر آدم بأن يبني بيتاً لعبادة الله وهو مكة . ثم بعد آدم يمكننا رصد هذه الهجرة في عصر نوح من خلال مسيرة السفينة التي كان عليها نوح (عليه السلام) ومن آمن معه حيث وردت روايات اسلامية تقول ان نوح (عليه السلام) قد مات ودفن في مكة . وفي عصر إبراهيم شكلت رحلته الى مكة أحد المعالم المهمة في الرواية الاسلامية وان كانت هجرته الاولى من العراق باتجاه حران ثم فلسطين . وهذه الهجرة التي حدثت في حياة هؤلاء الانبياء هي التي

رجحت لدينا احتمال إن أصل أقوام هؤلاء الانبياء من العراق ثم هاجروا من وادي الرافدين الى شبه الجزيرة على وفق السياق والاسباب التي ذكرناها ثم كانت هذه الهجرة هي الاساس للهجرات الطبيعية التي حدثت فيما بعد . وخرجت المجموعة البشرية التي تكاثرت بعد الانبياء آدم ونوح خرجت مجموعات بشرية من شبه الجزيرة منتشرة حول أحواض الانهار في بلاد ما بين النهرين والشام وحوض النيل . وهذا الذي ذهبنا اليه يتفق مع ما ذهب اليه « فون كريمر » العالم الالماني حيث ذهب الى ان اقليم (بابل) هو موطن الساميين الاول . وذلك لوجود الفاظ عديدة لمسميات زراعية وحيوية (حياتية) أخرى تشترك فيها أكثر اللغات السامية المعروفة »[٢٨] وقد إتّبع (فون كريمر) في نظريته أسلوب دراسة المفردات اللغوية ومقارنتها ولا سيما أسماء الحيوانات . والنباتات . وقد قال بمثل قول كريمر هذا عالم آخر وهو (كودي) وكذلك : « (هومل) وهو من العلماء الالمان الحاذقين في الدراسات اللغوية . فقد ذهب الاول الى ان موطن الساميين هو شمال العراق ثم عاد فقرر ان اقليم بابل هو الوطن الاصل وذهب ايضاً الى ان قدماء المصريين هم فرع من فروع الشجرة التي أثمرت الثمرة السامية . وهم الذين نقلوا على رأيه الحضارة الى مصر نقلوها من البابليين »[٢٩] وقد وجهت انتقادات الى هذه النظرية منها ما ذكره نولدكه بأن بناء نظرية مهمة كهذه على نتائج مقارنة تشابه كلمات وإجراء موازنات بين الفاظ لم يثبت ثبوتاً قطعياً أن جميع الساميين أخذوها من العراق . يُعدُّ هذا العمل مجازفة ولا يخلو من الخطأ . وكذلك انتقدت هذه النظرية من خلال ان القول بهذه النظرية يستدعي تصور حدوث هجرات من أرض خصبة ذات مياه الى بواد مقفرة وأراض صحراوية جرداء وابدال حياة منعمة زراعية بحياة بدوية خشنة . ومثل هذا التصور يخالف المنطق والمعقول والنظم الاجتماعية »[٣٠] على أننا ذكرنا في بداية كلامنا ان الهجرة الاساسية التي أنتقل بموجبها الانبياء وأقوامهم من العراق الى جزيرة العرب انما كان استجابة لاسباب دينية وليس لحاجة بشرية طبيعية وكذلك الاختلافات اللغوية فان أصول الجماعات التي نتحدث عنها وإرجاعها الى الاصل السامي غير مسلّم به الا ان هذا المصطلح ايضاً واجه معارضة وإنتقادات كثيرة . وقد

---

(٢٨) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / جـ١ ص ٢٢٩ .

(٢٩) المصدر السابق نفسه ص ٢٣١ .

(٣٠) المصدر السابق نفسه .

تراجع الاستاذ جواد علي وتخلى عن فكرته في اطلاق مصطلح عربي على (الاقوام السامية) وقال : « لم أقصد ولن أقصد أن تلك الشعوب هي قبائل عربية مثل الشعوب والقبائل العربية المعروفة . فالسامية وحدة ثقافية أصطلح عليها اصطلاحاً والعروبة وحدة ثقافية وجنسية وروابط دموية ، وبين المفهومين فرق كبير »[٣١] وقد ذهب الدكتور محمد عزة دروزة الى جعل الساميين عرباً وعدّ القدماء منهم في دور العروبة غير الصريحة ثم انتقلوا الى دور العروبة الصريحة حيث اكد انتماء النازحين الى العراق منذ آلاف السنين الى الجنس « العربي دون الاسم الحديث (الساميين) ، لانهم اشتركوا مع اشقائهم الذين بقوا في جزيرة العرب وتطورت عروبتهم غير الصريحة الى العروبة الصريحة »[٣٢] . غير ان الرواية الاسلامية تخالف ما ذهب اليه هؤلاء في الاسلوب والنتيجة فقد ذكر حديث نبوي شريف من حديث ابي ذر وهو حديث طويل يرويه ابن حيان في صحيحه ذكر فيه الانبياء والمرسلين قال فيه « منهم أربعة من العرب : هود ، وصالح وشعيب ونبيك يا ابا ذر »[٣٣] وقد استبعدت هذه الرواية إبراهيم وإسماعيل وأنبياء بني اسرائيل بمعنى آخر حصرت العروبة في أرض جزيرة العرب والغت اعتبار السامية من العربية . وهذا أمر طبيعي وتحديد يتسم بالواقعية والعلمية لأن اعتماد الجنس وانحدار هذه الشعوب من أب واحد هو سام بن نوح إغراق في الخيال وسعيٌ وراء وهم سيطر عل عقول كثير من الباحثين أوجده اليهود وفي حديث نبوي استوعب العروبة وأعطاها معنى إنساني وأبعدها عن المعنى العرقي العصبي . ففي الحديث : « من تكلم العربية فهو عربي » وبذلك تحولت العروبة الى حالة تكتسب بالتفاعل والتعايش وقد أكدنا فيما سبق ان اللغة هي ارقى حالات التفاعل وأقوى وسيلة لنقل المعلومات واكتساب الخبرات ولذلك أكدت بعض المرويات هذه الحقيقة « انما العربية اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي » . وقد حاول بعض الباحثين أن يجد بديلًا لهذه المصطلحات وقد أدرك ضعف الآراء السابقة وافتقارها الى أدلة قوية تحسم القضية فأطلق مصطلح « الجزريين » وهم الاقوام الذين كانت جزيرة العرب موطنهم الاول وهاجروا منها الى الهلال

---

(٣١) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب / جـ١ ص ٨ .

(٣٢) دروزة / محمد عزة / تاريخ موجات الجنس العربي ودولتها ومآثرها في العراق قبل العروبة الصريحة / جـ٢ ص ٦ .

(٣٣) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٤ .

الخصيب ووادي الرافدين[٣٤] .

ولكنا نعود الى تحديد جزيرة العرب التي تحددت حسب الرواية الاسلامية بانها مهد العروبة وأصلها . نسأل أين موقع الاقوام الذين خرجوا من الجزيرة في عهد سابق للعروبة الصريحة ؟ ونحن نعلم ان الاسلاميين يقسمون العرب الى قسمين : الأول « العرب العاربة ويضمنهم العرب البائدة والثاني العرب المستعربة وهم من ولد إسماعيل بن إبراهيم وكان إسماعيل (عليه السلام) أول من تكلم بالعربية الفصيحة البليغة وكان قد أخذ كلام العرب من جرهم الذين نزلوا عند أمه هاجر بالحرم »[٣٥] فالعروبة حالة ممتدة حية مكتسبة لا تتوقف عند عرق أو جنس وقد ارتبطت بالدين الذي ارتضاه الله للبشر وأرسل انبياءه ارتباطاً عميقاً منذ الخطوات الاولى لتاريخ الانسان الواعي على الارض .

وقد ذكر ابن كثير « ويقال ان هود (عليه السلام) اول من تكلم بالعربية وزعم وهب ابن منبه ان أباه أول من تكلم بها . وقال غيره : أول من تكلم بها نوح ، وقيل آدم وهو الاشبه »[٣٦] يعني (وهو الاشبه) الاقرب الى القبول . لقد أطلق القرآن الكريم تسمية تختلف عن التسميات السابقة على الامة التي كانت تتفاعل مع الرسالات هذه الامة هي (الامة الاسلامية) . منذ عصر إبراهيم (عليه السلام) تبلورت هذه الامة وهُيّأت لاستقبال رسالة النبي محمد (ﷺ) . وقد دخل هذه الامة كلُّ الدماء التي كانت تشكل الشعوب التي كانت تعيش على هذه الارض (جزيرة العرب والهلال الخصيب ووادي النيل) وقد حددت نصوص القرآن الكريم هذه الحقيقة في آيات عديدة منها قوله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين أتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾[٣٧] وفي جزء من من آية في سورة الحج ﴿ ملة أبيكم إبراهيم * هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على

---

(٣٤) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٠ ـ ٦٠ حيث يذكر ان د. طه باقر ود. سامي سعيد الأحمد يؤيدون اطلاق هذه التسمية كبديل عن الساميين .

(٣٥) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص / ٩٥ ويجعلهم البعض ثلاثة اقسام (١) العرب البائدة (٢) العرب العاربة . وكلاهما من طبقة واحدة . (٣) العرب المستعربة ـ

(٣٦) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / م . س / ص ٩٤ .

(٣٧) سورة آل عمران / ٦٧ ـ ٦٨ .

الناس ﴾[٣٨] إن الذين يحاولون تفسير ظهور الحضارات في وادي الرافدين على أساس السامية يبنون استنتاجاتهم على أساس إلغاء الدين ودور الأنبياء كما يقول الدكتور ويلفنسون في كتابه تاريخ اللغات السامية : « اقدم هجرة سامية اتجهت نحو بابل كانت من ناحية الجزيرة وقد أسست تلك الجموع ملكاً عظيماً في بقعة الفرات كان لها من الحول والطول حظ وافر في عصور شتى »[٣٩] وكذلك ينقل لنا احمد سوسة قول ديورانت « ان مهد الجنس السامي ومرباه جزيرة العرب حيث ينمو الانسان شديداً عنيفاً . تدفقت موجة اثر موجة في الهجرات متتابعة من خلائق أقوياء شديدي البأس لا يهابون الردى بعد ان وجدو الصحراء والواحات لا تكفيهم فكان لابد ان يفتحوا بسواعدهم مكاناً خصباً يعولهم ويقوم بإيوائهم . وأما من بقي في بلادهم فقد اوجدوا حضارة العرب البدو وأنشأوا الاسرة الابوية »[٤٠] .

وهذه التفسيرات كلها تستبعد الدين والأنبياء والروح الذي كان يسري في الامة التي تستجيب للرسالة . ثم يخلص الدكتور سوسة الى القول « وتأييداً لهذه النظرية يقول الدكاترة جين وجرجي ـ وجبور « ان معظم العلماء اليوم يؤيدون النظرية القائلة ان بلاد العرب هي مهد الجنس النسامي »[٤١] . ونحن نؤكد ما أكده القرآن الكريم بأنه لا سامية وان الذين يتابعون السامية انما يتابعون وهماً . ونؤكد كذلك ان العراق كان مهد الامة التي تفاعلت مع الرسالات وعلى أرضه التي أنشئت الامة الاولى التي انجبت الأنبياء (نوح أبو البشرية الثاني وإبراهيم أبو الأنبياء) فان العمران وتطور الحياة لم يأت نتيجة انبثاق من فراغ ولكن ارتباط الانسان بالوحي والرسالات وضع هذا الانسان على خطا التطور البشري بمجالاته المادية والروحية . وإذا كان اليهود يعلمون ناشئتهم ثقافة ينشرونها بين الناس عن تاريخهم المزيف الذي يقولون عنه ان الشعب اليهودي نزح الى فلسطين من بلاد الرافدين في حدود الالف الرابعة قبل الميلاد بقيادة إبراهيم الخليل ولم يكن عددهم آنذاك يتجاوز اربعة آلاف شخص »[٤٢] فنحن لابد ان نعلّم الناس ما أكده القرآن والتاريخ والحق بأن الامة

---

(٣٨) سورة الحج / ٧٨ .

(٣٩) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ .

(٤٠) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ .

(٤١) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٦٠ .

(٤٢) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٩٤ هذا الكلام عن سولوف في

←

المسلمة هاجرت من العراق الى فلسطين وجزيرة العرب لكي تهيء الطريق امام الانبثاقة الكبرى للامة الاسلامية العربية من جزيرة العرب بقيادة النبي محمد (ﷺ) . واذا كان اليهود يصرحون ويبثون العقيدة التي نسميها خيط العنكبوت التي تجعل السامية تعني اليهودية وتعني الشعب الذي اختاره الله ويحبه وأعطاه وعده . حتى زيفوا التأريخ وحرّفوا الكتب السماوية وافتعلوا الاحداث لنصرة عقيدتهم وادعوا « ان تاريخهم في فلسطين يرجع الى خمسة آلاف عام وان العرب لم يدخلوها الا بعد الفتح الاسلامي ويقول العقاد عن هذا الموضوع « ومن أقوال اليهود أن العرب فتحوا فلسطين بعد قيام الدعوة الاسلامية فأنهم لم يكن لهم وجود فيها قبل النبي محمد (ﷺ) وقد نجح دعاة الصهيونية في الترويج لهذه الخرافة حتى صدقها الكثيرون من الاوربيين والامريكان . بل نجحوا فيها حتى صدقهم أناس من العرب ايضاً فسمعنا من يقول منهم أن شأن اليهود في فلسطين كشأن الهنود الحمر في القارة الامريكية »[٤٣] . فاذا كان اليهود قد غيروا قناعات العالم بتبنيهم عقيدة مزيفة فلماذا لا نعلن العقيدة التي جاء بها القرآن التي تؤكد ان (الحنفية الابراهيمية تعني العربية) ؟ وهذه الامة العربية شكلت نواة الامة الاسلامية امة حية لا عصبية فيها وانما تضع القومية في مفهومها العالمي الانساني وبذلك نتجاوز إشكاليات المجتمع السومري والحضارة الفرعونية والمجموعة الفلستينية التي هاجرت الى أرض الكنعانيين وكل الاقوام التي لم تكن دماؤها عربية الجذور وانما تفاعلت مع الرسالات واكتسبت وتعلمت من النبوات كل المفاهيم الحضارية والتشريعات التي تنظم المجتمع الانساني والتي تؤكد وحدة الانسانية . وهذا المفهوم الذي تفاعل مع ارض العرب وكان العرب القدماء الذين انقرضوا وسمّاهم العلماء العرب العارية هؤلاء كانوا الامة الاولى التي كانت تتفاعل مع الرسالات ومن قبل هؤلاء (العرب العاربة وهم عاد وثمود وجرهم وطسم وجديس وأميم ومدين وعملاق وجاسم وقحطان وبنو يقطن وغيرهم »[٤٤] كان قبلهم أقوام كانت هذه القبائل جزءاً منهم أو بعدهم ومن المحتمل

← كتابه (كيف نما شعب اليهود) .

Mrodccai. I. Soloff «How the Jewish peoole grew up. ?».

(٤٣) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٢٥٨ ينقل عن كتاب العقاد (الصهيونية وقصة فلسطين) / ص١٢٣ .

(٤٤) ابن كثير / ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ٩٥ .

أن يكون هؤلاء هم أنفسهم الذين شكلوا الهجرات من الجزيرة الى الهلال الخصيب ويسميهم العلماء المسلمون بأسماء الانساب إذ أن كل قبيلة تنتسب الى جدها الاعلى ولكن من تتابع مسيرة الأنبياء ومن خلال متابعتنا لهذه المسيرة تبلورت لدينا بعض الافكار التي يمكن ان تشكل فهماً جديداً للتاريخ من خلال النصوص القرآنية . فان القرآن الكريم بعد الطوفان يتوقف عن المتابعة للمجموعة المؤمنة وكيف قضت حياتها ولكن ينقلنا النص القرآني الى مساحة جديدة يسلط الضوء من خلالها علي نبي ارسله الله الى قومه بعد نوح (عليه السلام) هذه الجماعة (قوم هود عليه السلام) ويسكت القرآن عن وادي الرافدين وعن المجتمعات التي تجمعت على أرضه بعد الطوفان . ولكن النص القرآني ينقلنا الى الاحقاف . « وهي جبال الرمل . وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مطلة على البحر يقال لها الشحر وأسم واديهم (مغيث) »[٤٥] وقد حدثنا القرآن الكريم أن الله قد بعث هوداً (عليه السلام) بعد نوح ونكّر هود قومه بقوم نوح ﴿ وإذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ﴾[٤٦] .

ان تنكير هود لقومه بقوم نوح يرجح ان الطوفان لم يكن شاملًا لكل الارض اذ لا يعقل ان يكون قوم هود هم قوم نوح (عليه السلام) بدليل ان هود (عليه السلام) نكّرهم بأنهم قد جعلوا خلفاء من بعد قوم نوح ولم يقل لهم بأنهم من نرية أتباع نوح الناجين من الطوفان . والخلفاء تعني أنهم جاءوا بعدهم وهم غيرهم ويدل نلك ايضاً انتقال خبر الطوفان وما حل بقوم نوح الى الاقوام الآخرين ويمكن ان الناجين من قوم نوح نقلوا ما حل بقومهم الى الاقوام الاخرى . ولو كان قوم هود من نرية قوم نوح لكان الخطاب اليهم كما كان خطاب مؤمن آل فرعون الى قومه عندما بعث الله موسى (عليه السلام) فأراد ان يذكّرهم مؤمن آل فرعون بيوسف الذي كان يعيش معهم كما نكر نلك تعالى في قوله ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كنلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾[٤٧] والخطاب هنا لنريتهم الذين جاءوا بعد موت يوسف بمئات السنين ومثل هذا في القرآن وارد كما في قوله تعالى مخاطباً بني اسرائيل في

---

(٤٥) ابن كثير / ابو الفداء / م . س / ص ٦٤ .

(٤٦) سورة الاعراف / ٦٩ .

(٤٧) سورة غافر / ٣٤ .

زمن النبي محمد (ﷺ) ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾[48] . فعندما بعث الله موسى في القوم انفسهم الذين بعث فيهم يوسف من قبل . خاطبهم برسالته وذكّرهم بآثره (أي يوسف عليه السلام) ولما لم يذكّرهم هود بنوح (عليه السلام) دل على ان الارتباط لم يكن ارتباط ذرية حقيقة وانما ارتباط معنوي وارتباط كرامة وتحفيز لهم لكي يكونوا كالذين نجو مع نوح ويحقق تواصلاً من خلال ارتباط التذكير هذا وكذلك عيسى بن مريم لما بعثه الله الى بني اسرائيل ذكّرهم بموسى ورسالته ولم يقل لهم اذكروا إذ جعلناكم خلفاء من بعد قوم موسى . وانما قال لهم ﴿ إني رسول الله اليكم مصدقاً لما بين يديّ من التوراة ﴾[49] فكان الله سبحانه وتعالى يختار الرسل وفق حكمه وقد يسلط القرآن الكريم الضوء على رسالة نبي او رسول ويكون هناك من يعاصره من نبي آخر بعثه الله تعالى الى قومه ولكن القرآن الكريم لم يتحدث عنه وقد يتحدث القرآن الكريم عن الرسول (ﷺ) وعن معاصرة النبي كما تحدث عن إبراهيم وعن لوط (عليهم السلام) . وكذلك عن عيسى ويحيى (عليهم السلام) . وبعد ان سلط القرآن الكريم الضوء على هود وقومه ينقلنا الى مكان آخر ويسلط الضوء عليه . ويحدثنا عن نبي بعثه الله الى قومه في جزيرة العرب ايضاً ذلك هو صالح (عليه السلام) الذي بعثه الله تعالى الى ثمود وكانوا « يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك وقد مر به رسول الله (ﷺ) وهو ذاهب الى تبوك بمن معه من المسلمين »[50] وقد ذكّر هم نبيهم بقوم عاد فقال لهم ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين ﴾[51] وهذه الخلافة التي يتحدث عنها القرآن والتي ذكّر بها الانبياء هود وصالح وقومهما انما هي خلافة التمكين والنعمة وهذه القضية تربطنا بالمفهوم الذي ذكرناه بأن التقدم الحضاري والعمراني كان بسبب تفاعل المجتمعات مع الأنبياء والنبوات . إذ إن

---

(٤٨) سورة البقرة / ٥٠ قال السيوطي : «العرب تخاطب بمثل هذه وتعني الجد الاعلى والاب الابعد » انظر جلال الدين السيوطي ت ٩١١ هـ / الاكليل في استنباط التنزيل / ص ٢٩ .

(٤٩) سورة الصف/ ٦ .

(٥٠) ابن كثير/ ابو الفداء / قصص الانبياء / ص ١١٢ .

(٥١) سورة الاعراف / ٧٤ .

هؤلاء الأنبياء دعوا اقوامهم الى مباشرة الاسباب للارتقاء نحو الامن والاستقرار ولو تابعنا الاقوام الذين ارتبطوا مع الأنبياء بدءاً من قوم نوح حيث المجتمع الزراعي ومروراً بقوم هود حيث كانوا يعيشون في الخيام ذوات الاعمدة الضخام ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد ﴾[٥٢] »[٥٣] . وقد أكد القرآن الكريم إن الله ينشىء أقواماً أخرى بعد القوم الذين يهلكهم كما قال تعالى عن قوم هود بعد ذكر قوم نوح في سورة (المؤمنون) : ﴿ ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين فأرسلنا فيهم رسولاً منهم أن أعبدوا ا ما لكم من اله غيره أفلا تتقون ﴾[٥٤] وكانوا يتخذون المصانع وهي البروج والبناء العالي وقال قتادة هي مآخذ الماء »[٥٥] .

أما ثمود فقد وصف القرآن الكريم معيشتهافي معرض تذكير صالح (عليه السلام) لهم في قوله تعالى : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً ﴾[٥٦] . والملاحظ ان هود وصالح ذكرا العيون ضمن البيئة التي كانت تعيشها أقوامهم ونجد ان نوح (عليه السلام) ذكر الانهار لانه كان قريباً منها في وادي الرافدين . فقال نوح ﴿ ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا ﴾[٥٧] وقال هود : ﴿ واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون * أمدّكم بأنعام وبنين وجنات وعيون ﴾[٥٨] . وقال صالح : ﴿ أتتركون في ما ها هنا آمنين * في جنات وعيون * وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾[٥٩] فدلّ على ان الجزيرة لم تكن فيها انهار وانما عيون ووديان وجبال . ودلّت النصوص التي تعرضت لنوح وهود وصالح عليهم صلوات الله . بأن المجتمعات البشرية كانت تتطور مادياً وفكرياً وان الانحراف كان يصيب المجتمعات فتتعرض للهلاك وان

---

(٥٢) سورة الفجر / ٦ - ٧ .

(٥٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٩٤ . وقد تكون اعمدة البناء وليست اعمدة خيام لانه تعالى ذكر في موضع آخر حكاية عن نبيهم « وتبنون بكل ريع آية تعبثون » الشعراء/ ١٢٩ .

(٥٤) سورة المؤمنون/ ٣١ - ٣٢ .

(٥٥) ابن كثير/ ابو الفداء/ تفسير القرآن الكريم / جـ٣ ص ٢٤١ .

(٥٦) سورة الاعراف / ٧٤ .

(٥٧) سورة نوح / ١٢ .

(٥٨) سورة الشعراء / ١٣٢ - ١٣٣ .

(٥٩) سورة الشعراء / ١٤٦ - ١٤٩ .

الناجين من المجتمعات التي تتعرض للعقوبة كانت تتواصل في نشاطها وترتبط مع المجتمعات الاخرى وتنقل خبراتها الى المجتمعات اللاحقة ويفهم ضمناً بأن الاقوام الذين كانوا يبلغون الرسالة كان يعيش معهم على الارض أقوام آخرون ولكن يبدو ايضاً ان القوم الذين يبعث اليهم النبي يكونون على مستوى من الرقي والاستعداد أكثر من الاقوام الاخرى فيكون اختيارهم لحكمة يعلمها الله بانهم يملكون الاستعداد للتفاعل مع الرسالة ويوجد فيهم من الذين يعلمهم الله بعلمه الغيب من يملك الاستعداد لتحمل المسؤولية اتباع النبي والمضي في طريق دعوة الحق حتى النهاية . لكي تبقى هذه المجموعة الشاهد على الرسالة وعلى المجتمعات الاخرى التي كانت تراقب ما يحدث لقوم النبي . فتتواصل مسيرة الأنبياء على الارض من خلال المجموعات المؤمنة .

وعن أخبار عاد وثمود في الدراسات التاريخية الحديثة ومناهج الآثاريين ومقارنة أخبار التوراة مع الحفريات نجد إشارات مقتضبة عن هاتين القريتين « وقد شك كثير من المستشرقين في حقيقة وجود أكثر الاقوام المؤلفة لهذه الطبقة (يعني العرب البائدة) فعدها بعضهم من الاقوام الخرافية التي ابتدعتها مخيلة الرواة . وقد اتضح الآن ان في هذه الاحكام شيئاً من التسرع . اذ تمكن العلماء من العثور على أسماء بعض هذه الاقوام . ومن حل رموز بعض الكتابات اليهودية »[٦٠] . وسبق أن أشرنا الى رواية الطبري عن انكار اليهود لوجود عاد وثمود (وهود وصالح الانبياء) . الا ان الحفريات أكدت الرواية القرآنية ولكن تحديد عصر عاد وثمود ومكانهما حصل فيه اختلافات كثيرة بين علماء الآثار الذين كانوا يقارنون الكتابات الثمودية ونحن نعلم من خلال منهجية عرض القرآن لاخبار الاقوام ان قوم نوح كان ذكرهم يأتي ابتداءً مما يؤكد ان عصر نوح اقدم العصور بالنسبة للرسل وجاء بعده هود ثم جاء بعد هود صالح . ونحن نخالف الدكتور جواد علي الذي جعل « بعض هذه الاقوام أو أكثرها قد شاعوا بعد المسيح (عليه السلام) ولم يكونوا ممعنين في القدم على نحو ما تصور الرواة »[٦١] ومما دفعه الى هذا الاعتقاد هو انكار التوراة لهم فكان هذا السبب في رأيه « لأن هذه الاقوام متأخرة عاشت بعد الانتهاء من تدوين التوراة »[٦٢] ولكنه يذكر

---

(٦٠) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب / ص ٢٩٨ .
(٦١) علي / د. جواد / م . س / ص ٢٩٩ .
(٦٢) علي / د. جواد / م . س / ص ٣٠٠ .

رأياً لبعض أهل الاخبار (ينقل هذا الرأي عن جرجي زيدان عن الهلال) . وهذا الرأي يؤكد ان التوراة فيها إشارة الى عاد وهي (هدورام)[٦٣] وقد ورد ذكر عاد في القرآن الكريم ﴿ إرمَ ذات العماد ﴾ وتذكرها المصادر العربية بـ (عادارم) و (هادارم) قريبة من (عادارم) . وإذا كان ذكر بعض الآثار لهذه الاقوام في كتابات يرجع تاريخها الى عصور متاخرة قبل الاسلام بقليل وبعد المسيح . جعل الدكتور جواد علي يذهب الى الاعتقاد بتأخر عصورهم . فكيف نفسر وجود أصنام قوم نوح في الجزيرة وبقاءها الى قبل الاسلام ؟ بل ان الدكتور جواد علي ينقل عن فلهاوزن ترجمة لكتابات ثمودية تذكر ان اسم صنم من أصنام ثمود ورد في كتاباتهم هو الصنم (ود) . وهو من الآلهة القديمة عند العرب »[٦٤] فان بقاء بعض التأثيرات لقرى قديمة امر وارد . فلا يستبعد ان يذكر عاد وثمود في الكتابات الثمودية التي فسرت على انها وجدت في عصور متأخرة من الممكن أن يكون انعكاس لآثار هذه القرى في ذاكرة القبائل القريبة ولا سيما اذا علمنا ان الاسلاميين من المفسرين واخباريين قد قسموا عاداً الى طبقتين . عاد الاولى ، وعاد الثانية ، استناداً الى آية في القرآن الكريم ﴿ وأنه أهلك عاداً الاولى وثمود فما أبقى ﴾[٦٥] وقد فسر جرجي زيدان إشارة التوراة الى ان (هدورام) من نسل قحطان . (وهذا التفسير للنسل لا يستقيم مع الروايات) بقوله « ولعل كاتب سفر الخليقة رأى مقر تلك القبيلة في بلاد اليمن . فقال أنها من نسل قحطان ، لان مقام عاد في الاحقاف بين حضرموت واليمن . وكثيراً ما التبس علماء التوراة في هدورام أو هادارام ومقر نسله ولم يهتدوا الى شيء عنه مع انهم اهتدوا الى اماكن أكثر أبناء قحطان وكلها بجوار الاحقاف . فعاد هي هدورام في التوراة وأما ان يكون كاتب سفر الخليقة اراد تبيان القبائل التي سكنت اليمن وكلها ينتسب الى قحطان فرأى عادارم في جملتها فجعله من اولاد قحطان وأما أن يكون بالحقيقة من نسل قحطان وهم العرب في نسبة الى آرام »[٦٦] أما بالنسبة لثمود فقد ذكرنا ان القرآن الكريم قد حدد تتابع عصرهم بعد عصر عاد أما

---

(٦٣) التكوين / الاصحاح العاشر / الاية أخبار الايام الاولى .

(٦٤) علي / د. جواد / م . س / ص ٣٣١ .

(٦٥) سورة النجم / ٥٠ .

(٦٦) علي / د. جواد / م . س / ص ٣٠٠ ينقل عن جرجي زيدان / الهلال الجزء الثالث والعشرون / السنة السادسة ١٨٩٠ م ص ٨٩٠ .

ما ذكره الدكتور جواد علي من تقديم وتأخير في ذكر (عاد وثمود واصحاب الرس)[٦٧] في معرض حديث القرآن عن هذه الاقوام فلا يعني شيئاً بالنسبة للتاريخ ، لان الآيات القرآنية صريحة في ترتيب عصورهم فقد ذكر هود لقومه ان الله جعلهم خلفاء من بعد قوم نوح وذكر صالح قومه بأن الله جعلهم خلفاء من بعد قوم هود . وقد استشهدنا بالآيات سابقاً . وان الله سبحانه وتعالى عندما كان يقص علينا أنباء هؤلاء الانبياء وأقوامهم لم يكن هذا يعني بأن البشرية تمثلت في هذه المجموعة من البشر وقد أكدنا هذه الحقيقة وهي واضحة ضمن منهجية القرآن لكل متأمل ومتابع فان من آمن مع نوح كانوا قلة فكيف يتصور ان البشرية بعد كل عقوبة ذكرها القرآن قد فنيت ثم تستعيد نشاطها من خلال القلة الباقية فهذا غير معقول وكذلك عندما حدثنا القرآن الكريم عن عقوبات الاقوام الاخرى وضح النص أن الإهلاك كان تاماً وشاملاً ولم يذكر اتباع الانبياء ونجاتهم كما في قوله تعالى ﴿ وأنه أهلك عاداً الاولى وثمود فما أبقى ﴾[٦٨] . فان هذه النصوص القرآنية تؤكد ان القرآن الكريم كان يعرض للقارىء حالة محدودة ويسكت عن النشاط البشري على الارض وإن هذا العرض لا يستلزم أن يكون كل مجموعة هي بقية الناجين من القوم الهالكين وإنه لا يوجد على الارض غيرهم فهذا تصور محدود يضيق المعاني التي يحويها النص القرآني . فقد بعث الله نوحاً في العراق وأعقبه بهود في اليمن وأعقبهم صالحاً في المدائن شمالي الجزيرة . فلا يشترط ان تكون هناك رابطة اجتماعية بين الانبياء في دعوتهم . فكما بعث الله عيسى في بني اسرائيل بعث الله تعالى النبي محمداً صلى الله عليه وسلم وعليهم جميعاً في العرب . وإن فكرة ارتباط الانبياء اجتماعياً او عرقياً واختصاصهم بقوم معينين فكرة يهودية حاولت ان تحصر الانبياء في بني اسرائيل فلما بُعث النبي محمد (ﷺ) الى العرب كفر اليهود وأنكروا بعثه وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾[٦٩] . لذلك كان الله يبعث الانبياء من أقوامهم وكان هؤلاء الانبياء كثير وما قصه علينا القرآن قليل فكانت المجتمعات البشرية فيها انبياؤها فما من أمة الا وفيها نبي يعلّمها الخير وينذرها سوء العاقبة . فعندما ننتقل الى ثمود فان

---

(٦٧) علي / د. جواد / م . س / جـ١ ص ٣٢٢ .

(٦٨) سورة النجم / ٥٠ وما بعدها .

(٦٩) سورة البقرة / ٨٩.

هذا لا يعني ان البشرية كانت ثمود فقط وانما انتقل القرآن الكريم ليتابع ويعرض لقارئه أهم نبوة وأعظمها في العصر الذي يتحدث عنه القرآن . اذ من غير المعقول ان يترك القرآن الكريم نبوة او رسالة اعظم ويتحدث عن التي أقل شأناً منها . ونعود الى متابعة ما ذكره المستشرقون عن ثمود : فقد وجدوا اسم ثمود في النصوص الاشورية : وجدوه في نص من نصوص (سرجون الثاني) مع أسماء شعوب أخرى . وقد دعوا بـ (Tamudi) و (Thamudi)[٧٠]. وكما ذكرنا فان ذكر ثمود في عصر سرجون الثاني لا يشترط ان يكون عصرهم أو معاصرتهم لسرجون الثاني . فان هؤلاء الذين ورد ذكرهم بأنهم حاربوا سرجون الثاني قد يكون من نسل قبيلة اسمها ثمود وهم حتماً غير ثمود الاولى المذكورة في القرآن الكريم وقد أكد هذا د. جواد علي بقوله : « ولم يكن اولئك الثموديون الذين حاربوه من أبناء الساعة . بل لا بد ان يكون لهم أسلاف عاشوا قبلهم بعد قرون »[٧١] .

المهم نحن تأكدنا من وجود اسم لقبيلة ثمود ولا تلزمنا تحليلات المستشرقين لان القرآن الكريم قد أغنانا . وكفى بكتاب الله مصدراً .

وقد ذكر الدكتور جواد علي نهاية ثمود وقد أخذها من المستشرق (برو Brau) حيث يرى « أن ثموداً أصيبوا بكارثة عظيمة من ثوران البراكين أو هزات أرضية بدليل ورود كلمة (رجفة) وكلمة (صيحة) في القرآن الكريم وذلك محتمل جداً لان البقاع التي كانوا يقطنونها هي من مناطق الحرارة »[٧٢] وهذه القضية أود أن أقف عندها فان علماءنا تابعوا تحليلات المستشرقين وهذا امر مؤسف ، لان المستشرقين لا يمكن ان يفهوا تاريخنا كما نفهمه نحن ولو أرادوا أن يفسروا لنا وقائع التاريخ فانهم يفسرونها بعقلية غريبة عن تاريخنا وعقيدتنا حتى ولو كانوا صادقين او منصفين . فان قضية العقوبات التي حلّت بالاقوام التي عارضت الانبياء خاضعة لمفهوم ديني عقائدي وقد تحدثت عن هذا المفهوم عند التعرض للطوفان . وان ربط العقوبة وتفسيرها بموجب جيولوجية أو تحليلات خاضعة للعلم المادي يفقدها التأثير الذي أراده الله لكي تتأمل الاقوام والشعوب التي تأتي بعد الهالكين بالعقوبات فتعتبر وتتجنب المصير الذي أحاط باولئك المكذبين ، لذا سنحاول أن نعمق هذا الشعور من

---

(٧٠) علي / د. جواد / مفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / جـ١ ص ٣٢٤ .

(٧١) علي / د. جواد / م . س / ص ٣٢٦ .

(٧٢) علي / د. جواد / م . س / جـ١ ص ٣٣٢ .

خلال دراسة آثار وخرائب القرى الهالكة وشيء عظيم أن يتوصل علماء الآثار والجيولوجي الى تطابق في المعلومات عن مصير هذه القرى بين نتائج الدراسات والرواية القرآنية . ويذكر د. جواد علي كذلك قرى لوط التي كان مصيرها يشبه مصير عاد وثمود . وهي قرى « سدوم وعمورة وبقية مدن الدائرة في عمق السديم التي تقع ـ على رأي كثير من علماء التوراة ـ في جنوب البحر الميت فقد لاقت هذه المدن وهي خمسة على سهل (دائرة الاردن) المصير الذي لقيه قوم عاد وثمود »(٧٣) . وقبل الانتقال من جزيرة العرب ونبواتها لابد ان نذكر رواية اوردها الدكتور جواد علي عن الازرقي يقول فيها : « زعم الاخباريون ان هوداً (عليه السلام) اعتزل قومه بعد يأسه من قبول دعوته وانه ذهب مع من آمن به الى مكة . فقد ذهبوا الى ان عاش فيها أمداً ثم مات هناك فقبره بمكة مع قبور ثمانية وتسعين نبياً من الانبياء »(٧٤) وهذا الخبر يؤكد لنا أن مكة كانت المكان الآمن ونقطة العودة بالنسبة للانبياء بعد انتهاء مهمة النبي(٧٥) . وهذا يتفق مع أهميتها كمركز ورمز للتوحيد الذي جاء به الانبياء جميعاً . وبعد هود وصالح يتوقف القرآن عن متابعة النبوات في جزيرة العرب وينقلنا الى مكان استعاد دوره وتركزت فيه الحركة والنشاط البشري حيث بدا واضحاً ظهور دولة المدن وبدأ التاريخ دورته الفعلية حيث مظاهر العمران والحضارة والكتابة ومفاهيم متطورة عن تنظيم المجتمع والدولة والعلاقات المختلفة لأوجه نشاط الانسان على الارض . ذلك المكان كان وادي الرافدين والعصر عصر إبراهيم (عليه السلام) . حيث شكلت الهجرات عاملاً مهماً في عوامل بناء مظاهر ذلك العصر . وهذه الهجرات هي هجرات متعاقبة خرجت من الجزيرة باتجاه الهلال الخصيب واستمرت هذه الحركة آلاف السنين في عملية تفاعل بين شعوب المنطقة . وكان العصر الذي سبق عصر الاستقرار والمدن عصراً مطبوعاً بطابع الهجرة وممتلئاً

---

(٧٣) علي / د. جواد / م . س / جـ١ ص ٣٣٢ .

(٧٤) علي / د. جواد / م . س / جـ١ ص ٣١٣ باخذها من الازرقي / اخبار مكة / جـ١ / ٣٠ وما بعدها طبعة باريس .

(٧٥) في رواية عن النبي محمد (ﷺ) انه قال : ما من نبي هرب من قومه الا هرب الى الكعبة يعبد الله فيها حتى يموت . وقال (ﷺ) ان قبر هود وشعيب وصالح فيما بين زمزم والمقام وان الكعبة قبر ثلثمائة نبي وما بين الركن الثاني الى الركن الاسود قبر سبعين نبياً » . انظر حول هذه الروايات : الهمذاني / ابو بكر احمد بن ابراهيم المعروف بإبن الفقيه / مختصر كتاب البلدان / ص ١٧ .

بالحركة وهو المفهوم الذي عرضه ابن خلدون في رسمه لمعالم تكوين الحضارات والدول فقد جعل البداوة والحركة قبل تكوين الدولة والاستقرار . وكانت هذه الهجرات نواة لتشكيل المجتمعات الحضرية المتطورة التي استقرت في الحواضر والمدن التي نشأت في الهلال الخصيب والنيل . والمعروف عن الاقوام التي بقيت في جزيرة العرب كانت ترتبط بالنسب فيما بينها وبقيت الانساب تلعب دوراً مهماً في الحياة الاجتماعية في جزيرة العرب بينما ضعف تأثير النسب في المدن والحواضر ولذلك نجد ان القبائل العربية بقيت محافظة على نسبها الى ظهور الاسلام والبعثة النبوية الشريفة وبقي العرب المسلمون محافظين على شجرات الانساب اقتداءً بسنة المحافظة وحفظ شجرة نسب النبي محمد (ﷺ) ويذكر د. رضوان السيد أبياتاً شعرية للشاعر التغلبي الاخنس بن شهاب الذي توفي نحو ٥٥٠ م . تعد وثيقة مهمة نقتطع بعضاً منها :

ويكـــرُ لهـــا ظهـــر العـــراق وان تشـــأ
يَحُـــلْ دونهـــا من اليمـــامـــة حـــاجبُ
وصــــــارت تميم بين قفٍّ ورملــــــةٍ
لهـــا من حبـــال منتـــأى ومـــذاهبُ
وكلبٌ لهـــا خبتٌ فـــرملـــةُ عـــالـــجٍ
الى الحـــرةِ الـــرجـــلاء حيث تحـــاربُ
وغـــارت أيـــادٌ في الســـواد ودونهـــا
بـــــرازق عُجمٌ تبتغي من تضـــــاربُ
ولخم ملـــــوك النـــــاس يُجبى إليهم
إذا قـــال منهم قـــائـــل فهـــو واجبُ[٧٦]

وفي هذه الابيات صورة للواقع المعاصر للشاعر فيه حالة العرب وقبائلهم ونفوذهم في الاماكن التي ذكرها النص الشعري . وهذا يؤكد بقاء سطوة القبائل حتى القرن السادس الميلادي وقد ذكرنا ان احد الاهداف الرئيسة لكل نبي هو بناء أمة تقيم شعائر التوحيد وتخضع لسلطان الله ولكن بناء هذه الامة لا يتعارض مع الواقع

(٧٦) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / ص ١٩ يأخذ هذه الابيات من المفضليات ص ٢٠٣ - ٢٠٦ والحماسة ١ / ٢٥٨ - ٢٦٢ .

الاجتماعي فالنبي لا يلغي الوضع الاجتماعي وانما يضعه في إطار خدمة اهداف دعوته . وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في نص يعترف فيه بوجود اختلافات في البناء الاجتماعي ﴿ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ۞ ان اكرمكم عند الله أتقاكم[٧٧] وفي رواية منسوبة الى سيدنا عمر بن الخطاب : ان الشعوب الشعاب والقبائل العرب[٧٨] .

الشعوب في المفهوم الاسلامي تعني الاقوام خارج جزيرة العرب او كل من لا يرتبط بالانساب والقبائل لان القبائل تعني العرب وقد بقي العرب كما تعرفنا من خلال الوثيقة الشعرية بقي هؤلاء يرتبطون بالانساب . حتى اولئك الذين خرجوا من الجزيرة واستقروا في بلاد الرافدين ووادي النيل وأرض الشام . وبقيت هذه الاقوام تتفاعل هجرة وحركة في اتجاهات عديدة وشكلت نواة النشاط البشري ومركزه وكانت هذه المساحة مسرح الاديان الثلاثة الكبرى على ارضها كانت النبوات والحضارات . ويقول د. سوسة عن هذا المفهوم : (وكان وادي الرافدين امتداداً لجزيرة العرب . بل كان جزءاً لا يتجزأ منها فكان الموئل الرئيس الذي أسست على ضفافه المستوطنات الزراعية . فأسس الاكديون والعموريون والبابليون والاراميون وكلهم اصلهم من جزيرة العرب أولى مستوطناتهم فيه . ومن الامثال المعروفة في بادية العراق قولهم (نجد أم والعراق داية) والمقصود ارتباط نجد بوادي الرافدين . وكان النظام القبلي الذي يستند الى العادات والعرف والتقاليد المتوراثة والذي يتولى فيه شيوخ القبائل السلطة هو السائد في هذا المجتمع الواحد . اذ كانت تمتد سلطة رؤساء القبائل الى جميع توابعها : بطونها وافخاذها اينما وجدت . ويؤكد الاستاذ موسكاتي ذلك فيقول : (ان المناطق الثلاث الجزيرة العربية وسورية ومن ضمنها فلسطين وبلاد ما بين النهرين كلها تكون وحدة جغرافية مترابطة الاجزاء كانت في تلك الازمان مسرحاً رئيساً للنشاط البشري.... والمنطقة بأسرها كانت مفتوحة مكشوفية امام اهل الجزيرة العرب بحيث كان يسهل عليهم التوغل في جميع انحائها من جميع الجهات وهكذا فقد انصبت عليها موجات الهجرة المتتالية لما تخللته من مغريات الخصوبة ووفرة وسائل العيش »[٧٩] .

---

(٧٧) سورة الحجرات / ١٣ .

(٧٨) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / ص ٢٧ .

(٧٩) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٣٢١ يأخذ من :

←

ويكاد المؤرخون المحدثون المستشرقون والغربيون والعرب المعاصرون ، يجمعون على تقسيم أربع هجرات رئيسية قدمت من جزيرة العرب نحو بلاد الرافدين على مدى تقريبي يقدر بألفي عام وهذه الهجرات نضعها بحسب قدمها في التاريخ وكما يأتي[٨٠] :ـ

١ ـ الاكديون : وهم أقدم من هاجر من الجزيرة الى بلاد الرافدين وقد سبقتهم اقوام أخرى هاجرت الى فلسطين وسوريا والاردن ولكن بالنسبة للاكديين كانوا اول من وطىء بلاد وادي الرافدين بحدود الالف الرابع ق . م . وقد أسس الاكديون أقدم إمبراطورية واعظمها في تاريخ الحضارة الانسانية التي أسسها سرجون الكبير في القرن الرابع والعشرين ق . م . ذكرت اسطورة بأن ولادة سرجون الاكدي قد حدثت وسط ظروف غير اعتيادية وأنه قد ولد نتيجة طقس للزواج وامه كاهنة وتشير الاسطورة الى ان التعاليم تفرض ان الطفل الذي يولد من هذا الزواج يرتفع الى مرتبة الآلهة وان الملك الذي كان موجوداً سوف يقتل هذا الطفل فتلقيه امه في الفرات ويلتقطه الساقي (اقي) . وهذه الاسطورة تذكرنا بقصة موسى (عليه السلام) . وفيما يبدو ان الذي ألف هذه الاسطورة لابد انه قد أخذها من اليهود وكهنتهم الذين كانوا موجودين في بلاد وادي الرافدين بعد السبي البابلي ولا سيما إذا علمنا أن نص هذه الاسطورة من النصوص التي « أعيد استنساخها في غضون العصر الآشوري الحديث في حدود القرن السابع قبل الميلاد . وتم استنساخ هذا النص من بين النصوص الاكدية الكثيرة »[٨١] التي أعيدت كتابتها وصياغتها وهذا يؤكد تأثر وتفاعل حضارات وادي الرافدين مع النصوص التوراتية وقد أخذ كل منهما من الآخر .

٢ ـ الكنعانيون : وهم أقدم الاقوام الذين استقروا في فلسطين وسوريا في حدود الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد ويضمنهم الفينقيون الذين استوطنوا المناطق الساحلية . ويشمل الكنعانيون كذلك الاموريين الذين استوطنوا

Moscati, «Ancient Semtic Civilization» London 1957 pp 13,21,108 ←

(٨٠) انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٩ ـ ٦٠ . انظر كذلك سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ١٠١ ـ ٢٤٤ .

(٨١) رشيد / د. فوزي / سرجون الاكدي أول امبراطور في العالم / ص ١٧ وما بعدها .

المناطق الشرقية من بلاد الشام ووادي الرافدين وقد ورد إسم الاموريين في النصوص السومرية بصيغة « مارتو » والنصوص البابلية بصيغة (أمورو) وتعني الصيغتان السومرية والبابلية (الغرب)[٨٢] وهذا يعني انهم بالنسبة للعراقيين جاءوا من الغرب . وقد تمكن الاموريون من تأسيس سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٥ ق . م .) واستطاعوا مع الاكديين فيما بعد إقامة سلالات حكمت مناطق عديدة في بلاد وادي الرافدين .

٣ - الآراميون : استوطن هؤلاء الهلال الخصيب في النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد وأقاموا دويلات عديدة في شمال سوريا وفي مناطق الجزيرة في (ما بين النهرين) ومن هؤلاء الكلديون الذين أقاموا دولة قوية في العراق أسسها نبوبو لاصر في عام ٦٢٦ ق . م . استمرت حتى عام (٥٣٩ ق . م .) .

٤ - المجموعات الأخيرة من القبائل التي خرجت من الجزيرة باتجاه الهلال الخصيب وأسسوا دول المناذرة والغساسنة في العراق وسوريا . وقد وردت أخبار عنهم في كتابات الملوك الاشوريين واستمرت عملية تدفق المجموعات البشرية وتفاعلها بين الهلال الخصيب وجزيرة العرب . وان حركة الهجرة هذه لم تكن مقتصرة على جزيرة العرب والخروج منها باتجاه الهلال الخصيب . بل ان الاختراقات والمداهمات التي كانت تحدث بين بلاد وادي الرافدين وفلسطين وبين من كان موجوداً على ارض فلسطين ومصر كثيرة فقد سجلت لنا الواح الطين وكتابات البردي عمليات كرّ وفرّ وبناء أسوار وسيطرة وتغيير أوضاع وسلب ونهب وأحداث كثيرة كانت تموج بها المنطقة التي كانت مرشحة لان تلعب اعظم ادوار التاريخ مع الانبياء . ولذلك نحن نرفض جعل الفتح الاسلامي وتحرير العراق وبلاد الشام ووادي النيل امتداداً لعمليات الهجرة التي كانت تحدث[٨٣] . لان الفتح الاسلامي كان يعبر عن قيم رسالية واعتبارات دينية وليس البحث عن عيش وارفٍ أو اراضٍ خصبة وأنهار عذبة

---

(٨٢) رشيد / د. فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / ص ١٠ وما بعدها .

(٨٣) لقد وقع في هذا التفسير الخاطىء مع الاسف الشديد كل الذين استرسلوا في الحديث عن الهجرات القديمة والحقوا بها عملية الفتح الاسلامي . وهذا من الاخطاء المنهجية والاختلافات الجوهرية بين النظرة الاسلامية للتاريخ والنظرة المتأثرة بالكتابات الغربية .

وبساتين وارفة ولم يخرج العرب المسلمون من جزيرتهم بسبب الجوع والحاجة وانما لتحرير الانسان ونشر التوحيد . وقد اكدت لنا وثيقة تاريخية هذه الحقيقة عندما حاور رستم اعضاء الوفد الاسلامي قبيل المواجهة العسكرية فقد سأل رستم المغيرة بن شعبة عن سبب خروجهم من الجزيرة هل كان بسبب الجوع ؟ فأجاب المغيرة بن شعبة : لا لقد كان هذا من قبل . أما الآن فان الله قد أمرنا بالخروج لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله الواحد الاحد[٨٤] .

والملاحظ على الهجرات التي خرجت من ارض الجزيرة في العصور القديمة أنها تخلت عن ارتباطاتها الصحراوية وحياتها القبلية وأنشأت مجتمعات ومستقرات مدنية أنتسبت اليها هذه القبائل فنجد تسميات قبائل العرب البائدة والعاربة مثل طسم وجديس واميم وجرهم وقحطان ومعد وعدنان . ونجد ان هذه التسميات قد اختفت وحل محلها الانتساب الى المدن والاماكن التي استقر فيها هؤلاء القادمون وأنشأوا عليها حواضرهم . فظهرت اسماء مرتبطة بمناطق السكن لهذه القبائل مثل : البابليون والاكديون والآشوريون والاموريون التي تعني القادمين من الغرب . وهؤلاء كلهم يرتبطون بجذور لغوية تعود الى أصول لغة واحدة والتي تفرعت الى لغات هؤلاء الاقوام ثم تقاربت فيما بعد لتشكل اللغة العربية الصريحة او بالاحرى يمكن القول بأن العربية التي بقيت في الجزيرة قد زحفت وقضت على اللغات الاخرى التي ترتبط معها في الاصول .

لقد أكدنا في الصفحات السابقة ان تسمية السامية تسمية غير علمية ومبنية على أساس اسطوري لم يأت اي دليل على وجوده في التاريخ الا من التوراة وقد حاول اليهود لتأصيل هذه النظرية وهي (السامية) وجندوا لنصرتها وتثبيتها كل وسائلهم وحاربوا كل من يمس هذه العقيدة وعاش المفكرون في اوربا في العصر الحديث نوعاً من الارهاب الفكري عندما يحللون او يحاولون ان يطرحوا آراء تدعو الى التخلي عن هذا الوهم السامي ويحاول اليهود ان يعبروا من خلال هذه النظرية عن قضيتين هما أساس وجودهم في فلسطين وبهاتين القضيتين اقنعوا العالم الغربي واضطروه للتسليم بعقيدة التوراة وشعب الله المختار . وهاتان القضيتان :

---

(٨٤) انظر العمري / د. أكرم ضياء / السيرة النبوية الصحيحة / جـ١ ص ٣٤ / مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة / ١٩٩٢ م .

١ ـ ان الشعب الوحيد الذي ينتمي الى الشعوب السامية المرتبطة بـ (سام بن نوح) ويحمل الدم النقي والعرق الذي لا تشوبه شائبة الاختلاط بين شعوب المنطقة هم اليهود .

٢ ـ اللغة الوحيدة التي حفظت ولم تندرس من اللغات السامية هي اللغة العبرية . على اعتبار ان العربية الفصحى لغة منقرضة . ولذلك لابد من تشجيع العامية وان تكون (اللغة المكتوبة هي الملفوظة)[٨٥] .

ومن الحقائق المعروفة اليوم بأن وجود العراق النقي وهماً من الاوهام « وفيما يتعلق بالاغراض الاجتماعية العلمية ليس (العرق) ظاهرة بيولوجية بقدر ما هو اسطورة اجتماعية . وقد ولدت اسطورة (العرق) هذه قدراً كبيراً من الاضرار الانسانية والاجتماعية »[٨٦] .

اما بالنسبة للغة فنحن نعلم محاولات عديدة قام بها علماء في الانثروبولجي والفيللولوجي وعلماء من الآثار والتاريخ القديم حاول هؤلاء الخروج من هذه التسمية (السامية) ولكنهم لم يفلحوا وتراجعت محاولاتهم وبقيت السامية هي التسمية الطاغية على كل المحاولات . ويبدو ان الباحثين العرب قد استحسنوا هذه التسمية . وهذا الاستحسان قائم على اساس نفسي غير دقيق وغير علمي وجرياً وراء التيار الذي اوجده اليهود . فها هو الدكتور رمضان عبدالتواب وهو رجل عالم معروف لا نشك في سلامة نيته ولكنه وجد نفسه مقتنعاً ومستسهلاً هذه التسمية وذلك في قوله : « وهذه التسمية مختصرة ومناسبة » وكما هو الواجب من التسميات الاصطلاحية »[٨٧] ولكن اذا كانت التسمية المختصرة تستغل لاغراض غير علمية فلابد من الاعراض عنها واستبدالها بتسمية تبتعد عن هذه الاغراض . وقد طرح بعض العلماء المعاصرين مصطلح (الجزريين) كبديل عن الساميين[٨٨] ولكن هذا المصطلح لم يكتب له الشيوع وبقي محدود الانتشار . والمعروف ان اول من اطلق

---

(٨٥) صبحي / محيي الدين / ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للامة العربية / ص (٤) المقدمة .

(٨٦) مونتاغيو / أشيلي / المحتوى العلمي لاسطورة التفوق العرقي ترجمة المقدم حسن أحمد بسام / ص٢٢٢ .

(٨٧) عبدالتواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية / ص ٣٥ .

(٨٨) الناظر علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٥٠ وما بعدها .

(السامية) هو العالم الالماني شلوتسر « وقد اخذها من جدول تقسيم الشعوب الموجود في التوراة . ذلك الجدول الذي يرجع كل الشعوب التي عمرت الارض بعد طوفان نوح الى اولاده الثلاثة : سام ، وحام ، ويافث »[89] ولكننا عرضنا تسمية ترتبط بتاريخ المنطقة ولها جذور حقيقية اقرها القرآن الكريم وتتفق مع جوانب مما في التوراة . هذه التسمية هي « الابراهيمية » نسبة الى إبراهيم (عليه السلام) ونحن ندرس عصره ونتعرف على ملامح هذا العصر اذ برزت في المنطقة بدايات الحضارات والدول وتأسست قواعد الحضارات الانسانية وقيم وأخلاق وعقائد تكريم الانسان وتفوقه على الوجود غير البشري على الارض من حيواني ونباتي وغيرهما . ان اطلاق الابراهيمية بدل السامية تكريم لذكرى النبي الكريم (ابو الانبياء) وتكريم للامة التي ارتبطت به وهي الامة الاسلامية التي كان العرب نواتها . ولنا من الاسباب التي تجعلنا نؤمن بهذه التسمية وندعو الى تعميمها وتأصيلها وتثبيتها . ومن هذه الاسباب :

١ - قوله تعالى ﴿ أن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾[90] . ان التاريخ بدأ بإبراهيم وهذه البداية تقابل البداية التي يضعها علماء التاريخ القديم للتاريخ الذي بدأ بالكتابة . وان الله سبحانه وتعالى ذكر في القرآن الكريم انه أنزل صحفاً على ابراهيم وهذه الصحف تعني ان الكتابة كانت معروفة وموجودة في عصره . قال تعالى ﴿ أن هذا لفي الصحف الاولى صحف إبراهيم وموسى ﴾[91] . لذلك لابد أن نجعل انتماء هذه الامة الى البداية الكريمة المعروفة لا الى بداية منتحلة ليس هناك دليل على صحتها وقد ربط القرآن الكريم هذه الامة ونبيها بإبراهيم ليجعل لهذه الامة الشهيدة على الامم بداية واضحة المعالم كريمة الاصول أبوها أبو الانبياء .

٢ - ربط النبي محمد (ﷺ) هذه الامة بإبراهيم ففي صحيح البخاري عن ابن عباس قال : كان رسول الله (ﷺ) يعوذ الحسن والحسين ويقول : « إن أباكما كان يعوذ إسماعيل واسحاق : أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان

---

(٨٩) انظر عبدالتواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية / ص ٢٥ .

(٩٠) سورة آل عمران / ٦٨ .

(٩١) سورة الاعلى / ١٨ - ١٩ .

وهامة ومن كل عين لامة »[٩٢] وفي البخاري ايضاً عن ابي هريرة موقوفاً فيما يذكره عن هاجر المصرية ويذكر خبر محاولة فرعون الاعتداء على سارة فلما منعه الله منها أعادها الى زوجها إبراهيم وأخدمها هاجر . فقال ابو هريرة رضي الله عنه عن هاجر : فتلك أمكم يا بني ماء السماء »[٩٣] وهذه إشارة الى ان أهل مصر أخرجهم الحديث من العرب وجعل العراقيين من العرب لان إبراهيم ابا العرب كان عراقياً . فاذا كانت هاجر المصرية ام العرب فيحق لنا أن نقول : إن (إبراهيم العراقي ابو العرب) . وقد ذكر رسول الله (ﷺ) هذه الرحم للمصريين عندما قال « اذا استفتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فاني لهم صهراً »[٩٤] وفي رواية « أن لهم رحم » . إشارة الى مارية القبطية .

ان تصورنا للغة بحسب المفهوم الديني بدأ بـ (آدم) وفي عصر آدم كانت اللغة بدائية تتواءم مع البيئة والحاجة وهذا التحديد لعصر اللغة يستند الى قوله تعالى ﴿ وعلّم آدم الاسماء كلها ﴾ وبذلك أوجد الله في آدم القابلية والاستعداد على تعلم اللغات كلها وما يمكن ان تتطور اليه . وان اصل اللغة يتحدد بموجب الآية السابقة توقيفي اي ان الله تعالى قد خلق في الانسان امكانية النطق وغرز فيه الاستعداد وبدأت عند آدم (عليه السلام) عندما نطق بأسماء الاشياء أمام الملائكة . ولكن هذه اللغات البدائية التي بدأت عند آدم سارت في خطوط تطورية تطورت فيها اللغة الام الى لغات أساسية قسمها العلماء على ثلاثة أقسام « وأشهر نظرية قسمت اللغات على فصائل هي نظرية ماكس مولر (Max Muler) الذي يجعل اللغات كلها ثلاث فصائل : الهندية الاوربية ، والسامية الحامية ، والطورانية . وقد انتهى علماء اللغة الى القول بضرورة توافر شروط معينة يمكن القول بين لغتين تنتميان الى فصيلة لغوية ما »[٩٥] « وقد حدد الدكتور سميح هذه الشروط الثلاثة وهي على نحو الآتي :

---

(٩٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٥ .

(٩٣) ابن كثير / م . س / ص ١٤٧ . وقد تكون هذه العبارة حديث نبوي شريف ولكن الرواية موقوفة على ابي هريرة .

(٩٤) الهمذاني / ابو بكر احمد بن ابراهيم المعروف بـإبن الفقيه / مختصر كتاب البلدان / ص ٩٥ .

(٩٥) أبو مغلي / د. سميح / في فقه اللغة وقضايا عربية / ص ٢٢٠ .

١ - التشابه بين النظم الصوتية .

٢ - التشابه بين النظم الصرفية .

٣ - خضوع الاختلافات بين النظم الصوتية والصرفية لقواعد مطردة » .

وقد قال بتطور اللغات علماء اللغة المسلمون الاوائل مثل ابن جني الذي يقول في الخصائص عن أصل اللغة : « باب القول على أصل اللغة الهام هي أم اصطلاح : هذا موضع محوج الى فضل تأمل . غير ان أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي (وتوقيف) الا ان أبا علي رحمه الله قال لي يوماً : هي من عند الله واحتج بقوله تعالى ﴿ وعلّم آدم الاسماء كلها ﴾ وهذا لا يتناول موضع الخلاف وذلك انه قد يجوز ان يكون تأويله : أقدر آدم على أن واضع عليها . وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة وهذا رأي ابي الحسن . على انه لم يمنع قول من قال : انها تواضع منه (أي آدم) على انه قد فسر هذا بأن قيل : ان الله سبحانه علم آدم أسماء جميع المخلوقات بجميع اللغات : العربية والفارسية والسريانية والعبرانية والرومية وغير ذلك من سائر اللغات وعلق كل منهم بلغة من تلك اللغات فغلبت عليه واضمحل عنه ما سواها لبعد عهدهم بها »[٩٦] . ويذكر ابن جني بأنه « متردد بين التوقيف والتواضع »[٩٧] بعد عصر آدم حيث كانت الهجرة والانتقال طابع عصور ما قبل التاريخ وكان التفاعل بين الجنس البشري يتصاعد فيطور قابليات البشر ويحسن ظروف عيشه . وقد اتسمت هذه العصور بصفتين أساسيتين وهما : الانعزال ويحدث الانعزال بعد تجمع المجتمع واستقراره وذلك بسبب صعوبة المواصلات . والصفة الثانية التحول وقد ذكر ذلك أشيلي حيث ذكر « إن الانسان قد تطور على وفق الخطوط الآتية : جماعات منعزلة نسبياً تتمايز بصورة مبكرة وتتحول تكيفاً مع بيئتها الى اعراق جغرافية واضحة المعالم يلي ذلك فيما بعد تزاوج (تهجين) ينشأ عنه اتحاد الجسيمات الوراثية (المورثات) اتحاداً جديداً بصور كثيرة جداً)[٩٨] وقد كان العراق مهداً لتكوين مجموعات بشرية منذ القدم ومع بداية ظهور الانسان العاقل بل ان العراق كان مقراً او موئلًا او احد المستقرات المهمة لانسان نياندرتال لان الظروف كانت مناسبة لتكوين تاريخ ثقافي للمجتمع العراقي

---

(٩٦) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / جـ١ ص ٤١ - ٤٢ .

(٩٧) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / جـ١ ص ٤٨ .

(٩٨) مونتاغيو / اشيلي / الدحض العلمي لاسطورة التفوق العرق / ص ٣٠ .

القديم وهذا التاريخ لتطور عقلية الانسان هو التفسير المنطقي لوجود اول حضارة على الارض كانت على ارض العراق وكان التفاعل بين القادمين الى العراق والمستقرين على أرضه قبلهم يولد حالة « امتصاص للعرق » وهو « اندماج جماعة سلالية في جماعة سلالية أخرى بشكل يجعل الجماعة المندمجة تختفي من دون ان تحدث اي تبديلات جسدية ملحوظة في مظهر الجماعة السلالية التي اندمجت فيها . ومن الامثلة على اول نوع من الانطفاء الذي نملك عنه شواهد ذات دلالة . نوبان الجماعات السلالية في عصور ما قبل التاريخ الذي يعتقد بعض العلماء انه حدث في الشرق الادنى مثلًا . ولا تزال عملية النوبان هذه مستمرة حتى في عصرنا الحاضر الى جانب عملية الامتصاص . ويبدو ان امتصاص اناس من نمطنا نحن لانسان نياندرتال هو حقيقة حدثت فعلًا[٩٩] ولذلك في عصر نوح حيث بدايات تكون المجتمعات القروية ثم ظهور السومريين في العراق وقدوم الاكديين وما بعد هذه الاحداث يمكن ان توضع تحت هذا العنوان ، فقد حدثت عمليات تنويب وامتصاص وتفاعل لغوي ادى الى اختفاء السومريين ولغتهم وظهور الاكديين ولغتهم وحدث الامر نفسه مع البابليين وظهورهم في العراق وتفاعلهم مع الاكديين الذي ينتمون معهم الى سلالة واحدة ويشتركون معهم في أصول لغوية متقاربة . وتبلور في الالف الثاني قبل الميلاد هيكل متكامل حضارياً ولغوياً واجتماعياً تمثل في أنظمة الحكم لعصر فجر السلالات وتمثل في شرائع عبرت عن مستوى راقٍ لواقع اجتماعي متطور يخضع لضوابط القانون والتزاماته وفي قمة هذا العصر وتطوره ظهر ابو الانبياء إبراهيم عليه السلام) ظهر لكي يوضح معالم الطريق التي بدأها آدم وتواصل معها نوح عليهم السلام) . وعن شخصيته ومعالمها توقف القرآن كثيراً ولذلك سنتوقف مع شخصية هذا النبي الكريم من خلال نصوص القرآن الكريم .

---

(٩٩) مونتاغيو / اشيلي / م . س / ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

المبحث الثاني

إبراهيم (عليه السلام) في نصوص القرآن الكريم والاحاديث النبوية

لقد امتاز النص القرآني عن غيره في حديثه عن الواقعة التأريخية وتصديه للحدث التاريخي . ان النص القرآني يجرد الحديث من الملابسات المكانية والزمانية والشخصية ويتحدث عن الفعل المجرد ويمنح الفعل حركة وفاعلية تتجاوز الزمان والمكان والاشخاص . وقد أكدنا هذه الحقيقة في حديثنا عن المعالجات التي تعرضنا لها في محاولة لربط النص القرآني بالتاريخ . وتبدو هذه القضية اكثر وضوحاً عند حديثنا عن شخصية إبراهيم الخليل (عليه السلام) .

ولادته ونشاته :

لم يتحدث القرآن الكريم عن ولادة إبراهيم (عليه السلام) ولكن اول نص يطالعنا حول حوار حصل بين إبراهيم وأبيه يخبره بأنه قد أوحي اليه وانه اختير نبياً ويحذر أباه من عبادة الاصنام واتباع الشيطان ويبدو ان هذا النص يعبر عن بداية

الوحي لإبراهيم[١٠٠] وفي نصوص أخرى تصدت لهذا الحوار الذي وقع بين إبراهيم وأبيه ففي سورة الانعام نجد في قوله تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة * إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾[١٠١] وقد يكون هذا حوار آخر حصل بين إبراهيم وأبيه لأن الاسلوب الذي اتبعه إبراهيم هنا يختلف حيث تبدو المواجهة قد وقعت وان إبراهيم (عليه السلام) قد استبدل أسلوب الود والموادعة بأسلوب التعنيف والتسفيه لعقائد القوم وأبيه . ولكن هناك مسألة اثارت جدلًا بين المؤرخين والمفسرين الاسلاميين . فالنص القرآني يحدد اسم ابي إبراهيم بـ (آزر) وقد ذكر ابن كثير « ان جمهور اهل النسب منهم ابن عباس على ان اسم ابيه (تارح) واهل الكتاب يقولون (تارخ) بالخاء المعجمة فقيل ان لُقِّب بصنم كان يعبده اسمه آزر . وقال ابن جرير : والصواب ان اسمه آزر ولعلّ له اسمان علمان او احدهما لقب والآخر علم . وهذا الذي قاله محتمل والله اعلم »[١٠٢] ويذكر العقاد تفسيراً لهذه الحال فيقول : « فإذا نُسب إبراهيم الى آشور فمن الجائز جداً ان يكون تارح وآزر لفظين مختلفين لاسم واحد ، سواء كان هذا الاسم عَلماً على رجلٍ أم على الجد القديم الذي تنتسب اليه أمّة آشور وكثيراً ما انتسب القوم الى اسم جدٍّ قديم كما يقال في التسمية الى عدنان وقحطان . ونظرة واحدة في كتابة اسم آشور ونطقها الى اليوم في العراق وسورية تقرب لنا هذا الاحتمال الذي يبدو بعيداً لأول وهلة . فقد كتبت آشور تارةً آزور وتارة اشور وتارة آتور وتارة آسور بالسين . ولا يخفى ان اللغات السامية لم تكن تُكتب لها حروف علة الى زمن قريب . وان الاغريق الذين اطلقوا اسم (آسورية) على وطن إبراهيم من نهر الفرات الى فلسطين ينطقون الياء الاغريقية بين الواو والياء ولهذا تنطق سيرية بالياء في اللغات الاوربية وتنطق سورية بالواو في اللغات الشرقية ولا يخفى كذلك ان كلمة تارح تنطق تيرح على لسان الكثيرين من الناطقين باللغات السامية وتنطق تيرا وتيره عند الذين لا يستطيعون النطق بالحاء . فاذا لاحظنا ذلك كله فليس أقرب من تحويلة آتور وآتير الى تيرا وتيرح ومؤدى هذا انه (آزر) هي النطق الصحيح الذي عرف به اسم اسور القديم وان تيرا وتيرح هي نطق الذين

---

(١٠٠) انظر الآيات ٤١ــ٤٨ من سورة مريم وهي تتسجل هذا الحوار .

(١٠١) سورة الانعام / ٧٤ .

(١٠٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٢ .

يكتبونها اتيرة واتيرح وينطقونه بكلمة آشور بين الواو والياء »[١٠٣] . ومن خلال عرض القرآن الكريم لمراحل دعوة إبراهيم (عليه السلام) تؤكد النصوص إنه عرض دعوته في بيئتين البيئة الاولى عندما دعا أباه الى التخلص من عبادة الاصنام وهذا يعني انها بيئة تعبد الاصنام وقد تفشت فيها هذه العبادة حتى دخلت البيوت والمعابد وعمد الناس الى هذه الاصنام عاكفين على عبادتها . وهذه البيئة هي البيئة الاولى التي نشأ فيها إبراهيم وترعرع . والبيئة الثانية كانت فيها عبادة الكواكب . وقد عرض القرآن الكريم في نصٍّ أسلوباً مارسه إبراهيم (عليه السلام) في تفنيد عقيدة عبادة الكواكب وبطريقة غير مباشرة وهذه من تعليم الله له فقد آتاه الله حجة على قومه في البيئة الاولى عندما عمد الى الاصنام فكسرها ووضع الفاس بيد كبيرها وعندما سأله قومه قال لهم اسألوا كبيرهم ان كانوا ينطقون ! ؟ فنُكس القوم وأُفحموا . وهنا يتعرض الى عقيدة عبادة الكواكب فيقول لقومه انه سوف يعبد هذا النجم البازغ « وقيل هو الزُهرة ثم ترقّى الى القمر الذي هو أضوأ منها وأبهى من حسنها ثم ترقى الى الشمس التي هي أشدُّ الاجرام المُشاهَدَة ضياءً وحسناً فبين إنها مسخَّرة مسيَّرة مقدَّرة مربوبة . ولهذا قال ﴿ فلما رأى الشمس بازغةً . قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون * اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفاً * وما انا من المشركين وحاجّه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاءَ ربي شيئا ﴾[١٠٤] والظاهر ان موعظته هذه في الكواكب لاهل حران . فانهم كانوا يعبدونها وقد ذكر ابن اسحاق وغيره إن هذا كان حين خرج من السرب لما كان صغيراً . وهو مستند الى اخبار اسرائيلية لا يوثق بها . أما أهل بابل فكانوا يعبدون الاصنام . وهم الذين ناظرهم في عبادتهم وكسرها عليهم »[١٠٥] .

وفي بابل كانت المواجهة الاولى وكانت اكثر قسوة وضراوة حيث كانت بابل اقدم مدن العالم وذات تاريخ عريق وفيها نظام سياسي مركزي يقف على رأسه الملك الذي تحدى إبراهيم . ويذكر النص القرآني ان هذا الملك جاء يحاجج إبراهيم بعد ان فنّد إبراهيم (عليه السلام) عقائد القوم وملك الحجة على قومه في إبطال عقيدة عبادة

---

(١٠٣) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(١٠٤) سورة الانعام / ٧٨ - ٨٠ .

(١٠٥) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٣ .

الاصنام وزيفها . هذه العبادة الوثنية التي سادت العالم في ذلك العصر وعصور قبله فبعث الله إبراهيم لتحطيم هذه القاعدة التي بناها الشيطان ليُضلَّ الانسان على الارض . ولكن هذه القاعدة التي كان الكهنة يديرونها ويبثون ضلالاتها على العالم كانت معهم سلطة سياسية التقت مصالحها مع الكهنة فكان حلفاً ستراتيجياً بين الكهنة والملوك . حتى صوّر الكهنة إن هذا النظام الملكي قد هبط من السماء ليحكم الناس[١٠٦] . وقد منحت الآلهة الملوك حقاً في التحكم في مصائر العباد . ولذلك ذكر النص القرآني ان الملك الذي حاجّ إبراهيم (عليه السلام) قد (اتاه الله الملك)اي مكّن له وانعم عليه بأن جعله ملكاً من خلال تسخير الامور وجريان المقادير لكي يتسلم هذا الانسان الملوكية . ولكن هذا الانسان نسيَ هذه الحقيقة فاعلن بجبروته بعد ان ذكّره إبراهيم (عليه السلام) بقدرة الله على الاحياء والايجاد من العدم والاماتة . هذه الحقيقة التي لو تأملها هذا الملك لاستعاد وعيه وعرف قدره ولكنه قال بصلف وغرور : ﴿ أنا أحيي وأميت ﴾[١٠٧] فقال له إبراهيم ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبهت الذي كفر * والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾[١٠٨] وهذه الحقيقة التي اوجدها الله في النظام الكوني وهي خروج الشمس من المشرق هي التي حطمت عقيدة الملوكية التي هبطت من السماء عندما عجز الملك ان يغير هذا الناموس وبُهت الذي كفر . في هذه المناظرة أعلن إبراهيم عن حقيقة دعوته وعن موقفه من الملك ويبدو ان المعركة مع الوثنية قد اشتدت وأعلن إبراهيم (عليه السلام) عداوته للملك والكهنة والوثنية وأعلن إبراهيم عن هذه العداوة في نصوص قرآنية منها قوله تعالى عن حكاية عنه ﴿ أفرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وآباؤكم الأقدمون * فإنهم عدو لي الا ربّ العالمين ﴾[١٠٩] . وفي هذا النص يكشف إبراهيم عن حقيقة تاريخية وهي ان عبادة الاصنام عميقة في التاريخ فقد كان الآباء الاقدمون اي الاجيال القديمة ، كانت تعبد هذه الاصنام لذلك نجد ان حفريات العراق في الطبقات الاولى منها وأقدمها لم تكن تخلو من أصنام من الطين

---

(١٠٦) انظر مصادر التاريخ القديم حيث اجمعت ان عقيدة العراقيين القدماء (ان الملوكية هبطت من السماء) .

(١٠٧) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(١٠٨) سورة البقرة / ٢٥٨ .

(١٠٩) سورة الشعراء / ٧٥ ـ ٧٧ .

وقد عثر في طبقات مختلفة على أصنام هائلة في حفريات العراق[110] . ونص قرآني آخر يعبر عن عداء إبراهيم (عليه السلام) لهذه الاصنام بقوله تعالى ﴿ وتالله لأكيدن أصنامكم بعد ان تولوا مدبرين ﴾[111] « وكان لهم عيد يذهبون اليه في كل عام مرة الى ظاهر البلد فدعاه أبوه ليحضره فقال : إني سقيم كما قال الله تعالى ﴿ فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم ﴾[112] . عرض لهم في الكلام حتى توصل الى مقصوده من إهانة أصنامهم ونصرة دين الله الحق . وبطلان ما هم عليه من عبادة الاصنام التي تستحق ان تكسر وان تهان غاية الإهانة »[113] . فكانت حادثة تكسير الاصنام تعبر عن تفاهة هذه الآلهة وكانت طريقة ذكية في تدمير قدسية هذه الاصنام في نفوس القوم . ولكنهم ارتكسوا ونكسوا على رؤوسهم واعلنوا حربهم ضد إبراهيم ودينه و ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين ﴾[114] .

فكانت حادثة تحريق إبراهيم علامة بارزة في تاريخ البشرية عبرت عن كفر القوم وحقدهم على التوحيد والدين الذي جاء به إبراهيم وقد كان قرار حرق إبراهيم (عليه السلام) من الكهنة ونفذه الملك من خلال تنسيق وتهيئة شعبية قام بها عندما إستَعْدُوا القوم والشعب على إبراهيم بقولهم (انصروا آلهتكم) وتمت العملية باقامة بناء كما في قوله تعالى ﴿ قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم * فأرادوا به كيداً فجعلناهم الاسفلين ﴾[115] هذا البناء الضخم الذي وضعوا به الحطب الكثير كما قال ابن كثير « ان المرأة منهم إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطباً لحريق إبراهيم . ثم عمدوا الى حوية (حاوية) عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب واطلقوا فيه النار . فاضطرب وتأججت والتهبت وعلا شرار فيها لم يُر مثله قط »[116] بعد ان

---

(١١٠) انظر مالون / ماكس / مذكرات مالون / يذكر عن التنقيبات في مواقع عديدة وعثوره مع مستر وولي على اعداد هائلة من الاصنام .

(١١١) سورة الانبياء / ٥٧ .

(١١٢) سورة الصافات / ٨٨ ـ ٨٩ .

(١١٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٦ .

(١١٤) سورة الانبياء / ٦٨ ـ ٧٠ .

(١١٥) سورة الصافات / ٩٧ ـ ٩٨ .

(١١٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٣٩ . انظر فقرة الشرائع القديمة فيما يأتي وكيف

←

نجّاه الله من خلال المعجزة التي تحدث عنها القرآن وهي ابطال خاصية الحريق في النار وجعلها (برداً وسلاماً) وهو برد لا يؤذي ، سالم من الاذى رأى إبراهيم ان لا مقام له في العراق بعد ان وصلت الامور الى ما وصلت اليه فقرر الهجرة فهاجر هو ومن آمن معه وكان معه من المؤمنين به ابن اخيه لوط (عليه السلام) الذي بعثه الله نبياً الى سدوم والقرى القريبة منها في فلسطين وكان على اتصال مستمر بإبراهيم (عليه السلام) كما اشارت الآيات الى ذلك بعد الهجرة والاستقرار في فلسطين . هذه المرحلة الاولى من حياة إبراهيم (عليه السلام) وهي تمثل بداية تكوين امة التوحيد التي ارسى قواعدها إبراهيم (عليه السلام) ولا يمكن ان نطلق على هذه البداية عربية ولكنها سابقة للعربية الصريحة وهي تمثل جذور امة العرب التي كان ابوها إبراهيم فهو ابو العرب . لذلك كانت العراقية حالة تمثل جذور العروبة واننا اذا اطلقنا عليها العروبة فاننا سنقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه اليهود الذين قالوا ان إبراهيم كان يهودياً . وكانت هناك محطة استقر فيها إبراهيم (عليه السلام) مؤقتاً وقد تعرضت نصوص في القرآن الكريم لهذه المرحلة من حياة إبراهيم وهو يتصدى لعقيدة هؤلاء القوم الباطلة حيث كانوا يعبدون الكواكب . وقال علماء التاريخ ان هذه المنطقة التي قصدها إبراهيم (عليه السلام) عند خروجه من بابل وبابل كانت تعني العراق القديم ، هي حران التي كانت مركزاً عالمياً لعبادة الكواكب وهي مدينة قديمة واقعة في مفرق طرق بين تركيا وسوريا والعراق . وقد تحدثنا عن النصوص التي ذكرت الحجة التي آتاها الله إبراهيم في تفنيد عقيدة عبادة الكواكب عندما قارن بين الكواكب وبين افولها وأوصلهم الى نتيجة واحدة هي عبادة الله الذي يُسيّر هذه الكواكب ويبقى اثره لا يأفل ولا يغيب . بعدها يخرج إبراهيم (عليه السلام) من حران مع قومه واتباعه ومعه زوجته سارة وهي بنت عمه لا كما يقول اهل التوراة بأنها ابنة أخيه وهي اخت لوط[117] . وهذا افتراء على هذا النبي العظيم خليل الرحمن بأنهم جعلوه يتزوج المحارم وهذا شأن اليهود في تحطيم القيم والاخلاق وتدمير اثر الانبياء والاقتداء بهم . بعد خروجه من حران استقر في فلسطين وحدثت مجاعة اضطرته الى أن يهاجر الى مصر لانه لم يستطع العودة الى العراق لانه كان مطارداً من قبل

← توضح ارتباط عقوبة التحريق بالواقع والعصر الذي كان يعيش فيه ابراهيم ابراهيم (عليه السلام) .

(١١٧) وفي العهد القديم انها اخته من أبيه من غير امه انظر تكوين / ٢٠ .

الملك والكهنة في العراق وهجرته الى مصر تذكرها النصوص الاسلامية في حديث نبوي شريف صحيح . رواه البخاري في جزء من حديث الكذبات : « بينما هو ذات يوم وسارة اذ أتى عليه جبار من الجبابرة فقيل له : ان هاهنا رجلًا معه امرأة من احسن الناس . فارسل اليه وساله عنها : فقال : من هذه ؟ قال : اختي ، فاتى سارة فقال : يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيري وغيرك . وان هذا سالني فاخبرته انك اختي . فلا تكذبيني . فارسل اليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده فاخذ . فقال : ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت الله فاطلقها ثم تناولها الثانية مثلها او اشد . فقال ادعي الله لي ولا أضرك . فدعت فاطلق . فدعا بعض حجبته فقال : انكم لم تاتوني بإنسان وإنما أتيتموني بشيطان . فاخدمها هاجر . فاتته وهو قائم يصلي فاومأ بيده مهيم ؟ فقالت : ردّ الله كيد الكافر ـ او الفاجر ـ في نحره . واخدم هاجر . قال ابو هريرة : فتلك أمكم يا بني ماء السماء »[١١٨] وقال العلماء انه قال : لا يوجد على الارض مؤمن غيري وغيرك » يعني زوجين مؤمنين غيري وغيرك . ويتعين حمله على هذا لان لوطاً كان معهم وكان نبي (عليه السلام)[١١٩] . ثم رجع بعدها الى فلسطين ومعهم انعام وعبيد ومال جزيل وصحبتهم هاجر القبطية المصرية . وبعد عودته الى فلسطين صحب لوطاً الى ارض الغور المعروف بغور زغر (ويسمى صوغر) فنزل بمدينة سدوم (على شاطىء البحر الميت) وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً . ويسكت القرآن الكريم عن اوضاع لوط وعلاقته بإبراهيم (عليه السلام) ولكن روايات اهل الكتاب تذكر ان لوطاً تسلط عليه قوم من الجبارين فاسروه واخذوا أمواله فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار اليهم في ثلثمائة وثمانية عشر رجلًا فاستنقذ لوطاً (عليه السلام) واسترجع امواله . فقتل من اعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً وهزمهم وساق في آثارهم حتى وصل الى شمالي دمشق وعسكر بظاهرها عند برزه . واظن مقام إبراهيم انما سمي لإنه كان موقف جيش الخليل ، والله اعلم »[١٢٠] ورجع الى بيت المقدس .

---

(١١٨) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٤٧ . ووجدت في الآثار المصرية نقوش لصور تعبر عن عائلة بدوية تقوم برحلة الى مصر وتقدم الهدايا الى فرعون مصر ولعلها تعبر عن رحلة ابراهيم (عليه السلام) . أنظر سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ١٩٤ .

(١١٩) ابن كثير / م . س / ص ١٤٩ .

(١٢٠) ابن كثير / م . س / ص ١٥١ .

ولادة إسماعيل والذهاب الى مكة :

لم يذكر نص في القرآن الكريم انه ولد لابراهيم إسماعيل ولكن نصوصاً كثيرة تكلمت عن مراحل لاحقة عن حياة إسماعيل وهي تصف إسماعيل وإبراهيم (عليهم السلام) يبنيان البيت الحرام وهذا السبب كان وراء الخلاف بين العلماء عن شخصية الذبيح فقد تأثر بعض العلماء المسلمين برواية أهل الكتاب (اليهود) التي تنص على ان الذبيح إسحاق ولما نظر المسلمون الى النصوص التي تحدثت عن الذبيح وجدوها تتحمل ان يكون إسحاق هو الذبيح ولكن معظم العلماء المسلمين رجحوا واكدوا أن الذبيح هو إسماعيل (عليه السلام) وكشفوا الدوافع الحقيقة التي دفعت اليهود الى إنكار ان يكون الذبيح هو إسماعيل وجعلوه إسحاق . وهذه الظاهرة تكشف لنا حقيقة كبرى اتصفت بها المصادر الاسلامية وهي عدم تعصبها وعدم خضوعها لاهواء البشر بل انها تمثل ربانية المصدر . فان الله تعالى لم يكن يحابي او يفضل على اسس عرقية او يضع مجموعة من البشر فوق الآخرين . وانما وضع اسسا دعا اليها الانبياء ووضعوها معالم للمجتمع البشري ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل انتم بشر ممن خلق ﴾[١٢١] ولذلك نجد علماء الاسلام او القرآن الكريم او المصادر الاسلامية عندما تتكلم عن إسحاق تصفه بالصدق والنبوة والعبد الصالح بل ان القرآن الكريم ركز على ارتباط اسحاق بإبراهيم وركز في اكثر من موضع بالبشارة لإبراهيم بإسحاق وهذا يؤكد إن الأنبياء الاسلامية في المصادر لا تمييز بينهم وان المسلم يؤمن بجميع الانبياء من دون تفريق او إنقاص لقيمة واحد منهم . وهذه الظاهرة تؤكد ان المصادر الاسلامية مستقلة في وجودها وعدم تأثرها بالشرائع التي قبلها وان كتاب المسلمين (القرآن الكريم) لم يأخذه النبي محمد (ﷺ) من الكتب التي سبقته على عكس ذلك نجد ان القرآن الكريم لم يحو الاخطاء او الاختلافات الموجودة في الكتب السابقة بسبب تدخل البشر . وإنما انزل الله تعالى القرآن الكريم مصدقاً لنبوة الانبياء الذين سبقوا النبي محمداً (ﷺ) ومهيمناً على الكتب السابقة ولا يرقى اليه شك او تحوطه شبهة . وبذلك كانت خصوصية الرواية القرآنية تؤكد استقلالية القرآن الكريم ورواية أهل

---

(١٢١) سورة المائدة / ١٨ .

الكتاب تؤكد هذه الحقيقة . وكما يذكر الاستاذ العقاد حول اختلاف اسم ابي إبراهيم في القرآن الكريم (آزر) وفي التوراة (تارح) فيقول : « وتفيد هذه الملاحظة فائدة جليلة في معرض آخر من معارض سيرة الخليل . فلم يكن تاريخ إبراهيم في الاسلام مستمداً من المصادر اليهودية كما زعم بعض المشرعين من رواة الاخبار الدينية غير الاسلامية وإلا لما كان ايسر من تسمية إبيه تارحاً او تيرحاً او تيره وما شابه هذه التصحيفات . ولما كان هناك سبب قطلتسميتهبآزر على أي توجيه . وإنما هذه بينه من بينات شتى على ان دعوة إبراهيم لم تصل الى الحجاز من مصادر اليهود »[١٢٢] .
النص القرآني الذي ذكر بشارة إسماعيل لم يصرح بإسم إسماعيل ولكن علماء التفسير مطبقين على انه إسماعيل لان سياق الآيات يدل على ذلك . فقد جاء في القرآن الكريم على لسان إبراهيم وبشانه ﴿ وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين * رب هب لي من الصالحين فبشرناه بغلام حليم * فلما بلغ معه السعي قال يا بني أني أرى في المنام أني أذبحك فأنظر ماذا ترى * قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين * فلما اسلما وتلّه للجبين وناديناه ان يا إبراهيم * قد صدقت الرؤيا * انا كذلك نجزي المحسنين * ان هذا لهو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على ابراهيم * كذلك نجزي المحسنين * انه من عبادنا المؤمنين وبشرناه بإسحاق نبياً ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[١٢٣] في هذه الآيات بشارتان . البشارة الاولى (الغلام الحليم) وهو إسماعيل والبشارة الثانية (اسحق النبي) . وقوله تعالى ﴿ ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾ لابد انها تعني إسماعيل وإسحاق . لان النص ذكر التثنية وهي أقرب في المعنى الى إسماعيل وإسحاق من ان الآية تعني إبراهيم واسحق (عليهم السلام) اذ ان إبراهيم هو الاصل وإسحاق من ذريته ولو كان المعني إبراهيم وإسحاق لقال ومن ذريته محسن وظالم لنفسه مبين . لأن القرآن كان يجعل الفرع في مقام الاصل كما في قوله تعالى ﴿ فبشرناه بأسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب ﴾ وقوله تعالى ﴿ فلما اعتزلهما وما يعبدون من دون الله ووهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبيا ﴾[١٢٤] . والمعروف ان يعقوب هو ابن إسحاق . ولكن الله كان يمتن بيعقوب

(١٢٢) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٧ .
(١٢٣) سورة الصافات / ٩٩ - ١١٣ .
(١٢٤) سورة مريم / ٤٩ .

على إبراهيم ويسوق البشارة اليه فجعل الفرع كالأصل فكان الخطاب واحداً . ولكن عندما يختلف الضمير فيترجح ان النص في الآية ﴿ ومن ذريتهما ﴾ يعني (ومن ذرية إسماعيل وإسحاق) . لان الضمير اختلف وعاد على شخصين مختلفين في حين كان الضمير في الكلام المشتمل على (إسحاق ويعقوب) يعود على إبراهيم وذلك في قوله تعالى ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ فالضمير في بشرناه يعود على إبراهيم وكذلك في قوله تعالى ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب ﴾ الضمير في له يعود على إبراهيم وكذلك لو كان الكلام يعني إبراهيم وإسحاق في قوله تعالى (ومن ذريتهما) لاقتضى ان يفرد الضمير . ولما جاء بصيغة المثنى ترجح ان يكون المقصود فرعين مختلفين تفرعا من الاصل وهو إبراهيم (عليه السلام) . والآيات في سورة الصافات التي حملت البشارتين تؤكد ان الذبيح كان إسماعيل لانه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده ﴿ وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين ﴾ وقد ذكر ابن كثير : إن من ذهب ـ أن الذبيح إسحاق ـ من المسلمين فقد استند الى الاسرائيليات . وقد ذكر انه في التوراة ان الله أمر إبراهيم ان يذبح ابنه وحيده وفي نسخة بِكْرَهُ إسحاق[125] فلفظة إسحاق ها هنا مقحمة مكذوبة مفتراة الى ان قال « وانما حملهم على هذا حسد العرب . فإن إسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز ومنهم رسول الله (ﷺ) وإسحاق والد يعقوب ـ وهو إسرائيل ـ الذي ينتسبون اليه فارادوا ان يجرّوا هذا الشرف اليهم فحرفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بهت لم يقرّوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء »[126] فكانت بشارة إسماعيل هي بشارة محمد صلى الله عليه وسلم وكأن الاقدار قد رُسمت من أجل النبي محمد (ﷺ) كل الخطوط التي امتدت في التاريخ قد تلاشت . الاقوام والامم والممالك واللغات وتنامى خط محمد (ﷺ) منذ آدم (عليه السلام) ونوح الى إبراهيم كأن الله قد بعث هؤلاء الانبياء والرسل ليمهدوا لرسوا الله (ﷺ) ولكي يحفروا في التاريخ معالم المسيرة التي تقود الى خاتمهم محمد (ﷺ) . وكان إبراهيم (عليه السلام) أمة قانتاً لله حكيماً حليماً . فعندما بشره الله بإمامته تذكّر ذريته . قال تعالى واذ إبتلى ابراهيمَ ربّه بكلمات فأتمهن * قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي * قال لا ينال عهدي

---

(١٢٥) انظر التكوين / ٢٢ : (خذ ابنك وحيدك اسحاق الذي تحبه وانطلق الى ارض المريا وقدمه محرقه) .

(١٢٦) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٦٢ .

الظالمين ﴾[127] ومع هذه البشارة التي تلقاها الخليل وضع الربُّ جلّت قدرته قاعدة وأساساً للتعامل مع الخالق وأوضح المنهج الذي طالما أكدته آيات القرآن الكريم وهي أن هذا العهد لا يشمل الظالمين مهما كانوا حتى لو كانوا من ذرية إبراهيم وتحت هذه القاعدة يمكن ان يوضع بنو اسرائيل وكل الامم على الارض فمن استجاب الى دين الله وارتبط بالتوحيد فهو الذي يستحق تكريم الله وتمكينه والكرامة في الدنيا والآخرة ومن أعرض وكان من الظالمين فعليه غضب الله ولعنته الى يوم الدين . وعندما ارتبط العرب بإسماعيل لم يكن هذا من صنعهم ومن نسج خيالهم ولكن التوراة تذكر ذلك والتاريخ يذكره . وكان الله تعالى قد وضع إسماعيل في ذلك المكان البعيد عن العالم والمدنية والحضارات في ذلك الوادي المقفر حيث لا ماء ولا شجر في تلك الجبال الجرداء ويتوقف التاريخ عند إسماعيل وبناء البيت وتهيئته للامة الموحدة وبعدها بآلاف السنين من التوقف والانطواء والعالم مشغول بجلبة المدن وضجيجها يشرق على الارض نور النبي محمد (ﷺ) وكان التاريخ صامتاً في تلك البقعة والليل يخيم على ارجائها وكان هذا الصمت يتوافق مع سكون الصحراء والعالم من حول هذه البقعة يعيش صراعاً امتد عمقه وطال أمده هذا الصراع الذي قاده الانبياء الذين بعثهم الله بعد إبراهيم وتفرعوا وانحدروا من إسحاق ويعقوب ويوسف وموسى وعيسى والاسباط وأنبياء كثيرون منهم من قص علينا القرآن ومنهم من لم يقصص . وكانت جزيرة العرب تعيش فترة وتوقف حتى اختار الله حبيبه محمداً (ﷺ) . ولم تكن العرب أمة تدرك أن القدر قد خبّأ لها دوراً عظيماً يتجاوز الملامح الظاهرة لهذه الامة وما تتوسمه في نفسها . وهذه الامة التي توافق اختيارها وتهيأتها مع نبيها محمد (ص) كانت في ذاكرة ابيها ابراهيم وهو يبني البيت على قلب ارضها وعلى مركز الارض وأشرف البقاع . بل ان الامر كان في ذاكرة إبراهيم ابعد من هذا التاريخ عندما ترك زوجته هاجر وابنها الرضيع على تلك الاحجار وتحركت فيه عاطفته وانسانيته ولكنه وهو إمام المتوكلين العارف بربه لا يمكن ان يتباطأ في تنفيذ ما يأمره الله به فكان الدعاء يمثل خلجات نفسه وأمنية استقرت في قلبه ان يهدي الله قوماً لكي يستقروا مع هذه المرأة الوحيدة في تلك الصحراء المترامية . ﴿ وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ ان نعبد الاصنام ﴾ واستمر إبراهيم في دعائه ورجائه لربه ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم

---

(127) سورة البقرة / 124 .

ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾[١٢٨] لم يكن هؤلاء الاعراب الذين يبحثون عن الماء في تلك الصحراء يعلمون أنهم على موعد مع قدرهم الذي اختاره الله لهم واختارهم له . والعرب لم يكتبوا التاريخ ليصنعوا لهم مجداً مزيفاً ولكنهم كانوا يتحركون بالتاريخ من دون علم منهم بأنهم يتحركون على أكرم مسار لحركة الانسان على الارض وهو مسار الانبياء .
ولو كانوا يعلمون او كانوا يبحثون عن مجد التاريخ لما اختار إدراكهم القاصر ان يكونوا أولاد جارية مصرية . (ولو أراد العرب ان يخترعوا لما اخترعوا نسبة ينتمون بها الى جارية وتخص غيرهم بالانتماء الى السيدة المختارة . ولو كان بوسع اليهود ان يحتكروا النسب الى إبراهيم لما ذكروا شيئاً عن نسبة غيرهم اليه . فالانتساب الى إبراهيم لم يكن مسألة اختراع واختبار)[١٢٩] .

بنــــاء الكعبـــة :

أول بيت وضع للناس يربطهم بخالقهم ويذكّرهم بحقيقة وجودهم . بيت وبناء وأرض شرّفها الله واختارها من بين المساحة الهائلة لهذه الارض اختار الله بقعة مباركة على وفق حكمته وعلمه في موقع لا يغري الآخرين ولا يدعو للمنافسة ولا يحسد ساكنه على وفق مقاييس الارض وأهل الارض . وقد جاء هذا الاختيار ليؤكد اختلاف مقاييس السماء عن مقاييس الارض وليؤكد ان المسار الذي يرتبط بالسماء لا يتحرك على وفق الظواهر المادية وان كانت هذه الظواهر هي نواميس ايضاً وضعها الذي أوجد الحياة ويسّرها للانسان لكي يسير بمقتضاها فجاء اختيار البيت ليجمع بين الايمان بالاسباب ومسبباتها فكانت المنهجية القرآنية هي الجمع بين الحقيقتين بين الروح والمادة . كل المدن كانت مواقعها تمنحها وجوداً وجمالاً كانت هذه المدن تنبض شرايينها بمياه الانهار وتتنفس عبير الاشجار وظلال الجبال والغابات وعذوبة الهواء . ولكن مكة كان جمالها من نوع آخر . حيث لا ماء ولا انهار ولا أشجار ولا عذوبة الهواء . كان النور النازل من السماء يلامس جبالها ووديانها وينعكس على قلوب الطائفين والقائمين والركع السجود . وكانت قوافل الحجيج

---

(١٢٨) سورة ابراهيم / ٣٥ ـ ٣٧ .

(١٢٩) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٤٣ .

تخترق الفجاج العميقة وما ان تدخل بقعة النور حتى تحس بالامان والراحة فتنسى كل مقاييس الدنيا وجمال الدنيا ومتاعها وتطّلع من هناك على انوار العالم الآخر فتتبدد ظلمات الران المتبلدة على القلوب المتعبة . وكأنَّ الله تعالى قال كلمة عظيمة عندما اختار مكان بيته الحرام . كأن الله تعالى يقول انه قادر على اخراج الحي من الميت والقوة من الضعف والجمال من القسوة فكانت مكة . لقد ارتبط البيت بإبراهيم ﴿ ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ﴾[١٣٠] .

لم يرد ذكر للبيت او لمكة في القرآن الكريم مع الانبياء السابقين لإبراهيم (عليهم السلام) . منذ آدم ونوح وهود وصالح هؤلاء الانبياء لم يرتبط ذكر مكة معهم وانما بعثوا لاقوامهم . وقد وردت روايات حديثة عن ارتباط هؤلاء الانبياء بمكة منذ آدم إذ وردت أحاديث تقول : ان الله أمره ببناء لعبادته على الارض كالبيت الذي في السماء . ونوح وردت روايات عن سفينته التي طافت حول البيت . وانه مات ودفن بالمسجد الحرام . وهود وصالح جاءوا الى مكة بعد هلاك قومهم وماتوا ودفنوا هناك . على ان هذه الروايات لا سبيل الى توثيقها او الجزم بصحتها لانها وردت من طرق لا تخلو من مقال . اما النص القرآني فيتحدث بتفصيل عن بناء إبراهيم للبيت قال تعالى ﴿ وإذ بوّأنالإبراهيممكان البيت الا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾[١٣١] . وقال تعالى ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾[١٣٢] وقال ابن كثير : « لم يجيء في خبر صحيح عن معصوم ان البيت كان مبنياً قبل إبراهيم الخليل (عليه السلام) . وقد ذكرنا ان آدم نصب عليه قبة وان الملائكة قالوا قد طفنا قبلك بهذا البيت وان السفينة طافت به اربعين يوماً أو نحو ذلك ولكن كل هذه الاخبار عن بني إسرائيل وقد قررنا انها لا تصدق ولا تكذب فلا يحتج بها »[١٣٣] ولكن القرآن الكريم يذكر ان إبراهيم (عليه السلام) قبل ان يبني البيت وعندما ترك هاجر وإسماعيل ذكر البيت كما في قوله تعالى ﴿ ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا

---

(١٣٠) سورة آل عمران / ٩٦ .

(١٣١) سورة الحج / ٢٦ .

(١٣٢) سورة البقرة / ١٢٧ .

(١٣٣) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٠ .

الصلاة ﴾ ان هذا النص يدل على ان البيت كان موجوداً وانه مكان معد لإقامة الصلاة . ولكن إبراهيم قد يكون هدم القديم وجدد بناءه او انه كان متهدماً وبقايا بناء قديم أرشده الله اليه وفي ذلك يقول تعالى ﴿ وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ﴾ وقد جاء عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وغيره : «انه أُرْشِدَ إليه بوحي من الله عزوجل »[١٣٤] وقد روى الازرقي « عن وهب بن منبه انه قال : لما رفعت الخيمة التي عزى الله بها آدم من حلية الجنة حين وضعت له بمكة في موضع البيت ومات آدم (عليه السلام) فبنى بنو آدم من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح (عليه السلام) فنسفه الغرق وغيّر مكانه حتى بوىء لإبراهيم (عليه السلام)[١٣٥] . وروى عن مجاهد انه قال : كان موضع الكعبة قد خفي ودرس في زمن الغرق فيما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام قال : وكان موضعه أكمة حمراء مدره لا تعلوها السيول غير ان الناس يعلمون ان موضع البيت فيما هنالك ولا يثبت موضعه (يعني من غير تعيين محله) وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الارض ويدعو عنده المكروب فقال من دعا هنالك إلا استجيب له وكان الناس يحجون الى موضع البيت حتى بوأ الله مكانه لإبراهيم (عليه السلام) لما أراد من عمارة بيته وإظهار دينه وشرائعه فلم يزل منذ اهبط الله آدم (عليه السلام) الى الارض معظماً محرماً بيته تتناسخه الامم والملل أمة بعد أمة وملة بعد ملة قال : « وقد كانت الملائكة تحجه قبل آدم (عليه السلام) »[١٣٦] ان هذه الروايات تؤكد حقيقة وهي ان مكة حرسها الله لم تزل لها أهمية منذ آدم وكانت مرتبطة مع الانسان تعبر عن قضيته وترمز الى ارتباطه بالسماء . وكانت مكة تثير في وجودها على الارض غرابة وغموضاً . وكانها تعبر عن غربة الانسان على الارض وان وجوده هنا مؤقت بزمن قصير يرتحل عنه فيما بعد الى دار القرار والخلود . وأن تكون مكة في قلب صحراء العرب أمر يثير تساؤلات ولا يخلو من الغرابة كذلك وكأن الله أراد ان يضع فيها سراً وقوة ذاتية تتحصن بها خلف الرمال فلا يستطيع جبار من جبابرة

---

(١٣٤) ابن كثير / قصص القرآن / ص ١٦٩ .

(١٣٥) الازرقي / ابو الوليد محمد بن عبدالله بن احمد ت ٢٤٤ هـ / اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار جـ١ ص ٥١ تحقيق رشدي صالح ملحس مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة / ط٢ سنة ١٩٦٥ .

(١٣٦) الازرقي / اخبار مكة / جـ١ ص ٥٣ .

الارض ان يجازف او ان يفكر في احتلالها او تدميرها . ولم يذكر لنا التاريخ ان مكة تعرضت لغزو من خارج ارض العرب إلا محاولة يائسة من إبرهة الحبشي وكانت نهايته معروفة « ويروى عن عبدالله بن الزبير : سمي البيت العتيق لانه عتق من الجبابرة ان يسطوا عليه »[١٣٧] . وفي العصور القديمة قبل إبراهيم (عليه السلام) لم تكن الحضارات قد قامت وكان المجتمع البشري يخطو خطواته الاولى على الارض ولكن في زمن إبراهيم كانت البشرية قد وصلت الى مرحلة النضج الحضاري او المدني فقد ظهرت على الارض المدن والدول والكتابة والصناعة والزراعة وعبّر الانسان عن أوج نشاطه وقابلياته في جميع الاتجاهات الثقافية والاجتماعية والروحية والمادية . في هذا العصر كان لابد من ان يتطور وضع البيت ليلائم العصر . عصر المدن وعصر الفخار ولابد من ان يشيد البيت بالبناء وان تتشكل نواة مدينة حوله فكان زمزم الماء مصدر الحياة وكانت مكة نواة المدينة المقدسة . « وكان إسماعيل يحمل الحجارة على رقبته ويناولها الى إبراهيم (عليهما السلام) والشيخ يبني فلما ارتفع البناء شق على الشيخ إبراهيم تناوله فقرب اليه إسماعيل هذا الحجر - يعني المقام - فكان يقوم عليه ويبني ويحوله في نواحي البيت ، يقول ابن عباس : فلذلك سمي مقام إبراهيم لقيامه عليه »[١٣٨] وقد روى كذلك : « الكعبة وهي مكعبة على خلقة الكعب فلذلك سميت الكعبة قال : ولم يكن إبراهيم سقّف الكعبة ولا بناها بمدر وانما رضمها رضماً »[١٣٩] ان الحجر الذي وقف عليه الخليل وهو يبني البيت آية من آيات الله حيث حفرت أقدام الخليل وتركت أثراً على الحجر وبقي هذا الاثر على الحجر الى اليوم ويبقى حتى قيام الساعة « وكان هذا الحجر ملصقاً بحائط الكعبة - على ما كان عليه في قديم الزمان - الى أيام عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فأخّره قليلاً لئلا يشغل المصلون عنده الطائفين بالبيت وقد كان الله قد استجاب لدعوة عمر باتخاذ مقام إبراهيم مصلى »[١٤٠] .

ان حياة إسماعيل (عليه السلام) في مكة تلقي ضوءاً على عصره وعصر إبراهيم (عليه السلام) فانه لم يعش وحده مع أمه في مكة ولكن الروايات التاريخية

---

(١٣٧) الازرقي / اخبار مكة / جـ١ ص ٨٩ .

(١٣٨) الازرقي / اخبار مكة / ص ٥٩ .

(١٣٩) الازرقي / اخبار مكة / ص ٦٦ .

(١٤٠) رضا / فؤاد علي / ام القرى مكة المكرمة / ١٠٧ .

تؤكد ان قبيلة كانت تنتقل في جزيرة العرب تبحث عن الماء والكلأ وهي متجهة من الجنوب شمالًا حيث الانهار وبرد العيش هرباً من قسوة الصحراء وحرها وجدبها وعندما مرّوا على وادي مكة لاحظوا آثار تدل على الماء حيث الطيور تجمعت والاشجار نبتت . فطاب لهم النزول هناك عند هاجر وإسماعيل . وشب بينهم إسماعيل وامتزج بهم وتكلم لغتهم وتزوج منهم وهؤلاء هم جرهم وهم من العرب البائدة وبعد إسماعيل وذريته كانت العرب المستعربة وينسبون الى نابت او نبات احد اولاد إسماعيل . وهذه الحقيقة تؤكد ان اصل العربية لم يتطور من اللغة اليمانية « وإنما جاء التطور من العربية القديمة الى الآشورية الى الارامية الى النبطية الى القرشية . فتقاربت لغة النبط ولغة قريش من هذا السبيل وكان التقارب بينهما في الزمان او في درجات التطور ولم يكن تقارباً يقاس بالفراسخ والاميال هذه هي البينة الكبرى من مباحث اللغة على قرابة أهل الحجاز من النبطيين او النباتيين أبناء إسماعيل . ولهذا قال ابن عباس : نحن معاشر قريش من النبط »[١٤١] وكانت النبط تفرض ثقافتها ولغتها على أرض الجزيرة وشمالها وبلاد وادي الرافدين وهذا أيضاً يعزز قناعتنا بان أصل العرب وجذور تكوينهم كانت من بلاد الرافدين ولم تكن الجذور من اليمن ، لان اليمن تطورت بيئتها الاجتماعية وقبائلها بصورة متوازية مع جميع بلاد العرب بينما كانت ارض الرافدين تشهد ولادة المجتمعات الاولى والنبوات الاولى منذ آدم ونوح (عليهم السلام) . ولم يسجل التاريخ لنا نبوة في ارض اليمن قبل هود عليه السلام . وهود جاء بعد نوح كما هو ثابت في القرآن الكريم .

لقد ارتبطت حياة إبراهيم بمكة من خلال إسماعيل . وان هذه العلاقة لم تكن مخفية او دعوى ادعاها العرب ولكن التوراة تذكرها فقد جاء في سفر التكوين « فنادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : (ما الذي يزعجك يا هاجر؟ لا تخافي لان الله قد سمع بكاء الصبي من حيث هو ملقى . قومي واحملي الصبي وتشبثي به لانني سأجعله أمة عظيمة) ثم فتحت عينها فابصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة وسقت الصبي وكان الله مع الصبي فكبر وسكن في صحراء فاران وبرع في رمي القوس واتخذت له أمه زوجة من مصر »[١٤٢] . لقد صيغت هذه الرواية بطريقة مفتعلة وأضيفت عليها معلومات تشويش وخلط إذ كيف يتسنى لهاجر ان تذهب الى

---

(١٤١) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٨ .

(١٤٢) تكوين / ٢١ / ١٧ - ٢١ .

مصروتاتي بمصرية لتزوجها من إسماعيل ؟ وما هي فاران ؟ ولماذا هذا التخفيف والمرور العابر؟ ومن هذه الامة العظيمة التي بشر بها الرب ستكون من ذرية إسماعيل ؟ أغير العرب ؟ كل هذا يؤكد ان هذه النصوص تحوي في طياتها معاني كامنة ليست مما يحب اليهود إشاعته أو نشره فحذفوا وحرفوا وشوشوا . وعلى ما في هذه الرواية من نقاط ضعف واضطراب فانها تؤكد علاقة إبراهيم بمكة التي هي فاران عن طريق إسماعيل . النص القرآني الذي ذكر إسماعيل وارتباطه بإبراهيم صراحة كان من خلال مكة والحديث عن بقاء هاجر وإسماعيل في الوادي وعندما تركهما إبراهيم (عليه السلام) ودعا لهما بأن يجمع معهم أمة من الناس تزيل عنهما وحشة الوحدة بعدها توجه إبراهيم الى ربه بالثناء والحمد على النعم الكثيرة ﴿ الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعاء ﴾[١٤٣] لقد ذكر إبراهيم (عليه السلام) إسماعيل قبل إسحاق وهذا يدل على ان إسماعيل اكبر من إسحاق . وان كانت نصوص القرآن والتوراة تؤكد هذه الحقيقة ولكن هنا تخصيص وترتيب وتسمية ولكن في مواضع أخرى تذكر هذه الحقيقة بصورة غير مباشرة والنص الآخر الذي ذكر فيه إسماعيل مع إبراهيم كان أيضاً من خلال مكة وأثنا عملية بناء البيت حيث جاء النص ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك إنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[١٤٤] وفي النص يتضح ارتباط إبراهيم وإسماعيل بمكة وبمحمد (ﷺ) وبأمة العرب والاسلام .

عاش إسماعيل مع أمه هاجر في مكة وتزوج من جرهم زوجتين الاولى طلّقها بأمر أبيه إبراهيم وتزوج الثانية منهم كما وردت بذلك أحاديث نبوية وأبقى الثانية بأمر أبيه كذلك[١٤٥] وهذه الروايات تدل على بقاء اتصال إبراهيم بإسماعيل وزيارته له وقد ماتت هاجر ودفنت في مكة عند المسجد الحرام . وتوفي بعدها إسماعيل ودفن قرب أمه في مكان يسمى حجر إسماعيل . وهكذا انتهت حياة النبي الكريم إسماعيل وقد

---

(١٤٣) سورة ابراهيم / ٣٩ .

(١٤٤) سورة البقرة / ص ١٢٦ - ١٢٩ .

(١٤٥) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٥٦ - ١٥٧ .

عكست لنا ملابسات هذه الحياة كيف تكونت أمة العرب وكيف تتحد العوامل فتنشأ الامة وكيف حدث التمازج بين إسماعيل وقبيلة كانت تعيش الحياة مثله وهكذا كان العالم وهكذا تكونت الامم .

إســـحاق (عليه السلام) :

نصوص كثيرة في القرآن الكريم تحدثت عن إسحاق (عليه السلام) منها : ﴿ وبشرناه بإســحاق نبياً من الصالحين وباركنا عليه وعلى إســحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين ﴾[146] ومنها ايضاً : ـ ﴿ وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإســحاق ومن وراء إســحاق يعقوب قالت يا ويلتي أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب * قالوا أتعجبين من أمر الله رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت انه حميد مجيد ﴾[147] قال العلماء في قوله تعالى ﴿ فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴾ دليل على أنها تستمتع بوجود ولدها إســحاق ثم من بعده بولد ولده يعقوب اي يولد في حياتهما لتقرّ أعينهما به كما قرت بولده . ولو لم يرد هذا لم يكن لذكر يعقوب وتخصيص التنصيص عليه من دون سائر نسل إســحاق فائدة »[148] ومع إســحاق ويعقوب يُذكر بناء المسجد الاقصى وكأنها مقابلة بين إبراهيم وإســماعيل وبناء المسجد الحرام وهذا المقياس للفضل جعله الله ليتعلم الناس فضل المسجد الحرام وإبراهيم وإســماعيل ومحمد (ﷺ) وفضل المسجد الاقصى وإســحاق ويعقوب عليهم جميعاً (صلوات ربي وسلامه) . ففي الحديث الحديث المروي في الصحيحين « عن ابي ذر قال : قلت : يا رسول الله .. اي مسجد وضع أول ؟ قال : المسجد الحرام » قلت : ثم اي ؟ قال : « المسجد الاقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال : « اربعون سنة » قلت : ثم اي ؟ قال : « حيث ادركت الصلاة فصلِّ فكلها مسجد »[149] . وفي روايات أهل الكتاب ان الذي بنى المسجد الاقصى هو

---

(١٤٦) سورة الصافات / ١١٢ ـ ١١٣ .

(١٤٧) سورة هود / ٧١ ـ ٧٣ .

(١٤٨) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٦٧ .

(١٤٩) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٧٦ .

يعقوب (عليه السلام) وهو مسجد ايليا ببيت المقدس شرّفه الله وأعاده الى المسلمين .

وقد نسج اليهود عن شخصية إســحاق ويعقوب وحَوَتْ توراتهم من الاباطيل في حق هؤلاء الانبياء وأبيهم عليهم صلوات الله الكثير . وقد حاول اليهود الارتباط بإبراهيم عن طريق يعقوب وإســحاق وجعلوا من إبراهيم أباً لليهود ونبي التوراة وجاء في العهد القديم « انقاذ لوط من الاسر . وجاء أحد الناجين الى إبراهيم العبراني الذي كان مازال مقيماً عند بلوطات ممرا اخي اشكول وعانر حلفاء ابرام »[١٥٠] . وصورت التوراة سارة امرأةً تقتلها الغيرة وتظلم وتطرد هاجر وقد جاء في سفر التكوين : « ورأت سارة ان ابن هاجر المصرية الذي انجبته لإبراهيم يسخر من ابنها إســحاق . فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها . فان ابن الجارية لن يرث مع إبني إســحاق . فقال الله له : (لا يسوء في نفسك أمر الصبي أو أمر جاريتك واسمع لكلام سارة في كل ما تشير به عليك لانه بإســحاق يدعى لك نسل . وساقيم من ابن الجارية أمةً ايضاً لانه من نريتك »[١٥١] . موازنة بسيطة بين نصوص القرآن وهذه النصوص ونظرة القرآن الكريم الى الانبياء النظرة التي تستعلي على الاهواء والمؤثرات القائمة على أسس من التعصب وعقد التاريخ والاحساس بالتعطش للخروج من الكبت والذل والحرمان النظرة القائمة على اصطفاء انبياء البشر وانتماء هؤلاء الى الانسانية المكرمة الخاضعة لسنن الله في مسيرتها على الارض . ويغنينا عن الكلام التأمل في النص القرآني التالي ﴿ ووهبنا له إســحاق ويعقوب كلاً هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ● وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ● وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين ● ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم ﴾[١٥٢] وتحدث القرآن عن الصراع بين الاديان عن شخصية إبراهيم (عليه السلام) وذلك في قوله تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده أفلا تعقلون ● ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله

---

(١٥٠) سفر التكوين / ١٤ / ١٣ ـ ١٦ .

(١٥١) سفر التكوين / ٢١ / ٩ ـ ١٤ .

(١٥٢) سورة الانعام / ٨٤ ـ ٨٧ .

يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * ان اولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾[١٥٣] وقال تعالى ﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كانوا هوداً او نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن اظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عمّا كانوا يعملون ﴾[١٥٤] وهذه الآيات القرآنية واضحة في ردها على اليهود وعلى أهل الكتاب الذين ربطوا تاريخهم بإبراهيم (عليه السلام) وقد وضع القرآن الكريم الأساس والمنهج الذي يوصل بإبراهيم وهو طريق الانبياء جميعاً والخط الواصل من آدم الى محمد (ﷺ) جميعا ذلك هو دين الاسلام دين الفطرة دين التوحيد دين الحنيفية الصراط المستقيم الذي يجمع الانسانية برباط واحد ويرد أهلها الى الاصل الذي انحدر منه البشر (ذكر وانثى) ولا فضل لإنسان على إنسان ولا مجتمع على مجتمع ولا شعب على شعب . انما التفاضل للسبق بهذا الدين . والآيات تدل على ان الاديان التي جاءت بعد إبراهيم اليهودية والنصرانية انما جاءت محدودة الى اقوام الانبياء الذين بعثوا فيهم . ولكن إبراهيم لم يكن مرتبطاً بقوم في دعوته وانما انتقل من بلد الى بلد ودعا كل من عاش معهم الى التوحيد والى دين الاسلام[١٥٥] . فكانت عالمية دعوة إبراهيم مرتبطة بدعوة النبي محمد (ﷺ) ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين ﴾ وهذا النبي تعني محمداً (ﷺ) . ولا حاجة للاستطراد لاثبات إن عصر إبراهيم غير عصر اليهود وان عصره كان عربياً[١٥٦] . وان كان القرآن الكريم قد ربط بين عصر إبراهيم

---

(١٥٣) سورة آل عمران / ٦٥ - ٦٨ .

(١٥٤) سورة البقرة / ١٣٩ - ١٤١ .

(١٥٥) وهذه المساحة الجغرافية التي تحرك عليها ابراهيم تؤكد اشتراك أصل هؤلاء الاقوام الذين يسكنون على هذه المساحة . وقد اكدت الابحاث اللغوية اشتراك الجماعات التي كانت متواجدة على بلاد الرافدين والشام وشبه الجزيرة العربية ووادي النيل في عصر ابراهيم في اللغة وان هذه اللغة وان كانت تختلف في لهجاتها وبعض صيغها ولكن اهلها يستطيعون التفاهم بينهم ولذلك اقترحنا تسميتها بالابراهيمية لانها اوثق من السامية .

(١٥٦) انظر سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ وكذلك حداد / د. مهنا يوسف / الرؤية العربية لليهودية وكذلك سعدالدين / د. ليلى حسن / مثل الذين حملوا ←

(عليه السلام) وشخصيته وبين محمد (ﷺ) الذي ظهر في أمة العرب وجزيرتهم ولكن القرآن الكريم لم يربط ربطاً عرقياً وهذه إحدى الافكار الخرافية التي تبنتها التوراة . كما تبنى اليهود اسطورة السامية التي توغل في القدم قبل عصر إبراهيم بعد نوح (عليه السلام) والتي لا دليل عليها . لقد كان النص القرآني واضحاً في ابراز الارتباط العقائدي الذي يرتبط بين المؤمنين عبر الزمان والمكان . لقد بعث الله الانبياء والرسل الى مختلف الشعوب والاقوام وكل شعب كان فيه المؤمنون والكافرون . وكانت العقيدة واحدة وهي الايمان بالاله الواحد الذي خلق السموات والارض وخلق الانسان وهذه هي العقيدة الاسلامية اما الشريعة فكانت تعبر عن العصر الذي يبعث فيه النبي وعن تنظيم الحياة بمقتضى الواقعية والعصرية المحددة بحدود الزمان والمكان . فكانت هذه الشريعة تتغير في أحكامها مراعاة لطبيعة الواقع حتى بعث محمد (ﷺ) فكانت الشريعة والعقيدة قد صيغتا صياغة معجزة لتتلاءم مع كل العصور منذ البعثة حتى قيام الساعة . وبموجب الواقعية التي اتسمت بها رسالة محمد (ﷺ) فقد مثل العرب مادتها وأول من تفاعل معها وأنزل الكتاب بلغتهم لذلك كان لابد من أن يمتلكوا خصوصية طبيعية نتيجة لارتباط الرسول والرسالة بهم . على ان العرب المسلمين الذين وضعوا ضمن هذا الاطار الرسالي والوظيفي المهمة الاولى لنشر الرسالة عالمياً لم يضعوا أنفسهم موضعاً طبقياً او نظروا نظرة استعلاء على الامم الاخرى وهذا هو أثر القرآن الذي نزل من السماء وجاء ليعبر عن علاقة الانسان بالله . وجاء النص القرآني معبراً عن وحدة المشاعر ووحدة العقيدة ووحدة المصدر . ولعل آيات القرآن الكريم اعظم تأثيراً وأوضح تعبيراً من كل الكلمات فلنتأمل قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وانه في الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين * ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وانتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل إلهاً واحداً ونحن له مسلمون * تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم * ولا تسألون عما كانوا

→ التوراة ثم لم يحملوها . هذه الكتب كلها نظرت الى القضية من خلال هذه الزاوية وهي تمثل جانباً من الحق ولكن القرآن الكريم هو الفيصل وقد حدد ملامح وطبيعة النظرة من خلال آياته .

يعملون * وقالوا كونوا هوداً او نصارى تهتدوا قل بل بملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل الى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾[١٥٧] ان النص واضح في تحديد طبيعة العلاقة التاريخية بين الانبياء وكيف ان اتباع هؤلاء الانبياء قد انحرفوا وطالبهم القرآن الكريم بتصحيح عقائدهم والايمان بما أنزل على آخر الانبياء محمد (ﷺ) لانه يمثل الامتداد الطبيعي لاولئك الانبياء وان رسالته جاءت لتؤكد النبوات وتصحح الانحرافات التي طرأت عبر التاريخ على العقائد والشرائع التي بلغها اولئك الانبياء ولذلك نحن لا نؤيد الفكرة القائلة « ان شرائع التوراة هي نفسها هي الشرائع التي كان يمارسها الكنعانيون والبابليون والمصريون من قبل وقد اقتبسها اليهود منهم ومارسوها ثم ادخلوها في كتبهم المقدسة »[١٥٨] ان تعميم هذه الفكرة لا يخلو من المفاهيم الخاطئة التي سيطرت على دارسي التاريخ القديم[١٥٩] . فقد قادتهم الاخطاء التاريخية التي ذكرتها التوراة الى هذه القناعة فانكروا كل ما في التوراة ونسبوا ما فيها الى تأثير الحضارات القديمة وسلموا بعد ذلك بما وجدوه على الرقم الطينية من الاساطير والعقائد الوثنية على اساس قدمها التاريخي وانها اقرب الى التصديق كمصدر الى فهم التاريخ القديم من التوراة . فلا هذه ولا تلك تسلم من النقد وتخلو من الخطأ . ان المبدأ الاسلامي واضح في تحذيره من معلومات التوراة (بعدم تصديق اليهود وعدم تكذيبهم) (ولا بأس في التحديث عن بني اسرائيل) وهذه المفاهيم لتوجيهات النبي محمد (ﷺ) لاتباعه وهم يتعاملون مع معلومات أهل الكتاب الاول وقد سبق الكلام عنها . ولذلك لابد للدراسة التي تتبع المنهجية

---

(١٥٧) سورة البقرة / ١٣٠ - ١٣٧ .

(١٥٨) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٨٤ .

(١٥٩) يقول العقاد حول هذه الظاهرة : « ان الدعوات النبوية التي بدأتها دعوة ابراهيم سلالة لم يظهر لها نظير في غير الامم العربية . وقد ختمت بدعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وجاءت دعوة النبي محمد صلى اللهعليه وسلم متممة لها فلا تفهم واحدة منها منفصلة عن سائرها بترتيب كل منهما في زمانها وعلاقة كل منها بمكانها فلا لبس فيها من جانب العصر ولا من جانب البيئة » . العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٢١٨ .

الاسلامية ان تمزج الرؤى وتقارن الدراسات وتبحث عن الحقائق في كل المصادر سواء أكانت الكتب المقدسة أم الحفريات والرقم الطينية . وموازنتها مع نصوص القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وسنجد ان القرآن قد نطق بالحق . ويمكن رسم مخطط يوضح العلاقة التي وضحها القرآن الكريم بين الانبياء منذ عصر إبراهيم (عليه السلام) حتى محمد (ﷺ) ويمثل هذا المخطط النظرة الاسلامية للأنبياء وبذلك نستطيع ان نضع القواعد والاسس التي عدّها القرآن الكريم في تكوين نظرة المؤمنين للأنبياء[160] وقد صاغ القرآن الكريم عقيدة المسلم بالنسبة للأنبياء وأتباعهم وكما يأتي :-

١ - المسلم تحكمه نظرة واحدة الى الانبياء في المحبة والتبجيل والتعظيم قال تعالى ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ﴾[161] . فالانبياء سواء في التقدير الا ما ثبت « بالتواتر عنه (ﷺ) من انه سيد ولد آدم يوم القيامة كما في رواية مسلم من حديث أبي بن كعب (رضي الله عنه) بقوله (ﷺ) : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر . وقد جاء عنه من باب التواضع انه قال : (لا تفضلوني على الانبياء) وقال (ﷺ) : (لا تفضلوني على موسى فان الناس يصعقون يوم القيامة فاكون أول من يفيق فاجد موسى باطشاً بقوائم العرش فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور ؟ وقد روى البخاري : حديث (الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسـحاق بن إبراهيم »[162] وهذا من تعليمه (ﷺ) للمسلمين لكي يحبوا هؤلاء الانبياء ويذكروهم بخير .

٢ - عقيدة المسلم ان كل اتباع الانبياء في عصر نبيهم مؤمنون مسلمون فاتباع موسى (عليه السلام) في عصره وما بعده ما لم يأت نبيٌّ ينسخ دعوة النبي الذي قبله فان هؤلاء الاتباع هم المؤمنون الموحدون وكذلك اتباع عيسى (عليه السلام) ولذلك قال الله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا

---

(١٦٠) انظر صورة المخطط في نهاية الفصل .

(١٦١) سورة البقرة / ٢٨٥ .

(١٦٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٨٢ - ١٨٣ .

والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[١٦٣] وقوله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾[١٦٤] . وهذا يؤكد ان الانبياء لم يكونوا يدعون لانفسهم ولا لعشيرتهم ولا لآبائهم ولكن دعوتهم كانت واحدة لتوحيد الله في العبودية والايمان باليوم الاخر وتغيير سلوك الانسان وضبطه بالعمل الصالح . ولذلك قد يعاصر نبيٌ نبياً آخر كما عاصر إبراهيم لوط وعاصره أولاده إسماعيل وإسحاق وجاء يعقوب في حياة إبراهيم (عليهم السلام) . وكما عاصر موسى هارون وعاصر عيسى زكريا ويحيى عليهم صلوات ربي وسلامه . ولا يشترط ان تكون المعاصرة في مكان واحد وكذلك لا يوجد نص يدل على ان شرط اللقيا بين النبيين أو الانبياء المتعاصرين وكذلك لم يرد نص يثبت وجود علم النبي بمعاصريه من الانبياء . اذ قد يبعث الله تعالى انبياءَ عديدين في اماكن مختلفة ولا يُعْلِمُ اللّهُ بعضَهم لبعض وهذا العلم كله من اختصاص الله تعالى . ولذلك تقسيم الادوار التي مرت بها ديانة اليهود يخالف عقيدة القرآن التي اثبتناها في الآيات السابقة وان هذا التقسيم يعبر عن عقيدة تطور الدين والدين لا يتطور وعقيدة تطور الاديان التي قال بها فرويد[١٦٥] وسبقه علماء الانثروبولوجي الغربيون الذين بحثوا تحت التراب ونسجوا قصة تطور الاديان التي قال بها المؤرخون الغربيون وتابعهم مع الاسف الشديد بعض المسلمين . ولذلك نرى أثر هذه العقيدة على الذين ذهبوا لنقض عقائد اليهود وتفنيد مزاعمهم فوقعوا تحت تأثير هذه العقيدة التي مهد لها اليهود لتدمير الصورة بالكامل وضياع الحقيقة بالنسبة لغير اليهود ويحتكرون الحقيقة لانفسهم وفيما بينهم . ونحن عندما نجد اثر هذه العقيدة في كتابات المسلمين والباحثين العرب الذين يدافعون عن القضية الفلسطينية من خلال تقويض دعائم التاريخ اليهودي فانه أمر مؤسف ألا ينتبهوا لهذه الحقيقة فلو أخذنا كمثال على ذلك ما ذكر د. احمد سوسة

---

(١٦٣) سورة المائدة / ٦٩ .

(١٦٤) سورة البقرة / ٦٢ .

(١٦٥) انظر فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد .

عندما قسم الادوار التاريخية نجده يذكر ثلاثة أدوار:

أ - دور إبراهيم وإسحاق ويعقوب وترجع حوادث الى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد وهو دور مستقل بذاته ليس له أي صلة بدور النبي موسى او اليهود[١٦٦] ونحن نتفق مع الدكتور سوسة بتمييز العصر وتحديده ولكن كل الانبياء متصلون من حيث اصل الرسالة ومبدأ الدعوة الواحدة بحسب تحديد القرآن لهذه الحقيقة .

ب - دور موسى ويسميه دور حملة النبي موسى المصرية على فلسطين . وهذا خلط واضح اذ ليست هناك في النصوص القرآنية والروايات الاسلامية حملة مصرية على فلسطين وكذلك يسميهم بالموسوية او الموسويين وهذا لا يتفق مع منهجية القرآن التي ذكرناها فلم يرتبط موسى ببني إسرائيل بشخصه ولم توجد موسوية وهي تسمية تحريفية غير صحيحة .

جـ - الدور الثالث ويسميه دور اليهود ويدّعي ان القرآن الكريم قد ميّز بين هذا الدور وسماه دور اليهود وفصله عن بني إسرائيل والاسرائيليين فهناك فرق بين اليهود والاسرائيليين ويستند الى قوله تعالى ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ ويقول : لم يرد هنا اسم إسرائيل المرتبط بعصر إبراهيم الخليل . ويستشهد على خلط اليهود لهذه الادوار واختراع الإله (يهوه) برأي فرويد الذي يقول فيه : « لقد تحرى الكهنة في سردهم ان يوجدوا استمرارا بين عصرهم . وعصر موسى وأرادوا ان ينفوا ما يمثل في نظرنا أبرز واقعة في تاريخ الدين اليهودي واعني بها وجود ثغرة بين شرائع موسى والديانة اليهودية المتأخرة عنها في الزمان . ثغرة سُدّت في البداية بعبادة يهوه ثم تم التخلص منها فيما بعد رويداً رويداً وعلى مهل ولقد كانت رواية الكهنة تخضع للميل المحرف والمشوه نفسه الذي جعل من الإله الجديد (يهوه) اله الآباء الاوائل » . وإنني أسأل كيف يقوض فرويد اليهود دعائم الدين اليهودي ؟

إنّ الاستشهاد بالآية الكريمة على ان اليهود غير اسرائيليين استشهاد غريب

---

(١٦٦) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٣٤٥ وما بعدها .

ولم يميز القرآن الكريم هذا التمييز للدلالة على هذا الاستنتاج وفي سورة البقرة التي عالجت في معظم آياتها أوضاع بني إسرائيل وانحرافاتهم كان الخطاب لبني إسرائيل وعلى عكس ما ذهب اليه الاستنتاج نجد ان القرآن الكريم عد اليهود في عصر موسى والى حد ما قبل المسيح (عليه السلام) كانوا يمثلون المؤمنين وهذا هو تقسيم القرآن الكريم الذي هادوا أتباع موسى (عليه السلام) وأتباع أنبياء بني اسرائيل بعد موسى (عليهم السلام) مثلوا المؤمنين الذي لا يحل لكل إنسان ان يسمع بدعوتهم ويعيش عصرهم ان يخالفهم وبعد المسيح (عليه السلام) كان أتباعه النصارى هم المؤمنين وعلى اليهود ان يتبعوا المسيح (عليه السلام) لانه بُعث اليهم ومصدقاً لما بين يديه من التوراة، وبعد النبي محمد (ﷺ) الذي بعثه الله رحمة للعالمين لابد لليهود والنصارى وكل من يسمع بدعوته الى يوم القيامة لابد لهم من الايمان به واتباعه ولن يقبل الله ديناً غير دينه وهذا هو الذي تعنيه الآية ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ﴾ اي ان اليهود أتباع موسى الذي جاء بعد إبراهيم والنصارى أتباع عيسى الذي جاء بعد إبراهيم فان هذه التسميات اصطلاحية باتباع هؤلاء الانبياء فلا يمكن ان يكون السابق من ضمن هؤلاء الاتباع . ولكنه كان يحمل عقيدة الانبياء جميعاً الاسلام .

المبحث الثالث

إبراهيم (عليه السلام) دراسة مقارنة في المصادر غير الاسلامية والعفريات

ان دراسة التاريخ من خلال الرواية الاسلامية فقط - (القرآن والسنة) - لا يؤدي الى تكوين صورة متكاملة بتفاصيلها الدقيقة للواقعة التاريخية لان القرآن ليس كتاب تاريخ انه يعطي جوهر الواقعة ويعطي العبرة منها وهذه تحقق الهدف الذي جاء به القرآن وهو هداية البشر. لذلك أصبحت دراسة المصادر الاخرى مع الرواية الاسلامية ضرورة تعين الباحث المتخصص لكي تتكامل عنده صورة الواقعة التاريخية. ومما يؤسف له ان هذه المصادر لم تعالج معالجة إسلامية لكي تمزج مع المصادر الاسلامية وعلى عكس ذلك نجد ان المصادر القديمة (الاسرائيلية) قد أثرت تأثيراً سلبياً على دراسة التاريخ عند المسلمين فلا تكاد تجد مصدراً إسلامياً تحدث عن تاريخ قبل الاسلام الا واعتمد كلياً على الاسرائيليات وتكاد هذه الظاهرة تلغي اثر الدراسات الاسلامية القديمة لتاريخ قبل الاسلام. ان ظهور علم الآثار والعلوم الاخرى مثل الانثروبولوجي وعلوم الاحاثة والنميات والدراسات اللغوية وتحليل الكتابات القديمة وفك رموزها ادّى الى احداث انقلاب في مفاهيم التاريخ القديمة وزعزع الاعتماد على التوراة كمصدر أساس من مصادر التاريخ القديم وكشف النقاب عن أحداث واقوام ومدن وضحت للباحثين جوانب كثيرة من التاريخ القديم

كانت قد اسدل عليها الستار وطواها النسيان . لقد سنحت الفرصة الآن اكثر من اي وقت مضى لكي تقارن معطيات التوراة ورواياتها مع الكشوفات الاثرية وتحليل النتائج لتعزيز الدراسات التاريخية وبذلك نجد ان مقارنة النص القرآني مع هذه النتائج والدراسات يؤدي الى تثبيت الحقائق التاريخية واعطاء صورة واضحة وصادقة عن الواقعة التاريخية . فقد ادّى الاعتماد على الاسرائيليات في رواية التاريخ الى تثبيت الاساطير والخرافة والاوهام وساعدت هذه الصورة الميتافيزيقية التي تشكلت عند دراسة التاريخ القديم (تاريخ ما قبل الاسلام) من المؤرخين المسلمين على بلورة فهم خاطىء لرواية القرآن الكريم وأدت الى تبني فهم احادي مستند الى الرؤية الى الاسرائيليات فاصبحت قراءة النص القرآني تتم من خلال عين شكلتها ثقافة اليهود والروايات الاسرائيلية .

ونجد ان القرآن الكريم يحفز العقل للاستنتاج من خلال سلسلة عمليات منطقية تؤدي الى نتيجة لا يختلف عليها العقلاء . ويؤكد العقاد على هذه الحقيقة لدراسة التاريخ فيقول : « واحسب لو اننا بدأنا بدراسة التواريخ الدينية منذ بداءة النظر في هذه التواريخ لما تسرع المتسرعون بالنفي والانكار تارة والفهاهة وسوء الفهم تارة اخرى بل كان من الميسور لهم ان يربطوا الدعوات الدينية كما ترتبط الحلقات في السلسلة الواحدة وان يملأوا فراغ التاريخ بما يسده بدلاً من خلق الفراغ من لا فراغ ان بعض الفلكيين قد عرفوا مكان الكواكب المجهولة قبل اختراع المجاهر المكبرة . لانهم قدروا موقعها من الفلك بحساب المدارات والاحجام . ولو أننا تتبعنا سلسلة الدعوات في مواقعها وتواريخها لما قال المتشككون : ان إبراهيم لم يوجد .. بل لقالوا : هنا مكان إبراهيم لابد ان يشغل واستطاعوا بالبحث والمقارنة وتعليق النتائج بمقدماتها ان يربطوا بين أور وآشور وبيت المقدس وجاشان والبتراء ومكة لانها نسق واحد يدل الاخير منه على الاول فكلها دعوات لابد فيها من شخص للرسول ولابد فيها من عنصري الحضارة والبداوة . أو لعلنا نصل الى النتيجة من طريق قريب إذا اعتمدنا على قياس التاريخ بمقياسه الذي لا يقبل الخطأ : وهو تصور الحوادث كما يمارسها الواقع والعقل فان هذا المقياس شبيه بمقياس العمليات الحسابية في التمييز بين الخطأ والصواب . وما علينا إذا أردنا ان نمتحن حادثة تاريخية ، او سلسلة من الحوادث التاريخية الا ان نسأل أنفسنا كيف ينبغي ان تحدث ؟ فإذا ارتسمت لنا على الترتيب الذي يقبله العقل ويطابق الواقع فذلك هو

الامتحان الصادق وما تستخلصه منه هو الصواب ، اذا كانت دعوات النبوة متصلة بمدائن القوافل فليس اولى من بلاد النهرين في العصر القديم ان تبدأ منها الدعوى الاولى ثم تتلوها المدن الاخرى بحسب مكانتها ومكانها من حيث النظر الى طريق العالمية ومظاهر الحضارات المختلفة فالدول القديمة بين النهرين لم يكن لها نظام غير النظام الذي اشتهر في علم السياسة بإسم نظام (حكومات المدائن) لانه يقوم على مدن أربع او خمس من العواصم العظمى تحيط بها البادية التي تزرع مرعاها او ترعى ماشيتها في المزارع الطبيعية وتسافر بالقوافل على بحسب مراحلها ويجوز ان تغلب دولة واحدة على جميع هذه المدن الى مدة قصيرة كما يجوز ان تتفرق وان تنفرد كل منهما بحكومتها ولكنها على الحالتين مدائن تحيط بها البادية وتعتمد على نقل التجارة من أقصى العالم المعمور الى أقصاه في الازمنة القديمة وترتيبها على حسب مكانتها ومكانها في وادي النهرين وفي العالم كله . يبدأ من مدينة أور في الجنوب وينتهي الى مدينة آشور شمالاً ثم يتجه غرباً وجنوباً الى فلسطين ومدن خليج العقبة فالحجاز . فمدينة اور أهم هذه المدائن ، لأنها تتلقى التجارة من البر ومن البحر ويليها مدينة آشور لانها تأخذ من الجنوب وتوزع الى ما حولها »[١٦٧] لقد اقتبسنا هذه المعلومات لانها مهمة في توضيح بعض الاشكاليات في ربط معلومات الكشوفات الاثرية بالتاريخ الديني . وإننا لو تابعنا هذه الضوابط وطبقناها على المكتشفات الاثرية في بلاد الرافدين لتوصلنا الى نتيجة واحدة هي ان الحضارة على الارض بدأت في وادي الرافدين وسبقت تكوينها على هذه الارض اي بقعة اخرى وهذا يؤكد ان بداية التاريخ الديني كانت على ارض الرافدين كذلك ويؤكد لنا ان اول الدعوات التي سبقت إبراهيم الخليل كانت على ارض الرافدين لان الدين لم ينفصل عن حياة الانسان العاقل وهذه حقيقة لا يمكن اغفالها او إنكارها ان التاريخ يعلمنا السلسلة المنطقية للاحداث . ولقد حاول شبلنجر ان يطبق هذا المفهوم على التاريخ الغربي وحاول ان يرسم صورة التاريخ والمستقبل من خلال المماثلة في الاحداث والمقارنة واطلق على هذه العملية « تكوين الموقف التقويمي التاريخ (Chronological-position) . ويمكن تمثل هذه المحاولة من خلال التنقيط بين الكلمتين التاليتين تنقيطاً مزدوجاً متوازياً : الاغريق =. الرومان وهذا يحدث لنا

---

(١٦٧) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٨١ ـ ١٨٣ .

ايضاً الآن ويمكن ملاحظة التطور عندما نفصل بين ما تم وبين ما هو آت »[١٦٨] ومن خلال تطبيق التقويم التاريخي للاحداث نجد ان ارض الرافدين تشمل بداية التقويم التاريخي للانسان الواعي . وقد تابعنا منذ البداية تكرار الارتباط الديني للانسان فما انفك الانسان عن الدين وقد مثلت ابعد انواع الحياة البشرية السلوك الديني للانسان « وما التوتميو والاساطير واللاهوت الا حلول مقترحة لنفس المشكلة التي تساور الضمير الانساني كلما وجد نفسه مأخوذاً بلغز الاشياء وغايتها النهائية . لماذا يلمح الضمير فيما وراء هياكل آلهته ، وجود من خلقها ؟ وتردد المشكلة الغيبية ـ وهكذا بانتظام ـ على الضمير الانساني في جميع مراحل تطوره هو في حد ذاته مشكلة أراد علم الاجتماع حلها حين وصف الانسان بأنه في أصله (حيوان ديني) . فهناك نظريتان رئيستان متضادتان بصدد المشكلة التي تعرضها علينا الظاهرة الدينية . وليس التناقض بينهما قائماً بين الدين والعلم على غرار ما يوحي بعضهم اذ ان العلم لم يبرهن على عدم وجود الله او وجوده ـ كما نسلم بذلك مبدئياً ـ بل النزاع هنا بين الدينين . بين الألوهية والمادية بين الدين الذي يسلّم بوجود الله وذلك الذي افترض المادة ! ! »[١٦٩] وكل هذا يؤكد ان الاصل الديني والاصل الاجتماعي والثقافي كان قد نشأ على ارض الرافدين حيث بدأت الحركة خروجاً وعودة وتشكلت الجماعات البشرية في المنطقة بالامتزاج مع القضية الدينية وظهور النبوات والانبياء في منطقة الشرق الادنى . وهذه الحقيقة تؤكد كذلك ان الانبياء قد مثلوا حقيقة تاريخية مرتبطة بالسماء وان مبدأ التماثل الذي استخدمه شبلنجر تنفعنا في دراسة ظاهرة الانبياء والنبوات لان التكرار في الحالة تؤكد أصلها « فمنذ إبراهيم (عليه السلام) تتابع أفراد مدفوعون بقوة لا تقاوم جاءوا يخاطبون الناس بإسم (حقيقة مطلقة) يقولون انهم يعرفونها معرفة شخصية وخاصة بوسيلة سرية هي الوحي ويقول هؤلاء الرجال انهم مرسلون من الله ليبلغوا كلمته الى البشر حيث لا يستطيع هؤلاء ان يسمعوها مباشرة . ولنا ان نلاحظ اولاً وقبل كل شيء ان بعث نبي ما ليس حدثاً فرداً بحيث يكون غريباً نادراً . بل هو على العكس من ذلك ظاهرة مستمرة تتكرر بانتظام بين قطبين من التاريخ منذ إبراهيم

---

(١٦٨) شبلنجر / اسوالد / تدهور الغرب / جـ١ ص٧٨ .

(١٦٩) ابن نبي / مالك / الظاهرة القرآنية / ص ٧٦ ـ ٧٨ بتصرف .

(عليه السلام) الى النبي محمد (ﷺ) واستمرار ظاهرة تتكرر بنفس الكيفية تُعدُّ شاهداً علمياً يمكن استخدامه لتقرير مبدأ وجودها بشرط التثبت من صحة هذا الوجود بالوقائع المتفقة مع العقل ومع طبيعة المبدأ . وعلى الرغم مما يبدو في القضية من تعقد . فاني اعتقد ان مفتاحها موجود في قوله تعالى ﴿ قل ما كنت بدعا من الرسل * وما أدري ما يفعل بي ولابكم * إن اتبع إلا ما يوحى الي ﴾ . فهذه الآية تحمل اولًا : إشارة خفية الى أن تكرار الشيء في ظروف معينة يدل على صحته (الحدث الذي يتكرر في نفس الظروف مع نفس النتائج) يعبّر عن الظاهرة . وهي تحمل في مدلولها ثانيا : ربطا واضحاً بين الرسل والرسالات خلال العصور »[170] . وقد مثّل إبراهيم (عليه السلام) بداية واضحة المعالم مستفيضة الشواهد والادلة هذه الظاهرة.وهي ظاهرة النبوات وظهور الانبياء ولقد كانت الحالات السابقة لإبراهيم (عليه السلام) موغلة في القدم تعبّر تعبيراً بدائياً وبسيطاً عن الدين وقد حفّظت لنا الرقم الطينية الكتابية الاولى بعض ملامحها ممثلة في الطوفان وبعض القصص الديني المشوب بالاسطورة التي اضافتها عقول البشر في الازمنة اللاحقة للنبوات . وقد عثر على نقش سومري يعبّر عن قصة آدم وحواء رسم عليه صورة رجل على رأسه قلنسوة ذات قرنين وامرأة حاسرة الرأس جالسين الواحد أمام الآخر وقد نبتت شجرة بينهما تشبه شجرة النخل تدلي عنقين من التمر من طرفيها ويشاهد الرجل مادّاً يده اليمنى نحو العنق أمامه ليقطف من ثمرة . كما تشاهد المرأة وهي مادة يدها اليسرى نحو العنق الذي أمامها لتقطف من ثمره ايضاً ثم تشاهد الحية وهي منتصبة على ذنبها خلف المرأة تغريها في الأكل من هذا الثمر المحرم عليهما اكله . وهذا دليل على ان شجرة النخيل وجدت على تربة جنوب العراق منذ اقدم الازمنة وان شجرة معرفة الخير والشر هي شجرة النخل بالنسبة للسومريين[171] انظر الشكل (آدم وحواء) في الفصل الاول . وقد شكلت التوراة مع الرقم الطينية مصدراً مهماً مضافاً إليها وقد حوت التوراة معلوماتٍ كثيرة إلا انها أصابها ما أصاب الرقم الطينية من تضخيم اسطوري وتشويه للحقائق وإيراد معلومات مخالفة للحقيقة والعقل والمنطق وقد حدثت عملية تفاعل وتمازج بين تراث الحضارت القديمة والتوراة قام بها مدونو

---

(١٧٠) ابن نبي / مالك / الظاهرة القرآنية / ص ٦٦ - بتصرف .

(١٧١) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤٢٨ / يأخذ عن :-
H. Warad, «The Seal cylinders of Western Asia» 1910.

التوراة متأثرين بتراث الحضارات القديمة فقاموا باقدم عملية تزييف وافتراء وادعاء بان هذه المعلومات المدونة في التوراة هي معلومات أوحاها الله تعالى الى نبيه موسى . ولكن هذا التزييف والتحريف لم يطمس معالم الحقيقة التي جاء بها القرآن وأكدتها آياته وبخاصة بعد الاستكشافات الآثارية والمقارنة بين التوراة والالواح الطينية المكتوبة بالمسمارية القديمة . ومطابقة الرواية القرآنية لجوهر الحدث التاريخي مع خلو النص القرآني من الاساطير والخرافات وكل ما يخالف العقل والمنهج العلمي الحقيقي .

إن دراسة الرقم الطينية ومحتوياتها الكتابية التي عثر عليها في ارض الرافدين أكدت لنا حقيقة وهي ان التوراة قد اقتبست وبشكل حرفي وفي بعض الاحيان روايات الاحداث حتى عصر إبراهيم (عليه السلام) . اما روايات التوراة لما بعد عصر إبراهيم فقد امتازت بالتحريف والانتحال والتغيير وقد صيغت بما يتناسب مع تطلعات الشعب اليهودي وبطريقة تزرع في نفوسهم رغبة جامحة لتحقيق عقيدة التوراة التي صاغها أحبار اليهود في بابل بعد السبي البابلي وقد طبعت صياغتها بطابع الكبت والقهر والاحساس بالرغبة في الانتقام من الاميين وهم الشعوب الاخرى غير اليهود . لقد عبر القرآن الكريم عن الحقيقة من خلال متابعة الانبياء وظهورهم وأقوامهم ولذلك لا قيمة للتفسيرات المستندة الى الرقم الطينية والتــوراة لم ترتبط بالنص القرآني . لقد ظهر إبراهيم الخليل في العصر الكتابي وفي اقرب التقديرات الى الواقع في القرن التاسع عشر قبل الميلاد وقد ذكر القرآن الكريم انه أنزلت عليه صحف وجعل القرآن الكريم أول الصحف هي صحف إبراهيم وربطها مع صحف موسى على أساس انها تعبر عن المرحلة الاولى للنبوات والمرحلة الثانية تم التعبير عنها من خلال المسيح (عليه السلام) والانجيل الذي أكد تعاليم التوراة والمرحلة الثالثة عبّر عنها النبي محمد (ﷺ) الذي أنزل عليه آخر كتاب الى آخر الزمان وجاء القرآن معجزة مستمرة بعد وفاة النبي محمد (ﷺ) بخلاف معجزات الانبياء السابقين الذين كانت معجزاتهم لا تتجاوز عصر النبي وحياته وينتهي دورها بعد انتهاء حياة النبي على الارض ولذلك كان لابد للقرآن ان يكون معجزاً في كل اوجه عرضه للحقائق وفي نظمه وصياغته في كل ما حواه بين سورة وآية . بينما التوراة والانجيل لم تكن كتباً معجزة إعجاز القرآن بقدر ما كانت تحوي وصايا وتعاليم

لم يتعهد الله بحفظها وانما أوكل حفظها الى الاحبار والرهبان . وهؤلاء بشر يصيبهم ما يصيب البشر من أوهام ونقص وتعصب لذلك كانت نتيجة طبيعية ان نجد في التوراة تحريفات وأخطاء لا يمكن تبريرها . ان ارتباط التوراة بإبراهيم (عليه السلام) ارتباطاً لا يمكن ان نجد له سنداً في التاريخ لان التوراة كتاب اليهود وهي التي أنزلها الله على نبي بني إسرائيل الاول موسى (عليه السلام) ولا توجد علاقة بين الاديان اليهودية وابراهيم الا من حيث ارتبط الانبياء بمصدر واحد . اما ان يرتبط اليهود بإبراهيم من خلال قضية او نسب فهذا امر بعيد عن الواقع واختلاقه واضح لا سبيل الى قبوله . وقد أكدنا ان المنهجية التي ثبتها القرآن الكريم وهي ارتباط المؤمنين والانبياء من خلال التوحيد والعقيدة التي جاء بها الانبياء ولكن القرآن والتاريخ يقص علينا ان اليهود شعب لم يعرف التوحيد ويؤمن به كعقيدة الا في مدد قصيرة وتاريخ اليهود منذ عصر موسى وعبادتهم للعجل ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وانتم ظالمون ﴾[١٧٢] ويعقب القرآن بعدها ﴿ وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون ﴾[١٧٣] . وهكذا كشف لنا القرآن الكريم صفحات سوداً من تاريخ هذا الشعب المعاند الذي سيطرت عليه المادية والاهواء وبعد موسى وعلاقتهم بانبيائهم ﴿ كلما جاءهم بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون ﴾[١٧٤] ان هذا التاريخ وفق المنهجية والعدل الإلهي لا يمكن ان يكون له نصيب في عهد الله وتمكينه ولذلك عندما ذكر القرآن الكريم امامة إبراهيم بقوله تعالى ﴿ إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهديَ الظالمين ﴾ لقد أثبت القرآن ان الدين واحد مع إبراهيم والانبياء جميعاً ، لذلك آمن المسلمون بما نزل على الانبياء من كتب ولكن أقوام الانبياء كانوا يحرفون بعد أنبيائهم كانوا بعد أنبيائهم ولذلك اثبت القرآن ان التوراة الحقيقية لا تتعارض مع القرآن الكريم من حيث الجوهر . « وفي القرآن ما يفيد ان نسخه كانت متداولة في أيدي اليهود في زمن النبي (ﷺ) وفي قوله تعالى ﴿ كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل الا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل ان تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها

---

(١٧٢) سورة البقرة / ٥١ .

(١٧٣) سورة البقرة / ٥٥ .

(١٧٤) سورة المائدة / ٧٠ .

ان كنتم صادقين ﴾[١٧٥] . وقوله تعالى ﴿ وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ﴾[١٧٦] . وفي القرآن قرائن عديدة أخرى على انه كان في أيدي اليهود قراطيس ومدونات في صدد الاحداث والاسماء التي وردت في سفر التكوين ثم في صدد الاحداث التى وردت في الاسفار الاربعة التالية له قد فقدت . ففي القرآن قصص عديدة عن إبراهيم وقومه وذريته والقائه في النار ومحاورته مع الملك لم ترد في سفر التكوين مع أخباره »[١٧٧] لذلك ان ما نجده في التوراة من أخبار وأحداث وتواريخ إذا ما وجد ما يؤكده من نقوش حجرية ويتطابق مع الرواية القرآنية فإننا نعتقد بوجود أساس صحيح لهذه الرواية « فان احداث موسى وما بعده قد دونت في ظروف مقاربة لحدوثها وان كانت قد اعيد تدوينها لسبب من الاسباب ويصح أن تكون محل اعتبار مع التحفظ بسبب ما في الاسفار من غلو ومناقضات ومفارقات كثيرة . وان ما ذكرته هذه الاسفار الملامح وأسماء وجزئيات لا يعقل ان يكون من نسيج الخيال . وكل ما يكون ان تداول الروايات شفوياً ربحاً من الزمن والخيال والتعصب وظروف التدوين قد كان ذا تاثير قوي فادى ذلك الى مناقضات ومفارقات وغلو . وهذا ينطبق على ما احتواه سفر التكوين ولا سيما من عهد إبراهيم وتاريخه وتاريخ ذريته وما كان من احداث والملامح في شرق الاردن وغربه لا يخلو من حقيقة وان الاحداث والاعلام والجزئيات لا يعقل ان تكون من نسج الخيال »[١٧٨]

محاولة لتحديد عصر إبراهيم

لقد تاكد لدينا ان التوراة قد تقدمنا في تحديد بعض الملامح بالنسبة لعصر إبراهيم (عليه السلام) وأصوله بعد مقارنة مع النقوش والكتابات التي عثر عليها في حفريات بلاد ما بين النهرين ومصر لان نصوص التوراة تتناقض في روايتها عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب فلا بد من تحليلها ومقارنتها مع الكتابات القديمة التي عثر عليها في الحفريات للوصول الى نتائج مقبولة عن أصل إبراهيم وعصره. لقد جاء

---

(١٧٥) سورة آل عمران / ٩٣ .

(١٧٦) سورة المائدة / ٤٣ .

(١٧٧) دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم / ص ٢٠ ـ ٢١ .

(١٧٨) دروزة / محمد عزة / م . س / ص ٣٥ .

في سفر التكوين / الإصحاح ١١ / ٣٠ (وكانت ساري عاقراً ليس لها ولد . وأخذ تارح ابنه ابرام وحفيده لوطاً وساري كنته زوجة ابنه ابرام وارتحل بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا الى ارض كنعان لكنهم وصلوا الى حران واستقروا فيها وهناك مات تارح وله من العمر مئتان وخمس سنين » . ان الحديث عن أور الكلدانيين في عصر إبراهيم يبدو انه من خلط كَتَبَة التوراة واخطائهم . لأن « الكلدانيين لم يظهروا الا بعد سقوط نينوى في سنة ٦١٢ ق . م . »[١٧٩] وهذا الخطأ مما كشفته لنا الدراسات الآثارية وقد يكون ان تسميه اور قد اشتهرت في عصر تدوين الرواية التوراتية بإسم أور الكلدانيين . ومن التناقضات الاخرى عن أصل إبراهيم في التوراة انه ورد في الاصحاح / ١٢ (اترك ارضك وعشيرتك وبيت ابيك واذهب الى الارض التي اوريك ..... / ٤ : فارتحل إبراهيم كما أمره الرب ورافقه لوط وكان ابرام في الخامسة والسبعين من عمره عندما غادر حاران » وفي الاصحاح / ١٥ / ٧ : انا هو الرب الذي اتى بك من اور الكلدانيين لاعطيك هذه الارض ميراثاً » هذه النصوص تجعل اصل إبراهيم واهله اور الكلدانيين ومرة اخرى حران أرضه وارض عشيرته وبيت أبيه . وهذا الاختلاف أدى الى توجه بعض الباحثين ان جعل اصل إبراهيم من اور الكلدانيين غير صحيح وان بدايته ونشأته كانت في حران . ولكن اور كمدينة ومركز حضاري اقدم واشهر من حران ولا سيما إذا أضفنا المعلومة التي تحدث عنها القرآن الكريم ولم تذكرها التوراة وهي حادثة الحوار مع ملك في عصر إبراهيم وان الصراع قد بدأ بينه وبين السلطة الدينية الكهنوتية وسدنة الاصنام (وان حران كانت مركز عبادة الكواكب) والسلطة السياسية المتمثلة بالملوكية وطغيانها وتألهها وهذه الملامح ترجح ان يكون اصل إبراهيم من اور او بابل على ان يكون من حران . وان حران مثلت مرحلة من مراحل حركة إبراهيم في هجرته ودعوته . اما اصل إبراهيم فقد تحدثت نصوص التوراة عن اصل إبراهيم في نصوص تعكس اضطراباً ومفارقة ايضاً . فقد ورد في الاصحاح / ٢٦ سفر التثنية / من ضمن وصايا الرب لبني إسرائيل في عصر موسى (عليه السلام) / ٢٦ / تقديم ابكار الغلات / ٥ / : ثم يعلن صاحب التقدمة قائلًا أمام الرب الهكم : كان ابي اراميا تائهاً ثم انحدر الى مصر وتغرب هناك . ومعه نفر قليل ولكنه اصبح هناك أمة عظيمة » . وهذا يؤكد ما كان يعتقده اليهود بأن اصلهم آرامي . وجاء في سفر التكوين الاصحاح / ١٤ / ٧ : استداروا

---

(١٧٩) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤١٠ .

(كدر لعومر ملك عيلام وحلفاؤه) حتى اقبلوا على عين مشفاط التي هي قادش فهزموا بلاد العمالقة كلها والاموريين الساكنين في حصور تامار ، ١٣ / : وجاء احد الناجين الى ابرام العبراني الذي كان مازال مقيماً عند بلوطات ممرا أخي اشكول وعانر حلفاء ابرام وابلغه بما جرى » وجاء في سفر التكوين / ١٥ / ١٥ : (اما انت فستموت بسلام وتدفن بشيبة صالحة ـ ١٦ / : أما هم فسيرجعون بعد أربع أجيال الى هنا لان اثم الاموريين لم يكتمل بعد » . هذه النصوص تشير الى ان إبراهيم قد سكن مع الاموريين ونزح اليهم وهذا يرجح « ان فكرة النزوح الى هذه البلاد جاءت اليه من كونها مساكن القبيلة التي هو منها . وان النصوص التي ذكرت اصل إبراهيم الآرامي متأخرة ومتأثرة بالواقع حين تدوين الاحداث في القرن الثالث عشر وما بعده لان الآراميين كانوا هم أصحاب السلطان وكان طابعهم هو الشامل لجميع بلاد الشام الوسطى والشمالية بل كان يمتد الى العراق الجنوبي في هذا الظرف »[180] والمعروف ان هجرة الاموريين وانتشارهم في بلاد وادي الرافدين والشام كانت اقدم من هجرة الآراميين وان الموجة الآرامية (قد أخذت تطرأ على بلاد الشام في القرن العشرين قبل الميلاد . وتسربت جماعات منها الى العراق غير انها لم تكن قد استقرت وتحضرت في الظرف الذي تخمن فيه نزوح إبراهيم الى ارض كنعان كما لم ينكر أحد من الباحثين ان جماعات منها تسربت الى شرق الاردن وغربه ـ ارض كنعان ـ قبل القرن الثاني عشر »[181] وهذا كله يرجح ان أصل إبراهيم كان آمورياً « لان هذه الموجة أخذت تطرأ على بلادالشام قبل الآراميين وتنتشر في أنحائها وان جماعات منها تدفقت الى جزيرة الفرات ثم الى العراق الجنوبي وسيطرت عليه وأنشأت فيه مملكة بابل الاولى »[182] وبذلك تتقدم ترجيحات امورية إبراهيم على آراميته وكلدانيته ومن خلال إبراهيم (عليه السلام) نتصل بأقدم موجة أمورية مثلت الجنس الذي سيطر على شبه الجزيرة العربية وما بين النهرين وبلاد الشام من خلال النبوات والانبياء في مرحلة قبل العروبة الصريحة لذلك نحن مع الدكتور دروزة في

---

(١٨٠) دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم / ص ٣٠ يأخذ من : آدي شير / تاريخ كلده وآشور / ومن طه باقر / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / القسم الاول من جرجي زيدان / تاريخ العرب قبل الاسلام .

(١٨١) دروزه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل / ص ٢٩ .

(١٨٢) باقر / د. طه / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة / ق١ ص ١٣٩ ـ ١٥٦ .

تحديد ملامح اصل إبراهيم عندما قال : وعلى كل حال ان إبراهيم من الجنس العربي الذين يسميهم المستشرقون ومن يتابعهم من كتّاب العرب خطأ الجنس السامي »[١٨٣] وعلى المنهجية القرآنية التي تنسب الاقوام الى الشخص الذي يمتاز بالصفات الكريمة كما بدأ القرآن بإطلاق انتساب البشر الى (آدم) فجعلهم بني آدم تكريماً وجعل نوح أبا البشرية الثاني تكريماً وجعل إبراهيم أبا الامة الاسلامية تكريماً ﴿ ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ لذلك نؤكد على ضرورةاستبدال السامية لانها تسمية وهمية لا أساس لها في التاريخ ولا الكتب المقدسة . وان إطلاق الابراهيمية اكثر اقتراباً من الواقع وانطباقاً مع المنهجية القرآنية . اما عن عصر إبراهيم فقد عرفنا من خلال دراسة سيرة إبراهيم (عليه السلام) في النصوص الاسلامية انه عاش مع ابنه إسحاق وعاصر حفيده يعقوب ويعقوب هو إسرائيل وهذه التسمية كانت شائعة في عصر إبراهيم (عليه السلام) وهي مرتبطة بالرب وما يقرب اليه وان اسم ايل يعني الله في اللغة القديمة وهي من الالفاظ التي استعملها القرآن عندما سمى يعقوب بإسرائيل وقد وردت اسماء جبرائيل وميكائيل وإسرافيل في روايات حديثية وفي القرآن الكريم (جبريل وميكال) أسماء الملائكة والغريب ان اسم جد العرب جاء مرتبطاً بالإله (ايل) وهو اسماعيل وقد تعني (اسمع ايل) اسمع ايها الإله ايل او قد تكون اصلها سموئيل (صموئيل) المنذور الى الاله ايل . بينما نجد ان اسم ابي يعقوب هو (إسحاق) وقد كثر استخدام هذه المسميات بعد إسرائيل وبين أهل الكتاب يكثر اسم ميخائيل (اي ليحمي الاله ايل ميخا) وكذلك الخليل مشتق من (خلّ) و (ايل) اي حبيب الاله (ايل) كما ورد في القرآن الكريم ﴿ واتخذ الله إبراهيم خليلا ﴾[١٨٤] ولذلك نجد ان تسمية بابل قد جاءت من هذا التأثير وبسبب ارتباط الحياة العراقية القديمة بالله الواحد الذي اطلق عليه العراقيون القدماء (ايل) فان هذه التسمية لبابل ـ حفظت لنا معلماً من معالم آثار النبوات في ارض الرافدين فكانت اول مدينة عَظَمَةً وشهرةً وقدماً على الارض هي بابل وهذا يؤكد ان انشاء هذه المدينة قد أسس على أساس ديني مرتبط بالتوحيد ودعوة إبراهيم فكانت بابل تعني باب ايل اي باب الإله ايل وهذا اقرب الى القبول من تفسير التوراة الاسطوري الذي يقول : أن الله قد بلبل الالسنة في بابل وتفرق اللغات في تلك

(١٨٣) دروزه / محمد عزة / م . س / ص ٣٠ .

(١٨٤) سوسة / د. احمد / مفصل تاريخ العرب واليهود / ص ٩٣ .

المدينة[185] كما يؤكد تأثيرات النبوات في حضارة وادي الرافدين بأن ترتبط اعظم مدينة في حضارة وادي الرافدين بعقيدة التوحيد التي جاء بها الانبياء جميعاً .
ويبدو اثر حضارة وادي الرافدين واضحاً على المنطقة من خلال تسميات المدن فان تسمية القدس بـ (اورشليم) يؤكد اثر حضارة وادي الرافدين على المنطقة لان العراقيين كانوا يسمون مدنهم بتسميات مقاربة واقدم مدينة عراقية هي اور وان (اورشليم) تعني مدينة السلام . اما اسم اسرائيل فقد ورد ذكره في (قصيدة منقوشة على جدران الكارناك سجلت فيها انتصارات مرنبتاخ احد ملوك الاسرة التاسعة عشرة الذين كان حكمهم نحو ١٢٢٥ ـ ١٢١٥ ق . م . وعبارة القصيدة تقول : (ان إسرائيل خربت ولم يبق لها بذر) . وقد ذكر بعض المؤرخين استناداً الى الدراسات الآثارية ان قبيلة من بني اسرائيل هربت من مصر الى فلسطين قبل حكم هذا الملك فرارا من الاضطهاد الذي وقع عليها في عهد أبيه رعمسيس وانها هي التي نكل بها مرنتباخ لانها تمردت على الحكم المصري في فلسطين . حيث يكون في هذا توفيق بين وجود جماعة من بني إسرائيل في فلسطين قبل خروج بني إسرائيل الجماعي مع موسى »[186] اي ان مرنتباخ نكل بهم في فلسطين وقضى عليهم وكان ابوه رعمسيس الثاني نكل بهم عندما كانوا في مصر او كان جزء منهم في مصر .

وفي القرآن الكريم إشارات الى وجود لأصول قبائل إبراهيمية او متحالفة مع قبيلة إبراهيم في مصر ففي الآيات التي تحدثت عن يوسف في سورة يوسف على عادة المصريين في تسمية ملوكهم بالفراعنة ولكن القرآن كان يسمي رأس النظام بالملك ﴿ وقال الملك أتوني به استخلصه لنفسي ﴾ وهذا الاستعمال القرآني للفظة ملك سلط الضوء على حقبة حصل فيها تغيير سياسي في نظام الحكم وسقوط مصر بأيدي الهكسوس (الملوك الرعاة) كما يسميهم التاريخ القديم . والهكسوس « شكلوا كما تذكر كتب التاريخ القديم ثلاث أسر الخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة (١٦٨١ ـ ١٥٨٠ ق . م .) وكان من أسماء ملوكهم (يعقوب

---

(١٨٥) « بابل تعني (باب ايل) اي باب الله ولفظة بيل بالعبرانية تعني البلبلة والتشويش ولما ارادت التوراة التحدث عن بابل اعرضت عن معناها الاصلي وتحدثت عن بلبلة الالسنة فمسخت المعنى الذي اراده البابليون » انظر متي / سليم ملحم / منهل الشرائع / ص ٩٢ .

(١٨٦) دروزه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل / ص ٣٦ .

حر) (اي يعقوب ات) . والهكسوس كلمة مصرية وهي تحريف للقب (حقا خاست) اي حاكم البلاد الاجنبية وكان لقب يطلقه المصريون على زعماء القبائل البدوية التي كانت تعيش في شرق مصر يؤيد ذلك العثور على هذا اللقب مكتوباً فوق مناظر البدو الساميين القادمين الى مصر في مقابر بني حسن »[١٨٧] هذه المعلومات ترجح بأن الهكسوس هم القبائل البدوية التي كانت تسكن في فلسطين وكانوا قريبين من إبراهيم وقبيلته وهناك علاقة بينهم وفي سورة يوسف ايضاً يذكر القرآن الكريم وصفاً لمن كان يسكن فلسطين وفي قوله تعالى حكايةً عن يوسف ﴿ .... وقال يا أبتِ هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي اذ اخرجني من السجن وجاء بكم من البدو.... ﴾[١٨٨] لقد وصف يوسف طبيعة حياة أهله بالبداوة وهذا يدل على ان فلسطين كانت تحكمها القبائل وكانت في مرحلة انتقالية بين البداوة والحضارة ولم يكن هناك نظام سياسي واحد يحكمها وإنما مناطق نفوذ لسلطان القبائل وقد يكون الهكسوس جماعة من العبرانيين لان العبرانيين كانوا يعيشون حياة التنقل والبداوة وهؤلاء العبريون لا علاقة لهم باليهود « وقد استخدمت كلمة عبري من قبل طائفة كبيرة من القبائل العربية في شمال جزيرة العرب وفي بادية الشام حتى صارت كلمة (عبري) مرادفة لابن الصحراء او ابن البادية بوجه عام . وبهذا المعنى وردت كلمة (الابري) و (الهبيري) و (الخبيرو) و (العبيرو) في المصادر المسمارية والفرعونية ولم يكن لليهود وجود في ذلك الحين »[١٨٩] وبذلك تتفق تسمية القرآن الكريم لطبيعة الحياة في فلسطين بانها حياة بدوية ولفظة العبري المذكورة في المدونات والرقم الطينية ووثائق تل العمارنة والرقم المسمارية التي تدل على المقاتلين الاشداء والرعاة . وإذا كانت أحداث عصر يوسف في « الفترة الثانية من أسر هكسوس »[١٩٠] كما يفترض علماء التاريخ القديم لمصر . وهذا يعني أنها كانت بحدود ١٦٥٠ اي القرن السابع عشر قبل الميلاد . وكان إبراهيم قد توفي في هذه المدة ولم تكن وفاته قديمة جداً لانه (عليه السلام) أدرك

---

(١٨٧) عبدالهادي / د. جمال مع د. وفاء محمد / اخطاء يجب ان تصحح في التاريخ - ذرية ابراهيم / ص ١٣٢ .

(١٨٨) سورة يوسف / ١٠٠ .

(١٨٩) سوسة / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٤٩٥ .

(١٩٠) د. جمال عبدالهادي / يخطاء يجب ان تصحح م.س / ص١٣٢ .

يعقوب وفي ضوء هذه الحقيقة بإمكاننا ان نضع عصر إبراهيم في القرن الثامن عشر قبل الميلاد . وإذا وضعنا بالاعتبار طبيعة الاعمار التي كانت اكثر قليلاً من المعدلات للعصور المتأخرة فقد يصل التقدير الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد .

البحث عن إبراهيم (عليه السلام) في غير الكتب الدينية :

ان الذي يدرس تاريخ إبراهيم (عليه السلام) يفاجأ بأن هذا النبي العظيم لم تتحدث عنه غير الكتب المقدسة ، وعشرات الآلاف من الرقم والالواح الطينية سكتت عنه !!! .

إن الباحث يأخذه هذا الصمت المطبق ، إذ لم يترك القدماء موضوعاً يمس حياة الانسان الا وتحدثوا عنه . تحدثوا عن الكون والخلق والتاريخ والعلوم والمدارس والتعليم والعقائد والآلهة والملوك وحروبهم وأعمالهم وعن القضاة والقوانين وعن الزراعة والطب والحكمة . اين إبراهيم ؟ أين جهوده وآثاره ؟ أبو الانبياء أول المراحل الواضحة المعالم في مسيرة الانبياء . عندما تسأل المتخصصين في التاريخ القديم عن إبراهيم (عليه السلام) . الكل يجيب لا يوجد اي دليل آثاري يذكر إبراهيم ودوره في تاريخ الانبياء ! ولكن الحقيقة ان هذا السؤال يتجاهل أساس القضية فنحن نعلم ان التاريخ القديم لم يبحث عن إبراهيم وان الذين درسوا التاريخ القديم على الطرف الآخر بالنسبة للتاريخ الديني وإبراهيم بخاصة . لذلك نحاول أن نجمع من القطع المتناثرة القليلة اجزاءً ترتبط بهذا النبي وشخصيته وان نرسم صورة تقرب إلينا الحقيقة الضائعة وان نفرز بين الركام الهائل من المدونات المكتوبة على الالواح الطينية على مدى آلاف السنين . لعلنا نجد اسماً او ذكراً لحدث او اثراً يربطنا بهذا الانسان العظيم الذي ارتبط بالانسانية من خلال جهوده في اعادة الانسان الى عقيدة التوحيد وعلى مساحة العالم القديم الذي كان يشغله الانسان في عصره فقد انتقل خليل الرحمن من العراق الى فلسطين والى مصر والحجاز وشكل مساراً لقضية من أهم قضايا الانسان وهي ارتباطه بالعقيدة التي بلغ بها ودعى اليها الانبياء جميعاً منذ آدم ونوح ، وقد ترجح لدينا ان اليهود لعبوا دوراً في صياغة تاريخ الانبياء وحاولوا ربط الاحداث بتاريخهم وبخاصة شخصية إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، فقد جاء في سفر دانيال (ان نبوخذ نُصّر صنع تمثالاً من ذهب وأمر

الناس بالسجود له ورفض ثلاثة يهود السجود للصنم وهم (شدرخ وميشخ عبد نغو) فامر نبوخذ نصر بتحريقهم في اتون النار . وقد جاء في سفر دانيال من كلام نبوخذ نصر للثلاثة : والآن ان كنتم مستعدين لدى سماع صوت الآلات المرسيقية المختلفة ان تحنوا وتسجدوا للتمثال الذي صنعته اعفو عنكم ولكن ان ابيتم السجود تطرحون في تلك الساعة في اتون النار المتقدة ، وأي إله يقدر أن ينقذكم عندئذٍ من يدي ؟ فاجابه شدرخ وميشخ وعبد نغو : لا داعي لان نجيبك عن هذا الشان لان إلهنا الذي نعبده قادر أن ينجينا من أتون النار المتقدة ينقذنا من يدك أيها الملك وحتى ان لم ينقذنا فاعلم يقينا أيها الملك اننا لا نعبد الهتك ولا نسجد لتمثال الذهب الذي نصبته فاستشاط نبوخذ نصر حنقاً .... وأمر ان يضرموا الاتون سبعة أضعاف عما كانت عليه العادة .... حينئذٍ أوثق الرجال بما عليهم من ثياب وسراويل وأقمصة واردية وطرحوا في وسط أتون النار المتقدة ... وان لهيب النار احرق الرجال الذين حملوا شدرخ وميشخ وعبد نغو وطرحوهم في النار فسقط هؤلاء الرجال الثلاثة موثقين وسط أتون النار المتقدة وما لبثت الحيرة ان اعترت نبوخذ نصر فهب بسرعة وقال الى مشيريه : ألم نطرح ثلاثة رجال موثقين في وسط النار ؟ فاجابوا : صحيح ايها الملك فقال : إني أرى أربعة رجال طليقين يتمشون في وسط النار لم ينلهم أذى ومنظر الرابع شبيه بإبن الآلهة ..... ثم ينادي عليهم نبوخذ نصر فيخرجون من وسط النار واحاط علماء الدولة بهم فوجدوا ان النار لم تؤذِ أجسادهم ولم تحرق شعرة من رؤوسهم ولم تشط ثيابهم ولم تعلق بهم رائحة النار فقال نبوخذ نصر : تبارك اله شدرخ وميشخ وعبد نغو الذي أرسل ملاكه وانقذ عبيده الذين اتكلوا عليه وخالفوا امر الملك وبذلوا اجسادهم كيلا يعبدوا او يسجدوا لإله غير الههم . لهذا قد صدر مني أمر ان أي شعب او أية أمة او أي قوم من أي لسان يذمون اله شدرخ ومشيخ وعبد نغو يمزقون إرباً إربا وتصبح بيوتهم أنقاضاً اذ ليس هناك اله آخر يقدر ان ينجي مثله »[191] . ان هذه التفاصيل تؤكد ان احداثها تشبه حادثة تحريق إبراهيم وقد ذكر العقاد : « ان الشبه بين هذه القصة وقصة إبراهيم ظاهر »[192] وقد حاول بعض شراح التوراة التمويه وتحريف الحقائق عندما وجدوا في ترجمة يوناثان بن عزبيل للتوراة من السريانية او الارامية بإن إبراهيم قد نجى من نار الكلدانيين وقالوا ان أور الكلدانية

(١٩١) سفر دانيال : ٣ : ١ : ٣٠ .

(١٩٢) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ .

تعني النار وبالعبرية تعني النور فالتبس عليه الامر فترجم النور بالنار « ولكن هؤلاء الشراح ينسون ان القصة قديمة وردت في باب الفصيحات من القسم الثاني من المشنا وانها اطول أصولًا وفروعاً من أن تبنى على خطأ في ترجمة كلمة . ولابد ان يلاحظ كذلك ان الكنيسة السريانية التي يعيش اتباعها في بلاد الكلدانيين القديمة بين سوريا والعراق والتي اشتهر آباؤها بدراسة السريانية - وهي الارامية بعينها - لا تعد ان القصة ناشئة من غلط في الترجمة (اي نجاة ابراهيم عليه السلام) وتقيم لنجاة إبراهيم من النار حفلًا سنوياً في الخامس والعشرين من شهر كانون الثاني »[١٩٣] . وهذا يؤكد لنا ان القصة اي قصة حرق الثلاثة ماخوذة من التراث البابلي وضعها اليهود واقتبسوها اثناء السبي وغيّروا معالمها لخدمة العقيدة اليهودية وتعظيم ديانتهم وربطوا أحداث القصة بتاريخهم وجعلوها معجزة لابطالهم . وهذا يفسر لنا اختفاء ملامح القصة من الرقم الطينية إذ قد يبدو ان عملية طمس متعمد لمعالم القصة قد حدثت فعلًا .

لقد حاولنا سابقاً ان نحدد عصر إبراهيم بالقرن الثامن عشر قبل الميلاد وقلنا قد يصل عصره الى ابعد من هذا التقدير فيصل الى القرن التاسع عشر قبل الميلاد وهذا يتفق مع تقديرات بعض العلماء الى « ان إبراهيم (عليه السلام) كان يعيش في المدة (من ١٩٤٠ الى ١٧٦٥) ق . م . »[١٩٤] وقد نقل العقاد عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس عن ابراهيم (عليه السلام) « ويذكر المؤرخ برسوس[١٩٥] أبانا إبراهيم ولا يسميه حيث يقول انه من الجيل العاشر بعد الطوفان عاش بين الكلدانيين رجل صدق متبحر في العلوم السماوية وزاد المؤرخ هكتاسوس[١٩٦] على

---

(١٩٣) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ - ٥٠ .

(١٩٤) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية من القرآن الكريم / ج٢ ص ١٢٣ .

(١٩٥) برسوس : كاهن في معبد الإله مردوخ في مدينة بابل عاصر الاسكندر المقدوني وألف كتاباً الى الملك انطوخس الاول (٢٨٠ - ٢٦١ ق . م .) عن تاريخ بابل ضمنه معلومات عن الطوفان البابلي غير ان هذا الكتاب قد ضاع ولم يبق منه سوى مقتبسات في كتب بعض المؤلفين الاغريق انظر علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان ص ٣٠ الهامش وانظر كذلك الاحمد / د. سامي سعيد / ملحمة كلكامش / حيث يقول عنه : المؤرخ اليوناني المشهور يرحوشا (برسوس الذي استوطن بابل في القرن ٣ ق . م .) .

(١٩٦) عاش في مصر في القرن الثالث قبل الميلاد .

نلك انه الف كتاباً عنه وقال نيقولا الدمشقي في الكتاب الرابع من تاريخه ان ابراميس (حسب الكتابة الاغريقية) حكم في دمشق وكان مغيراً قدم من ارض بابل من البلاد التى تسمى الكلدانيون ولم يمض عليه زمن طويل حتى هجرها وقومه الى ارض كنعان ـ وتسمى اليوم يهوذا ـ وفيها نريته او لا يزال اسم ابرام مشهوراً في اقليم دمشق حيث تسمى احدى القرى بمسكن ابرام »[197] . هذه المعلومات نكرها يوسيفيوس في تاريخه ينقلها عن مؤرخين قبل الميلاد وهؤلاء نقلوا عن مصادرهم وان كانت هذه المعلومات لا ترقى الى الصحة والتصديق ولا تخلو من صياغات مشكوك فيها الا انها تعطينا فكرة عن شهرة شخصية ابراهيم عند المؤرخين القدماء وتثير تساؤلات عن سر توقف النقل عن هذه الشخصية وان هذا التوقف او الاختفاء لشخصية إبراهيم (عليه السلام) في المدونات القديمة . يبعث الحيرة ويلقي ظلالا من الشك عن طبيعة مسار المعلومات او التشويش عليها او التشكيك فيها وقد سبق ان أشرنا الى محاولة مستر وولي في نفي حادثة وجود اسم لإبراهيم في حفريات اور . اننا لا نزال نأمل ان تعلن بعض المعلومات مما يلقي الضوء على شخصية إبراهيم من خلال الحفريات ومن الجدير بالملاحظة ان احداً من المتخصصين بالآثار لم ينف شخصية إبراهيم او يجزم بعدم وجودها لشدة ظهور اثر هذه الشخصية على التاريخ وتاريخ أديان التوحيد الثلاثة الكبرى الاسلام والمسيحية واليهودية وكذلك لم تظهر لحد الآن معلومات توضح معالم شخصية الخليل من خلال نتائج الحفريات او مدونات الالواح الطينية التي كانت شائعة في عصر إبراهيم (عليه السلام) .

ان عصر إبراهيم يمكن ان يوضع في موازاة عصر حمورابي على وجه التقريب « وهو الملك البابلي المشهور الذي اعتلى منصة الحكم في سنة ١٧٩٢ ق . م . واستمر لمدة اربعة واربعين عام حتى عام (١٧٤٩ ق . م .) حيث خلفه ابنه سمو ايلونا »[198] . على إننا ونحن نتعامل مع الحفريات لابد ان تؤكد حقيقة هامة وهي ان هذه الحفريات لا تعطينا توضيحاً وتفصيلاً دقيقاً لاحداث التاريخ القديم « وعلى كثرة الاحافير لا نجد بينها خبراً يعيّن لنا التاريخ في حادث من حوادث تعيين الجزم واليقين ولم يهتد المنقبون الى تاريخ منها الا على وجه التقريب وبعد الموازنة والترجيح . ومن الامثلة الكثيرة على هذا ان المنقبين كانوا يعينون سنة

---

(١٩٧) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٢٠ .

(١٩٨) رشيد / د. فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / ص ٩٦ .

١٩٤٠ ق . م . لحكم حمورابي ثم انكشفت أحافير (ماري) لاندري باروت فقدموها قرنا كاملًا الى نحو ١٨٤٠ لانهم وجدوا ملوكاً معاصرين له وكانوا يحسبونهم سابقين[١٩٩] لكن الشيء الاكيد والوحيد الذي تقدمه لنا هذه الحفريات هو انها تمثل العصر الذي تنتمي اليه وتتطابق مع سنوات هذا العصر وهذه ايضاً قد تتعرض للتزوير كما يذكر د. طه باقر بان « اغرب ما وجد المنقبون حديثاً في الموضع الاثري المعروف بإسم (سلطان تبه) في جنوبي تركيا بالقرب من حران ـ أجزاء من الملحمة ورسالة عجيبة زورها كاتب قديم (عاش في الالف الثاني قبل الميلاد . فقد جاءت تلك الرسالة على لسان البطل جلجامش معنونة الى أحد الملوك القدماء يطلب منه جلجامش ارسال احجار كريمة ليصنع منها تعويذة لصاحبه انكيدو »[٢٠٠] . ان احتمالية الخطأ في الحكم على الحدث التاريخي من خلال الحفريات كبيرة بل ان هذه الحفريات قد تقود الى أوهام وأخطاء تقلب الحقائق لاسباب عديدة منها ان اللغة التي كتبت بها اندرست ولذلك جاءت الترجمات لهذه النصوص غير دقيقة وقابلة للتغير والتعديل . ومن أسباب كثرة الاخطاء في قراءة التاريخ القديم ان المدونات عبّرت عن ابطال وملوك وجبابرة وضعوا ضمن ميثولوجيا كانت تعبر عن تمجيد وتضخيم يتسم بالمبالغة الممزوجة برؤيا دينية جاءت لتسند وتغذي الحاجة الدينية لدى الانسان في تلك العصور وعبّرت كذلك عن السلطة السياسية وعن الوثنية وثقافتها لذلك كانت الالواح مشحونة بالاساطير والتمجيد والتضخيم ولا تعبر عن الواقع الا في حدود ضيقة مثل عقود البيع والشراء والمعاملات التجارية وبعض المجالات البعيدة عن الدين والملك وان كان هناك « انطباع لدى بعض الباحثين ان التآليف الادبية السومرية كلها كانت ذات صيغة دينية وقد جرى تآليفها على يد كهنة لاستعمالها في الطقوس الخاصة بالمعبد . ويبدو ان مثل هذا الانطباع جاء نتيجة وجود أعداد غير قليلة من الالواح المدونة بموضوعات ذات طابع ديني كالادعية والصلوات والترانيم والاساطير)[٢٠١] ان دراسة التاريخ من خلال نقوش الحفريات لابد ان تتسم بالحذر والتحليل العميق الذي يعتمد على المقارنة والفطنة لكي يصل الباحث الى نتيجة مقبولة تصمد أمام احتمالات النقد الكثيرة المحتملة بسبب تجدد

---

(١٩٩) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

(٢٠٠) باقر / د. طه ملحمة كلكامش / ص ٢٥ .

(٢٠١) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٤٩ .

واستمرار البحث والتنقيب وتحليل المعلومات . لذلك اذا جاز لنا ان نضع عصر إبراهيم (عليه السلام) مع عصر حمورابي فان هذا يعني ان عصره في اصطلاح علماء البابليات ضمن العصر البابلي القديم . وقد سجل هذا العصر تغيراً أساسياً في تكوين شخصية الانسان وقد سجلت النقوش وعياً امتاز به الفرد في ذلك العصر « واذا كان الانسان من قبل قد شعر بالضعف وعدم القدرة او العجز امام الاشباح التي جلبت له الاذى والمرض فقد نقل إدراكه لامكانياته المتنامية والمسؤولية الكبيرة الآن الى إله خاص الإله الحامي »[٢٠٢] وهذه الملاحظة جديرة بالتأمل لانها عبرت عن متابعة دقيقة في بناء شخصية الانسان والتغير الجذري الذي حصل عنده وهو الذي عبر عنه ادب العصر البابلي القديم بربط الانسان بفكرة الحياة بعد الموت والتأمل في ظاهرة الموت « وهكذا صار البحث عن الخلود في الحياة موضوعاً مهماً في الادب (motive) ونجد في ملحمة كلكامش في الرواية البابلية القديمة للملحمة في موضوعها يتسلم كلكامش النصيحة : « كلكامش الى أين أنت ذاهب ؟ الحياة التي تبحث عنها لن تجدها اذ حين خلقت الآلهة الانسانية قررت للانسان الموت واحتفظت لنفسها بالحياة . اذاً فاملأ يا كلكامش بطنك : كن فرحاً ... والطريف ان النصيحة هنا تعطى بالذات من اجل الاستمتاع بالحياة وتغيب هنا الاشارة الى محاولة ارضاء الآلهة بالتدين وبهذا ربما يمكن الوصول الى المشاركة بالخلود »[٢٠٣] هذا التحريك في وعي الانسان لم يأت نتيجة تطور في عقل الانسان اذ ان هذه الافكار لا يمكن تحصيلها بالتجربة او الفكر المجرد ولكنها عبرت عن اصداء وانعكاس على مدى أزمان طويلة الأمد لآثار أولئك الاشخاص (وهم الانبياء) الذين جاءوا ليربطوا الانسان بالحقيقة ويوضحوا له الالغاز والمعضلات التي كان عقله يعجز عن تفسيرها وهي الموت وما بعد الموت والقدر والحياة لذلك نجد ان مستوى هذه الاعمال يتردد بين الاسطورة والحقيقة فعندما تتحدث النصوص عن مصير الانسان تكون هذه النصوص تعبير عن الوعي والقلق ولكنها من جانب آخر تدفعه نحو البحث عن الخلود والتشبه بالإله وهذه الظاهرة وهي المزج بين الاسطورة والواقع كانت اكثر وضوحاً في مجال المعتقدات العراقية القديمة « وإن الاساطير السومرية والبابلية الخاصة بالكون والآلهة تشغل حيزاً كبيراً في مجمل الناتج الادبي الرافديني وعلى الرغم من

---

(٢٠٢) كلنفل / د. هورست / حمورابي ملك بابل وعصره ترجمة د. غازي شريف / ص ٨٤ .
(٢٠٣) كلنفل / د. هورست / م . س / ص ٨٥ .

ان كثيراً من القضايا التي عالجوها في تلك الاساطير مبنية على أساس منطق الفكر الميثوبي (أي الفكر الاسطوري (Logic of methopic thought) الا انهم خلصوا الى افكار ومعتقدات لا تبدو بعيدة عن منطق العلم احياناً فقصص الخليقة في وادي الرافدين تؤكد على ان الكون في البدء كان كتلة واحدة لكن الالهة انليل (او مردوخ) شطرها الى قسمين خلق منهما السموات والارض ثم ان كثيراً من المعتقدات السومرية والبابلية تركت بصمات واضحة في معتقدات اقوام عديدة اخرى وعلى وجه الخصوص في معتقدات العبرانيين (مثل عملية خلق الانسان والكون وقصة الفردوس المفقود وقصة الطوفان كما ان موضوعات توراتية اخرى مثل قصة ايوب ونشيد الاناشيد لسليمان والافكار الخاصة بالموت والعالم الاسفل هي الاخرى ذات جذور رافيدينية) ومن المعروف لدى الباحثين ان مبدأ التشبيه (Anthropomorphism) كان واحداً من المبادىء الاساسية التي اتصفت بها المعتقدات الدينية عند سكان وادي الرافدين اذ انهم شبهوا آلهتهم بالبشر تماماً وقد ترفع الحجب بين الآلهة والانسان أحيانا ... فنجد ان الآلهة تتحدث وتتعامل مع الانسان الذي يكون في مثل هذه الحالة أحد الحكماء .... او الاتقياء او احد الملوك ومع ذلك فان الآلهة تتصف بالسمو والرفعة والقدسية وقبل هذا بالخلود الذي استأثرت به منذ بداية الخليقة »[٢٠٤] لقد أردنا ان نؤكد من خلال استشهادنا برأي الدكتور فاضل عبدالواحد وهو العالم البصير بالسومريات والبابليات وقد أكد الحقيقة التي ذكرناها في البداية ان هذه المعتقدات عبرت عن حقيقة وخيال فالحقيقة مثلت آثار النبوات والانبياء . والخيال هو الذي أنتجه عقل البشر بعد النبوات والتحريفات . وان تتطابق الحقيقة المذكورة في الالواح السومرية والبابلية مع الحقيقة المذكورة في التوراة مع الحقيقة التي ثبتها القرآن الكريم ولم يستطع العلم الحديث تفنيد واثبات خطأها . كل هذا يؤكد وحدة المصدر وهو الله جلت قدرته وانه قد اوحى هذه العقائد الى الانبياء الذين أرسلهم الى أقوامهم وتناقلت أقوامهم هذه العقائد وأضافت وحرفت فكانت الصورة النهائية الاسطورية التي تحمل بين طياتها اثر الحقيقة والوحي السماوي .

ومن بين القضايا التي تخضع لهذا المفهوم من تفاعل مع الواقع وتأثير البيئة بالظروف هي قضايا الشرائع والقوانين القديمة فالمعروف ان المجتمع البدائي لا

---

(٢٠٤) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٥٩ .

يحتاج الى قوانين تنظم علاقاته بقدر المجتمع المتطور ولذلك كانت القوانين والحاجة الى الحرية والعدالة الاجتماعية وبقية المتطلبات الانسانية لا تبرز بصورة ملحة الا من مجتمعات بلغت مرحلة لا بأس بها من نموها الاجتماعي والسياسي »[٢٠٥] وكذلك هذه الشرائع لم يعرف لحد الآن أساسها وجذورها ولكنها وجدت هكذا على الرقم الطينية وهي تفاجئنا بتنظيمها ودقتها وتفاصيلها كما فاجئتنا حضارة وادي الرافدين في شموليتها ولذلك سنتوقف قليلًا عندها لمقارنتها بالشرائع الدينية التي أوحاها الله الى أنبيائه !.

الشـــرائع القديمة :

من المعروف لدى الباحثين المتخصصين في تاريخ الاديان ومقارنتها والاسلاميين منهم بخاصة ان هذه الاديان عبرت عن عقيدة واحدة وهي عبادة الإله الواحد الاحد ، وقد أرسل الله الانبياء جميعاً ليبلغوا هذه العقيدة الى أقوامهم . قال تعالى ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا ان اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ﴾ فكل الرسل جاءوا بالدعوة الى هذه العقيدة وكل الكتب الإلهية نزلت لبيانها وبيان ما يبطلها او يناقضها او ينقصها وكل المكلفين من الخلق أمروا بها »[٢٠٦] . أما الجانب الآخر الذي بعث به الانبياء فكان مجموعة ارشادات وتوجيهات ونصائح يحملها النبي الى قومه وهذه المجموعة من التوجيهات تتناسب مع الواقع والعصر وليست ثابتة بل تتغير في بعض جوانبها من نبي الى آخر وتتطور بحسب تطور المجتمع وعصره ولم يرسل الله نبيا الا بهاتين الحقيقتين عقيدة توحد الإله وشريعة تنظم علاقات المجتمع فيما بينهم قد تحددت هذه الوظيفة للانسان منذ آدم (عليه السلام) بقوله تعالى ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾[٢٠٧] . وتحددت في رسالة نوح (عليه السلام) بقوله تعالى ﴿ ان اعبدوا

---

(٢٠٥) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٤ .

(٢٠٦) الفوزان / صالح بن فوزان / الارشاد الى صحيح الاعتقاد / ص ٦ .

(٢٠٧) سورة البقرة / ٣٨ ـ ٣٩ .

الله وأتقوه وأطيعون ﴾[٢٠٨] . وفي عصر إبراهيم تطورت الحياة وأشكالها وتعقدت العلاقات الاجتماعية وتبلورت علاقات ونظم احتاجت الى تحديد أوسع ومتابعة اكثر تفصيلاً من توجيه النبي وطاعته فقط كما في عصر نوح (عليه السلام) . فانزل الله صحفاً سميت في القرآن الكريم بـ(صحف إبراهيم) كما في قوله تعالى ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وابقى ان هذا لفي الصحف الاولى صحف إبراهيم وموسى ﴾[٢٠٩] وما بين آدم ونوح وإبراهيم كان هناك أنبياء انزل الله عليهم شرائع ووحياً « وكانت لادريس (بعد آدم وقبل نوح عليه السلام) مواعظ وآداب . فقد دعا الى دين الله وعبادة الخالق والعمل الصالح وحث على الزهد في الدنيا الفانية الزائلة ومن حكمه (الصبر مع الايمان يورد الظفر »[٢١٠] ولإبراهيم تراث مبثوث في الاديان الثلاثة الكبرى ففي القرآن الكريم آيات كثيرة تحدثنا عن حكمة إبراهيم وحلمه وفي التوراة والانجيل كذلك . وفي انجيل برنابا[٢١١] صورة من صور العذاب للاغنياء الذين لا يتصدقون « ومات الغني ايضاً احتملته الشياطين الى نراعي إبليس حيث عانى اشد العذاب . فرفع عينه ورأى العازر من بعيد على نراعي إبراهيم فصرخ حينئذٍ يا أبتاه إبراهيم ارحمني وابعث العازر ليحمل لي على اطراف بنانه قطرة ماء تبرد لسان الذي يعذب من هذا اللهيب . فأجاب إبراهيم : يا بني اذكر بأنك استوفيت طيباتك في حياتك وللعازر البلايا . فصرخ الغني ايضاً (يا أبتاه إن لي في بيت أبي ثلاثة اخوة فأرسل عازر ليخبرهم بما أعانيه لكي يتوبوا ولا يأتوا الى هنا . فأجاب إبراهيم : عندهم موسى وإبراهيم فليسمعوا منهم . أجاب الغني : كلا يا أبتاه إبراهيم

---

(٢٠٨) سورة نوح / ٣ .

(٢٠٩) سورة الاعلى / ١٦ - ١٩ .

(٢١٠) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء / ص ٢٣٦ .

(٢١١) برنابا : هو حواري من انصار المسيح الذين يلقبهم رجال الكنيسة بالرسل صحبه بولص زمنا (اي لبرنابا) بل كان هو الذي عرف التلاميذ ببولص ورجع الى اورشليم لان تلاميذ المسيح ما كانوا ليثقوا بإيمان بولص بعد ما كان من شدة عداوته لدينهم لولا برنابا الذي عرفه اولاً ثم وثقه اليهم . وانجيل برنابا لا تعترف به الكنيسة ويقولون انه من وضع بعض المسلمين ويختلفون من واضعه ؟ ويعد انجيل برنابا وثيقة تاريخية مهمة لدراسة كتاب التاريخ المقدس والاناجيل الاربعة انظر مقدمة محمد رشيد رضا (الناشر) على انجيل برنابا ص (ق - ش) وانظر الى انجيل برنابا / ص ٣٦ وما بعدها برنابا الانجيل ، ترجمة من الانكليزية سعادة / د. خليل .

بل إذا قام واحد من الاموات يصدقون . فأجاب إبراهيم : ان من لا يصدق موسى وإبراهيم لا يصدق الاموات ولو قاموا » . برنابا ـ الفصل الرابع والعشرون . وفي برنابا ايضاً : اجاب ابراهيم : اذاً يا ابتي ليس للآلهة نفس فكيف يهبون الانفاس؟ ولما لم تكن لهم حياة فكيف يعطوا إذاً الحياة ؟ فمن المؤكد يا أبتي إن هؤلاء ليسو هم الله)
لقد كانت لتعاليم إبراهيم آثار عظيمة على الانسانية في تاريخها الطويل . « ان كل ما يوجد في هذا العالم من المعاني الانسانية الكريمة والاحاسيس الرقيقة اللطيفة والاخلاق العالية الفاضلة والعلوم الصحيحة النافعة ومن القوة والعزم على محاربة الباطل والفساد انما يرجع فضله وينتهي تاريخه الى وحي السماء وتعليمات الانبياء وتبليغهم دعوتهم وجهادهم والى أصحابهم وتابعيهم بإحسان ومازال العالم ولا يزال يمشي في ضوئهم ويعيش في البناء المحكم الذي بنوه »[٢١٢] ولعل اهم الآثار تلك الشرائع التي نظمت حياة الناس وحددت لهم الحدود وبينت لهم المحرمات ودعتهم الى القيم والاخلاق والعدل ولم تنفك هذه الشرائع عن تلبسها بالدين فكل قانون وشريعة مهما كانت لابد ان يكون روحها الدين ومن المعلوم ان مصادر كل قوانين البشر مستمدة من الدين والعرف والعادة والمبادىء العدالة وسوابق القضاء »[٢١٣] . لقد حاول الملوك والقادة في التاريخ القديم ان يحققوا العدالة « وقد بذل ملوك العصر البابلي القديم جهداً مستمراً لتأخذ العدالة مجراها واصدروا القوانين لحماية الارامل واليتامى والضعفاء والمساكين وأكدوا على ذلك في مخطوطاتهم »[٢١٤] وكان هؤلاء الملوك يصوغون تشريعاتهم في إطار ديني لكي تكتسب هذه التشريعات اثر الالزام وتفرض شعوراً بالخوف من مخالفتها ومثال ذلك في اقدم الشرائع (شريعة اورنمو) (٢١١١ ق . م .) استخدم النهر كوسيلة من وسائل التحقيق في إثبات الجريمة « والنهر في العراق القديم كان مقدساً حتى انه اصبح آلهة في العهد البابلي القديم كما هو واضح في شريعة حمورابي . فالمتهم الذي لا وجود لادلة واضحة تؤيد التهمة يلقى في النهر الحكم فاذا خرج سالماً فهو بريء وان غلبه النهر فهو مذنب وان النهر في الواقع لا يستطيع ان يميز بين المذنب والبريء ولكن الذي يظهر الحقيقة هو المتهم نفسه لانه ان كان بريئاً فسوف يسبح

---

(٢١٢) الندوي / ابو الحسن علي الحسني / النبوة والانبياء في ضوء القرآن / ٣١ .
(٢١٣) مصطفى / د. عبدالله / اصول القانون / ص ٢٣١ .
(٢١٤) كلنفل / د. هورست / حمورابي وعصره ترجمة د. غازي شريف / ص ٨٧ .

بكل ثقة ويبرهن على براءته وان كان مذنباً فرهبته اتجاه النهر المقدس تربكه وتظهر ادانته . ومن أدلة تأثير هذه العقيدة على النفوس اليوم هوما يفعله البعض عندما يستدعون من يتهمون لليمين بحضرة إمام كبير كالعباس (عليه السلام) ليقسم بحضرته إنه بريء من التهمة الموجهة ضده وكثيراً ما يحدث ان تنهار عزيمة المذنب ولا يجرؤ على ان يقسم كذباً في حضرته المقدسة »[٢١٥] . لقد وجدت في ارض العراق اقدم الشرائع التي عرفتها البشرية وهذه لم تأت من فراغ وانما هي اثر من آثار قدم الوجود الانساني على ارض العراق هذا الوجود الذي ارتبط بالسماء من خلال الانبياء ومع تطور الحياة تطورت هذه الشرائع لتلائم طبيعة الحياة وقد تفاعلت هذه التشريعات بين الاقتباس من القديم والبحث عن التمجيد من قبل الملوك وآثار النبوات المستمرة على المجتمع وعبرت عن السلطة السياسية والدينية وتأثير المجتمع والاقتصاد والحاجات في المجتمع فكانت صياغتها انعكاساً لهذه الآثار[٢١٦] لقد كانت شريعة حمورابي اكثر هذه الشرائع تأثيراً ودراسة ونضوجاً وان كانت قد سبقتها شريعة اورنمو ٢١١١ ق . م . وشريعة لبت عشتار ١٩٣٤ ق . م . وشريعة اشنونا (غير محدد تاريخها ولكنها سبقت شريعة حمورابي بنحو نصف قرن او اكثر)[٢١٧] . وهذه الشرائع تكاد تتشابه في كثير من موادها ومتأثرة ببعضها في بعض الجوانب وسنتوقف عند شريعة حمورابي وندرس تأثيرها بالنبوات وعلاقتها بالرسالات والشرائع التي سبقتها لانها في عصر قريب من عصر إبراهيم (عليه السلام) .

شـــريعة حمورابي :

ينتمي حمورابي الى الاموريين الذين أسسو سلالة بابل الاولى (١٨٩٤ - ١٥٩٤ ق . م .) هذه السلالة التي استطاعت ان تتغلب على منافسيها (سلالة آيسن ولارسا) وفي عهد سادس ملوكها المدعو حمورابي قضت

---

(٢١٥) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٣٢ - ٣٣ .

(٢١٦) انظر كلنفل / د. هورست / م س / ص ٦٨ - ٨٨ .

(٢١٧) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٥٩ .

على المنافس الوحيد القوي لها سلالة لارسا واستطاع حمورابي بعدها توحيد البلاد بعد ان كانت مجزأة الى دويلات مدن وفي السنة الثلاثين من حكمه اصدر حمورابي شريعته المشهورة التي عدها المؤرخون من اعظم اعماله فقد دونها على الحجر وارسلها الى المدن البابلية كي يطلع عليها الناس ويعملوا بها ويحكم بها القضاة لتحقيق العدل بين الناس وهذه الشريعة كما يبدو من موادها عبارة عن جمع منقح لمواد الشرائع التي سبقتها إذ أن حمورابي قد حذف من مواد الشريعة ما كان لا يتفق وطبيعة العصر وأضاف مواد اقتضتها مصلحة الدولة آنذاك وحاجة المجتمع ولا سيما القوانين الصارمة والقصاص »[٢١٨] وحمورابي الاموري يذكرنا بما رجحناه من ان إبراهيم (عليه السلام) كان اموريا كذلك وان عصر إبراهيم (عليه السلام)بموجب تقديرات المؤرخين هو عصر حمورابي وان إبراهيم (عليه السلام) بمقتضى المفهوم الديني وهو النبي في عصره يعدّ صاحب شريعة وكتب انزلت عليه من السماء وبداية حياة إبراهيم ودعوته كانت في العراق وهو المكان الذي كانت له السلطة السياسية فيه بيد ملوك سلالة بابل الاولى والذي توحد سياسياً في عهد حمورابي وقد سجل القرآن الكريم حواراً بين إبراهيم (عليه السلام) والملك انتهى هذا الحوار بانتصار إبراهيم منطقياً وعقليا وفكرياً ثم بدأت بعدها معركة عقائدية بين إبراهيم (عليه السلام)وقومه وسلطتهم السياسية والدينية . كل هذه الاحتكاك يرجح لدينا ان ثمة علاقة بين حمرابي وإبراهيم وقد ذكرت التوراة اسم لأحد الملوك الذين حاربوا ضد إبراهيم وهاجموا بلاد الكنعانيين فلسطين وحاربهم هذا الملك وتسميه التوراة (امرافيل) « وترجح تعليقات هالي الجيبية (The pocket Bible Handbook) ان امرافيل هو حمورابي اشهر ملوك البابليين ، ويرجح كلارك اعتماداً على الآراء الحديثة ان عصر حمورابي متخلف عن عصر الوقائع التي تنتسب الى الى امرافيل بمئة سنة وان امرافيل وحمورابي لا يدلان على شخص واحد وقد وضع الاطلس التاريخي عصر ابراهيم بين ٢٠٠٠ و ١٧٠٠ ق.م. ووضع عصر حمورابي في ختام هذه المدة اما الموسوعة التي تحمل اسم وستمنستر فهي توافق المراجع الحديثة كذلك في تقريب زمان الآباء وتقرر ان وحدة اسم حمورابي واسم امرافيل محل اعتراض ومناقشة في المباحث الاخيرة . وان الحاق ايل بإسم امرافيل

---

(٢١٨) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٨٠ بتصرف وكذلك كلنغل / د. هورست / حمورابي ملك بابل وعصره / ص ٨٨ .

مشكلة تستوقف انظار الباحثين المتاخرين وتقول الموسوعة ان شريعة حمورابي المشهورة مقاربة للشريعة الموسوية في سفر الخروج من التوراة وان اسلوب المواد يتشابه في ابتداء الجمل كما تتشابه العقوبات ولا سيما عقوبات القصاص وقالت : وبعيد ان تكون شريعة حمورابي أمام المشرع العبري عند تدوين أحكامه ولكن المحتمل ان الشريعتين ترجعان الى أصل واحد (سامي قديم)[٢١٩] الذي أردنا ان نؤكده من خلال ايراد هذه المعلومات انه لا يوجد تحديد تحديد دقيق لقضايا التاريخ وتحديدها ، بناء على الاختلافات الكثيرة في تقديرها استناداً الى الحفريات . وإن امرافيل وارتباط الاسم بالإله (ايل) يدفعنا الى الاعتقاد بوجود شخصية بهذا الاسم وانه لم يأت من الخيال ، وهذا ما أكدته موسوعة وست ممنستر[٢٢٠] وأردنا ان نقرب بين الواقع وكشوفات الحفريات وما ذكرته التوراة من مسميات لكي نقترب من تعزيز القناعات وتأكيد الحق الغريب الذي طال السكوت عنه وهو التصريح وتداول اسم إبراهيم وآثار دعوته في اجواء البحث التاريخي المشحون بالتحسس تجاه شخصية هذا النبي العظيم (عليه السلام) وأردنا كذلك ان نصل الى النتيجة التي ذكرناها هي ان شريعة حمورابي ليست بدعاً او ليس لها سابقة في حياة العراقيين القدماء الذي كانوا يتوراثون النبوات لحد إبراهيم (عليه السلام) وليس غريباً ان توجد مثل هذه الشريعة في هذا البلد في ذلك العصر . وان التوراة وما فيها من شرائع لم تتاثر بشريعة حمورابي كما ان شريعة حمورابي لم تتاثر بالتوراة لانها سابقة لها كما ذكرت موسوعة (وست منستر) ولكن شريعة حمورابي والتوراة تؤكد وحدة المصدر . وان اصدق ما في التوراة ذكره القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشوني ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون * وكتبنا عليهم فيها ان النفس بالنفس والعين بالعين والانف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص * فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾[٢٢١] ومبدأ القصاص الذي جاءت به شريعة حمورابي لم يكن يمثل عن

---

(٢١٩) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٧٦ ـ ٨٠ بتصرف .

(٢٢٠) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٨٨ .

(٢٢١) سورة المائدة / ٤٤ ـ ٤٥ .

اتجاه جديد في التشريعات يختلف عن الاتجاه السومري الذي آمن بمبدأ التعويض والغرامة ولا علاقة للسامية بمبدأ القصاص ولا للسومرية بمبدأ التعويض والغرامة كما يذهب الى ذلك بعض المؤرخين[٢٢٢] ان مبدأ القصاص تشريع رباني ذكره الله تعالى في القرآن الكريم حيث قال تعالى ﴿ ولكم في القصاص حياة يا أولي الالباب لعلكم تتقون ﴾[٢٢٣] وأكد هذا التشريع في القرآن والتوراة والكتب التي أنزلها . والقصاص كمبدأ تشريعي اثبت فاعليته على مر العصور وكلما ازداد الوعي وتطور الفكر رجح الابتعاد عن ممارسة الجريمة بسبب ادراك هذا الانسان لقوة الردع في العقوبة ومع الايمان بالآخرة الذي أكد عليه الانبياء يصل المجتمع الانساني الى حالة انضباط بمقتضى المصلحة العامة والخير العام والابتعاد عن الظلم . فإذا وجدنا في شريعة حمورابي المواد الآتية :

المادة ١٩٦ : إذا فقأ رجل عين ابن رجل (آخر) فعليهم ان يفقأوا عينه[٢٢٤] .

المادة : ١٩٧ : إذا كسر رجل عظم رجل آخر فعليهم ان يكسروا عظمه .

هذه المواد أكد القرآن الكريم وجودها في التوراة وذكرتها التوراة الحالية . وهذه تؤكد ان شريعة حمورابي لا بد ان تكون مقتبسة في بعض موادها من مصدر واحد ولا يمكن ان يكون هذا المصدر الا شريعة نبي من أنبياء الله ومن المرجح ان يكون إبراهيم (عليه السلام) .

ولعل اشتمال شريعة حمورابي على عقوبة التحريق (كما ورد في المادة ١١٠ منها التي تنص على حرق الكاهنة التي تدخل الحانة لشرب الخمرة . وكذلك نصت المادة ١٥٧ من الشريعة على حرق الولد الذي يزني بزوجة أبيه وتحرق معه إذا وافقته)[٢٢٥] .

ان شيوع عقوبة التحريق وتكرارها في شريعة حمورابي يدل على تعارف

---

(٢٢٢) انظر رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٨١ وكذلك متي / سليم ملحم / منهل الشرائع / ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٢٢٣) سورة البقرة / ١٧٩ .

(٢٢٤) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٢٢٥) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ١٠٧ و ١١٧ .

المجتمع وتداوله لمفهوم هذه العقوبة وإنها تطبق بحق كل الذين يمارسون عملاً يستنكره المجتمع أو يُصوِّر هذا العمل من البشاعة بحيث يطالب المجتمع بتطبيق هذه العقوبة بحق من صوَّر بهذه الصورة الخارجة على العرف الاجتماعي والديني . ويؤكد هذا الامر كذلك ارتباط هذه الشريعة بالعقوبة التي واجهها إبراهيم (عليه السلام) كما قال تعالى ﴿ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ﴾[٢٢٦] ومما يؤكد شيوع عقوبة التحريق في عصر إبراهيم لجوء المجتمع والسلطة اليها كما ذكرت الآية السابقة وتكرارها في شريعة حموزابي . وقد وجد في مقدمة شريعة حمرابي ذكراً لموقع ارتبط بإسم إبراهيم الخليل في التاريخ الديني وهو الموقع الذي أوقدت فيه النار لإحراق إبراهيم ، وانه تم إقامة بنيان لهذا الغرض كما وضع القرآن الكريم . فقد جاء في مقدمة شريعة حمورابي وهو يمجد نفسه :ـ

« الذي جعل كوشا قوية الشأن
الذي قدم كل شيء لميس لام
انه الثور الهائج نطاح الاعداء
محبوب توتو مفرح مدينة بارسيبا »[٢٢٧] .

وبارسيبا هذه هي نفسها بيرس نمرود وقد تم الكشف عن هذه المدينة التي تبعد عدة أميال عن بابل « وتقع جنوبي بابل وتعرف خرائبها بأسم برس نمرود وقد نقبت فيها بعثة المانية سنة ١٩٠٢ »[٢٢٨] وقد كتب نيكولاس بوستغيت عن بيرس نمرود : « وتميز البرج الآخر وسمي بيرس نمرود بوجود كتل غير عادية من الآجر المزجج حول اسفل البرج وكان شاهداً على استعمال حرارة هائلة القوة يصعب تفسيرها الى اليوم »[٢٢٩] وكان يعتقد بأن هذا البرج هو برج بابل الذي تعرض لانتقام إلهي ودمرته نيران السماء . وقد جاء هذا الوصف لهذا الحريق من قبل المؤرخين الكلاسكيين مثل هيرودتس وسترابو وبعد الكشف عن برج بابل اتضح بأن ذلك كان خطأً ولكن مؤرخ

---

(٢٢٦) سورة الانبياء / ٦٨ .

(٢٢٧) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / ص ٨٧ .

(٢٢٨) انظر جورج كونتينو / الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور ترجمة سليم طه التكريتي / ص ١٦٩ .

(٢٢٩) بوستغيت / نيكولاس / حضارة العراق وآثاره تاريخ مصور . ترجمة سمير عبدالرحيم / ص ٣٦ .

انكليزي اسم ج. س. بكنفهام زار خرائب بابل عام ١٨١٦ م استطاع ان يثبت بأن بابل المدينة امتدت عدة أميال الى التلول الكبيرة وان البرج في بيرس نمرود (العائد لمعبد نابو في بورسيبا) كان حقاً (برج بيلوس) الذي وصفه الكتّاب الكلاسيكيون »[٢٣٠] وانه كان من ضمن مدينة بابل القديمة . وهذه المعلومات غير دقيقة ولكنها تؤكد وجود آثار نار هائلة في بيرس نمرود في بارسيا وهذه المدينة ذكرت في مقدمة شريعة حمورابي . فهل تكون آثار الحريق في بيرس نمرود هي آثار الحريق المذكور في قصة ابراهيم ؟ ولماذا سمي البرج بإسم (بيرس نمرود) ؟ هل لهذه الشخصية علاقة بالاسم الذي تردده المصادر الدينية حول الملك الذي واجه وعاقب إبراهيم (عليه السلام) ؟ والذي تطلق عليه المصادر الاسلامية اسم نمرود وقد قيل بأن النمرود هو صفة للملك الطاغية وملوك العراق القدماء يطلق عليهم النماردة كما يطلق على ملوك مصر الفراعنة .

ولا توجد هناك معلومات عن تحريق إبراهيم (عليّه السلام) عند الآثاريين وشراح العهد القديم ، لا سيما إذا علمنا أن رواية تحريق إبراهيم لم ترد عند أهل التوراة[٢٣١] ولذلك نجد هذا الاضطراب الحاصل عند الآثاريين الذين يحاولون ان يوظفوا الكشوفات الآثارية لخدمة العهد القديم فانهم لم يقرأوا عن تحريق إبراهيم ولا يستطيعون ان يربطوا بين ما يكتشف من حفريات وآثار ويشير الى حدوث حريق هائل وبين عصر إبراهيم وان أهم أحداث عصره هو معجزة التحريق . وما زالت نتائج الحفريات لا تتناسب مع دور إبراهيم (عليه السلام) وفقيرة بالمعلومات والبحوث التي تكشف عن حقيقة هذه الشخصية العظيمة ولكننا واثقون بأننا نقترب رويداً نحو تحقيق تطابق بين معلومات الكتب المقدسة ولا سيما القرآن الكريم ورواية الحفريات ونتائج الكشوفات المستخلصة من نتائج الحفريات والآثار . واننا مطمئنون كذلك الى انه لم ولن يستطيع المنكرون لهذه الحقيقة ان يأتوا بدليل يثبتون فيه بأن إبراهيم

---

(٢٣٠) بوستغيت / م . س / ص ٣٦ .

(٢٣١) انظر العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٨ : وفيها « ولم تذكر في التوراة ان ابراهيم القي في النار وإنما ورد في سفر دانيال من يحبار بابل ان نبوخذ نصر غضب على ثلاثة من الفتية الصالحين لانهم لم يسجدوا لصنم من ذهب » كما بينا ذلك . والقصة تشبه قصة تحريط ابراهيم ونجاة ابراهيم وكأنها اخذها او سمعها دانيال في بابل ونسبت الى الثلاثة .

كان وهماً ! لانه حقيقة لا يمكن حجبها او الغاء تأثيرها . فكما ان الشمس تاتي من المشرق كذلك التاريخ يبدأ بإبراهيم (عليه السلام) لانه أبو الانبياء ، والانبياء هم التاريخ وغيرهم هم السراب الذي زال تأثيره عن الوجود بعد رحيلهم حتى ولو كانوا ملوكاً . فالذين والانبياء هم الحقيقة ! !

المبحث الرابع

أنبياء ارتبطوا بإبراهيم (عليه السلام) وبعصره

لوط (عليه السلام) :

لقد تحدث القرآن الكريم عن هذا النبي الكريم وذكرته آيات عديدة ، أخبرنا فيها عنه وعن سيرته في قومه ودعوته لهم . وأكد القرآن الكريم وجود علاقة بين لوط وإبراهيم (عليهما السلام) وقد أشارت الآيات ان لوطاً من أوائل المؤمنين بدعوة إبراهيم (عليه السلام) قال تعالى ﴿ فآمن له لوط * وقال إني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم ﴾[٢٣٢] . وهذا يدل على ان ايمان لوط (عليه السلام) قبل الهجرة من العراق وفي قوله تعالى ﴿ ونجيناه ولوطاً الى الارض التي باركنا فيها للعالمين ﴾[٢٣٣] . ولوط على الارجح هو ابن أخي إبراهيم وهو (لوط بن هاران بن تارح ـ وهو آزر ـ فإبراهيم وهاران وناخور اخوة ويقال ان هاران هذا هو الذي بنى حران . وهذا ضعيف لمخالفته ما بايدي أهل الكتاب »[٢٣٤] هذه الآيات التي استشهدنا بها تؤكد ان لوطاً خرج مع عمه إبراهيم (عليه السلام) من العراق مهاجرين وكان استقرارهم النهائي في فلسطين وقد هاجر لوط وإبراهيم ومن معهم الى مصر طلباً للطعام لا على سبيل الاستقرار كما ذكر ابن كثير « انه كان جوع أي

---

(٢٣٢) سورة العنكبوت / ٢٦ .

(٢٣٣) سورة الانبياء / ٧١ .

(٢٣٤) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ١٩٢ .

قحط وشدة وغلاء فارتحلوا الى مصر »[235] وقد أكدت آيات القرآن الكريم الرابطة القوية بين إبراهيم ولوط (عليهما السلام) قال تعالى ﴿ ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية * ان أهلها كانوا ظالمين * قال ان فيها لوطا * قالوا نحن أعلم بمن فيها * لننجينه وأهله الا إمرأته كانت من الغابرين ﴾[236] وفي آيات أخرى ﴿ فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط * إن إبراهيم لحليم أواه منيب ﴾[237] هذه العلاقة بين الرسول الكريم وابن أخيه تؤكد لنا ان علاقتهم دعوية رسالية وليست علاقة دنيوية على عكس ما تذكره التوراة عن هذه العلاقة فقد جاء في سفر التكوين / افتراق إبراهيم ولوط : فقال ابرام للوط : لا يكن نزاع بيني وبينك ولا بين رعاتي ورعاتك لاننا نحن اخوان . أليست الارض كلها أمامك ؟ فاعتزل عني . ان اتجهتُ شمالًا اتجه أنت يميناً وان تحولتَ يميناً أتحول شمالًا » تكوين / ١٣ لم يذكر القرآن الكريم سبب افتراق لوط عن إبراهيم ولا يمكن ان تكون كما تذكر التوراة ولكن الانبياء يجب ان يكون احساسهم بالمسؤولية تجاه تبليغ الدعوى أقصى ما يمكن ولابد ان تتضاءل أمامه كل مؤثرات الدنيا وخيراتها ولذلك لابد ان يكون لوط قد استجاب الى نصيحة عمه ورسوله الذي آمن به بأن يتجه الى قرية وأن يباشرا معا الدعوة الى الله فكانت عمورة وسدوم وهما من القرى التي غضب الله عليها وأمطرها الله بالحجارة وزلزلها . وقد ذكر القرآن الكريم قصة قوم لوط في مواضع عدة منها قوله تعالى ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين * إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء * بل انتم قوم مسرفون * وما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون * ونجيناه وأهله الا إمرأته كانت من الغابرين * وأمطرنا عليهم مطراً * فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[238] .

وفي آيات أخرى تؤكد طبيعة نفوس أهل هذه القرية الخبيثة والانحراف والشذوذ الذي كان قد تفشى فيهم وتؤكد الآيات ان الذين آمنوا بلوط كانوا قلة ﴿ فما

---

(٢٣٥) ابن كثير / م . س / ص ١٤٦ .

(٢٣٦) سورة العنكبوت / ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢٣٧) سورة هود / ٧٤ ـ ٧٥ .

(٢٣٨) سورة الاعراف / ٨٠ ـ ٨٤ .

وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾[٢٣٩] وقد أكدت آيات القرآن الكريم غربة لوط العراقي في قومه وذلك عندما هجم قومه على داره يريدون الملائكة للفاحشة أخزاهم الله قال لوط ﴿ لو أن لي بكم قوة أو آوي الى ركن شديد ﴾[٢٤٠] لذلك ورد في الحديث عن أبي هريرة : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رحمة الله على لوط ان كان يأوي الى ركن شديد . يعني الله عز وجل ـ فما بعث الله بعدة من نبي الا في ثروة من قومه »[٢٤١] وهذا يؤكد ان خروج إبراهيم ولوط من العراق لم يكن بسبب فساد قومهم في العراق وإنما لحكمة أرادها الله لأن فساد أهل سدوم وعمورة وقرى صوغر التى « يقول الناس : غور زغر »[٢٤٢] لم يكن له نظير على الارض في وقته ولكن الله أراد أن يطهر الارض من هؤلاء ويجعلها عبرة للآخرين ولذلك قال الله تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون ﴾[٢٤٣] وقال تعالى ﴿ وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم ﴾[٢٤٤] . وقال تعالى ﴿ ان في ذلك لآيات للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم. ان في ذلك لآية للمؤمنين ﴾[٢٤٥] وهذه الآيات أكدت الاعتبار بما حل بالاقوام التي استغرقت في شهوتها وانحرافاتها . ولا يعني ان أهل العراق في عصر إبراهيم كانوا صالحين ولكنها جاهلية كانت تعم الارض وإن هذا لا يعني ايضاً الانبياء كانوا يهاجرون الى أقوام خير من أقوامهم ولكنه طريق رسمه الله واحكم خطواته ليبتلي أقواماً ويكرم آخرين فطوبى لاتباع الانبياء اينما كانوا وحيثما وجدو . ولا نريد ان نتحدث عن البحوث التي تطرقت الى حفريات قوم لوط والقرى التي عاقبها الله لاننا تحدثنا عنها فيما سبق .

---

(٢٣٩) سورة الذاريات / ٥ .

(٢٤٠) سورة هود / ٨٠ .

(٢٤١) ابن كثير / قصص الانبياء / ص / ص٢٠٠ .

(٢٤٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص / ٢٠١ .

(٢٤٣) سورة الصافات / ١٣٧ ـ ١٣٨ .

(٢٤٤) سورة الذاريات / ٣٧ .

(٢٤٥) سورة الحجر / ٧٥ ـ ٧٧ .

أيـوب (عليه السلام) :

تحدث القرآن عن أيوب (عليه السلام) وتحدثت عنه التوراة ووجدت رقم وألواح طينية تحدثت عن مأساة إنسان ربطها علماء الآثار بشخصية النبي أيوب (عليه السلام) وقصة أيوب ملفتة لنظر الباحثين وقد درست قصة أيوب في العهد القديم والحفريات . ولم يربط بين القصتين وما نكره القرآن الكريم لان الباحثين الغربيين يعتقدون ان القرآن الكريم يأخذ من التوراة في القصص التي تتطابق او تكاد بين الروايتين وهذا أمر مألوف بالنسبة للباحثين الذين تأثروا بثقافة التوراة (العهد القديم) ولكنه بالنسبة للمسلمين الذين قرأوا القرآن واطلعوا على دقةرواياته كيف يكررون ما قاله الغربيون ؟ والعلماء مختلفون في عصر أيوب وأصله . « إن الرحالة برترام توماس صاحب كتاب (مخترعات وكشوفات في بلاد العرب Alarms and Exploration in Arabia) يحسبه من أهل عمان وغيره يحسبه من أهل نجد وزمنه متباعد بين المؤرخين وشراح التوراة »[٢٤٦] وفي القرآن الكريم ومنهجيته في تجاوز الزمان والمكان وردت قصة أيوب لتعطي نموذجاً للصابرين ومثالًا للمؤمنين في كل زمان لكي يصبروا على بلاء الدنيا ومصائبها وفي سور عديدة تضمنت ذكراً لأيوب (عليه السلام) ولكن في الانبياء وسورة (ص) اكثر تفصيلًا . قال تعالى في سورة الانبياء ﴿ وأيوب إذ نادى ربه أني مسّني الضر وأنت أرحم الراحمين * واستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين ﴾[٢٤٧] . وقال تعالى في سورة (ص) ﴿ واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه إني مسّني الشيطان بنصب وعذاب ، اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ، ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ، وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد انه أواب ﴾[٢٤٨] . « ويشير القرآن الكريم الى ان أيوب إنما هو من ذرية إبراهيم (عليهما السلام) قال تعالى ﴿ ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين ﴾[٢٤٩] ومن ثم

---

(٢٤٦) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٩٤ .

(٢٤٧) سورة الانبياء / ٨٣ - ٨٤ .

(٢٤٨) سورة ص / ٤١ - ٤٤ .

(٢٤٩) سورة الانعام / ٨٤ .

يذهب جمهور العلماء الى انه من سلالة العيص (عيسو) بن إسحاق بن إبراهيم »[250] والخلاف في شخصية أيوب وعصره ومكانه واسع بين العلماء وبين شراح التوراة وعلماء الحفريات فمن المفسرين وعلماء المسلمين من يخالف أعلاه « حيث قال ابن إسحاق : انه كان رجلاً من الروم . ومنهم من أخبر أن (أبو أيوب (عليه السلام) إنما كان ممن آمن بإبراهيم (عليه السلام) وهاجر معه الى فلسطين) . ورواية تقول إن أيوب من بني إسرائيل »[251] وذكر العقاد عن هالس hales (بعد المقارنات عن روايات قصة أيوب تجعل تاريخ أيوب قريباً من سنة ٢٣٠٠ ق . م . »[252] ويميل بعض الباحثين المعاصرين ومنهم العقاد ومهران في كتابيهما أعلاه الى احتمال ان يكون أيوب مصرياً حيث ذكر د. مهران : « ان هناك فريقاً من العلماء يذهب الى ان أيوب (عليه السلام) كان مصرياً وذلك بدليل الاثر الثقافي المصري الذي يطل علينا من ثنايا هذا السفر في مواضع كثيرة فسفر أيوب في الواقع ما هو الا صورة صادقة لقصة المتشائم المصري القديم (اليائس من الحياة) هذا فضلاً عن ذكره للاهرام والمقابر التي يبنيها الملوك لانفسهم وأخيراً ذكره للثواب والعقاب والحياة بعد الموت وعدم ضياع الناس في متاهات (شيول) كما آمن بذلك الاولون والمعروف ان العبرانيين طبقاً لما جاء في كتبهم المتداولة اليوم وليس كما جاء بها أنبياء الله قد عرفوا عقيدة الحياة بعد الموت في حقبة متأخرة من تاريخهم ربما في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد الامر الذي سبقهم اليه المصريون بآلاف السنين »[253] وهذا الكلام لا يخلو من ضعف وابتعاد عن الحقائق لانه لا يشترط في تشابه مفردات القصة ان تكون القصة مقتبسة وان ذكر الاهرام في قصة أيوب لا يشترط ان يكون أيوب مصرياً إذ قد يكون قد اقتبسها كتبة التوراة وأحبار بني اسرائيل من البيئة المصرية وذكروها في قصة أيوب التوراتية ولا يشترط لظهور مفهوم الآخرة في قصة أيوب ان يكون اليهود اخذوها من المصريين الذين سبقوا اليهود في قضية الايمان باليوم الآخر . لان التوراة كتاب سماوي وقد

---

(٢٥٠) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / جـ٣ ص ٢١٠ .

(٢٥١) المصدر السابق نفسه .

(٢٥٢) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٩٥ .

(٢٥٣) انظر مهران / د. محمد بيومي / م . س / جـ٣ ص ٢٢٦ وكذلك العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٩٦ .

حرّف اليهود كثيراً من آياته وقد تكون قصة أيوب وما فيها من إيمان باليوم الآخر هو من بقايا التوراة الحقيقية وهذا هو الارجح من فكرة اقتباس هذه العقيدة من المصريين . وقد ذهب الاديب الفرنسي فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) الى (ان أيوب وسفره أقدم من التوراة وان العبريين قد أخذوه عن العرب وترجموه الى لغتهم ويستدل على ذلك بأدلة منها ورد ذكر الشيطان وهي كلمة ليست عبرية بل كلدانية وذكر الجمال عند الحديث عن ثروة أيوب بين ثرواتهم وان لحوم الابل محرمة على اليهود »[٢٥٤] . وقد عثر على الواح طينية في وادي الرافدين تتحدث عن قصة شبيهة بقصة أيوب « وهي قصيدة بابلية معروفة بين المختصين بالمسماريات بقصيدة العدالة الالهية تتالف من سبعة وعشرين دوراً ويحتوي كل دور منها على احد عشر بيتاً ومن المحتمل ان زمن تدوين هذه القصيدة يعود الى نهاية العصر الكاشي ربما الى حدود (١٠٠٠) ق . م . وهي حوار بين المعذب وصديقه الحكيم الذي ينصح المعذب بعدم اليأس من الحياة »[٢٥٥] وعثر على قصيدة بابلية أخرى اسمها (لأمجدن رب الحكمة) « وهذه القصيدة ربما دونت بالاصل على أربعة رقم بحالة جيدة من الحفظ وتضم ما يقرب من ٤٥٠ بيتاً ضاعت منها أجزاء قليلة بسبب تهشم النص ودونت القصيدة مثل سابقتها (العدالة الالهية) في العصر الكاشي وهي تدور حول رجل اسمه شيشي - مشري - شكان ويظهر واضحاً ان هذا الرجل كان تقياً يخشى الآلهة ويؤدي الطقوس ويحسن الى الناس كما كانت له ثروة طائلة ولكنه على حين غرة نجده وقد ساءت به الاحوال وتنكر له الدهر وأصابه اليأس والقنوط »[٢٥٦] وقصيدة (لأمجّدنّ رب الحكمة) اكثر وضوحاً في دلالتها على قصة أيوب التوراتية من قصيدة (العدالة الإلهية) وقد جاء في هذه القصيدة :

تفككت عظامي وهي لا يكسوها سوى جلدي
التهبت انسجتي وأصابها المرض
انني الازم سرير العبودية ، فالخروج عذاب !
لقد صار بيتي سجني

---

(٢٥٤) مهران / د. محمد بيومي / م . س / ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢٥٥) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٣٧٧ .

(٢٥٦) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر / ص ٣٨٠ انظر عبدالواحد / د. فاضل / سومر اسطورة وملحمة / فصل ادب الحكمة ص ٢٤٦ .

شلل يدي يغل بدني
عرج قدمي يقيدني
امتدت اطرافي وتعثرت
ابيت في مريضي مثلما يبيت الثعلب
واتمرغ في برازي مثلما تتمرغ الشاة
لا الهي يقدم العون فيأخذ بيدي
ولا آلهتي ترحمني بالسير الى جانبي
لقد انتهت المناحة علي قبل ان اموت »[٢٥٧] .
ان وجود هذه المؤثرات والقصائد في الادب العراقي القديم تؤكد :-

١ - ان (العدالة الإلهية) مسألة أعارها السومريون والبابليون أهمية واضحة في حياتهم اليومية وناقشوها وابدوا فيها وجهات نظر وتفسيرات تبدو مختلفة بعض الشيء أحياناً .
٢ - هناك نقاط تشابه بين قصة الرجل المعذب البابلي شبش - مشري - شكان ، وقصة أيوب التوراتية لعل أهمها وجود اشتراك في التقوى والورع والثروة الكبيرة ومفاجئة النكبات للشخصين . والمرض العضال والصبر والتاكيد عليه وان الابتلاء في القصتين لم يكن مصدره السلطة او الملك وانما القدرة الإلهية والنهاية المشتركة بانفراج الشدة وعودة الامور الى مجاريها الطبيعية »[٢٥٨] .

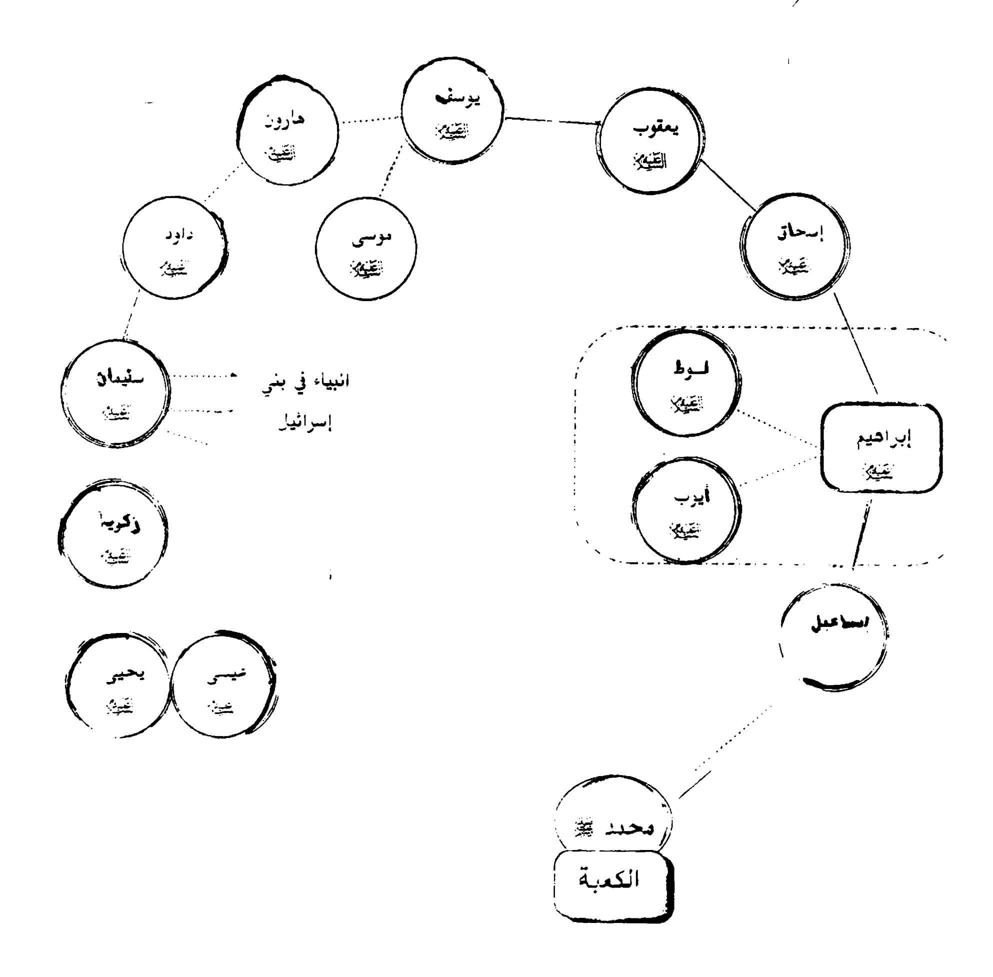
ولذا نحن نرجح على غير ان أيوب الذي هو شخصية قرآنية اشتركت التوراة والرقم الطينية في ذكر قصته وان هذا الاشتراك يؤكد حقيقة القصة وان عصره بعد إبراهيم (عليه السلام) وقد يكون أبوه فعلًا من أتباع إبراهيم (عليه السلام) لان القرآن الكريم ذكر انه من ذرية إبراهيم (عليه السلام) اي بعده . وان ذكره في الرقم الطينية والتعرض لتفاصيل دقيقة عن قصة تؤكد ان له أثراً في المجتمع العراقي اكثر من احتمال مصريته او انه في فلسطين او نجد . لان هذا الذكر في الرقم الطينية يؤكد وجود اثر للقصة في المجتمع العراقي وتاكيد التوراة لها يؤكد وقوعها ووجودها بغض النظر عن التفاصيل التوراتية التي قد تكون من التحريفات . فالتوراة اذاً لم تقتبس

(٢٥٧) من الواح سومر / ص ٢٨٤ .
(٢٥٨) عبدالواحد / د. فاضل / من الواح سومر/ ص ٣٨٩ .

القصة من الادب المصري ولا من الادب العراقي وانما القصة الحقيقية ذكرها القرآن الكريم وشخصية أيوب (عليه السلام) حقيقة وليست وهمية . ولكن تفاصيل القصة التوراتية قد اعتراها بعض التحريف والزيادة والنقصان نتيجة طبيعية لتدخل البشر في صياغة التوراة وتدوينها . وما كان اليهود ليدونوا قصة أيوب في توراتهم وهو ليس من أنبيائهم لو لم تتضمن التوراة الاصلية ذكراً لقصته « ولم يكن من عادة بني إسرائيل ان يجمعوا في التوراة كتباً لغير انبيائهم المتحدثين عن ميثاقهم وميعادهم ولكنهم جمعوا هذا السفر من الاسفار المشهور . ولا تزال قصة أيوب منظومة شائعة يتغنى بها شعراء اللغة العربية الدارجة في مصر والشام - (وحتى في العراق) - وقال توماس كارليل عنه ان واحداً من اجل الاشياء التي وعتها الكتابة وانه اقدم المأثورات عن تلك القضية التي لاتنتهي قضية الانسان والقدر والاساليب الإلهية معه على كل هذه الارض ولا احسب ان شيأ كتب يضارعه في قيمته الادبية . وقال فكتور هيجو : (انه ربما كان اعظم آية أخرجتها بصيرة الانسان) وقال شاف (sahaff : انه يرتفع كالهرم في تاريخ الادب بلا سابقة وبغير نظير »[٢٥٩] ولابد ان نذكر هنا ان الادب العراقي القديم قد سبق التوراة في التصدي لهذه المأساة والمعاناة الانسانية التي تدفع البائسين نحو اليأس ولا ينقذهم الا الصبر والتأسي والايمان . وان الادب العراقي لم يقتبس القصة من تأثير خارجي وانما يعبر عن تراث حقيقي تحول الى قصيدة شعرية يرددها الشعراء ويتسلى مع معانيها المعذبون وهذه القصائد التي كتبها العراقيون القدماء على ألواح الطين تحكي لنا بتفاصيل دقيقة للاعتبار والصبر على البلاء تماما كما هو هدف القصة في التوراة التي مجدت أول مرة وصايا ومواقف إنسان ليس من بني إسرائيل . وتقترب القصيدة في بعض ملامحها والصورة التي تعرضها من القصة القرآنية من حيث اعتبار الواقعة وعلى أساس ابتعاد القرآن الكريم عن المستوى البشري الذي لا يخلو من الضعف والخطأ في احسن أحواله ويبقى النص القرآني خالياً من الاضطراب والانعكاسات المشوشة في مسار القصة ومنحنياتها . ان وجود القصة في التراث العراقي القديم يدفعنا الى القول باحتمال ان يكون أيوب (عليه السلام) عراقياً وان أحداث قصته كانت على ارض الرافدين .

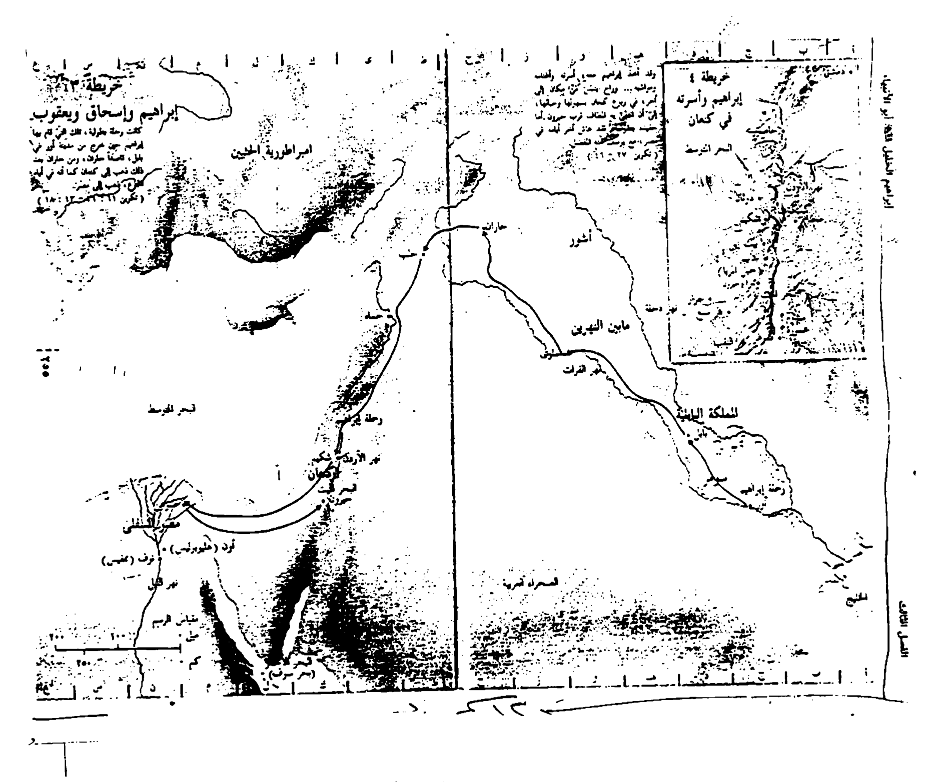
---

(٢٥٩) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٩٧ .



شكل يوضح علاقة الانبياء بعضهم ببعض يبدأ بإبراهيم
(عليهم الصلاة والسلام)

الخط المتصل يعني الارتباط النسبي المباشر (ذرية مباشرة) ، والنقاط الواصلة تعني الارتباط غير المباشر (ذرية غير مباشرة) وهذا يوضح لنا ان كثيراً من الانبياء لم يكن إرتباطهم مباشراً (نسبياً) وإنما كان إرتباطاً عقائدياً روحياً ، وعندما يطلق القرآن الكريم كلمة ذرية على الانبياء يعني ارتباط الكرامة ونسب التكريم . .



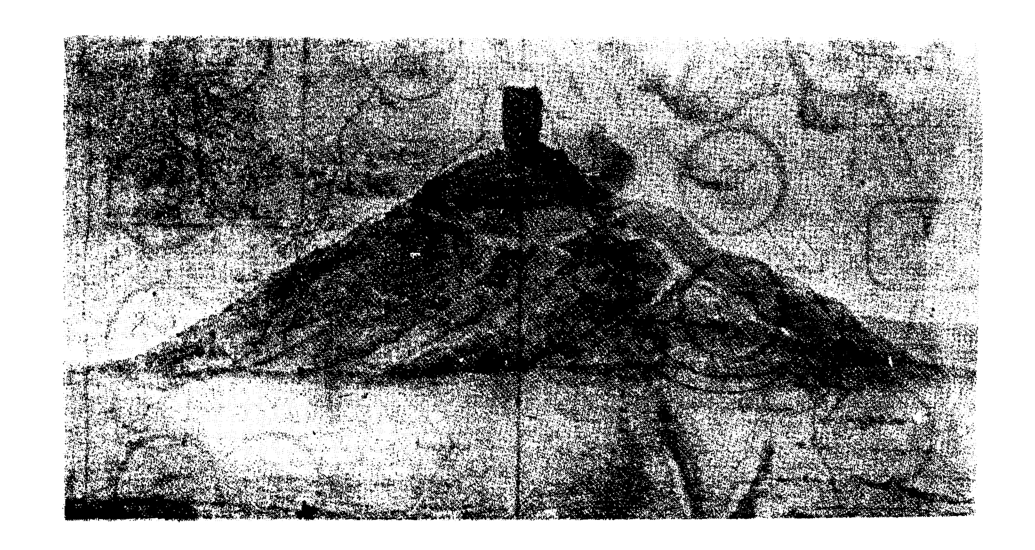
خريطة ٣

ابراهيم واسحاق ويعقوب

وقد أخذ ابراهيم معه أسرته وأغنامه ومواشيه ... وراح ينتقل من مكان الى آخر ، في ربوع كنعان بسهولها وجبالها ، الى ان انتهى به المطاف قرب حبرون . أما حفيده يعقوب فقد عاش آخر ايامه في مصر ، مع يوسف ابنه المفضل .

(تكوين ٢٧ ـ ٤٦)

كانت رحلة بطولية ، تلك التي قام بها ابراهيم حين خرج من مدينة أور في بابل ، قاصداً حاران ، ومن حاران بعد ذلك ذهب الى كنعان كما انه في أيام الجوع ذهب الى مصر . (تكوين ١١ : ٣٦ ـ ١٣ : ١٨)



٢ ـ بيرس نمرود : كما تصورها سير روبرت كيربوتر ورُسمت في العقد الرابع من القرن التاسع عشر عندما كان يعتقد على نطاق واسع انه برج بابل (المكتبة البريطانية)

عن بوستغيت / نيكولاس حضارة العراق وآثاره / تاريخ مصور ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبي / ص ٣٥





أسرة سامية عربية مهاجرة الى وادي النيل على نقش مصري قديم يرجع الى نحو ٢٠٠٠ ق.م.

عن سوسة / د. احمد / مفصل العرب والنيهود في التاريخ / ص ١٩٤ وص ١٩٨



التصوير رقم (٤٢)
الملك حمورابي صاحب الشريعة البابلية الشهيرة
واشهر ملوك الامبراطورية البابلية القديمة
(١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م.)

الفصل الرابع

النبي يونس (عليه السلام)

المبحث الاول

يونس (عليه السلام) في الرواية الاسلامية

تبدو شخصية نبي الله يونس (عليه السلام) واضحة المعالم بين الانبياء الذين ذكرهم القرآن الكريم . وان كانت المواقف التي عرضها القرآن الكريم لجوانب دعوته ومعالم شخصيته قليلة ومقتضبة موازنةً مع بعض الانبياء ولكنها تضع في ذهن القارىء صورة تستوفي العبرة وتعمق الايمان بقدرة الخالق العظيم . في أربع سور من القرآن الكريم تحدثت عن يونس (عليه السلام) وهي سورة يونس والانبياء والصافات والقلم . في هذه السور وقفات واضاءات عن الشخصية والدعوة والقوم والقرية يرسمها القرآن الكريم من خلال آيات معدودات تختزل الزمان والحدث والمكان لتقدمه الى الانسان وهو يطالع القرآن الكتاب الخالد الى آخر الزمان . ومرَّ ذكره سريعاً في معرض الكلام عن الانبياء في سور أخرى ولقد ارتبط اسمه بالحادثة المعجزة التي امتازت بها قصته وهي ابتلاع الحوت له وبقاءه في بطن الحوت مدة من الزمن . ولذلك جاءت تسميته في القرآن الكريم في بعض المواضع بـ (صاحب الحوت) و (ذا النون) في مواضع أخرى . قال تعالى ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم * وكذلك ننجي المؤمنين ﴾[1] وقال تعالى

---

(١) سورة الانبياء / ٧٨ - ٨٨ .

﴿ فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى ربه وهو مكظوم * لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم * فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾[2] وتبقى منهجية القرآن مطّردة في الابتعاد عن ملابساتّ الحدث الزمانية والمكانية المرتبطة بالحدث ارتباطاً دنيوياً ولم ترتبط ارتباطاً دينياً . فلم تصرح آيات القرآن عن الزمان ومتى وبعد كم من الانبياء كان يونس (عليه السلام) ؟ ولم تذكر أين كانت أحداث القصة ومسرحها المكاني ؟ والحقيقة إن قصص الانبياء سيقت في القرآن الكريم في الدرجة الاولى لرسول الله (ﷺ) وجاءت قصصهم لتعبر لصاحب الرسالة عن عمق الارتباط بين الانبياء وعن كرامة هذه القافلة المؤمنة التي اصطفاها الله تعالى من خلقه وأكرمها بالرسالات والنبوات . فكانت هذه القصص تُثبّت فؤاده وتقول له إنك لست وحيداً ولست غريبياً بل أنت الكريم من ذرية كريمة من هؤلاء الكرام الذين كانوا يقفون على صعيد واحد تتلألأ جباههم نوراً وهم يقودون البشرية نحو النور ونحو الحقيقة . فلذلك لم يكن رسول الله (ﷺ) يحتاج الى تفاصيل أكثر مما ذكر القرآن الكريم ولم يكن المؤمنون بالنبي محمد (ﷺ) بحاجة الى أكثر مما ذكر القرآن الكريم . كان الله يخاطب نبيه ويقول له « ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت ﴾ . وكان يخاطب المؤمنين فيقول : ﴿ فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ . وكان يخاطب الانسانية لكي تعتبر بالامم السابقة فيقول لهم ﴿ فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين ﴾[3] . وقد رسم القرآن الكريم صورة واضحة المعالم للامة التي تستجيب لنداء ربها وحذر من مخالفة تَعاليم الله وأعطى القرآن الكريم جانباً آخر من جوانب النبوات وآيات الانبياء فتحدث عن معجزة وقعت لنبي الله يونس (عليه السلام) فقال : ﴿ وإن يونس لمن المرسلين * إذ أبق الى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين * فالتقمه الحوت وهو مليم * فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون * فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين * وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون * فآمنوا فمتعناهم الى حين ﴾[4] . هذه الآيات العظيمة القدر القليلة العدد وضحت مساحات هائلة وعبّرت

---

(٢) سورة القلم / ٤٨ ـ ٥٠ .

(٣) سورة يونس / ٩٨ .

(٤) سورة الصافات / ١٣٩ ـ ١٤٨ .

عن جوهر القصة فتحدثت عن أعظم حادثةٍ في حياة النبي يونس (عليه السلام) وهي التقام الحوت له . وتحدثت عن قريته وعددهم . فكانت معلومات وافية تغني عن الحاجة الى المصادر الاخرى غير القرآن الكريم والتي تحدثت عن هذا النبي الكريم .

تحدث القرآن الكريم عن يونس (عليه السلام) ولم ينسبه الى أب وسماه (صاحب الحوت) و (ذا النون) والنون تعني السمكة في اللغة و « يقول الرازي في التفسير الكبير : انه لا خلاف في أن ذا النون هو يونس (عليه السلام) لأن النون هو السمكة وان الاسم اذا دار بين أن يكون لقبا محضاً وبين أن يكون مفيداً ، فحمله على المفيد أولى خصوصاً إذا عُلمت الفائدة التي يصلح لها ذلك الوصف »[٥] . ولكن هل القرية التي تحدث عنها القرآن هي نينوى ؟ أكثر المفسرين يعتقدون انها نينوى وفي التفسير الكبير للفخر الرازي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) « أنه قال : كان يونس (عليه السلام) وقومه يسكنون فلسطين »[٦] لكن هنالك شبه إجماع بين المؤرخين القدماء والمحدثين على أنه كان في نينوى . وهذه المدينة القديمة « اتخذها الآشوريون عاصمة لهم سنة ١٠٨٠ ق . م وحصّنوها فاقاموا حولها القلاع »[٧] ونينوى تشمل الجانب الشرقي على دجلة على قبالة الموصل المدينة القديمة وقد وصفت « بأنها مدينة أزلية قبالة الموصل وبينهما دجلة »[٨] وقد وصفها المقدسي : إقليم الجزيرة الذي يشمل نينوى والموصل وجزيرة ابن عمر التي سميت جزيرة الموصل وكذلك الجزيرة الفراتية : « بأنها اقليم نفيس ثم له فضل ، لان به مشاهد الانبياء ومنزل الاولياء به استقرت سفينة نوح على الجودي وبه سكن أهلها وبنوا مدينة ثمانين وبه تاب الله على قوم يونس وأخرج منه العين ومنه دخل الظلمات ذو القرنين . وبه كانت عجائب جرجيس داذيانه وفيه أنبت الله تعالى ليونس اليقطينة ومنه خرج نهر الملة المباركة دجلة ، أليس به مسجد يونس بتل

---

(٥) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية / ج ٤ ص ١٦٧ عن تفسير الفخر الرازي / ٢٢ ٢١٢ .

(٦) مهران / د. محمد بيومي / م . س . / ج ٤ ص ١٧٨ عن الفخر الرازي في تفسيره / ٢٢/ ٢١٢ وعن روح المعاني للالوسي ٨٣/١٧ .

(٧) السلمان / عبدالموجود احمد / الموصل في العهدين / ص ٢٤ عن الديوجي ... الموصل في العهد الاتابكي / ص٤ .

(٨) السلمان / عبدالموجود احمد / م . س /ص ١٤١ عن مجهول / عجائب البلاد والجبال والاحجار / ص ٨١ .

التوبة ؟ يقولون سبع زورات له يعدلن حجة ، مع مشاهد كثيرة وفضائل جمة »[٩] هذه المعلومات التي لا تخلو من المبالغة في تعظيم المدينة ولكنها تبين لنا بما لا يقبل الشك بأن نينوى بالذات أقدم مدينة في الجزيرة بل إنها من القدم مما يصعب تحديد بدايات تكونها وظهورها عاصمة للآشوريين وقد أُجريت تنقيبات عديدة من أجل البحث عن المدينة التاريخية نينوى وكان من اوائل المنقبين وكيل القنصل الفرنسي في الموصل (المسيو بوتا) « وشجعه على ان ينقب في مواقع عدة للوصول الى المدينة المسيو (موهل) سكرتير الجمعية الفرنسية الآسيوية . وبدأ بوتا بالتنقيب في آذار ١٨٤٢ م . وبعد عدة محاولات سبقت هذا التاريخ كان بوتا محظوظاً هذه المرة في اختياره نقطة البداية لانه في اليوم الاول من أعمال الحفر وصل الى السور الخارجي للقصر وبذلك ولد علم الآشوريات وقد كان بوتا يعتقد بأنه قد عثر على موقع مدينة نينوى التاريخية ولكنه في الواقع قد عثر على موقع قصر نينوى . ولكن بوتا كان متعجلًا فتخلى عن العمل في الموقع وسرعان ما تقدمت بريطانيا بطلب للسماح بالتنقيبات وحصلت على الاذن واستلمت الموقع وحالما شرع البريطانيون بالتنقيب حتى كشفوا عن قصر نينوى الذي كان يقع على عمق بوصات قليلة تحت المستوى الذي توقف عنده بوتا . وعندما كان بوتا وورلنصون ـ الخبير البريطاني الذي نقل الكتابات المسمارية على حجر بهستون ـ خارج المنطقة قام هرمز رسام (مسيحي من الموصل له علاقة مع القنصلية البريطانية في الموصل في مجال التنقيبات ـ بأعمال حفر في إحدى الليالي في الجزء المخصص من المنطقة لفرنسا ووصل مباشرة الى أغنى قسم من الخرائب وهو قصر آشور بانيبال ومكتبته التي يعدها المتحف البريطاني بحق واحدة من كنوزه الرئيسة . وعالج رولنصون الموقف بأن قدم الى فرنسا جملة من نماذج ثانية جميلة لقطع تم اكتشافها في التنقيبات البريطانية . وبعد الفرنسيين والبريطانيين قامت البعثة الامريكية بفتح الاماكن التي نقب فيها بوتا قبلًا ، واستعملت مخططاته وعثرت على المنحوتات التي أعاد دفنها بوتا غير ان معظمها كان قد تعرض للتلف نتيجة تعرضها للهواء لفترة وجيزة عام ١٨٤٢ م »[١٠] .

---

(٩) السلمان / عبدالموجود احمد / م . س /ص ٢٠ عن المقدسي / احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم / ليدن سنة ١٩٠٩ ص ١٣٦ .

(١٠) كونتينو / جورج / الحياة اليومية في بلاد بال وآشور ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد ←

نينوى المدينة التاريخية هي مدينة يونس بن متي (عليه السلام) وقد وردت رواية في السيرة عن النبي (ﷺ) تؤكد ارتباط نينوى بيونس (عليه السلام) . وكان ذلك عندما ذهب النبي (ﷺ) الى الطائف يدعوهم الى الاسلام . فرفضوا دعوته ووقفوا موقفاً خسيساً « وقالوا له : اخرج من بلدنا وحرشوا عليه الصبيان والرعاع يرمونه بالحجارة مما اضطره الى دخول بستان لعتبة وشيبة ابنا ربيعة ثم دعا بدعائه المشهور . وتأثرت قلوب ابني ربيعة فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يدعى (عداسا) وقالا له : خذ قطفاً من العنب واذهب به الى الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله (ﷺ) مد يده اليه قائلًا : باسم الله . ثم أكل . فقال (عداس) ان هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة ! فقال له النبي : من أي البلاد أنت ؟ قال : أنا نصراني من (نينوى) فقال الرسول (ﷺ) : أمِن قرية الرجل الصالح يونس بن متي ؟ قال له : وما يدريك ما يونس ؟ قال الرسول (ﷺ) : ذلك أخي كان نبياً وأنا نبي . فاكب عداس على يدي رسول الله (ﷺ) ورجليه يقبلها »[11] إن هذه الرواية تؤكد ارتباط نينوى بيونس (عليه السلام) ولكن رواية السهيلي في الهامش أدناه توضح لنا ان نينوى في عصر البعثة النبوية الشريفة لم يكن ذكر يونس (عليه السلام) مشهوراً فيها . كما اخبر بذلك عداس واستدل على نبوة محمد (ﷺ) بانه قد اخبره بأمر كان قد اندرس أثره واختفت معالمه في نينوى قرية يونس (عليه السلام) . فكان إخباره (ﷺ) دليلًا على انه كان يأتيه الخبر من السماء . ولذلك ذكرت كتب السيرة ان عداسا آمن برسول الله (ﷺ) ورفض ان يحارب في بدر مع قريش عندما طلب من سيداه ان يخرج معهما الى بدر « فقال لهما : أقتال ذلك الرجل الذي رأيته بحائطكما تريدان ، والله ما تقوم له الجبال . فقالا له : ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه »[12] ولقد ذكر القرآن الكريم حقيقة تثير التساؤلات عن قرية يونس (عليه

← التكريتي / بتصرف ص ١٨٩ - ١٩٣ .

(١١) القصة مروية في كتب السيرة . انظر سيرة ابن هشام ج ٢ / والروض الانف للسهيلي شرح سيرة ابن هشام ج ٢ / ص ١٧٩ وفي الروض الانف : ان (عداسا) حين سمعه يذكر يونس بن متي قال له : والله لقد خرجت منها يعني (نينوى) وما فيها عشرة يعرفون ما متى ؟ فمن اين عرفت انت متى ؟ وانت امي ومن امة امية فقال (ﷺ) : هو اخي كان نبياً وانا نبي .

(١٢) السهيلي / ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد بن ابي الحسن الخثعمي ت ٥٨١ هـ / الروض الانف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / ج ٢ ص ١٧٩ .

السلام) وعدد أهل هذه القرية فقد ذكرت سورة الصافات ﴿ وأرسلناه الى مئة الف او يزيدون ﴾ وقد جاء في التفسير عن ابن عباس عن هذا الرقم : « قال ابن عباس : بل يزيدون وكانوا مائة الف وثلاثين الف وعنه مائة الف وبضعة وثلاثين الف وعنه مائة الف وبضعة واربعين الفا . والله اعلم اي المراد ليس انقص من ذلك بل ازيد »[١٣] المهم ان ذكر هذا الرقم وضح لنا حقيقة مهمة وهي ان قرية يونس كانت قرية عظيمة او مدينة كبيرة وان القرآن الكريم يطلق القرية على المدينة او الدولة عندما كانت دول المدن (City State) إحدى معالم الحضارات والمدنيات القديمة . اذ ان تعداد مائة الف يعبر عن تجمع سكاني عظيم ويؤشر لنا علامة على ملامح العصر الذي وجد فيه يونس (عليه السلام) . ولقد كانت تعبيرات القرآن الكريم لحد عصر ابراهيم ويعقوب ويوسف (عليهم السلام) تدل على ملامح أطوار انتقالية بين الريف والمدينة وبين البداوة والمدينة كما عبّر يوسف (عليه السلام) ﴿ إذ جاء بكم من البدو ﴾ . لذلك يستفاد من دلالة الرقم على ما يأتي :

١ - ان القرية كانت مدينة كبيرة والنص يدل على عراقة المدينة وقدمها مما يرجح انها نينوى .

٢ - ان عصر النبي يونس (عليه السلام) كان في زمن نشوء المدينة الكبيرة . وقد ذكر الطبري ان « يونس بن متي من أهل قرية من قرى الموصل يقال لها نينوى وكان قومه يعبدون الاصنام فبعث الله اليهم يونس بالنهي عن عبادتها »[١٤] ويتفق ابن كثير مع الطبري بأن يونس بن متي كان في عصر ملوك الطوائف مع أصحاب الكهف والرسل الثلاثة في سورة (يٰس) الذين أرسلوا الى انطاكية وهو عصر متأخر يبدو من سياق الاحداث ان احداثه كانت في القرن الاول للميلاد[١٥] .

وهذا التقدير لا يتناسب مع طبيعة رسالة يونس (عليه السلام) والملامح التي

---

(١٣) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٣ ص ٢٢ . ويبدو ان هذه الرواية متأثرة بالاسرائيليات لان التوراة تذكر العدد مائة وعشرين الفا وهذا الرقم ليس بدقة المائة الف كما سنعلم .

(١٤) الطبري / ابو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠ هـ تاريخ الطبري / ج ٢ ص ١١ .

(١٥) انظر ابن كثير / محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني ت ٦٣٠ هـ / الكامل في التاريخ - ج ١ ص ٢٠٨ وما بعدها حول يونس (عليه السلام) .

عرضتها آيات القرآن الكريم وبيّنها المفسرون . وقد وضعت آيات سورة الصافات يونس (عليه السلام) بعد إلياس ولوط . وان لوطاً (عليه السلام) عاصر ابراهيم فذكره لا يدل على ترتيب زمني لان القرآن الكريم قد فصل معاصرته لإبراهيم في سورة اخرى ولكن ترتيب ذكر الانبياء في الصافات يشعر بترتيب زمني باستثناء لوط (عليه السلام) . تبدأ السورة بنوح ثم إبراهيم ثم قصة اسماعيل الذبيح ثم اسحاق ثم موسى وهارون ثم إلياس وإن إلياس ذُكر مع الصنم الذي كان يعبده قومه وهو (بعل) وهو الإله الذي كشفت حفريات رأس الشمرا أوغاريت بانه كان أحد آلهة هذه المدينة التي تشمل حالياً لبنان وأجزاء من سوريا وان بعلبك لا تزال تشير الى الإله (بعل) من اسمها وإلياس عند أهل الكتاب ايلياء[16] والبعل إله قديم عبده الكنعانيون والفينيقيون « وهو بعل بن داجون وداجون إله الحبوب وشفيع القوت وله اي (لبعل) كرّس الاوغاريتيون هيكلهم العظيم وكان له هيكل في اشدود احدى المدن الفلسطينية الخمس »[17] « ويبدو البعل من خلال ملحمته شابا وسيما شجاعاً مقداماً يحب النظام ويكره الفوضى يعمل للحياة ويكره الموت يحمل بيده عصا ترمز الى الخضرة وبيده صاعقة ترمز الى أنه ربُّ البرق والرعد وبالتالي المطر ولا يزال اسمه حياً في لبنان وذلك بتسمية الخضراوات والفاكهة التي لا تروى صيفاً (بعلية) والارض التي لا تسقى تسمى ايضاً (ارض بعل)[18] . وهكذا كان بعل احد الآلهة المهمة في أوغاريت التي أفل نجمها بعد حريق التهمها في القرن الثالث عشر قبل الميلاد « وأعيد بناءها بعدها ثم أصيبت بزلزال عقبته موجة بحر عارمة خربت المدينة وطمس ذكرها . وقد كان على موقعها في العهد الآشوري نحو ٧٠٠ ق . م . بلدة صغيرة ظلت مأهولة بالسكان حتى العهد الاغريقي . فقد وجد في خرائبها نقود مقدونية »[19] والذي نريد ان نصل اليه من خلال متابعة عبادة بعل أنها كانت منتشرة في أوغاريت بحدود القرن الثالث عشر الى القرن الثامن قبل الميلاد ثم تعرضت بعدها الى زلزال وغرق ويبدو أنها عقوبة لأن القرآن الكريم ذكر عدم استجابة قوم الياس لدعوته وانهم كذبوه وقال تعالى ﴿ فكذبوه فانهم

---

(١٦) انظر قطب / سيد / في ظلال القرآن / ج ٤ ص ٧٩٢ .

(١٧) فريحه / انيس / ملاحم واساطير اوغاريت رأس الشمرا / ص ٤٣ .

(١٨) فريحه / انيس / م . س . / ص ٢٢ وما بعدها .

(١٩) فريحه / انيس / م . س . / ص ٢٢ وما بعدها .

لمحضرون ﴾[٢٠] . وتذكر سورة الصافات لوطاً (عليه السلام) وبعده يونس (عليه السلام) . وهذا يعني ان التتابع الزمني ليونس بعد إلياس إذا اعتبرنا الزلزال الذي ضرب أوغاريت عقوبة ربانية وقد كانت سنة ٧٠٠ ق . م .[٢١] قد طمست معالم اوغاريت وأقيمت على أنقاضها بلدة صغيرة هذا يعني ان الزلزال قد ضربها قبل هذا التاريخ باكثر من قرن او قرنين على الاقل . وبذلك نستطيع ان نقدر عصر يونس (عليه السلام) بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

القرن الثامن قبل الميلاد كان عصراً آشورياً وإن مملكة آشور ظهرت قوة عالمية امتد نفوذها من العراق حتى شمل فلسطين والشام وسيطرت على اجزاء من مصر حيث بدأ نجم آشور بالظهور منذ اعتلاء « تجلات فيلاسر الثالث الحكم (٧٤٥ - ٧٢٧ ق . م .) الذي وطّد سيطرة دولته على بلاد الشام ومن جملتها دولتي اليهود على ما تفيد الماثورات التي تؤيدها نصوص سفر الملوك الثاني . وقد قُرىء في نقش له أنه أخضع لسلطانه اثنين وأربعين شعباً ومن جملتهم فلسطين وسوريا وفينيقيا وبلاد العرب وخلف هذا على عرش آشور شلمناصر الثالث (٧٢٧ - ٧٢٢) ق . م .) وحدثت معارك بينه وبين إسرائيل وبقيت المعارك حتى جاء خليفته سرجون (٧٢٢ - ٧٠٥ ق . م .) الذي قضى على دولة اسرائيل وسبى من أهلها (٢٧٢٨٠) الى بلاده وأرسل مكانهم خلقاً من مملكته وأقام على البلاد واليا آشورياً وقد ذكر هذا في أحد نقوشه وبعد سرجون جاء سنحاريب ابن سرجون (٧٠٥ - ٦٨٥ ق . م .) ثم خلفه ابنه اسرحدون (٦٨٠ - ٦٦٧ ق . م .) ثم خلف أسرحدون ابنه آشور بانيبال (٦٦٧ - ٦٢٧ ق . م .) الذي تمكن من توطيد سيطرته على بلاد الشام ومن جملتها دولة يهوذا ثم على مصر ايضاً مع بقاء دولة اسرائيل الزائلة تحت حكم والي آشوري وبعد هذا ألمّ بالدولة الآشورية ارتباك ثم تحالف عليها البابليون والماديون فنسفوها وتقاسموها وقامت على أنقاضها في بابل دولة جديدة (٦٠٨ - ٥٣٨ ق . م .) كان نجمها اللامع نبوخذ نصر »[٢٢] « ويذهب بعض الباحثين ان يونان (يونس) إنما كان يعيش في المدة (٧٨٥ - ٧٤٥ ق . م .)

---

(٢٠) سورة الصافات / ١٢٧ .

(٢١) فريحه / انيس / اوغاريت / ص ٢٢ .

(٢٢) دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٠٦ - ٢٠٩ بتصرف .

وانه كان نبياً قومياً من أنبياء بني اسرائيل على أيام ملك إسرائيل يربعام الثاني (٧٨٦ - ق . م .) وانه أرسل الى اهل نينوى في المدة (٧٦٥ - ٧٥٩ ق . م .) في أخريات العاهل الآشوري (آشور دان الثالث) (٧٧١ - ٧٥٤ ق . م .) وقد جاء في سفر يونان بأنه كان نبياً قومياً وعبرانياً »[٢٣] وهذه المعلومات غير دقيقة يقدمها شراح أسفار العهد القديم الذين جعلوا يونس (عليه السلام) من بني اسرائيل ولا يوجد دليل على ذلك سوى ما ذكره العهد القديم والاسرائيليات ولكنا نستطيع ان نفهم من النص القرآني حول طبيعة الحياة السياسية في قرية يونس أنها لم تكن محكومة بسلطة قوية تواجه او تقف أمام دعوة النبي (عليه السلام) لان القرآن الكريم تحدث عن المجتمع وموقفه وأعطى صورة طيبة عن قوم يونس تحكي أنهم كان عندهم حكماء ومجتمع متوازن رجع الى اللهتعالى وتاب ونبيه غائب عنه . ولم يُبرز لنا القرآن الكريم أنه كانت هناك سلطة سياسية كانت تحول دون التزام المجتمع وتتسلط عليه او كانت هناك سلطة كهنوتية تحاول ان تقف امام دعوة النبي وقد جُعل موقف أهل نينوى مثلًا للمجتمع التائب الذي صُرف عنه العذاب بتوبة الجميع وقبول الله تعالى توبتهم ، فقد قال الله تعالى ﴿ **فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين** ﴾[٢٤] . وقوله تعالى ﴿ **فآمنوا فمتعناهم الى حين** ﴾[٢٥] . وهذا يرجح ان يونس (عليه السلام) لم يكن من بني اسرائيل وقد مال الاستاذ محمد عزة دروزه الى ان « سفر يونان هو رسالة نبوية خاصة لأهل نينوى ولا يبدو ان له صلة بتاريخ بني اسرائيل »[٢٦] ويرجح لنا كذلك ان عصر يونس (عليه السلام) كان أقدم من ظهور قوة الدولة الآشورية ولا علاقة لرسالة يونس (عليه السلام) بالحروب التي كانت بين آشور ودولتي إسرائيل ويهوذا في فلسطين ولكن شراح العهد القديم الذين تعرضوا لدراسة عصر يونس (عليه السلام) ربطوا بين قرية يونس نينوى وآشور الدولة وعلاقتها بدولتي اليهود في فلسطين وتأثروا بما حواه سفر يونان في العهد القديم من معلومات فحصل خلط بين المعلومات وتداخلت الاحداث والسنين . ولكن

---

(٢٣) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٩

(٢٤) سورة يونس / ٩٨ .

(٢٥) سورة الصافات / ١٤٨ .

(٢٦) دروزة / محمد عزة / م . س / ص ٢٤٧ .

القرآن الكريم يخلّصنا من هذا الارباك من خلال نص واضح له دلالة غير معقدة كل ذلك يرجح لدينا أن عصر يونس (عليه السلام) كان حوالي القرن التاسع قبل الميلاد ومكانه كان مدينة نينوى القديمة ولا علاقة له ببني اسرائيل ولكن بني اسرائيل لما رأوا تسلط الآشوريين عليهم أرادوا ان يجعلوا لهم فضلًا عليهم بأن نسبوا يونس (عليه السلام) اليهم وان الله اختار نبياً الى ـ قرية لا علاقة لها ببني اسرائيل ـ من بني اسرائيل . وهذا إقحامٌ واضح ومتعسف لا دلالة له سوى إحساس اليهود بالحقد على الآشوريين وعلى نينوى حيث جاء في سفر ناحوم « خطايا نينوى : ويل للمدينة سافكة الدماء الممتلئة كذباً . المكتظة بالغنائم التي لا تخلو أبداً من الضحايا ... يقول الرب القدير فاكشف عارك لأُطلع الامم على عورتك والممالك على خزيك والوثك بالاوساخ وأحقرك وأجعلك عبرةً وكل من يراك يُعرض عنك قائلًا : قد خربت نينوى فمن ينوح عليها ؟ أين أجد لها معزين »[٢٧] وهكذا يُفسِّر لنا دوافع كاتب سفر يونان في العهد القديم الذي « لم يعرف حتى الآن من الذي كتبه في روايته الحالية . كما جاءت في العهد القديم وان كان العلماء يذهبون الى أنه كُتب ربما نحو (٣٥٠ ق . م .) وليس هناك أي دليل يثبت ان يونان هو كاتب هذا السفر الذي يحمل اسمه من بين أسفار العهد القديم »[٢٨] وثمة قضية أود الوقوف عندها وأوجدها تحملني على التأمل فيها وهي غريبة فعلًا حيث وجدت في مذكرات مالوان عندما تعرض لتنقيبات نمرود في الموصل يذكر بعض التفاصيل عن التصورات الموجودة عند علماء الآثار للكثافة السكانية في المدينة وعدد نفوسها وقد وجدت توافقاً عجيباً وغريباً بين تخمينات علماء الآثار ودارسي خطط المدينة القديمة وبين ما ذكره القرآن الكريم من عدد لسكان قرية النبي يونس (عليه السلام) وقومه حيث قال تعالى ﴿ وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون ﴾[٢٩] . وقد تقدم ذكر آراء المفسرين لهذا النص القرآني .

وقد ذكر مالوان حول هذه القضية بانه كان في بعثة للتنقيب في آثار نمرود عام ١٩٤٩ وقد اكتشف مسلة من الحجر بهيئة نصب يزيد ارتفاعه على اربعة اقدام أقامها المؤسس آشور ناصربال ونقش من الامام والخلف بمائة واربعة وخمسين

---

(٢٧) سفر ناحوم / ٧ : ٣ .

(٢٨) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية / م . س ./ ج ٤ ص ١٨٩ .

(٢٩) سورة الصّافات / ١٤٧ .

سطراً تسجل إكمال تشييد المدينة في السنة الخامسة من حكمه اي في عام (٨٩٧ ق . م .) وكانت في هذا النص معلومات احصائية حول سكان المدينة وقد حاول ديفيد اوتس الذي كان مع البعثة تقدير عدد السكان الذي يتوقع ان تضمهم منطقة كالح ـ نمرود اعتماداً على مواردها . وقد توصل الى الاستنتاج المدهش والمقبول ان عدد السكان المحليين الذين كان بالامكان اطعامهم من موارد كالح نفسها لا يزيد عن ٢٥ الف شخص (وينبغي ايضاً ان نستنتج من مخطط المباني من المساحة المتيسرة بين الاسوار التي ضمت الحصن والمدينة الخارجية ومن حوليات الملوك الاشوريين الذين حكموا فيما بعد ومن التقارير عن جيوشهم ان عدد السكان المدنيين والعسكريين في نمرود كان أحياناً أعلى بكثير من ٢٥ ألف ونستطيع في رأيي أن نستنتج أن عدد السكان وصل أحياناً الى ما لا يقل عن ١٠٠ ألف نسمة ! ! وفي الواقع عثرنا في قلعة شملنصر على لوح ورد فيه فحص ٣٦٢٤٢ رمحاً ويعني ذلك ان قوة الجيش كانت ضعف ذلك العدد على الاقل ، إن مثل هذه الحسابات تتسم بأهمية جوهرية لفهم تطور التاريخ الاشوري)[٣٠] لقد اقتبسنا مادة كثيرة من مذكرات مالوان لأهمية هذه الحقائق التي ذكرها بصفته عالم آثار متمرس وقام بالتنقيب في المواقع العراقية مع اشهر عالم آثار بريطاني نقب في اور الكلدانيين وكتب اعماله في تسع مجلدات بالانكليزية سماها تنقيبات اور (Ure excavation) وله مؤلفات وبحوث حول آثار ومدن العراق القديمة ذلك هو المستر ليوناردو وولي . وعمل مالوان في التنقيبات في بداية القرن العشرين ولحد منتصفه في مواقع عديدة في جنوب العراق وشماله ومواقع في بلاد الشام . نقب في (اور ونينوى والاربجية وفي وادي الخابور وشكر بازار وفي تل براق وفي وادي بليغ ونمرود[٣١] ان أهم حقيقة ذكرها مالوان هي تطابق رقم عدد سكان نمرود الذي توقع انها كانت متصلة بنينوى في فترة ما مع الرقم الذي ذكره القرآن الكريم لعدد سكان قرية يونس (عليه السلام) . انه شيء مثير حقاً ان تتطابق ارقام دراسة لعلماء الآثار غربيين لم يسمعوا بما ذكره القرآن الكريم وتأتي النتائج والحقائق متطابقة الى هذا الحد وهذا اعجاز قرآني جديد ان يتعرض القرآن الكريم لذكر رقم إحصائية سكان قرية يونس (عليه السلام) وأعطى ملامح طبيعة الحياة والعصر التي يعتمد عليها

---

(٣٠) مالوان / ماكس مالوان / ص ٢٧٠ ـ ٢٨٢ .

(٣١) انظر مذكرات مالوان ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبي / بتصرف .

علماء الآثار اليوم لمعرفة تطور المدينة وتاريخ الآشوريين . ومن القضايا المهمة التي طرحها القرآن الكريم حول قصة النبي يونس (عليه السلام) هي قصة ابتلاع الحوت للنبي يونس (عليه السلام) وهي قضية تستوجب التوقف عندها أيضاً وهي قصة تطابقت في ذكر جوهرها الرواية القرآنية مع رواية العهد القديم في سفر يونان . واختلفت الروايتان فيما بعض النقاط ايضاً وسنأتي على مقارنة بين الروايتين فيما بعد . إلا اننا نريد ان نعالج القضية من خلال مفهوم اسلامي لكي نتفهم طبيعة وحقيقة القصة فآثرت ان نتكلم بايجاز عن معجزات الانبياء وموقعها في العقيدة الاسلامية والفكر الاسلامي المستمد من المصادر الاسلامية والسنة .

المبحث الثاني

المعجزات التي أجراها الله تعالى لأنبيائه

ان المعجزة تعني اعجاز المقابل من ان يقوم بعمل ما يجريه الله لأنبيائه ويغير الله بمقتضاه سنن التخليق المطردة في الحياة ويحدث التغيير حقيقة لا خيالًا وحساً لا معنى ويتوقف العقل الذي ألف عمل النواميس والسنن عندما ينظر الى هذه السنن وقد تعطلت وقد عرف العلماء المعجزة « بأنها الامر الخارق للعادة الذي يجريه الله على يدي نبي مرسل ليقيم به الدليل القاطع على صدق نبوته »[٣٢] وما من نبي الا واتاه الله من المعجزات او معجزة بحسب طبيعة العصر والناس وحكمه يعلمها الله وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابي هريرة (رضي الله عنه) إن النبي (ﷺ) قال : ما من الانبياء نبي الا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الي فارجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » ان المعجزات التي أجراها الله لانبيائه كانت مرتبطة بحياتهم وأشخاصهم وعصرهم والزمن الذي حدثت فيه المعجزة ولذلك بعد موت الانبياء تنتهي معجزاتهم ويتوقف تأثيرها على البشرية . ولذلك لم نعثر على عصا موسى . وحتى لو وجدت فانها لم تعد تمثل شيئاً بالنسبة للدين لان زمنها انقضى وان الله تعالى لا يبقي الاشياء المادية التي أجرى معجزاته بها كالعصا او الحصى الذي سبح بين يدي رسول الله (ﷺ) او ناقة صالح . لان المعجزة يجريها الله تعالى فهي مرتبطة بقدرة الله وليس بالنبي او بالعصا او بالناقة او الحصى فان هذه الاشياء لا تملك التأثير ولا القوة ولكن امر الله

---

(٣٢) سابق / سيد / العقائد الاسلامية / ص ٨٠ف دار الكتاب العربي بيروت - د. ت .

هو النافذ ولذلك كانت منهجية الدين عدم تقديس الاشياء المادية مهما كان مصدرها ولا حتى الانبياء الذين اصطفاهم الله تعالى وفضلهم على خلقه ولكن ينبغي الا يتجاوز المسلم في نظرته اليهم أكثر من بشريتهم وتبليغهم الرسالة وأداء الامانة التي حملهم الله والمحبة والايمان بهم ونبواتهم وعندما أراد الله تعالى لرسالة محمد (ﷺ) البقاء اختار لها آية ومعجزة باقية وهي الوحي كتاب الله تعالى وهنا يجب ان نعلم « انه لا يمكن ان تخلد معجزة على الارض الا اذا كانت على هيأة كتاب يتلى لا يقف اعجازه عند عصر معين ولا يحد من ثقافته بالذات »[٣٣] ولذلك ابتعد القرآن الكريم عن الاساطير والخرافات ووضع قواعد الايمان بالعقل ويقدرته وقيمته التي أرادها الله تعالى من خلال اكرام العلماء والعقل الذي يحمله العقلاء . وحث الانسان في آيات عديدة على أعمال العقل واستخدام التفكير لتعميق الايمان بالله وحقائق الدين عندما كانت البشرية في مراحلها الاولى وعندما كان الله تعالى يرسل الانبياء كان لابد ان يتحفز العقل بمحفزات تحدث على أثرها صدمة شعورية في داخل الانا (Ego) ونتيجة الاستجابة بتأثير استرجاع الصدمة (Feed back) يحدث شعور بالعجز ويزول الكبر والغرور ويكتشف الانسان ضعفه وبذلك يحدث انحياز الى جانب الانبياء ممن يتفاعل مع المعجزة وهي احدى الوسائل التي يلجأ اليها الانبياء لتجميع الاتباع في أثناء عملية التغيير وهي ما يعبر عنه بالمعجزات ولكن البشرية لم تكن تستجيب لهذه الصدمة والخرق للاسباب كما ينبغي لها . لان تأثير هذه الصدمة مؤقت وقصير وبعد زواله ينسى الانسان الحدث لشدة تداخل الاسباب ومسبباتها في حياة الانسان ولذلك لم يكن اتباع الانبياء بالكثرة مقارنة مع الذين يقفون على الجانب الآخر في الصراع . وان القرآن الكريم ذكر هذه الحقيقة وهي تكرار التكذيب بالآيات (المعجزات) من قبل أقوام الانبياء وإن الاستجابة عادة لا تكون كما يتوقع العقلاء الذين ينظرون الى إصرار اكثر الناس على الموقف الخاطىء مع ظهور المعجزات على ايدي الانبياء الذين ارسلهم الله . ولذلك قال تعالى ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الاولون * وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل الآيات الا تخويفا ﴾[٣٤] ولذلك عندما كانت معجزة محمد (ﷺ) وحياً يرجو ان

---

(٣٣) الفندي / د. محمد جمال الدين / الله والكون / ص ٤٥٢ / الهيئة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٦ .

(٣٤) سورة الاسراء / ٥٩ .

يكون اكثر الانبياء تابعا . اي ان اتباعه سيفوق عددهم عدد اتباع الانبياء الآخرين يوم القيامة . وعن هذا المعنى يذكر عالم الاجتماع تيريز : « ويُصَوَّر الله في الاسلام على أساس انه على مسافة بعيدة وانه المطلق الذي يتكلم مع الناس عن طريق وسطاء مثل الانبياء والملائكة وقد امكن تصور علاقة السيطرة مع فاعل إلهي بعيد على أساس مصطلحات السيد والعبد . وكلام الله تحقق (obgectified) في القرآن ذاته وطالما كان الاسلام يرفض توسط رجال الدين فقد اصبح حديثه متاحاً مباشرة لكل البشر وعلى اساس متساوٍ والاسلام في التطبيق يختلف نوعا ما في الواقع عن هذه الصورة المثالية في عدد من النقاط الهامة . فكما يقول لنا القرآن ان الله هو السيد ﴿ الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم ﴾ ولكن معظم عبيد هذا الرب المعلم كانوا من غير المتعلمين وعليه فالاسلام على الرغم من انه نظريا دين المساواة الا انه كان يقوم على تدرج اجتماعي في ضوء صفوة أقلية حضرية متعلمة وأكثرية قبلية غير متعلمة وكما لاحظ ارنست جيلنر فان النخبة الحضرية لا تحتاج الى وسطاء حيث بامكانها ان تقرأ النص مباشرة الا ان القبليين العامة (الاميين) يحتاجون الى خدمات وسطاء بشر يقدمون لهم الوحي في صورة غير لفظية وفي المناطق القبلية البعيدة عن المدن يجد المرء الدين الشعبي حيث تتجسد في الولي علامات الله وتظهر قواهم الدينية في الافعال السحرية وأعمال (المعجزات والتنبؤ) وبذلك فقد تطور داخل الاسلام تناقض حاد ومستمر بين طرازين من السلوك الديني يحوي انماطاً مختلفة من النشاطات الدينية . فالمتعلم الحضري من العرب يقابل الله على اساس انه إله بعيد ذا قوة مطلعة ويتصل به من خلال القرآن والشريعة اما في التراث الديني الشعبي فان الفاعلين البشر يحتاجون خدمات اشخاص متدينين يحاولون ان يحولوا حقيقة الله الاجتماعية غير المباشرة الى تجربة مباشرة »[٣٥] هذا الكلام يؤكد ان البشرية في بدائيتها تحتاج الى المعجزات والى كثرة في الانبياء وبما ان دعوة النبي محمد (ﷺ) هي خاتمة الدعوات وانها جاءت والبشرية في مرحلة نضوجها ولذلك توقفت النبوءات عند محمد (ﷺ) واكتفت الرسالة بمعجزة واحدة باقية وهي

---

(٣٥) تيريز / براين / علم الاجتماع والاسلام دراسة نقدية ماكس فيبر ترجمة ابو بكر احمد باقادر / ص ٨٤ / دار العلم بيروت ط١ سنة ١٩٨٧ . ان هذا الكلام يعبر عن فهم غربي للاسلام غير متحفظ ولكنه لا يخلو بعض جوانبه من الحقيقة . وقد استشهدنا به لاثبات حاجة المجتمعات البدائية الخارقة التي تحاكي العطفة اكثر من العقل .

القرآن . ان النبوة بحد ذاتها هي معجزة وهي خرق للمألوف من حياة البشر وان الانبياء كانوا في ارقى المستويات الاخلاقية في مجتمعاتهم وكانوا يحظون بالقبول في مجتمعاتهم قبل النبوة ﴿ قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ﴾[٣٦] وكانت قريش تدعو النبي محمداً (ﷺ) بالصادق الامين قبل البعثة . لذلك عندما يعلن هؤلاء الانبياء نبوتهم على المجتمع فان هذا الحدث اعظم من أي معجزة أخرى تحصل لديهم ولهذا السبب كان القرآن اعظم من أية معجزة لانه بقي دائما يقول للناس ان محمدا (ﷺ) رسول الله . وقد اعلن هذه الحقيقة وهي ان الوحي اعظم معجزة صاحب محمد (ﷺ) ابو بكر عندما قالت له قريش : ان صاحبك يزعم انه أُسري به ليلة أمس الى المسجد الاقصى . قال لهم ابو بكر : إن قالها صدق . فإني أصدقه باعظم من ذلك أُصدقه بخبر السماء[٣٧] . لذلك فإن المعجزة خروج عن المسببات المادية ومألوف الحياة من حركة وانتقال واعراض الوجود الاخرى « وان النبي وجب قبول كل ما يقول لكونه نبياً ادّعى النبوة ودلت المعجزة على صدقه ، فآيات الانبياء وبراهينهم لا توجد الا مع النبوة ولا توجد مع ما يناقض النبوة ومدعي النبوة اما صادق واما كاذب ، والكذب يناقض النبوة فلا يجوز مع المناقض لها مثل ما يوجد معها فالكفر والسحر والكهانة كل هذا يناقض النبوة لا يجتمع هو والنبوة . فالمعجزة تغيير جنس الى جنس ومما يختص الرب بالقدرة عليه وملائكته لذلك كان الانتقال من مكان الى آخر ليس معجزة لان هذا تفعله الطيور والانس والجن بخلاف كون الماء القليل نفسه يفيض حتى يصير كثيراً بأن ينبع من بين الاصابع من غير ان يزاد فهذا لا يقدر عليه انسي ولا جني »[٣٨] وقد كان الوحي عند جميع الانبياء اعظم المعجزات والآيات الدالة على النبوة قال تعالى ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً يوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾[٣٩] وكان الناس يقفون امام النبوة بين المصدق والمكذب والمهزوز الذي لا يدري حقيقة الامر وقد ذهل ، وعبر القرآن الكريم عن هذه الحالة وهي التعجب من اعلان النبوة ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا الى رجل

---

(٣٦) سورة هود / ٦٢ .

(٣٧) انظر يلعجي / د. محمد رواس / قراءة جديدة للسيرة النبوية / ص ١١١ وكتب السيرة كذلك ، ابن هشام / ج١ ص ٣٩٨ .

(٣٨) ابن تيمية / شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد ت ٧٢٨هـ / النبوات / ص ١٠ .

(٣٩) سورة الزخرف / ١٦ .

منهم أن انذر الناس ﴾[٤٠] . وقد أثار القرآن الكريم ظاهرة النبوات لكي يقنع الناس بنبوة محمد (ﷺ) فقال تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل ﴾[٤١] وقوله تعالى ﴿ وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾[٤٢] « بين ان هذا الجنس من الناس معروف وقد تقدم له نظراء وامثال وهو سبحانه امر ان يُسأل أهل الكتاب وأهل الذكر عما عندهم من العلم من امور الانبياء هل هو من جنس ما جاء به محمد او هو مخالف له ليتبين باخبار أهل الكتاب المتواترة جنس ما جاءت به الانبياء »[٤٣] ولهذا كان الناس اذا طعنوا في نبوة النبي واعتقدوا علمه قالوا هو ساحر كما قال فرعون لموسى : ﴿ إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾[٤٤] . واذا نسبوه الى عدم العلم قالوا مجنون كما قالوا عن نوح : ﴿ مجنون وازدجر ﴾[٤٥] . فاذا اتى مدعي النبوة بالامر الخارق للعادة الذي لا يكون الا لنبي لا يحصل مثله لساحر ولا كاهن ولا غيرهما كان دليلا على نبوته[٤٦] وان وجود الجن والملائكة معروف في الامم السابقة مما يؤكد ارتباط الانسان بالقضايا الروحية وعمق الدين في حياة البشر وان هذا الدين يؤشر ارتباط الانسان روحياً بالقضايا الغيبية التي لا سبيل الى ادراكها وقد فشل الغربيون في محاولاتهم لتحديد الدين والتعرف على حقيقته بسبب خضوعهم لمحدودية العقل وانكار الغيب والميتافيزيك « فقد فشل فيبر في تزويدنا بتعريف للدين فهو يدعي انه : ليس من الممكن في مستهل الدراسة ان نعرف ما هو الدين » وجاء دوركايم بمحاولة لتعريف الدين فقال عنه : « نسق موخد من المعتقدات والممارسات المرتبط بالاشياء والمعتقدات والممارسات التي تتحد في تجمع إخلاقي واحد يسمى الكنيسة (المعبد) وكل اولئك الذين يؤمنون بها . وتايلور في كتابه (الثقافة الابتدائية يقترح ان الحد الادنى لتعريف

---

(٤٠) سورة يونس / ٢ .
(٤١) سورة الاحقاف / ٩ .
(٤٢) سورة ال عمران / ١٤٤ .
(٤٣) ابن تيمية / شيخ الاسلام / النبوات / ص ٢٥ .
(٤٤) سورة الشعراء/ ٣٥ .
(٤٥) سورة القمر / ٩ .
(٤٦) انظر ابن تيمية / م . س . / ص ٣١ - ٣٣ .

الدين يجب ان يشمل على اشارة رئيسة الى الاعتقاد (في الكائنات الروحية »[47] وهكذا نجد ان الانسان يتناسق مع الدين والحياة ويغترب في التنكر للدين وكل انسان مقترن اقترانا فطرياً بالروح والايمان وان « فرعون وان كان مظهراً لجحد الصانع فانه ما قال : ﴿ فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين ﴾[48] الا وقد سمع بذكر الملائكة اما معترفا بهم واما منكراً لهم فذكر الملائكة والجن عام في الامم وليس في الامم أمة تنكر ذلك انكاراً عاماً . وانما يوجد انكار ذلك في بعضهم مثل من قد يتفلسف فينكرهم لعدم العلم لا العلم بالعدم »[49] . لقد جاء الانبياء بالحق وجاءوا ليهدوا البشرية الضالة . فكانوا باعلانهم انهم يتلقون الوحي من السماء يربطون الانسان ربطاً مباشراً بالخالق على ان في الكون آيات ودلالات اذا تأمل فيها الانسان توصل الى الايمان بالله فالكون والنجوم والحياة والماء وكل شيء في الوجود يربط الانسان بالله . فالانبياء جاءوا لتوثيق العلاقة وتجديد الدين الكامن في الفطرة والنبي باعلانه النبوة يعلن ان الله معه والتاريخ الذي يعلمه معاصروه من ممن سبقهم ﴿ ويقول الذين كفروا لست مرسلاً قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾[50] . لقد جاء الانبياء ليربطوا الناس بالإله الواحد وكانت معجزاتهم تؤثر على الناس لتحملهم على الايمان بهذا الإله وبقدرته واذا آمنا بالله فإننا نتجاوز كل الاشكاليات التي تعترض طريق الايمان والتي ترد على العقل فلا حيرة ولا ضياع وانما اطمئنان وايمان . « وفي احدى ندوات (الهلال) عدد يوليو ١٩٦٠ ـ وجه الى ثلاثة من رجال العلم والادب هذا السؤال . لماذا نؤمن بالله ؟ قال الاستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله : نحن نستطيع ان نرى بأعيننا ان الايمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة لان الانسان غير المؤمن انسان (غير طبيعي) فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذي يعيش فيه . وفي رأينا ان مسألة الايمان بوجود الله مسألة وعي قبل كل شيء . فالانسان له وعي يقين بالموجود الاعظم وقال الدكتور جمال الدين الفندي : اننا اثناء دراسة الاشياء نلمس من الابداع والاتقان ما يجعلنا نجزم بان وراء ذلك خالقاً مدبراً . وقال الدكتور محمد

---

(٤٧) تيبز / برلين / علم الاجتماع والاسلام ص ٧٢ .

(٤٨) سورة الزخرف / ٥٣ .

(٤٩) ابن تيمية / شيخ الاسلام / النبوات ص ٣٥ .

(٥٠) سورة الرعد / ٤٣ .

شكري عياد : كنت طفلًا في السابعة وكان معلم الديانة يعرّفنا بالله فقال انه هو الذي خلقنا وخلق كل شيء ولعله أطال في ذلك شيئاً ما فقد تلجلج في خاطري سؤال همستُ به لجاري : ومن الذي خلق الله ؟ وسارع جاري من دون تدبر يسأل الاستاذ وكان يريد ان يثبت حسن اصغائه للدرس : ومن الذي خلق الله ؟ هاج استاذ الديانة هياجاً شديداً حتى اني حمدت لنفسي حسن تدبيري حين كتمت السؤال ؟ كان عقلي الصغير يجاهد ليفهم المطلق ولكن استاذ الديانة لم يقرّب الي هذه الفكرة بل ضاق بالسؤال . وأنا بقيت كانما اغرم عقلي بالعناد . فرحت اسأل نفسي اسئلة تشابه سذاجتُها ذلك السؤال الاول سألت نفسي ان كان الله موجوداً وقد حدثونا انه عادل رحيم فلماذا يوجد الخير والشر ؟ ولماذا يشقى الاخيار ؟ وينعم الاشرار ؟ ولم أجد لهذا السؤال جوابا يطمئن اليه عقلي ولم استطع ان افهم . ولكني لم استطع قط ان استغني عن فكرة الله . كنت كلما حزبني امر فزعت الى الصلاة او القرآن . فتهدأ احزاني وتسكن مخاوفي انني انسان ضعيف وسأظل ضعيفاً . سأظل ضعيفاً ما دامت حياتي مُحاطة بالشرور والاثم . وما دام الموت يترصدني في نهاية الطريق ولن يستطيع العلم مهما بلغ ان يتغلب على الموت ولن يستطيع المجتمع مهما بلغ ان يقتلع من نفس الانسان كل بذور الشر . الله وحده يجعل حياتي على الرغم من الشرور والموت نعمة اتقبلها من يديه سبحانه وتعاله ويوم اقررت بضعفي شعرت اني قوي ومنحني الله قوة ويوم رضيت بشقائي شعرت اني سعيد ومنحني الله بركة »[٥١] . هذه هي الهداية التي قدمها الانبياء للانسانية نعمة الايمان بالله . ومع الايمان بالانبياء نتجاوز كل الشبهات فاذا آمنا بنبوة محمد (ﷺ) آمنا بانه نبي ورسول ارسله الله تعالى الى الناس كافة وانزل عليه قرآناً وفي هذا القرآن إخبار عن الغيب وعن الانبياء السابقين فلا نجد في انفسنا حرج من تصديق ما نطق به القرآن الكريم من آيات وعند ذاك عندما تقرأ في هذا القرآن ان الله تعالى قد وضع نبيه يونس (عليه السلام) في بطن الحوت وامر الحوت ان لا يؤذي النبي الذي في بطنه وهيأ الله لهذا النبي في بطن هذا الحوت اسباب الحياة لمدة معينة فاننا لا نجد ان في هذا الامر غرابة او ان ذلك مما يعجز الله عن فعله حاشاه وهكذا مع كل معجزة او امر خارق للعادة حصل للانبياء فان صح النقل فهو حقيقة وليست خرافة او خيال او وهم او

---

(٥١) الفندي / د. محمد جمال الدين / الله والكون / ص ٢٩ - ٣٢ .

سحر او ما شابه لان الله بقادر على ان يهيىء اسباب الحياة لنبيه في بطن الحوت في البحر لحكمة ارادها تماما كما يهيىء اسباب الحياة للجنين في رحم امه .

يونس (عليه السلام) هل كانت دعوته قبل الحوت او بعد ؟ :

قال ابن كثير : « اختلفوا هل كان ارساله اليهم قبل الحوت او بعده ؟ او هما امتان ؟ على ثلاثة اقوال »[٥٢] . وقد تعددت آراء العلماء استنادا الى تأثرها بروايات اهل الكتاب وفي رواية « ان الله اوحى اليه بعد ان انجاه من الحوت ان يذهب الى ملك مَنْ ارسل اليهم وان يطلب اليه ان يرسل معه بني اسرائيل . فقالوا : ما نعرف ما تقول ولو علمنا انك صادق لفعلنا ولقد اتيناكم من دياركم وسبيناكم فلو كان ما تقول لمنعنا الله عنكم فطاف ثلاثة ايام يدعوهم الى ذلك فابوا عليه . فأوحى الله تعالى اليه قل لهم : ان لم تؤمنوا جاءكم العذاب فأبلغهم فابوا . فخرج من عندهم فلما فقدوه ندموا على فعلهم فانطلقوا يطلبونه فلم يقدروا عليه ثم ذكروا امرهم وامر يونس للعلماء الذين كانوا في دينهم . فقالوا : انظروا واطلبوه في المدينة فان كان فيها فليس مما ذكر من نزول العذاب شيء وان كان قد خرج فهو كما قال فطلبوه فقيل انه خرج العشي ، فلما آيسوا اغلقوا ابواب مدينتهم فلم يدخلها بقرهم ولا غنمهم وعزلوا الوالدة عن ولدها وكذا الصبيان والامهات ثم قاموا ينتظرون الصبح فلما انشق الصبح رأوا العذاب ينزل من السماء فشقوا جيوبهم ووضعت الحوامل ما في بطونها وصاح الصبيان وغثت الاغنام والبقر فرفع الله تعالى عنهم العذاب . فبعثوا الى يونس (عليه السلام) فآمنوا به . وبعثوا معه بني اسرائيل فعلى هذا القول كما يقول الامام الرازي كانت رسالة يونس (عليه السلام) بعدما نبذه الحوت ودليل هذا القول قوله تعالى ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم * وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون ﴾[٥٣] وفي رواية اخرى ان جبريل (عليه السلام) بلّغه الرسالة قبل الحوت وامره بان يعجّل بالذهاب الى اهل نينوى فاراد ان يلتمس دابة قال له

---

(٥٢) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢٨٧ .

(٥٣) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٠ يأخذه عن الرازي / التفسير / ج ٢ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

جبريل (عليه السلام) الامر اعجل من ذلك فغضب يونس (عليه السلام) وانطلق الى السفينة والرأي الثالث وهو ما يفهم من النص مباشرة دون البحث عن خلفية القصة في المصادر الاسرائيلية وهي ان دعوة يونس كانت الى اهل نينوى وعندما دعاهم لم يستجيبوا ولما لم يصبر عليهم خرج غضبا بسبب عنادهم واصرارهم على عبادة الاصنام . وعندما خرج اعتقد ان البقاء معهم لا ينفع وظن ان الارض واسعة فليبحث عن قوم آخرين أفضل استجابة منهم . وذلك في قوله تعالى ﴿ فظن ان لن نقدر عليه ﴾ اي لن نضيق عليه وسع الارض فحبس في بطن الحوت خلافاً لظنه الذي ظنه ان الارض واسعة . وانه خرج غضبانا على قومه لربه ولم يخرج مغاضباً لربه فهذا لا يليق بالانبياء (عليهم السلام) »[54] . ويقول الرازي : « من ظن عجز الله تعالى فهو كافر ولا خلاف في انه لا يجوز نسبة ذلك لآحاد المؤمنين فكيف الى الانبياء (عليهم السلام) »[55] . وعلى أية حال فان النص القرآني واضح في دلالته على جوهر قصة يونس (عليه السلام) . فان الله تعالى ارسله وبلغه الرسالة قبل الحوت وهذا ما يرجحه النص اذ كيف يغضب ؟ وعلى اي شيء ؟ اذا لم يكن قد ارسل وغضب بسبب موقف قومه من رسالته ودعوته . وعندما خرج اتجه نحو بلاد الشام لان ارتباط نينوى عن طريق الجزيرة باتجاه الاردن وفلسطين معروف وطريق مطروق واذا علمنا بانه طريق شهد حملات الاشوريين على فلسطين ادركنا قوة ذهاب يونس (عليه السلام) ورجاحته باتجاه فلسطين ولكن لا يوجد لدينا دليل على المكان الذي ركب منه السفينة قد يكون بحر الروم (البحر المتوسط) وقد يكون ايلات على خليج العقبة . والارجح انه ركب السفينة وابحر من ايلات وقد يكون قصد مصر او قصد مدين جنوب ايلات . ولا يوجد دليل على ان الحوت التقمه من « خليج العقبة ثم دار به حول شبه جزيرة العرب فالبحر الاحمر فخليج عدن . ثم بحر العرب فخليج عمان ثم الخليج العربي فنهر دجلة ثم نينوى »[56] وهذا بتأثير المصادر الاسرائيلية ولا يوجد نص اسلامي يؤكده بل ان المنطق يستبعده لانه من غير المعقول ان يقطع آلاف

---

(٥٤) انظر الالوسي / روح المعاني / ج ٣ ٨٧ - ٨٤ عن مهران / د. محمد بيومي / م . س/ ص ١٨١ .

(٥٥) الفخر الرازي / التفسير الكبير / ج ٢٢ ص ٢١٥ عن مهران / د. محمد بيومي / م . س / ج ٤ ص ١٨٢ .

(٥٦) مهران / د. محمد بيومي / م . س / ج ط ص ١٧٩ .

الكيلومترات وقد يستغرق مدة طويلة قد تصل الى شهر او اكثر وحتى ان النص القرآني يفيد بان الحوت القاه على ساحل لا نبات فيه ولا شجر كما قال تعالى ﴿ فنبذناه بالعراء وهو سقيم وأنبتنا عليه شجرة من يقطين وأرسلناه الى مائة الف او يزيدون ﴾ ولم يذكر النص القرآني المدة التي بقي فيها في بطن الحوت وقوله تعالى ﴿ فنبذناه بالعراء ﴾ يدل على انه مكان اجرد لا شجر فيه وهذا خلاف ضفاف الانهار وان نينوى على دجلة وضفاف دجلة ليست عراء اذ غالباً ما تكون مزروعة بالاشجار وهذا يرجح انه القي على ساحل البحر او ساحل الخليج (خليج العقبة) وقد اختلف المفسرون في المدة التي لبث فيها يونس في بطن الحوت « فقال قتادة : ثلاثة ايام وقال الامام جعفر الصادق رضوان الله عليه : سبعة ايام ، وروى ابن ابي حاتم عن أبي مالك انه بقي اربعين يوماً وعن الضحاك عشرون يوماً وقيل شهراً وروى مجاهد عن الشعبي قال : التقمه ضحى ولفظه عشية وقال الحسن : لم يلبث الا قليلاً واخرج من بطنه بعد الوقت الذي التقمه »[٥٧] ولا يمكن ان نرجح رأياً على آخر ولكن اجواء النص تلمح الى ان الفترة لم تكن طويلة وانها لم تكن قصيرة جداً كذلك لانه اذا كانت قصيرة جداً لا يمكن ان يكون سقيماً على إثرها وحاجته الى إنبات اليقطين تكون ضعيفة وكذلك الدعاء الذي دعاه في بطن الحوت وهو في قوله تعالى ﴿ فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾[٥٨] وفي الحديث « ان يونس (عليه السلام) حين بدا له ان يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال، اللهم لا إله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين . فاقبلت الدعوى تحن بالعرش قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف من بلاد بعيدة غريبة . فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال عز وجل : عبدي يونس ، قالوا عبدك يونس الذي لم يزل يرفع له عمل متقبل ودعوة مستجابة ؟ ثم قالوا ؟ يا رب أوَ لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء : قال : بلى فامر الحوت فطرحه بالعراء) . رواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب »[٥٩] وهذا يرجح انه بقي مدة قد تكون بين ثلاثة ايام الى اسبوع ثم ألقاه الحوت على الساحل وإنبات اليقطين عليه مسألة بحاجة الى زيادة نظر

---

(٥٧) مهران / د. محمد بيومي / م س . / ج ٤ ص ١٨٣ ، عن تفسير الطبري ٧٩/١٧ .
(٥٨) سورة الانبياء / ٨٧ - ٨٨ .
(٥٩) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢١ .

وتأمل لأن القرآن ذكر اليقطين وتوقف المفسرون عند ذكر اليقطين ودرسوا مواصفات هذا النبات وملائمته لطبيعة حالة النبي يونس بعد خروجه من بطن الحوت وفي الاثر عن ابي هريرة (رضي الله عنه) انه سأل ما اليقطينة ؟ قال شجرة الدباء.قال ابو هريرة (رضي الله عنه) وهيأ الله له اروية وحشية (اي ظبية) تأكل من حشاش الارض قال فتنفسخ عليه فترويه من لبنها . وقوله تعالى (بالعراء) قال ابن عباس (رضي الله عنهما) وغيره هي الارض التي ليس فيها بيت ولا بناء »[٦٠] وعندما ألقي على الساحل وهو سقيم وقد ضعفت قوته عارٍ . « قال ابن مسعود : كهيئة الفرخ ليس له ريش وقال ابن عباس والسدي كهيئة الصبي حين يولد . وقال ابن زيد : ما لفظه الحوت حتى صار مثل الصبي المنفوس قد نشر اللحم والعظم فصار مثل الصبي المنفوس »[٦١] واختلفوا في اليقطين « فابن مسعود وابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد ابن جبير ووهب بن منبه وهلال بن يساف والسدي وقتادة والضحاك وعطاء وغير واحد قالوا كلهم : اليقطين هو القرع وقال هيثم عن القاسم بن ابي ايوب عن سعيد بن جبير كل شجرة لا ساق لها فهي من اليقطين وفي رواية كل شجرة تهلك من عامها فهي من اليقطين . وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ونعومته ، وأنه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وانه يؤكل نيئاً ومطبوخاً ، وقشره ايضاً ، وقد ثبت ان الرسول (ﷺ) « كان يحب الدباء ويتبعه من نواحي الصحفة »[٦٢] .

بعد هذه التجربة وبعد ان استعاد عافيته وعندما أمره تعالى بالعودة الى قومه كان قد استفاد من الدرس الذي رباه عليه ربُّه سبحانه وتعالى . عاد يونس (عليه السلام) وهو أقوى عزيمة وأوسع حلماً مما كان عليه قبل ابتلائه في جوف الحوت . ولهذا اراد الله سبحانه وتعالى أن يقول للنبي محمد (ﷺ) آخر أنبيائه ورسله الى الارض ومن خلال الدرس الذي تلقاه يونس ان طريق الدعوة لابد له من الصبر فقال تعالى ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم. لو لا ان تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم. فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ﴾[٦٣]

---

(٦٠) ابن كثير/ م س / ج ٤ ص ٢١ .

(٦١) مهران / د. محمد بيومي / م . س / ج ٤ ص ١٨٦ محمد الطبري / ٢٣ / ١٠٢ .

(٦٢) ابن كثير/ تفسير القرآن العظيم / ج ٤ ص ٢٢ .

(٦٣) سورة القلم / ٤٨ ـ ٥٠ .

ومحمد (ﷺ) الرسول العظيم الذي ارتبط مع الانبياء برباط الاخوة والمحبة لم يكن ينظر الى يونس على انه ضعف او تهاون وحذر المسلمين ان يسيطر عليهم هذا التصور عن هذا النبي الكريم يونس (عليه السلام) فأراد رسول الله (ﷺ) تأدباً ومحبة لأخيه يونس فقال (ﷺ) : لا ينبغي لعبد ان يقول أنا خير من يونس بن متي » رواه الامام احمد وروى البخاري عن النبي (ﷺ) قال : ما ينبغي لعبد أن يقول أني خير من يونس بن متي ، ونسبه الى أبيه وهذا من باب الهضم والتواضع منه صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الانبياء والمرسلين »[٦٤] وفي حديث البخاري تاكيد على ان يونس (عليه السلام) كان اسم ابيه متي وقد خالف ابن الاثير هذا الحديث وذهب الى ان اسم امه متى وقال : قيل لم ينسب احد من الانبياء الى امه الا عيسى بن مريم ويونس ابن متي وهي امه »[٦٥] .

(٦٤) ابن كثير / قصص الانبياء / ص ٢٩٣ ـ ٢٩٥ .

(٦٥) ابن الاثير / الكامل في التاريخ / ج ١ ص ٢٠٨ .

يونس (عليه السلام) في المصادر غير الاسلامية والحفريات

اكثر المصادر غير الاسلامية أشارت بوضوح الى حياةيونس (عليه السلام) وسيرته هو العهد القديم حيث وضع سفر كامل له يحتوي على اربعة فصول ذلك سفر يونان او (كتاب يونان) كما هو مسمى في العهد القديم وقد وضع كتاب يونان قبل ميخا وناحوم وبعد عويديا ويعد سفر يونان من الاسفار الصغيرة ولا يخلو وجوده بين اسفار العهد القديم من الغرابة اذا انه لا يتحدث عن الشعب اليهودي . وقد استدل مترجمو الكتاب المقدس من خلال هذا السفر على محبة الله لكل البشر « حيث عبر الله عن محبته لكل الجنس البشري سواء أكانوا من بني إسرائيل او من الامم لم يكن في وسع يونان ان يخلص الحب لشعب آشور غير ان الله لم يشأ لها سوى كل خير وخلاص لهذا أرسل لهم نبياً يعرض عليهم التوبة فيحيون ، كذلك يجسد هذا الكتاب قوة الله وتحكمه بقوى الطبيعة »[٦٦] وقد جاء في هذه المقدمة « يونان من مواليد إسرائيل وقد دعاه الله ليحمل رسالة التوبة الى مملكة آشور التي كانت عاصمتها نينوى وهي المملكة التي قامت بتدمير مملكة إسرائيل في سنة ٧٢٢ ق . م . عندما

---

(٦٦) الكتاب المقدس / مقدمة كتاب يونان في العهد القديم كتب التوضحات على العهد القديم لفيف من علماء اللاهوت / ص ١٠٨٨ .

تسلم يونان الرسالة من الله أبت عليه روح الوطنية ان يبشر بالخلاص أمة وثنية فحاول الهرب من الله على ظهر سفينة ولكن بعد سلسلة احداث طرح يونان الى اعماق البحر فابتلعه الحوت ثم ما لبث الحوت ان لفظه عند شاطىء البحر وأخيراً أذعن يونان الى أمر الرب فانطلق الى نينوى ليبشر أهلها بالخلاص »[٦٧] .

« ولا يقدم لنا العهد القديم معلومات وافية عن شخصية يونان صاحب السفر فكلما جاء في سفر الملوك الثاني (١٤ / ٢٥) انه النبي (يوناثان بن امتاي) من (جت حافر) على مقربة من الناصرة بارض الجليل »[٦٨] . وسنقتطع مقاطعاً من سفر يونان لمقارنتها بالرواية القرآنية :

يونان يهرب الى ترشيش : ١ : وأمر الرب يونان بن امتاي (هيا امضي الى نينوى المدينة العظيمة وبلغ أهلها قضائي لان اثمهم قد صعد اليّ . غير ان يونان تأهب ليهرب من الرب الى ترشيش فانحدر الى مدينة يافا حيث عثر على سفينة مبحرة الى ترشيش فدفع اجرتها وصعد اليها ليتوجه مع بحارتها الى ترشيش هرباً من الرب . [ثم تحدث ريح ويتحدث الكتاب عن ابتلاع الحوت له] . وأمر الرب فاعد حوتاً عظيماً ابتلع يونان فمكث يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال [ويذكر الكتاب صلاة يونان وفيها تسبيح ودعاء] . استغثت بالرب في ضيقي فاستجاب لي ومن جوف الهاوية ابتهلتُ فسمعت صوتي لانك طرحتني الى اللجج العميقة في قلب البحار .... فقلت قد طُردت من حضرتك ولن اعود اتفرس في هيكلك المقدس .... عندما وهنت نفسي في داخلي تذكرت الهي فحلقت في صلاتي اليك .... فأمر الرب الحوت فقذف بيونان الى الشاطيء [بعدها يبعثه الله الى نينوى] فهب يونان وتوجه الى نينوى بموجب امر الرب وكانت نينوى مدينة بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة ايام ..... ويبدأ ينادي قائلًا : (بعد اربعين يوما تتدمر المدينة) فآمن شعب نينوى بالرب واعلنوا الصيام وارتدوا المسوح .... فلما رأى الله أعمالهم وتوبتهم عن طرقهم الآثمة عدل عن العقاب الذي كان مزمعاً ان يوقعه بهم وعفا عنهم فأثار ذلك غيظ يونان وغضبه الشديدين وصلى الى الرب قائلًا : « ايها الرب أليس هذا ما قلته عندما كنت في بلادي ؟ لهذا أسرعت الى الهرب الى ترشيش لاني عرفت انك إله

---

(٦٧) الكتاب المقدس / العهد القديم / توضيحات ومقدمة على كتاب يونان .

(٦٨) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية في القرآن الكريم / ج ٤ ص ١٨٨ ويذكر خطأ سفر الملوك الاول والحقيقة الملوك الثاني . انظر العهد القديم / ٢ مل / ٢٥ : ١٤ .

رحيم رؤوف بطيء الغضب كثير الاحسان ترجع عن العقاب والآن دعني ايها الرب الفظ انفاسي لانه خير لي ان اموت من ان احيا . فقال الرب : أأنت محق في غضبك ؟ . [وبعدها يذكر الكتاب كيف ادبه ربه بانبات اليقطين] ولكن في فجر اليوم التالي اعد الله دودة قرضت اليقطينة فجفت فلما أشرقت الشمس أرسل الله ريحاً شرقية حارة لفحت رأس يونان فاصابه الاعياء وتمنى لنفسه الموت قائلًا : خير لي ان اموت من ان أظل حيا] فقال الله ليونان أأنت محق في غضبك من اجل اليقطينة ؟ فاجاب انا محق في غضبي حتى الموت . فقال الرب : لقد أشفقت أنت على اليقطينة التي لم تتعب في تنميتها وتربيتها هذه اليقطينة التي ترعرعت في ليلة ونوت في ليلة . أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يقيم فيها اكثر من مئة وعشرين الف شخص ممن لا يفرقون بين يمينهم وشمالهم فضلا عما فيها من بهائم كثيرة »[٦٩] . نجد ان الرواية التوراتية تقترب من الرواية الاسلامية (النص القرآني مع تفسيراته مع الاحاديث النبوية الشريف) ولكن لابد ان نحدد ان التقاء النص القرآني مع الرواية التوراتية في نقطتين مهمتين فقط هما :

- ان الشخصية المتحدث عنها واحدة وهي شخصية النبي يونس (عليه السلام) .
- أهم حدث وقع لهذا النبي هو ابتلاع الحوت له مع تقارب في ملابسات هذا الحدث وفيما عدا هاتين النقطتين تختلف الرواية التوراتية عن القرآنية وفيما يلي ايجاز لأهم الفروقات مع المقارنة :-

١ - نسبت التوراة يونس الى بني اسرائيل ولم يذكر القرآن هذه المعلومة بل على العكس من ذلك جعل القرآن يونس نبي قومهما حددت الرواية التوراتية ان يونان هرب الى ترشيش اين تقع ترشيش ؟ لا أحد يعرف ولا احد يعرف اسم هذه المدينة الحالي[٧٠] . والقرآن الكريم لم يحدد الجهة التي قصدها يونس (عليه السلام) ولم يذكر انه هرب من الرب كما تذكر التوراة بالنص ولكن القرآن الكريم يذكر انه ذهب مغاضباً لقومه بسبب موقفهم فهو اعلان عداء

---

(٦٩) العهد القديم / يونان : ١ - ٤ .

(٧٠) يذهب علي الشوك الى ان ترشيش (من اعمال اسبانيا على اغلب الظن) انظر الشوك / على الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / ص ٣٠٩ انظر التوضيح في الهامش ص ٣١٦ .

بينه وبين القوم وأيضاً يبدو ان بعض التفسيرات لقوله تعالى ﴿ فظن ان لن نقدر عليه ﴾ التي فسرتها بأنه اعتقد انه يستطيع الهرب من الله هذه التفسيرات متاثرة بمعلومات أهل الكتاب ولكن المفسرين أكدوا ان هذا لا يجوز في حق الانبياء وفسروها بأنه اعتقد سعة الارض وذهب يبحث عن قوم آخرين اي ظن ان الله لن يضيق عليه . وفي التوراة تفاصيل انه انحدر الى مدينة يافا وصعد الى السفينة ولم يتطرق القرآن الى هذه التفاصيل وانما ركز النص القرآني على الحدث من دون ملابسته وهي منهجية القرآن في رواية الواقعة التاريخية .

٢ - حددت الرواية التوراتية المدة التي مكث فيها يونس في بطن الحوت بـ (ثلاثة ايام وثلاث ليال) ولم يحدد النص القرآني هذه المدة وهذا التحديد يعكس لنا تطلعات بشرية لسياق القصة .

٣ - في التوراة تسبيحات وترتيلات يونس (عليه السلام) فيها معان طيبة هذه الترتيلات تقابل في القرآن الكريم دعاء يونس (عليه السلام) في بطن الحوت في قوله تعالى ﴿ فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين ﴾ ولا يمكن مقارنة تراتيل يونس (عليه السلام) التي اوردتها التوراة وهو يصلي في بطن الحوت وبين هذه الدعوة العظيمة التي ذكرهاالنص القرآني . ففي هذه الدعوة توحيد الالوهية التي هي غاية الانبياء والرسالات والاقرار بالعبودية والاستغفار من الذنب وقد روي عن الحسن البصري : « ما نجاه الله تعالى الا باقراره عن نفسه بالظلم »[٧١] ومن خلال هذه الدعوة يرتبط المسلم بربه ويتعلم حقيقة ذكرها القرآن الكريم فقد « روى ابن جرير عن ميمون بن مهران قال : سمعت الضحاك بن قيس يقول على منبره : اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة ان يونس كان عبداً لله ذاكراً . فلما أصابته الشدة دعا الله فقال : ﴿ لولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون ﴾ . فذكره الله بما كان منه »[٧٢] وقد وردت روايات وأحاديث نبوية عر هذه الدعوة العظيمة التي أوحاها الله تعالى الى نبيه وفي الحديث « دعوة

---

(٧١) مهران / د. محمد بيومي / دراسات تاريخية م . س / ج ٤ ١٨٤ عن الرازي / التفسير .
(٧٢) مهران / د. محمد بيومي / م . س / ص ١٨٦ عن تفسير الطبري / ٢٣ / ١٠٠ .

ذي النون اذ هو في بطن الحوت ﴿ لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ فانه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط الا استجاب له »[٧٣] .
وفي صلاة يونان في التوراة مع لطافتها وحسنها فإنها لا تخلو من شوائب التصورات اليهودية كما في قوله (ولن اعود اتفرس في هيكلك المقدس) وتأمل هذه العبارة (ان الذين يبجلون الاصنام الباطلة يتخلون عن مصدر نعمتهم أما انا فبهتاف الحمد اذبح لك وما نذرته اوفي به لان للرب الخلاص) . وتأمل صفاء التوحيد مع الاقرار بضعف الانسان في قوله تعالى ﴿ لا إله إلا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين ﴾ .

٤ - في الرواية التوراتية معلومة تسلط الضوء على نينوى وإنها مدينة كبيرة (بالغة العظمة يستغرق اجتيازها ثلاثة ايام) وهذه المعلومات التي لم يتطرق لها النص القرآني ولا تتعارض مع هدف القصة القرآنية ومحورها فإنها تسلط الضوء على بعض النقاط وتوضح بعض الغموض وتعين على إكمال الصورة وزيادة فهم النص القرآني وبذلك تتأكد لدينا الحاجة الى دراسة التوراة وتمحيصها والاستفادة مما فيها كمصدر من مصادر تفسير النص القرآني . ولا سيما ان التوراة تمتاز بانها اقدم النصوص المكتوبة والمحفوظة[٧٤] . وكذلك خلفيات القصة وقوم يونس وكل القضايا التي لم يتطرق لها النص القرآني نستطيع ان نستأنس بها عند دراسة النص القرآني ولابد ان نشير هنا الى معظم ما ذهب اليه المفسرون عندما تناولوا هذه الموضوعات المشتركة بين القرآن والتوراة فانهم اقتبسوا وتأثروا فيها فيما تعرضوا له من تفسير من نصوص القرآن الكريم بالتوراة .

٥ - وعكس الحوار بين يونس والرب جلّت قدرته سلوكا لا يليق بالنبي الكريم وهو يعترض على توبة الرب عن أهل نينوى وفيما تبقى من الرواية التوراتية مما تفردت به التوراة ولم يتعرض له النص القرآني وقد صيغ بأسلوب قصصي وعظي والحوار الذي سجلته التوراة بين الرب ويونس لا يخلو من معاني

---

(٧٣) الترمذي والنسائي وفي مستند احمد ١ / ١٧٠ . انظر مهران / محمد بيومي / م . س / ص١٨٦ .

(٧٤) لا نعني بها محفوظة من التحريف والتبديل كما نعني بحفظ القرآن الكريم ولكن نعني انها محافظ عليها الى الآن اي باقية حتى الآن .

الحكمة والتربية والتوجيهات العملية عن شجرة اليقطين وموتها وحزن يونس عليها وما ذكره الرب ليونس من الحكمة في موت الشجرة كل هذا لا يتعارض مع القرآن ولكنه اسلوب مبسط تبدو عليه تأثيرات بشرية فهو نص يفتقر الى الاعجاز على عكس القرآن الكريم المعجز . ولابد من الاشارة هنا ان التوراة ذكرت قصة اليقطين من دون ان تربط بينها وبين خروجه من بطن الحوت على عكس القرآن الكريم فقد ربط بين حاله بعد خروجه من بطن الحوت وانبات اليقطين عليه لذلك تؤكد على ضرورة دراسة نبات اليقطين من قبل علماء متخصصين لمعرفة ارتباطه بعلاج حالات مرضية كحالة النبي يونس (عليه السلام) . ونريد ان نؤكد هنا على حقيقة وثابت من الثوابت التي لابد من توضيحها ونحن نوازن بين القرآن الكريم والتوراة وهي ان هذا التقارب الذي قد يصل في بعض الاحيان الى التطابق يؤكد حقيقة القصة وان احداثها قد وقعت فعلًا وليست حادثة الحوت رمزية كما يذهب الى ذلك بعض شراح التوراة الذين قالوا بأنها « قصة رمزية او رواية تمثيلية في قالب تاريخي »[٧٥] وفي هذه التفسيرات تأثر بالمناهج التي تنكر القدرة الالهية والمعجزات التي أجراها الله تعالى لأنبيائه ولكنا نزداد يقيناً في كل يوم نتأمل في كتاب الله تعالى وما يطابقه فيما ورد فيه مع الكتب الاخرى وكلمات تطابقت مع الزواية القرآنية رواية الكتب الاخرى كلما نزداد ايمانا ويقيناً بان هذا القرآن من عند الله وليس من عند محمد (ﷺ) .

يونس (عليه السلام) في الاناجيل :

وردت اشارات عن قصة يونس (عليه السلام) ذكرها المسيح (عليه السلام) لقومه يذكّرهم بآيات الله ومعجزاته وبتوبة قوم يونس (شعب نينوى) فقد جاء في إنجيل متي : عندئذٍ أجابه بعض الكتبة والفريسين قائلين : يا معلم نرغب في ان نشاهد آية تجريها فاجابهم (جيل شرير خائن يطلب آية ولن يعطى آية الا آية يونان النبي . فكما بقي يونان في جوف الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا سيبقى

---

(٧٥) مهران / د. محمد بيومي / م . س . / ج ٤ ص ١٩١ عن قاموس الكتاب المقدس ٢ / ١٢٦ .

ابن الانسان في جوف الارض ثلاثة ايام وثلاث ليال سيقف أهل نينوى يوم الدينونة مع هذا الجيل ويدينونه لانهم تابوا لما انذرهم يونان وها هنا اعظم من يونان)[٧٦] وفي هذه المقاطع التي ذكرها المسيح (عليه السلام) عن يونان تطابقت أحداث الحوت وذكر مدينة نينوى وتوبة قوم يونس وهذا يؤكد أصالة الحدث وترابطه الواضح في المصادر المختلفة وقد جاء في إنجيل برنابا ذكر يونس (عليه السلام) على لسان السيد المسيح (عليه السلام) . فقد جاء الفصل الثالث والستون : « وبعد ايام مر يسوع بجانب مدينة للسامريين فلم يأذنوا أن يدخل المدينة ولم يبيعوا خبزاً لتلاميذه فقال يعقوب ويوحنا عندئذٍ : « يا معلم ألا تريد ان تضرع الى الله ليرسل نارا من السماء على هؤلاء الناس ؟ » اجاب يسوع : انكم لا تعلمون اي روح يدفعكم لتتكلموا هكذا . انكروا ان الله عزم على اهلاك نينوى لانه لم يجد احدا يخاف الله في تلك المدينة التي بلغ من شرها ان دعا الله يونان النبي ليرسله الى تلك المدينة فحاول الهرب الى طرسوس[٧٧] خوفا من الشعب فطرحه الله في البحر فابتلعته سمكة وقذفته على مقربة من نينوى . فلما بشر هناك تحول الشعب الى التوبة . فرأف الله بهم »[٧٨] وهذه الحادثة التي وقعت الى السيد المسيح مذكورة في انجيل لوقا ولكن من دون ذكر يونس وقصة الحوت « فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا : يا رب اتريد ان نأمر بأن تنزل النار من السماء وتلتهمه ؟ فالتفت اليهما ووبخهما ثم ذهبوا الى قرية اخرى »[٧٩] .

ان اختلاف الاسلوب وسياق الاحداث بين الاناجيل والتوراة مع انها تتكلم عن حدث واحد وقصة واحدة يؤكد التاثيرات البشرية عليها ولكن الحقيقة تبقى ثابتة وهي شخصية يونس (عليه السلام) وحادثة الحوت وهذا لا يمكن انكاره كتواتر على نقل جوهر القصة وحقيقة الحدث .

---

(٧٦) متي / ٣٨ : ١٢ - ٤٢ .

(٧٧) هنا يذكر اسم المدينة وفي العهد ترشيش . وقد تكون كركميش المذكورة في العهد القديم وهي مدينة قريبة من حران شمال بلاد الشام في آسيا الصغرى .

(٧٨) سفر برنابا : ٦٣ : ١ : ٩ .

(٧٩) سفر لوقا : ٢ب : ٥٤ : ٥٦ .

يونس (عليه السلام) في الحفريات :

اجمعت الكتب التي بحثت ودرست نتائج الحفريات والرقم الطينية على استعباد نكر الانبياء ولا ندري هل هذا التوافق بين عدم العثور على اسماء الانبياء . هل جاء عفوياً وغير مقصود اوهناك اخفاء في المعلومات ولكنا وجدنا احداثاً جاء نكرها في الرقم الطينية وهذه الاحداث مرتبطة بالانبياء وشخصياتهم فأوضح لنا هذا الذكر والحدث المذكور في الرقم الطينية بأن هذا الحدث قد وقع وان هذه الظاهرة ربط هذه الاحداث بشخصيات غير الانبياء جاء نتيجة لاختلاف الاسماء وبسبب التضخيم الاسطوري والبعد الزمني والتاريخي في الحدث والتغيرات التي طرأت على البيئة الاجتماعية والعقلية والثقافية والتبدلات اللغوية واللفظية في طبيعة النطق مما ادى الى اختلاف في نطق الاصوات للاسماء او ان هذه الاسماء نقلت معانيها كما نكرت شخصية نوح (عليه السلام) بالرجل الذي طال عمره او صاحب الحس المرهف وكما حدث بالنسبة الى ابي (ابراهيم ـ عليه السلام) من تبديل من آتور وآشور الى آزر وتارح في التوراة وكذلك اسم ابراهيم حدثت عليه تغيرات من ابرام وابراهام وابراهيم وما يقال عن خل ايل وما ذهب اليه « دوبرتي ان ترجم اسم (دمقي اليشو) بحبيب الله من المقه بمعنى الحب والايل بمعنى الله وضمير الاضافة ، وجاء فلبى فظن ان هذا الاسم يطابق في الزمن والصفة اسم الخليل ابراهيم وان الخليل كان ملكاً من الملوك الذين حكموا جنوب العراق عند الخليج العربي لان الاقوال متواترة بمقام الخليل هناك في أور الكلدانيين ولان اسم (دمقي اليشو) ورد في الآثار البابلية بين ملوك عدة يُسمون بملوك الشاطىء او ملوك الارض البحرية وهو اصطلاح لهم يطلقونه على العرب من سكان تلك الجهات »[٨٠] ومما ساعد على حفظ المعلومات عن الاحداث التي وقعت للانبياء او عاصرتهم او جرت لهم مع اقوامهم انها كانت احداثا لها وقعها التاريخي وان الاثر الذي احدثته على الواقع لم يكن لينسى بسرعة بل طُبعت ذكراه في المشاعر والذكريات التي تناقلتها الشعوب

---

(٨٠) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٥ عن كتاب :
The Back ground of Islam by Philby.

كما حدث لذكرى الطوفان وحادثة تحريق ابراهيم (عليه السلام) ايضاً انعكس في اعمال بابلية لاحقة بسبب تأثيرها الدرامي واخذ اليهود هذه القصة في اثناء السبي البابلي ووضعوها في سفر دانيال « وسماع دانيال بها في بابل له دلالته في هذا الصدد »[٨١] .

وقد وقع الامر نفسه بالنسبة لقصة يونس (عليه السلام) حيث جعل اليهود يونس (عليه السلام) نبياً قومياً من بني إسرائيل وربطوا احداث القصة ومآثرها ببني إسرائيل . ولكننا وجدنا في بعض المدونات البابلية القصة ذات طابع اسطوري ترتبط بسيرة وشخصية يونس (عليه السلام) فقد (حفظ لنا المؤرخ البابلي - بيروسس في بقايا تاريخه التي حصلنا عليها بعد ان ضاع معظمه احاديث قديمة جداً عن بداية الحضارة في بلاد ما بين النهرين . وفقا لهذه الاحاديث رأى السكان البدائيون . وهم في مستوطناتهم الكائنة في المستنقعات الواقعة حول الخليج العربي مخلوقا خرافيا عرف باسم اونيس (oannes) وكان نصف انسان ونصف سمكة ويخرج هذا المخلوق من الماء فيمضي النهار بين السكان مرشداً اياهم الى كل فرع من فروع المعرفة ثم يرجع كل ليلة الى الاعماق . وقد استمر ظهور مثل هذا المخلوق اربع مرات ، وكان كل مخلوق يكمل العمل الذي بدأه سابقه . ونتيجة لهذا المفهوم بالذات عن المعرفة الموحى بها صارت هذه المعرفة ليست محترمة وحسب بل ومقدسة ايضاً »[٨٢] ان الاسم اونيس لا شك قريب جداً من يونس وارتباط الشخصية بالسمكة يقرب عناصر القصة وقد حاول علي الشوك ان يربط بين الشخصيتين وقال : « ولا ادري ان كان هناك صلة بين اسم (يونان) او (يونس) و (اونس (Oannes) الكائن الاسطوري السومري ويحدثنا هارولدبيك (Harold peak) في كتاب الطوفان عن (اونس) هذا قائلاً : (ويحكي لنا بيروسوس عن اسطورة عن كائن (هَو لَه) غريب يُدعى أونس نصفه سمكة ونصفه الآخر انسان خرج من البحر وجاء بالمعرفة لسكان ما بين النهرين »[٨٣] ويذكر كذلك : « ويعتقد ان مؤلف هذه الحكاية كان احد المنفيين في بابل وقد استعاد ذكرى الآشوريين

---

(٨١) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ٤٩ .

(٨٢) كونتينو / جورج / الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي / ص ٣٦٢ .

(٨٣) الشوك / علي / الاساطير / ص ٣١١ .

المكروهين ليبشرهم النبي برسالة إسرائيل »[٨٤] ويخلص الى القول : فهل يحق لنا ان نذهب الى القول بأن يونس او يونان ما هو الا اونس السومري »[٨٥] وقد عثر على ثلاثة الواح في مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى تحكي قصة ادبا (Adapa) « وتعطي المعاجم اللغوية البابلية مرادفات لاسم ادبا (Adapa) تدل على انه يعني الحكيم . العاقل ، العارف ، كما عرف ادبا ايضاً باسم (Uan) الذي ذكره المؤرخ بيروسوس (Berossus) بصيغة (Oannes) للدلالة على اول حكيم من اصل سبعة حكماء . من العصر الذي سبق الطوفان »[٨٦] وفي جزء من رقيم الطين يتحدث عن ادبا ذكر انه تعرض للغرق وعندما سأله الاله انو عن سبب كسره جناح ريح الجنوب فأجاب ادبا قائلاً : « كنت اصطاد السمك وسط البحر لعائلة سيدي (آيا) وكان البحر صافياً كالمرآة . لكن ريح الجنوب هبت واغرقتني ..... وفي سورة الغضب انزلت بها اللعنة[٨٧] وعلى اية حال فان هذه الرقم تعكس لنا طبيعة ثقافة العصور القديمة التي تشبثت بالاساطير ولكننا نستطيع ان نفرز من بين هذه الاساطير بعض خيوط الحقيقة التي تربطنا بيونس (عليه السلام) وقصته فالاسم والسمكة والبحر والغرق والوحي والحكمة والمعرفة كلها حقائق مشتركة بين الحقيقة والاسطورة .

---

(٨٤) الشوك / علي / الاساطير / ص ٣١١ .

(٨٥) الشوك / علي / الاساطير / ص ٣١٢ .

(٨٦) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / ص ٢٤١ . (ان ارتباط القصة بعصر قبل الطوفان قد يكون منتحلاً وقد صاغه بيروسوز ووضعه في عصر موغل في القدم والحقيقة ان قد يكون اقتبسه من عصر قريب لعصره او قبله بقرون قليلة ، وعملية التزوير في الرقم الطينية غير مستبعدة كما ذكرنا سابقاً ما ذكره المرحوم الدكتور طه باقر عن قضية التزوير التي اكتشفت في احدى نسخ ملحمة كلكامش . راجع فصل ابراهيم (عليه السلام) حيث ذكرنا هذه القصة .

(٨٧) علي / د. فاضل عبدالواحد / م . س / ص ٢٤٢ .

المبحث الرابع

انبياء مرّوا بالعراق (انبياء الأسر البابلي)

ان المتأمل في حضارة وادي الرافدين تأسره الملاحظات العديدة عن طبيعة هذه الحضارة من حيث قدمها وتميّزها عن الحضارات الاخرى «التاريخ فيها بدأ قبل الكتابة كما يقول فرنكفورت : انه لأمر بسيط جداً ان نقول ان التاريخ يبدأ ببدء الكتابة كما يفعل المؤرخون . إنَّ قولا كهذا يصلح بالنسبة لمصر حيث ان اقدم النقوش تشير الى اولى الحوادث والشخصيات المعروفة وهكذا فانها كسجلات للمعارك والاسماء الملكية تكون اقدم مادة للتاريخ المصري . لكن الامر ليس كذلك في بلاد ما بين النهرين حيث اتخذت المدينة شكلها وحيث ظهرت الكتابة قبل ان وجدت الوثائق التاريخية بمعناها المحدود بزمن طويل . وسنرى ان هذا الفرق بين مصر وما بين النهرين يعود الى تباين الغايات التي كان على الكتابة والفن ان يخدماها »[88] . وهذه الحضارة كان الدين يؤثر فيها تأثيراً واضحاً يختلف عن تأثيرات الدين في حضارة وادي النيل فان الدين في وادي الرافدين استغرق حياة الانسان واستوعب معاناته ووصل الى الملوكية . ولم يكن العراقيون القدماء ينظرون الى الملك كإله على عكس المصريين . ولكنهم فصلوا بين الآلهة والملوك واذا ارادوا رفع الملوكية جعلوا جزءا منها آلهة والجزء الآخر بشر ولهذا قد تكون احدى الملاحظات المبنية على نصوص القرآن الكريم التي اكدت على النظرة القديمة للمصرين القدماء بأن فراعنتهم كانوا آلهة مرتبطة بهذه النظرة ، وقد كانت محاولاتهم لتحنيط الفراعنة تجسيداً

---

(٨٨) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الادنى / ص ٣٦ الهامش .

لتلك العقيدة في حين لم يذكر القرآن الكريم هذه الصورة عن ملوك العراق سوى اشارة الى الملك الذي حاج ابراهيم (عليه السلام) وادعى بأنه يحيي ويميت وهي اشارة مقتضبة تتناسب مع حقيقة دور الملوك في وادي الرافدين في حين ان القرآن الكريم سلط الضوء على الفراعنة وجعلهم نموذجاً للطغيان والتأله كما في قوله تعالى ﴿ فقال انا ربكم الاعلى * فأخذه الله نكال الآخرة والاولى ﴾ بينما نجد ان معظم الصور التي عرضها القرآن الكريم التي كان يتصدى لها ابراهيم (عليه السلام) او نوح (عليه السلام) كانت تركز على الحوار بين النبي والكهنة او بين النبي والطبقة المترفة . وقد حدد هنري فرانكفورت الفروقات بين حضارتي مصر والعراق يمكن ايجازها بما يأتي : « ان اقدم الوثائق المكتوبة في بلاد ما بين النهرين كانت تخدم غاية عملية محضة كانت تسهل ادارة الوحدات الاقتصادية الكبيرة اي مجتمعات الهيكل بينما كانت النقوش المصرية الاولى اساطير عن ابنية ملكية او اختاما محفورة تعين شخصيات موظفي الملك واقدم الشخصيات الفنية في بلاد ما بين النهرين كانت دينية بالدرجة الاولى في حين انها كانت في الفن المصري تخليداً للاعمال الملكية وكانت تدور حول شخصيات تاريخية . ان الابنية الضخمة تتكون من المعابد في بلاد ما بين النهرين اما في مصر فانها كانت المدافن الملكية . اقدم مجتمع متحضر في بلاد ما بين النهرين يتبلور في خلايا منفصلة في عدد من المدن المتمايزة المتمتعة باستقلال ذاتي وحدات سياسية مستقلة اما المجتمع المصري فاتخذ شكل مملكة منفردة موحدة لكنها زراعية تحت سلطة حاكم مطلق . ان الاثباتات التي لدينا عن مصر تدل على ان الانتقال لم يكن بطيئا ولا تدريجياً بل كان هناك عصر ابداع اول . وقليلة في مصر الفرعونية هي الاشياء المهمة التي لم تكن لها اصول في عصر الابداع العظيم الاول هذا . في حين تاريخ ما بين النهرين يبين سلسلة من الانتفاضات المتتابعة على فترات من قرون قليلة حققت اكثر من تعديل واحد في تركيبه السياسي فاللغة السومرية ـ مثلًا ـ كانت مسيطرة خلال مرحلة تكوين حضارة ما بين النهرين حلت محلها اللغات الاكدية اثناء النصف الثاني من الالف الثالث وانتقال مركز السلطة في الالف الثالث من سومر في اقصى الجنوب الى بابل في الوسط وفي الالف الثاني آشور في اقصى الشمال جلب معه تغيرات ثقافية مهمة . فان حضارة ما بين النهرين لم تفقد شخصيتها اطلاقاً . ان شكلها اصيب

بالتعديل خلال تاريخها المضطرب لكنه لم يتحطم ابدا »[89] . ان نشوء المدن في بلاد ما بين النهرين يعكس لنا قدم هذه الحضارة حيث صورت لنا متابعة نشوء هذه المدن زمناً موغلاً في القدم يؤكد بان البدايات الاولى للمجتمع المدني والقرى كانت على ارض الرافدين « ولعل من اهم الشواهد الدالة على قدم وأصالة حضارة وادي الرافدين ان باستطاعة الباحث تتبع مراحل تطورها مرحلة بعد اخرى خلال العصور الزمنية المتعاقبة ولعل ابرز مثال يمكن ذكره في ذلك الصدد هو تعاقب مراحل الاستيطان في القطر بشكل مستمر ومتسلسل ابتداء من استيطان الكهوف وانتهاء بظهور المدينة في بداية فجر التاريخ »[90] . ولعل اهم مدينة بقيت شامخة عبر التاريخ هي بابل « خلال السنة الاولى من عهد حكم ملك لارسا (سمو - ئيل) عام ١٨٩٤ ق . م . اتخذ احد الشيوخ الاموريون واسمه سورمو - ابوم . مدينة لا تبعد عن كيش غير أميال قليلة باتجاه الغرب على الضفة اليسرى للفرات عاصمة له . كان اسم هذه المدينة باللغة السومرية كا - دنكر - را) واسمها الاكدي (باب - ايليم) وكلاهما يعني باب - الإله) اما نحن فنسميها (بابليون) (بالعربية بابل) نقلاً عن اليونانيين وكان واضحاً منذ البداية ان حكام بابل الانكياء المتحمسين مصممون بقوة على جعلها ليست مجرد مدينة كبيرة غنية فحسب بل وعاصمة للبلد بكامله »[91] لقد كانت بابل تحكي لنا قصة طويلة من خلال ابنيتها وامتداداتها عبر القرون الطويلة بقيت بابل شامخة وقد يدرك المتأمل في بابل وعظمتها انها لم تظهر فجأة ولكنها سلسلة طويلة من الخطوات والمحاولات من اجل بناء ذلك الملك الشامخ كيف استطاع حكام بابل ان يحققوا حلمهم ؟ لا يمكن ان يكون هذا البناء بلا اثر ديني او نبوة فقد قال ابن خلدون : «ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين ، اما من نبوة او دعوة حق . وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب ، والتغلب انما يكون بالعصبية واتفاق الاهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتاليفها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى ﴿ لو انفقت ما في الارض جميعا ما الفت بين قلوبهم ﴾[92] . وسرّه ان القلوب اذا تداعت الى الدنيا حصل التنافس

---

(٨٩) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الادنى / ص ٦٠ - ٦٢ بتصرف

(٩٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / ص ٦٦ .

(٩١) رو / جورج / العراق القديم ترجمة وتحليل حسين علوان حسين / ص ٢٥٢ .

(٩٢) سورة الانفال / ٦٣ .

وفشا الخلاف واذا انصرفت الى الحق ورفضت الدنيا والباطل واقبلت على الله اتحدت وجهتها . فذهب التنافس وقل الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة لذلك . فعظمت الدولة »[٩٣] هذا الدين الذي تكلم عنه ابن خلدون ليس الذي يتكلم عنه توئبي وديورانت ودوركايم فهؤلاء يسقطون الواقع الغربي على الحضارات القديمة الى حد ذهب توينبي الى انه « كان لمصر (كنيسة اوزيرية)[٩٤] ككنيسة عالمية خلقتها طبقة شعبية داخلية . ان الكنيسة كهيئة منظمة من جماعة من المؤمنين لم تكن تعرف في مصر في اي زمن (ولا في بلاد ما بين النهرين ايضا » وعبادة اوزيرس التي كانت دائما شغل الملك الشاغل انتشرت بين صفوف الشعب جميعاً لكنها كانت كإحدى العبادات الاخرى التي كانت تملأ حياة كل مصري ويعزو توينبي في مكان آخر طرد الغزاة الهكسوس من مصر الى (اتحاد مقدس بين الاقلية الحاكمة في المجتمع المصري والبروليتاريا الداخلية ضد البروليتاريا الخارجية كما يمثلها الهكسوس ، فانه لا يسع المرء الا ان يقول ان هذه الكلمات منفردة ومجتمعة لا تنطبق على الواقع »[٩٥] ولكن فرانكفورت الذي يدحض تحليلات توينبي وشبلنجر في كتابه نجده يعاني من نفس التأثيرات الغربية في تحليلاته في مواضع اخرى من الكتاب فهو يقول بان نظرية التحدي والاستجابة غير واقعية ويمكن ان يوهم القارىء في تكوين صورة خاطئة عن التاريخ فيقول « لا الاغنياء ولا الفقراء نظروا الى دولتهم هذه النظرة ، فان استنتاج توينبي لا صلة له بالموضوع صحيح انه يستشهد بقصص رواها التراجمة الى سواح يونانيين في العصور المتأخرة عن الحكم الظالم لبناة الاهرام لكن الاخبار الحقيقية لمصر الفرعونية تبين لنا ان الناس كانوا يبتهجون بقصص الملوك بمقدار ما كان اهل (الف ليلة وليلة) يبتهجون بأعمال الطاغية هارون الرشيد »[٩٦] وهكذا نجد انه اسقط العقل الغربي وربط بين الفراعنة وهارون الرشيد . اننا نريد ان نؤكد انه لابد من دراسة تاريخنا اسلاميا بأيدي باحثين مسلمين ينتمون الى هذا التاريخ بكل ابعاده

---

(٩٣) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد / المقدمة تحقيق د. علي عبدالواحد وافي / ج٢ ص ٤٤٦ / مصر ـ ط ١ ـ لسنة ١٩٨٥ .

(٩٤) نسبة الى عبادة اوزيريس.

(٩٥) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة م . س . / ص ٢٩ .

(٩٦) فرانكفورت / هنري / م س . / ص ٣٣٠ .

وانعكاساته وسلبياته وايجابياته ، اننا نعلم ان العراق والنظام السياسي فيه ارتبط بالنبوات والانبياء ارتباطا قويا والملاحظ على تاريخ العراق لم يتعرض لعقوبات تدميرية جراء فساد او طغيان او قتل للانبياء او اي سبب من اسباب هلاك المجتمعات فلم يحدث ان سجل لنا التاريخ الديني عقوبة تعرضت لها المدن العراقية القديمة عدا الطوفان الذي شكل بداية تاريخية للنبوات والرسالات فكان معلما قياسيا وحدثا تقويميا للبشرية جمعاء . على اننا لو قارنا التاريخ الديني لشبه جزيرة العرب نجد ان هلاكا وتدميرا قد عم اقواما اكثر من مدن العراق فقوم هود (عليه السلام) وهم قبيلة عاد ارسل الله عليهم ريحا دمرت مساكنهم واهلكتهم وقوم صالح (عليه السلام) وهم ثمود ارسل عليهم صيحة فدمرتهم . وكذلك قرى في بلاد الشام قرى سدوم وعمورة قرى لوط (عليه السلام) الذين تعرضوا لزلزال مدمر وانقلبت مساكنهم فكان عاليها سافلها وامطر الله عليهم حجارة . وفي مصر تعرض المصريون الى عقوبات ربانية جراء موقفهم من دعوة موسى (عليه السلام) آخرها اغراق فرعون وجنوده في البحر . وهكذا نجد ان المدن العراقية القديمة بقيت تحت التراب بكتابتها وبنائها لكي نستطيع من خلال هذه الآثار التي حفظها التراب ان نتعرف على التاريخ القديم[٩٧] اضف الى ذلك ارتباط العراق القديم في التاريخ مع تاريخ بني إسرائيل اكثر من مصر لان مصر ارتبطت مع بني إسرائيل ارتباطا مرحلياً في عصر يوسف (عليه السلام) ومن خلال موسى (عليه السلام) ولكننا نجد ان العراق القديم قد اثر في تكوين تاريخ بني إسرائيل وتعرض اليهود الى السبي

---

(٩٧) يحدد الاستاذ عباس محمود العقاد مدن القوافل وهي المدن التي كانت على طريق القوافل في العالم القديم هي التي كانت مراكز النبوات ومهد الدعوات (فهناك حالة مشتركة في جميع الرسالات وهي الحالة النفسية التي تكون عليها الامم في طور واحد وذلك هو طورها . حيث تتصل البداوة والحضارة . فلم يعرف التاريخ رسالة نبوية في الحضارة دون غيرها . او في الصحراء المنعزلة دون غيرها . ولهذا كانت مدن القوافل وما في حكمها احق الاماكن بالدراسة من جانبها هذا الذي يرشحها لقيام الدعوات الدينية » انظر العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / ص ١٦٩ وهذا يفسر لنا عدم استقرار النبوات في مدن العالم القديمة في بابل وغيرها من مدن بين النهرين . وفي وادي الرافدين كما يؤمن توينبي « بالانسحاب والعودة » اقلية تنسحب لتنعزل عن مؤثرات البيئة الفاسدة ثم تعود بعد ان تكون مزودة بطاقات وقوة قادرة على التغيير وهذا هو مبدأ الهجرة في المفهوم الاسلامي انظر كذلك ولسون / كولن / سقوط الحضارة / ص ١٥٠ .

والدمار / الشامل على ايدي العراقيين مرتين مرة على ايدي الآشوريين والاخرى على ايدي البابليين وهي المرة المعروفة بالسبي البابلي في عصر نبوخذ نصر . ولذلك كان العهد القديم او التوراة سجل حافل ، حافظ لنا على صفحات طويلة من تاريخ العراق القديم على ما فيه من تحريف وتبديل ولكن يمكن للباحث ان يتعرف على طبيعة تاريخ العراق القديم ومدنه وملوكه ومعلومات كثيرة يمكن اخذها من التوراة للتعرف على تاريخ العراق القديم ولا سيما اذا قارنا هذه المعلومات مع نتائج الحفريات والمكتشفات الآثارية التي توصل اليها العلماء في العصر الحديث . لقد كانت بابل تشكل هاجساً للخوف بالنسبة لليهود ولكنها تفرض نفسها على العالم « ولم يتوان النبي (ارميا) في الوقت الذي تنبأ بسقوطها عن وصفها بكونها (كاس ذهبية بيد الرب اسكرت كل الارض) كما ان هيرودوت الذي يعتقد بانه قد قام بزيارتها فعلًا نحو عام ٤٦٠ ق . م . يعلن باعجاب ظاهر بانها « تتجاوز في عظمتها اي مدينة اخرى في العالم المعروف »[98] لقد ذكر القرآن الكريم اسم بابل بصراحة وكل المدن الاخرى التي ذكرت في القرآن الكريم ولم يرتبط ذكرها بالرسالة الاخيرة لمحمد (ﷺ) مثل بابل ، سبأ ، مدين فقد ذكرت هذه المدن لاهمية الدور الذي كانت تلعبه في تاريخ قبل الاسلام ولم يذكر القرآن الكريم مدنا اخرى كانت قائمة مع هذه المدن لانها لم تكن قريبة من مساحة الضوء الذي كان يسلطه القرآن الكريم وهو يتابع النبوات ومسيرة الدين في الحياة . وقد جاء ذكر بابل في القرآن الكريم مرتبطاً بعصر سليمان النبي الملك (عليه السلام) وهو احد انبياء بني إسرائيل الذين جمعوا بين النبوة والملك وقد ذكرت بابل مرتبطة بالسحر وهو الامر الذي شاع التعامل به في عصر سليمان (عليه السلام) لان حضارة سليمان (عليه السلام) حضارة روحية غير مادية كانت الجن تلعب دورا مهما فيها ولذلك شاع السحر تقليدا لحضارة سليمان وتوهما بانها قائمة على السحر وقد كانت بابل حتى عصر سليمان تمثل مركزا عالمياً لا توجد مدينة اخرى تنافسها قوة وحضارة من حيث الاعتبارات المادية وان ذكر بابل في معرض الحديث عن ذم السحر ، وانها كانت مركزا لنشاط السحرة وفي النص ايضاً اشعار بان هذه المدينة على عظمتها لا تحمل قدسية ولكن ذكرها في القرآن الكريم يوضح اهمية هذه المدينة في ذلك العصر وقد جاء ذكر بابل في سورة

---

(٩٨) رو / جورج / العراق القديم / ص ٥٢٢ يأخذ كلام هيرودوت عن هرميا / لي / هيرودوت / ١ / ١٧٨ .

البقرة في قوله تعالى ﴿ واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من احد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من احد الا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون ﴾[٩٩] لقد انقسمت الحياة في بني إسرائيل وتاريخهم الى مدتين بعد الخروج من مصر ودخولهم الى فلسطين المدة الاولى حكم بني إسرائيل فيها القضاة وقد جاء في التوراة « وحين اقام لهم الرب قضاه كان الرب مع القاضي وخلصهم من يد اعدائهم كل ايام القاضي) والمدة الثانية تسمى مدة الملوك وقد استمرت المدة الاولى مدة القضاء من التيه حتى مدة الملوك ١٢٠ سنة بدأت في سنة ١١٨٠ ق . م . وانتهت في سنة ١٠٦٠ ق . م . »[١٠٠] وفي مدة الملوك انقسم اليهود في فلسطين على مملكتين مملكة يهوذا وكان عليها رحبعام بن سليمان ومملكة إسرائيل وكان عليها يريعام بن ناباط « وجمع رحبعام مئة وثمانين الف محارب من بيت يهوذا في اورشليم وسبط بنيامين لمحاربة إسرائيل وردّ المملكة الى رحبعام ولكن شمعيا رجل الله كلم رحبعام وكلم يهوذا وبنيامين ان لا يحاربوا اخوتهم بني إسرائيل لان هذا الامر (انقسام المملكة) من عند الرب »[١٠١] وكان عهد سليمان اكثر استقرارا حيث صاهر فرعون مصر وقد كان ارتباك حالة مصر وآشور في دور حكمه الاول مما ساعده على الاستمرار على ذلك الاستمتاع »[١٠٢] والاستقرار بالحكم وكان عهده عهد ثروة ومبعث صيت وخيال واطناب في سيرته ، مع ما كان واضحا من فضل الصناع والفنيين غير الاسرائيليين في ذلك وان ما ذكرته اسفار بني إسرائيل من هذا الصيت والحكمة والثروة والرخاء والسلم النسبي شيء من الصحة كثير او قليل)[١٠٣] وقد استمرت مدة الملوك بحسب اسفار اليهود (٤٧٥ سنة) وهي

---

(٩٩) سورة البقرة / ١٠٢ .

(١٠٠) محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة من آدم حتى سبي بابل / ص ٣١٥ - ٣٥٢ .

(١٠١) محمد / محمد قاسم / م . س / ص ٤٢٦ .

(١٠٢) دروزه / محمد عزة / تاريخي بني اسرائيل من اسفارهم / ص ١٧٢ .

(١٠٣) دروزه / محمد عزة / م . س / ص ١٧٢ .

المدة التي تلت مدة القضاة والتي ابتدأت بمسح (شاول) وانتهت بالسبي البابلي سنة ٥٨٦ ق . م . »[١٠٤] وشاول هو طالوت في القرآن الكريم وقد حدد القرآن الكريم طريقة الحكم في بني إسرائيل بعد موسى (عليه السلام) وذلك عندما طلبوا من نبيهم ان يسأل الله ليبعث لهم ملكاً يقودهم في محاربة اعدائهم الذين كانوا يسومونهم العذاب وهم الفلسطينيون والقبائل العربية التي كانت في فلسطين فاختار الله لهم طالوت ملكا . وقد جاء في القرآن الكريم عن هذه العلاقة التي كانت تحكم بني إسرائيل وهي وجود نبي ومعه ملك يقوم باعمال الحرب وادارة الدولة في قوله تعالى ﴿ الم تر الى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى اذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم ان كتب عليكم القتال الا تقاتلوا قالوا وما لنا الا نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا الا قليلا منهم والله عليم بالظالمين ﴾[١٠٥] ويحدثنا القرآن الكريم ان نبيهم اخبرهم ان الله اختار لهم طالوت وهو (شاول) ملكا . ثم بعدها يجتاز بنو إسرائيل امتحانات متعاقبة مع طالوت يتساقط فيها ضعفاء الايمان الى ان وقعت المعركة مع جالوت المعروف في اسفار يهود بـ (جليات) « المحارب الذي طوله ستة اذرع وشبر وعلى رأسه من نحاس وعلى جسمه درع خرشفي وزنه خمسة آلاف شاقل وجرموق نحاسي في حلية »[١٠٦] وبعد هذه المعركة صعد نجم داود في حياة بني إسرائيل وذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾[١٠٧] . أجتمعت النبوة والملك في بني إسرائيل عند داود وسليمان وكان ملك سليمان في فلسطين « واذا اردنا ان نجمل عهد سليمان بكلمة فمن الحق ان نقول ان سلطانه لم يتجاوز ارض ـ كنعان ـ غرب الاردن ـ »[١٠٨] وبعد سليمان انقسمت الدولة اليهودية على قسمين شمالي وتسمى دولة إسرائيل وعاصمتها شكيم وقوامها الاسباط الذين لم ينضموا الى الدولة الجنوبية التي كان اسمها يهوذا

---

(١٠٤) محمد / محمد قاسم / م . س . / ص ٤٩٠ .

(١٠٥) سورة البقرة / ٢٤٦ .

(١٠٦) دروزه / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ١٤٢ .

(١٠٧) سورة البقرة / ٢٥١ .

(١٠٨) دروزه / محمد عزة / م . س ./ ص ١٧٢ .

وعاصمتها اورشليم وقومها سبطا يهوذا وبنيامين وهي التي كان عليها رحبعام بن سليمان وقد كانت يهوذا اكثر استقرارا من إسرائيل . وقد استمرت دولة يهوذا حتى سقطت على يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٦ ق . م . وقد قتل نبوخذ نصر ملكها صدقيا (وهو آخر ملوك يهوذا حكم ثلاثة اشهر) ونهب اورشليم ودمرها وسبى اهلها الى بابل واقام على اورشليم والياً من قبله . اما دولة إسرائيل فقد تقلب على عرش هذه المملكة ثماني عشر اسرة وافنيت ثلاث اسر من ملوكها افناءً تاماً وعمرت الى سنة ٧٢٠ ق . م . وسقطت على يد سرجون الثاني ملك آشور وقد اعتقل سرجون آخر ملوكها هوشع بن ايله ونفاه مع عدد كبير من اهل مملكته وجعل المملكة ولاية آشورية وقد ارسل سرجون ثم حفيده اسرحدون بعده جماعات من العراق فسكنوا مكان المنفيين وهم الذين عرفوا بالسامريين على الارجح نسبة للسامرة التي كانت اسم عاصمة الدولة التي سكنوافي ارضها والغالب انها تسمية إسرائيلية للتمييز بينهم وبين بني إسرائيل لانهم هم الآخرون اعتنقوا الشريعة الموسوية ولكنهم كانوا على خلاف ونزاع مع بني إسرائيل »[١٠٩] ونريد ان نؤكد من خلال متابعة هذه الاحداث وجود علاقة بين العراق وما كان يحدث في فلسطين ولذلك ذكر القرآن الكريم سليمان ثم عرض ما كان يحدث في بابل وما انزل على الملكين حيث كان السحر هو السمة الغالبة وحالة شائعة في عصر سليمان العصر الذي سخر الله فيه طاقات روحية وجان وعلوم انسية لخدمة هذا النبي الكريم فكانت حضارة سليمان حضارة مسخرة بقدرة الله فهي حضارة غير مادية تغلّب الجانب الغيبي والروحي فيها على الجانب المادي وشاع السحر ونشطت الجن في الممالك الاخرى فعرض لنا القرآن الكريم ان العراق وبابل ارسل اليهم ملكان يعلمان السحر ويحذران من شره « وتعليمهما الناس له تعليم انذار اي يقولان لمن جاء يطلب تعلمه لا تفعلوا كذا فانه يفرق بين المرء وزوجه ولا تتخيلوا كذا فانه سحر فلا تكفروا فعلى هذا فِعْل الملكين طاعة وتصرفهما فيما امرا به ليس بمعصية وهي لغيرهما فتنة . وروى ابن وهب عن خالد بن ابي عمران انه ذكر عنده هاروت وماروت وانهما يعلمان السحر فقال نحن ننزهُهما عن هذا فقرأ بعضهم ﴿ وما انزل على الملكين ﴾ فقال خالد لم ينزل عليهما . وقول خالد لم ينزل يريد (ما) نافية وهو قول ابن عباس قال مكي وتقدير الكلام وما كفر سليمان يريد بالسحر الذي افتعلته عليه الشياطين واتبعهم في ذلك اليهود وما

---

(١٠٩) دروزه / محمد عزة / م . س ./ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ بتصرف .

انزل على الملكين »[110] لقد وضحت الآية ان ٱلشياطين كفروا عندما ادعوا بان سليمان ساحر وانه يملك اسرار السحر ونشطت الشياطين في بث هذه الاكذوبة التي روجها اليهود عن سليمان (عليه السلام) فنفى القرآن الكريم ان يكون سليمان ساحراً وانزل الله تعالى مَلَكَين او مَلِكَين (بكسرّ اللام) يعني بشرين ارسلهما الله لاهل بابل يحذرونهم من السحر الذي تفشى وان اشاعة هذه الظاهرة من بابل يعني اشاعة الكفر بين الناس فكما ان الاطباء يحذرون الناس من الامراض والجراثيم بعث الله هذين الملكين لتحذير الناس من السحر وفتنة الناس وتعطل سنن الحياة التي جعلها الله سبباً من اسباب تطور الحياة واستقرارها فاذا خضعت الحياة الاجتماعية للسحر والدجل والشعوذة فان سنة الحياة ستتوقف ويلجأ الناس الى الكفر والسحر والدجل . وقد ربط القرآن الكريم بين ملك سليمان وحضارته الروحية وبين بابل التي كانت تخضع لحضارة مادية وهذا يؤكد وجود علاقة بين مملكة بابل ومملكة اليهود في فلسطين وقد اثبت هذا الشعب انه عريق في الفتن لم يستقر له حال مع انبيائه وملوكه فسلط الله عليهم في لحظات وحالات ابتعادهم عن تعاليم السماء واستبدالهم الشرائع والقيم التي جاء بها انبيائهم بالاصنام والعقائد الكفرية التي كان يدين بها من حولهم من الامم والذين كانوا يتعايشون معهم على ارض فلسطين . تسلط عليهم العراقيون وكانوا معهم كالقوة التي ادخرها الله لتأديب هؤلاء اليهود اذا انحرفوا فسباهم الآشوريون وساموهم سوء العذاب ودمر ملكهم وحطم وجودهم السياسي بعد الآشوريين البابليون فسباهم نبوخذ نصر واخذهم اسرى الى بابل . لذلك نجد ان كتب اليهود واخبارهم عن بابل وتوراتهم مشحونة بالكلام على بابل ونينوى . ونقتطع بعض المقاطع من العهد القديم سفر ارميا الاصحاح (٥٠) وما بعدها حول بابل . « النبوءة التي قضى بها الرب على بابل وعلى بلادالكلدانيين على لسان ارميا النبي : انيعوا بين الامم واعلنوا انصبوا الراية وخبروا ولا تكتموا قولوا : قد تم الاستيلاء على بابل ولحق ببيل العار وتحطم مردوخ خربت اصنامها وانسحقت اوثانها لان امة من الشمال قد زحفت عليها لتجعل ارضها مهجورة شرد منها الناس والبهائم جميعاً ... إسرائيل قطيع غنم متشتت طردته الاسود كان ملك آشور اول من افترسه ونبوخذ نصر آخر من هشم عظامه لذلك ما يعلنه الرب القدير اله إسرائيل ها

(١١٠) اليحصبي / القاضي ابو الفضل عياض ت ٥٤٤ هـ / الشفا بتعريف حقوق المصطفى / ج٢ ص ١٧٦ .

انا اعاقب ملك بابل وارضه كما عاقبت ملك آشور من قبل وارد إسرائيل الى مرتعه فيرعى في الكرمل .... ها سيف على الكلدانيين يقول اهل الرب وعلى اهل بابل وعلى اشرافها وعلى حكمائها) وفي الاصحاح (٥١) عقاب بابل : وهذا ما يعلنه الرب : ها انا اثير على بابل وعلى المقيمين في ديار الكلدانيين ريحا مهلكة وابعث الى بابل مذرين ويذرونها ويجعلون ارضها قفراً .... انصبوا الراية على اسوار بابل شددوا الحراسة اقيموا الارصاد اعدوا الكمائن لان الرب قد خطط وانجز ما قضى به على اهل بابل ايتها الساكنة الى جوار المياه الغزيرة ذات الكنوز الوفيرة ان نهايتك قد ازفت وحان موعد اقتلاعك قد اقسم الرب القدير بذاته قائلًا : لاملأنك اناساً كالغوغاء فتعلو جلبتهم عليك) . ويمضي سفر ارميا يتحدث عن بابل : تصبح قفراً .... بابل تصبح كوماً من الركام .... سقوط بابل .... هرب الناس ..... جلبة الدمار »[١١١] وفي الاصحاح ٢٥ نبوءة ارميا « وفي ختام السبعين سنة اعاقب ملك بابل وامته وارض الكلدانيين على اثمهم واحولها الى خراب ابدي » . ويتحدث العهد القديم عن فساد بني إسرائيل وبعدهم عن الرب ويصف كتاب مراثي ارميا ارتكبت اورشليم خطيئة نكراء فأصبحت نجسة وكيف خيم الرب في غضبه بالظلام على ابنة صهيون .... زالت الشريعة ولم يعد انبياؤها يحصلون على رؤيا من عند الرب ... لنفحص طرقنا ونختبرها ونرجع الى الرب لنرفع قلوبنا وايدينا الى الله في السماوات قد تعدّينا وتمردنا وانت لم تغفر .... قد جعلتنا اوساخا واقذارا بين الشعوب .....) ويبقى يطلب الرحمة والغفران .... وفي السبي في بابل كانوا انبياء وهم الذين اوحى الله اليهم في بابل وجاءت اسفارهم في العهد القديم تمثل مرحلة من مراحل حياة الشعب اليهودي .

النبي حزقيال :

جاء في الملاحظات على العهد القديم وترجمته الى العربية في بداية كتاب حزقيال : « انتظم حزقيال في سلك الكهنوت وكان احد الذين سبوا الى بابل مع بقية اليهود الذين اجلوا عن المدينة المجيدة في سنة ٥٩٧ ق . م . وهناك اختاره الله

---

(١١١) كتاب ارميا : ٥١ ـ ٥٢ .

ليكون له نبياً اوحى اليه الروح القدس بهذه الرسالة لتكون تحذيراً من الدينونة القائمة على البقية الباقية في اورشليم . بيد ان انذاراته لم تلق آذانا صاغية من اليهود المأسورين معه وعندما تحققت نبوءاته المحزنة بدمار اورشليم في عام ٥٨٦ ق . م . اقبل عليه الناس ليستمعوا الى اقواله »[١١٢] . لقد عاش اليهود بعد السبي في وضع نفسي فرض عليهم نوعا من العزلة الاجتماعية والخوف من المستقبل واليأس القاتل فكان ارسال الانبياء لهم رحمة بهم وفرصة منحها الله لهم ليتوبوا ويصححوا من اخطائهم ومسيرتهم وايمانهم بقدرة الرب لكن لم تكن هذه النبوات تمثل شيئاً الى بني إسرائيل اكثر من تعميق احساسهم بالاستعلاء وتضخيم العقد التي تكونت في داخل نفوسهم عبر تاريخ طويل من الشك والخوف والمادية السوداء ومحاربة طريق الحق والأنبياء . ويحدثنا حزقيال عن بداية نبوته في كتابه « وحدث في اليوم الخامس من الشهر الرابع العبري (اي حزيران) في سنة الثلاثين من عمري فيما كنت بين المسبيين بجوار نهر خابور ان انفتحت السماوات فشاهدت رؤى من عند الله . في اليوم الخامس من الشهر في السنة الخامسة لسبي الملك يوياكين اوحى الرب الى حزقيال الكاهن ابن بوزي عند جوار نهر خابور . في ديار الكلدانيين »[١١٣] ويمضي حزقيال يحدثنا عن هذه النبوة حيث يحدثه الرب قائلاً له : « يا ابن آدم ها انا باعثك الى بني إسرائيل الى امة متمردة عصتني ، انا باعثك الى الابناء المتصلبين القساة .... فان سمعوا او ابوا - لانهم شعب عاص - فانهم يعلمون على الاقل ان نبياً بينهم »[١١٤] . وهكذا نجد في كتاب حزقيال تشخيصاً لامراض بني إسرائيل ومتابعة لتاريخهم وتذكيرهم بنعم الله عليه ويذكرهم الرب كيف امتن عليهم عندما اخرجهم من الذل الذي كانوا يعانونه في مصر « ولكنهم تمردوا علي ولم يسمعوا لي ولم يتركوا الارجاس التي تنجس عيونهم ولم يهجروا اصنام مصر فقلت : سأسكب عليهم غضبي »[١١٥] . وجعل الرب بابل سيفا قد تم سنه وصقا

---

(١١٢) العهد القديم / مقدمة على كتاب حزقيال .

(١١٣) حزقيال / ١ - ٢ « ونهر خابور هذا غير الخابور في شمال الفرات ولا خابور شمال دجلة وانما هو منطقة تدعى (نهر خابور قرب نيبور (نفر) انظر سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٦٠٥ .

(١١٤) حزقيال /١ - ٢ .

(١١٥) حزقيال / ٢٠ : ٩

لمعاقبة بني إسرائيل »[116] ونبوءة اخرى لحزقيال تحدث عن بابل السيف الذي يجردعلى مصر وتنقض اسسها »[117] لقد كان حزقيال يحاول ان يبعث الامل في بني إسرائيل ولكن نبوءاته كلها منصبة على انحرافات بني إسرائيل وكيف انصب عليهم غضب الرب وفي كتاب حزقيال مواعظ ونصائح تحاول ان ترشد بني إسرائيل الى طريق الخلاص وفي نهاية الكتاب اصحاحات تناقض الاصحاحات الاولى ويبدو انها كتبت لتبعث روح الامل في الجسد المنخور ونبوءات الامل التي دونت في كتاب حزقيال عن الهيكل والطقوس وتوزيع البلاد على الاسباط « مما فيه تناقض عجيب مع ما سبقهما من الاصحاحات التي تستبعد ان يرثوا الارض مع ما كان منهم من انحرافات شديدة خلقية ودينية ومما نرى انه هو الآخر نتيجة لما بعثته عودة بني إسرائيل (اي من السبي) فيهم من آمال »[118] .

النبي دانيال :

وهو من انبياء السبي البابلي ولقد حدثنا التاريخ ان اليهود تعرضوا الى السبي على يد العراقيين ثلاث مرات الاولى على يد الآشوريين فقد تمكن شلمنصر الثالث (٨٥٩ - ٨٢٤ ق . م .) من اخضاع إسرائيل لسلطة الآشوريين وقد دونت هذه المعلومات على مسلة الملك شلمنصر الثالث التي عثر عليها بين انقاض كالح (نمرود) واستمرت محاولات اخضاع إسرائيل من قبل الآشوريين حتى وقع السبي الاول على اليهود على يد سرجون الثاني والذي نفذ خطة اجلاء اليهود وقد وضع هذه الخطة وبدأها سلفه تجلات بلاسر حيث اجلى سرجون (٢٧٢٨٠) شخصاً من اليهود الى ناحية حران والى ضفة الخابور وميديا واحل محلهم الآراميين من اقليم حماة ثم لحق بهم العرب هناك في عام ٧١٥ ق . م . وقد عثر الخبير الآثاري بوتا سنة ١٨٤٣ م بين اطلال مدينة سمال (زنجرلي) عاصمة الآراميين غربي سورية على مسلة سرجون الثاني نقشت عليها باللغة الآشورية وبالخط المسماري تفاصيل

---

(١١٦) حزقيال / ٢١ .

(١١٧) حزقيال / ٣٠ .

(١١٨) دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من إسفارهم / ص ٢٦٨ .

الحملة الاشورية على إسرائيل التي انتهت بالقضاء على اليهود وحمل اليهود الى الاسر »[119] اما السبي الثاني لليهود فكان على يد الكلدانيين الذين اسسوا الدولة الكلدانية بعد سقوط الدولة الآشورية سنة ٦١٢ ق . م . وقد تم القضاء على مملكة يهوذا وسبي اليهود الى بابل في عهد نبوخذ نصر الثاني اعظم ملوك هذه الدولة وكان ذلك سنة ٥٩٧ ق . م . والسبي الثالث على يد نبوخذ نصر كذلك سنة ٥٨٩ ق . م . بعد ان نقض (صدقيا) عهد بالولاء لبنوخذ نصر ودخلت جيوش البابليين اورشليم بعد حصار ومعركة ضد المصريين الذين حرضوا صدقيا على نقض العهد فانتصر عليهم نبوخذ نصر ودخل اورشليم في اليوم الرابع من شهر تموز ٥٨٦ ق . م . اما صدقيا فهرب هو وافراد عائلته ولكن البابليين لحقوا به في سهول آري وحملوه الى ربلة حيث كان مقر معسكر الملك نبوخذ نصر وهناك ذبح اولاده امام عينيه ثم فقئت عيناه واخذ مكبلا مع الاسرى الى بابل وكان النبي دانيال بين المسبيين »[120] وهكذا تم القضاء على مملكة يهوذا وقد استطاع دانيال ان يتكيف مع الاسر وان يحظى بقبول الملك « فقد تم اختياره مع رفاقه لخدمة الملك »[121] وقد حوى سفر دانيال سيرة هذا النبي وما جرى له من امتحانات امام نبوخذ نصر « ويستفاد من السفر ان صاحبه من انبياء بني إسرائيل وانه كان في قافلة المسبيين التي سباها نبوخذ نصر الى بابل مع الملك يوياكين او يوياقيم اي قبل تدمير اورشليم النهائي وانه ظل في المنفى الى عهد كورش وداريوس بن احشو يريش على ما جاء في اصحاحه الاول »[122] وفي سفر دانيال اعاده لاسباب زوال ملك بني إسرائيل وتعرضهم للسبي بسبب معاصيهم وذنوبهم وفيه خيال ومفارقات وخلط تاريخي وقد سبق ان اشرنا الى حادثة التحريق التي ذكرها سفر دانيال والتي تبدو انها منتحلة فهناك تشابه بين القصة وقصة تحريق ابراهيم (عليه السلام) . وفي سفر دانيال كذلك معلومات عن علاقة المسبيين مع المجتمع الجديد وكيف حاز ورفاقه احترام الملك وعاقب اعداء دانيال « ثم اصدر الملك امره فاحضروا المتآمرين الذين اتهموا دانيال وطرحوهم في جب الاسود مع اولادهم ونسائهم وما كادوا يصلون الى اسفل الجب حتى بطشت بهم

---

(١١٩) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٨٧ .

(١٢٠) سوسة / د. احمد / م . س / ص ٦٠٦ .

(١٢١) العهد القديم / كتاب دانيال : ١ .

(١٢٢) دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٦٠ .

الاسود وهشمت عظامهم »[١٢٣] وهناك معلومات مضطربة حول ملوك فارس وصراع داريوس مع الملوك الكلدانيين « وجعل كورش يأتي بعد داريوس ونعته بالمادي حيث يسوغ ذلك كله ان يكون السفر مما كتب مؤخراً من مذكرات او ذكريات وقصص معزوة الى دانيال وليس فيها مع ذلك شيء ذو بال مما يتصل بتاريخ اليهود وحالتهم »[١٢٤] ان وجود الانبياء في بني إسرائيل في اثناء السبي قد اعانهم على اعادة الشعور بالتوازن وتحمل قسوة الاحداث وكذلك ساعدهم على استعادة اجزاء من توراتهم وان كان احبارهم قد كيفوا وصاغوا توراتهم ضمن اهدافهم التي تبلورت لديهم من خلال عند التاريخ الطويل من الكبت والقهر والاستضعاف ، التاريخ الذي وسم الشخصية اليهودية بالخيانة والجبن والتمسك بالحياة والحرص عليها مهما كانت هذه الحياة حتى ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة التي تبلورت في العقل الباطن لليهود ﴿ ولتجدنهم احرص الناس على حياة ﴾[١٢٥] وان السبي الذي تعرض له اليهود قد احدث تفاعلاً بين الثقافة اليهودية والثقافة الرافدينية (العراقية القديمة) بحيث تأثر اليهود بالثقافة العراقية القديمة واثروا فيها وبذلك حافظت احداهما على ثقافة الاخرى الى حد ما . وكان من القدر ورعايته للتاريخ بان جعل طرق الكتابة العراقية على الطين الذي يقاوم الظروف الطبيعية ولذلك نجد ان معظم المدونات المصرية والكنعانية قد تعرضت للتلف الكلي بسبب استخدام الاقوام الاخرى في العصور المتأخرة قبل الميلاد مادة الحبر وما يسمى (سلسلة اوستراسا (Ostraca))[١٢٦] وتطورت هذه الطريقة الى استخدام رقائق البردي وبذلك حافظت حضارة وادي الرافدين على معلومات عظيمة وخطيرة عن تاريخ الاديان واحوال العالم القديم من خلال الرقم الطينية . وقد ذكر د. سوسة حقيقة فقدان المدونات القديمة في فلسطين بقوله : « ولما كان مناخ فلسطين رطباً لكثرة سقوط الامطار في الشتاء فما اسرع ما يمسح الحبر من سطح الالواح الطينية الصلبة اما ورق البردي فهو اسرع تعرضاً للتلف . ومما يبعث الاسى في نفوس الآثاريين والعلماء المؤرخين جميعاً وهم متعطشون الى هذه المعلومات ان يكون مصير جميع الوثائق والمدونات الكنعانية

((١٢٣))دانيال / ٦: ٢٤ - ٢٥ .

((١٢٤))دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٢٦١ .

((١٢٥))سورة البقرة / ٩٦ .

((١٢٦))سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٧٩ .

الفقدان الكلي لهذا السبب »[127] وقد شاءت ارادة الله ان تحوي ارض العراق كنوز الدنيا كلها المادية والثقافية والعلمية وكانت الكنوز الثقافية اغلى واعز من كنوز المادة كما يقول معظم الاثاريين اننا بدأنا نبحث تحت ركام الارض والتراب عن كنوز الذهب والجواهر فاكتشفنا ما هو اهم من هذه الكنوز انه التاريخ الذي يقص علينا اخبار الامم الماضية والحضارات البائدة انها قصة الانسان قد حفظت تحت ثرى وادي الرافدين . ومن الملفت للنظر ما يؤكده رو « اننا لا نمتلك شريعة حمورابي وحسب بل وكذلك رسائله والاراشيف الملكية اضافة الى العديد من النصوص القانونية والاقتصادية ، الادارية ، الدينية ، والعلمية من ماري ولارسا وسبار ونفر واور وتل حرمل ومن مواقع اخرى يتراوح عددها بين (٣٠ - ٤٠) الف رقيم وفي الواقع فان بوسعنا القول من دون مبالغة بأن معرفتنا لوادي الرافدين خلال عام (١٨٠٠ ق . م .) تتجاوز معلوماتنا عن اي قطر اوربي قبل الف سنة فقط . ومن الناحية النظرية بامكان المؤرخين رسم صورة شبه متكاملة ومفصلة لمجتمع وادي الرافدين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر قبل الميلاد »[128] .

عـزرا الكاتـب :

استطاع اليهود اثناء السبي البابلي ان يجمعوا ما لديهم من اخبار وتراث . « وفي مدينة بابل بالعراق اتفق علماء بني اسرائيل على جمع مأثورات التاريخ القديم خاصة فيما يتعلق بنسب اسحاق (عليه السلام) ووضع توراة موسى بين المأثورات وقد تم ذلك على يد عزرا في بابل ثم ان عزرا بعد ما فرغ من المأثورات ووضع فيها احكام موسى وضع مختصراً لاحكام موسى واظهر فيه الامور الجديدة التي اتفق العلماء على اضافتها الى توراة موسى وهذا المختصر اسمه (سفر التثنية خامس الاسفار الخمسة ثم بعد ذلك كتب اسفار الانبياء »[129] وقد اكد رحمة الله الهندي : ان جمهور اهل الكتاب متفقون ان عزرا هو الذي صنف التوراة الحالية فقد جاء في تواريخهم ما نصه : احرقت التوراة وما كان احد يعلمها وقيل ان عزرا جمع ما فيها

---

(١٢٧) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / ص ٥٧٩ .

(١٢٨) رو / جورج / العراق القديم ترجمة حسين علوان حسين / ص ٢٨٦ .

(١٢٩) محمد / محمد قاسم / التناقض في تواريخ واحداث التوراة / ص ٥٥٤ .

مرة اخرى باعانة روح القدس »[١٣٠] وقال تهيوفلكت : ان الاسفار المقدسة انعدمت رأساً فاوجدها عزرا مرة اخرى بالهام »[١٣١] وعزرا هذا الذي جمع التوراة ليس العزير المذكور في القرآن فقد كان العزير رجلًا صالحاً ونبياً وهذا ليس بنبي « وقال السموأل بن يحيى المغربي في كتابه افحام اليهود ص ١٥٢ ـ ١٥٣ ان عزرا هذا ليس هو العزير كما يظن لان العزير هو تعريب العازار . فأما عزرا فانه اذا عُرِّب لم يتغير عن حاله لانه اسم خفيف الحركات والحروف ولان عزرا عند اليهود ليس بنبي وانما يسمونه (عزرا هوفير وتفسيره عزرا الناسخ . ويعلق د. محمد عبد الشرقاوي على ذلك بأن كلام السموأل مقبول لانه متضلع في اللغتين العبرية والعربية ومتبحر في علوم التوراة والقرآن الكريم وكلامه فصل في هذه النقطة ويجب عدم الخلط بين العزير الصالح وعزرا الفاسق . وعزرا لم يكن نبيا بل كان من العلماء الهارونيين الذين حرفوا التوراة عمدا فقال اليهود انه ابن الله لانه كتبها على وفق اهوائهم »[١٣٢] وقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾[١٣٣] ان عزيرا كتب التوراة بعد ان ألقى في جوفه شيخ كهيئة الجمرة العظيمة ثلاث مرات فرجع الى بني إسرائيل فقال لقد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزير ما كنت كذابا فعمد فربط على اصبع من اصابعه قلما وكتب التوراة باصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء ، اخبروا بشأن عزير فاستخرجوا النسخ التي كانوا اودعوها في الجبال وقابلوه بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم انما صنع هذا لانه ابن الله »[١٣٤] وهذه الرواية من دون سند وفيها اضطراب في المتن وجهل بتاريخ بني إسرائيل . ومن المحتمل ان يكون عزير هذا هو الذي كتب التوراة وجمع بني إسرائيل عليها فضلت اليهود فيه وقالوا عنه انه ابن الله . او ان بني اسرائيل قالوا عنه انه ابن الله بعد حادثة الاماتة والاحياء بعد مائة عام القصة المذكورة في سورة البقرة وهو الراجح وان فتنة بني إسرائيل في العزير بسبب احيائه بعد موته وهذا ادعى للقبول

---

(١٣٠) محمد / محمد قاسم / م . س . / ص ٥٥٣ ياخذ عن الهندي / رحمه الله / اظهار الحق / ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٣١) محمد / محمد قاسم / م . س / ص ٥٥٣ رحمة الله / اظهار الحق / ج ١ ص ٢٧٢ .

(١٣٢) محمد / محمد قاسم / التناقض في تاريخ التوراة / ص ٥٥٤ ـ ٥٥٥ مع الهامش .

(١٣٣) سورة التوبة / ٣٠ .

(١٣٤) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ٢ ص ٣٤٨ .

من رواية كتابة التوراة . وبسبب رواية كتابة التوراة التبس الامر وحصل خلط بين عزير وعزرا . وقد ذكر ابن كثير في تفسير قوله تعالى ﴿ او كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال انى يحيي هذه الله بعد موتها فاماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثتم قال لبثت يوماً او بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال له اعلم ان الله على كل شيء قدير ﴾[١٣٥] . « قال اختلفوا في هذا المار من هو ؟ في رواية كعب عن علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) انه قال : هو عزير ورواه ابن جرير عن ابن عباس والحسن وقتادة والسُدّي وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور »[١٣٦] .

وبذلك اتضحت لدينا الصورة وهي ان الذي كتب التوراة في بابل هو عزرا وهو دجال من كذابي اليهود ادعى بانه الهم التوراة وقد تواطأ مع احبار اليهود المسبيين في بابل وكتبوا التوراة التي حرفوا وزادوا وحذفوا فيها وصاغوها بما يلائم اليهود ويبرر لهم كل جرائمهم عبر التاريخ ويمنحهم الحق في الاستعلاء على شعوب العالم بموجب فكرة العهد وعقيدة شعب الله المختار . اما العزير فهو الرجل الصالح الذي مر على قرية الذي ذكر ابن كثير بان المشهور « ان هذه القرية هي بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل اهلها (وهي خاوية) اى ليس فيها احد وقوله ﴿ على عروشها ﴾ اي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكراً فيما آل امرها اليه بعد العمارة العظيمة وقال ﴿ انى يحيي هذه الله بعد موتها ﴾ .

وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العودة الى ما كانت عليه قال تعالى : ﴿ فأماته الله مئة عام ثم بعثه ﴾ قال وعمرت البلدة بعد مضي سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل اليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان اول شيء احيا الله فيه عينيه لينظر بهما الى صنع الله فيه كيف يحيي بدنه فلما استقل سوياً قال الله له اي بوساطة المَلَك ﴿ كم لبثت * قال لبثت يوما او بعض يوم ﴾ وذلك انه مات اول النهار ثم بعثه الله في آخر نهار فلما رأى الشمس باقية ظن انها شمس ذلك اليوم ﴾[١٣٧] . وفي التفسير اكمال لمعاني الآية ولكنا نريد ان نصل

(١٣٥) سورة البقرة / ٢٥٩ .

(١٣٦) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / ج ١ ص ٣١٤ .

(١٣٧) ابن كثير / م . س / ج ١ ص ٣١٤ .

الى ان عزير الرجل الصالح وانه كان نبياً وجعله الله تعالى آية للناس فضل اليهود فيه لما علموا ان الله اماته مائة عام ثم احياه فقالوا انه ابن الله . وهذه القصة اكثر دلالة على فتنة بني إسرائيل بان جعلوا عزيراً ابن الله من قصة كتابة التوراة . وبذلك يتضح لدينا بان عزيرا الذي عُرف على ارض العراق لم يكن عزيرا بل كان عزرا وهو عزرا الكاتب وليس عزير النبي .

وبعد السبي البابلي لم تقم لليهود قائمة وتشتتوا في الارض والذين بقوا منهم في فلسطين بقوا مستضعفين تابعين الى البابليين او الفرس او المصريين او الرومانيين وبعد تدمير اورشليم وخرابها « بقي في فلسطين شرائم من اليهود على الرغم من جلاء كثير منهم عن فلسطين وتشتتهم في كل قطر وبخاصة في الاقطار المجاورة مثل مصر وقبرص وتدمر وليبية وبين النهرين »[١٣٨] .

وقد لعب اليهود دورا خطيراً في تقويض دعائم النظام في بلاد الرافدين واستطاعوا تحريض الفرس واستعدائهم على تحطيم العراق وفي العهد القديم سفر استير « المرأة اليهودية التي تزوجت من الملك الفارسي احشويريش بتخطيط من ابن عمها وقد كانت عنده واسمه مردخاي واستطاعت استير ان تحصل على الامان لشعبها من الملك وتمت تصفية هامان وزير الملك احشويريش واستطاعت استير ومن معها بعد ان اصبحت زوجة الملك احشويريش ان تساعد شعبها وتنتقم من اعدائهم وتهوّد عدد كبير من سكان مملكة احشويريش . وان بني إسرائيل ظلوا موالين للفرس وحياديين فيما كان ينشب في سوريا وفينيقية ومصر من ثورات ضد الحكم الفارسي وفيما نشب كذلك بين الفرس واليونان من حروب »[١٣٩] .

سقوط بابل :

لقد عبر سقوط بابل عن موت حضارة وان هذا السقوط لم يأت فجأة بل مر بسلسلة عمليات تداعي ثم الاحتضار فالموت . وبموت بابل انتهى الدور السياسي والحضاري لبلاد الرافدين حتى مجيء الاسلام الذي استعاد فيه العراقيون دورهم

---

(١٣٨) دروزة / محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / ص ٣٨٥ .

(١٣٩) دروزة / م . س / ص ٢٩٢ .

في الامتداد نحو رقعة العالم الاسلامي ويذكر جورج رو : بان حضارة وادي الرافدين بقيت حية حتى القرن الاول قبل الميلاد فكيف اضمحلت تدريجيا لتنقرض تماما في النهاية ؟ ويجيب : يبدو ان هناك سببين ولم يحظ سؤال مهم كهذا بالاهتمام اللائق به حتى هذا التاريخ . فمن جهة يغطي هذا السؤال ثلاثة حقول منفصلة من البحث العلمي التاريخي المرهق . (تاريخ الشرق الادنى السامي وتاريخ العبرانيين والآشوريين والتاريخ الاغريقي والايراني » ومن جهة اخرى فان اضمحلال وسقوط حضارة ما في اي مكان من العالم هي على الدوام مسالة معقدة تعتمد على عوامل سياسية ، عرقية ولغوية ودينية واقتصادية وجغرافية متشابكة والتي هي ـ في حالتنا هذه ـ خارج نطاق دائرة معرفتنا في اغلب الاحيان »[١٤٠] وفي اعتقادنا ان بابل لم تتراجع وحدها من بين مدن العالم القديم فقد تراجعت قبلها مدن مصر ومدن اليمن ومدن الشام ولكن بابل قاومت التداعي اكثر من غيرها وبقيت مؤثرة في العالم لحد قرن قبل الميلاد . وان تداول الحضارات امر ليس غريبا بل هو سنة من سنن الوجود ذكرها القرآن الكريم ﴿ وتلك الايام نداولها بين الناس ﴾ المدن التي ارتبطت دينيا استطاعت ان تستعيد دورها حتى بعد التدمير والتداعي مثل القدس ولكن المدن التي تطورت عبر سلسلة التطور الحضاري فانها عندما تموت تضمحل وتتلاشى وقد تتقزم لتتحول الى قرية هامشية لا تعبر عن شيء . يلفت الانتباه او يثير الاهتمام كما ذكرنا عن اوغاريت . بابل بقيت قوية لانها تملك جذورا عميقة في التاريخ ولو لم تكن بابل لما بقي لها اثر . ولكن عندما يتوقف الابداع وتستهلك التربة حضاريا لابد من مواجهة المصير المحتوم وهو الموت ويضع جورج رو ثلاثة اسباب لاضمحلال حضارة وادي الرافدين الاول : غياب الحكومة الوطنية وثانيا تأسيس الاسكندر الكبير وخلفائه المدن الجديدة التي نافست المستوطنات القديمة وتفوقت عليها في النهاية . ثم اخيرا : السبب الاهم المتمثل في مجموعة التغيرات العرقية واللغوية والدينية والحضارية العميقة التي نجمت عن موجات متتالية من المحتلين الفرس ، الاغارقة ، الاراميين ، عرب قبل الاسلام ، كان وادي الرافدين قد اجتيح مرات عديدة خلال تاريخه العريض ولكن الغزاة من الكوتيين والاموريين والحوريين والكاشيين والآراميين من بعدهم كانوا يجدون انفسهم على الدوام بمواجهة حضارة فتية قوية اعلى بمراحل عديدة من حضارتهم لذلك فقد عمدوا الى تبنيها باستمرار ولكن الوضع قد تبدل مع

---

(١٤٠) رو / جورج / العراق القديم / ص ٥٤٤ .

غزو الاغارقة للعراق في القرن الثالث قبل الميلاد اذ كان هؤلاء اصحاب حضارة راقية انجبت شخصيات افلاطون وارسطو وغيرهما لذلك فلم يكن لدى البابليين سوى القليل مما يمكن ان يفتخروا بالتفوق به على غزاتهم الجدد مثل الاعمال العويصة لفلكييهم كما لم يعد ـ الخط المسماري المعقد ـ الذي نبذه البابليون انفسهم ليلائم المتطلبات الجديدة لمجتمع متعدد القوميات . واذا كان من الجائز ان تحتوي ظاهرة شديدة التعقيد كهذه في عبارة مفردة وغير دقيقة بالضرورة فيمكن للمرء ان يقول ان هذه الحضارة قد ماتت بسبب شيخوختها »[١٤١] . ولكن هذه الحضارة لم تمت حتى تركت آثارا لا يمكن ان تمحى على العالم الذي جاء بعدها « لذلك يجب الا نندهش اذا خلصنا الى حقيقة مفادها ان الحضارة الاغريقية قد بنيت على قواعد شرق متوسطية تشتمل معظمها على مواد اساسية تعود الى بلاد ما بين النهرين »[١٤٢] .

ان الحضارة التي قامت في وادي الرافدين اكثر اقترابا من الواقعية لو قارناها بالحضارة المصرية او الحضارة الهيلينية . فالحضارة المصرية كانت تنكر الفناء ولذلك « حنط المصريون حتى تاريخهم في تواريخ وارقام متسلسلة . اما الاغريق فكانوا يؤكدون الفناء ولذلك لم يزودونا بأي خبر او تحديد عام او اسم حقيقي او حادثة ملموسة »[١٤٣] بينما نجد ان العراقيين القدماء قد تعاملوا مع الموت بواقعية وما ملحمة كلكامش الا تاكيدا للواقعية ورفض لفكرة الخلود وتكيف مع الموت . ولكن عندما يتوقف نبض الفكر في الحضارة تتشكل هذه الحضارة في محددات المدنية فتتحول من حضارة الى مدنية وهذا الذي يعبر عنه شبلنجر بقوله : « ان المدنية هي المصير المحتوم للحضارة ... والمدنيات هي نتائج الشيء يصير (Thing become) يخلف الشيء في حالة الصيرورة (Thing becoming) انها الموت يتبع الحياة ، انها الصلابة تعقب المرونة . ان المدنيات تشكل نهاية لا تستطيع ان تقف امام تحقيقها ارادة او عقل ومع ذلك تبلغها الحضارات مرة بعد اخرى مدفوعة بضرورة باطنية »[١٤٤] لقد حاول الغربيون المعاصرون من مؤرخين وفلاسفة ان يصيغوا تفسيرات لزوال وموت الحضارات وكانت آراؤهم تعبر عن ابداعات العقل البشري في

---

(١٤١) رو / جورج / العراق القديم / ص ٥٥٦ ـ ٥٦٩ .

(١٤٢) رو / جورج / العراق القديم / ص ٥٥٦ ـ ٥٩٦ .

(١٤٣) شبلنجر / اسوالد / تدهور الحضارة الغربية / ج ١ ص ٥٥ .

(١٤٤) شبلنجر / اسوالد / م س . / ج١ ص ٨٧ .

متابعة وتشخيص عوامل التداعي والانهيار وقد شخص توينبي احد الاسباب الفعالة التي تؤدي الى انهيار الحضارات عندما تحدث عن « إصابة الحضارة بمرض سماه بمصطلح اغريقي (Hybrits) ويعني الزهو والغرور والتكبر والانانية ويكون هذا الـ (Hybrits) سبباً في سقوط الحضارات »[١٤٥] ولكن مشكلة هؤلاء انهم جميعاً يقفون خارج المشكلة لان قضية الانسان على الارض هي قضيته الاولى مرتبطة بالدين وبالخالق وكل هؤلاء يحاول ان يعطي شيئاً للحقيقة من خلال التأمل من الخارج . ولكن الحقيقة تنبع من الداخل من الذات واكتشافها وان اعظم عمل يؤديه الانسان هو اكتشاف ذاته وحقيقة وجوده عندها ستكون كل المشاكل لا قيمة لها . « يقول بوهمه (فيلسوف الماني) : ما هي السعادة ؟ ويجيب : الشعور بان القوة تنمو وان المقاومة تندحر »[١٤٦] . وهذا هو معنى زيادة الايمان في المفهوم الاسلامي عندما تحس ان شعورا في داخلك ينمو ويكبر ويتضاءل امامه كل عائق وهاجس ضاغط على النفس فهذا يكون مقياسا لقوة الايمان ﴿ بل الانسان على نفسه بصيرة ﴾[١٤٧] .

ولكن نحن نتابع اسباب سقوط الحضارات الذي فصله الغربيون اجد مناسبا ان نذكر بصورة مركزة آراء عالم من علماء الاسلام سبق الغربيين بمئات السنين وشخص احوال الدول في قيامها وانهيارها . ذلك هو العالم الاجتماعي الاول ابن خلدون اذ يقول في مقدمته : « اعلم ان الدولة تنتقل في اطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في كل طور خلقا من احوال ذلك الطور . وهذه الاطوار :

١ - طور الظفر بالبغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك وانتزاعه من ايدي الدولة السالفة قبلها فيكون صاحب الدولة في هذا الطور اسوة قومه في اكتساب المجد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية .

٢ - طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التطاول للمساهمة والمشاركة .

٣ - طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثار وبعد الصيت .

---

(١٤٥) ولسن / كولن / سقوط الحضارات / ص ١٥١ .

(١٤٦) ولسن / كولن / م . س / ص ٢١٨ .

(١٤٧) سورة القيامة / ١٤ .

٤ ـ طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب الدولة في هذا قانعاً بما بنى اولوه . سلماً لانظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من سلفه ، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل .

٥ ـ طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفا لما جمع اولوه في سبيل الشهوات واصطناع اخوان السوء وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التي لا يستقلون بحملها مستفسداً لكبار الاولياء من قومه وصنائع سلفه حتى يضطغنوا عليه ويتخاذلوا عن نصرته وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه برء الى ان تنقرض والله خير الوارثين »[١٤٨]
وفي هذا التفصيل غناء عن تحليلات الغربيين المعاصرين اذ ان تحليل ابن خلدون تضمن ما ذهب اليه الغربيون وهذا يؤكد كذلك سبق العلماء المسلمين في هذا الميدان .

وفي القرآن الكريم آيات وضعت الاسس والقواعد التي يمكن من خلال تحليلها ودراستها ان نفهم اسباب انهيار الحضارات وقد ركزت الآيات على الجانب الاخلاقي والديني ورصدت حالات انهيار الحضارات والدول ومن هذه الآيات :ـ

١ ـ ﴿ وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون ﴾ الانعام / ١٢٣ .
٢ ـ ﴿ وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ﴾ الحجر / ٤ .
٣ ـ ﴿ واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ الاسراء / ١٦ .
٤ ـ ﴿ وما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها أفهم يؤمنون ﴾ الانبياء / ٦ .
٥ ـ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾ الانبياء / ١١ .
٦ ـ ﴿ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث انهم كانوا قوم سوء فاسقين ﴾ الانبياء / ٧٤ .

---

(١٤٨) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد / المقدمة تحقيق وضبط وشرح وتعليق د. علي عبدالواحد وافي / ج ٢ ص ٤٩٥ .

٧ - ﴿ فكأين من قرية اهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد ﴾ الحج / ٤٥ .

٨ - ﴿ وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها والي المصير ﴾ الحج / ٤٨ .

٩ - ﴿ وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون ﴾ الشعراء / ٢٠٨ .

١٠ - ﴿ وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين ﴾ القصص / ٨٥ .

١١ - ﴿ وما ارسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون ﴾ سبأ / ٣٤ .

١٢ - ﴿ واضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون ﴾ يس / ١٣ .

١٣ - ﴿ وكأين من قرية هي اشد قوة من قريتك التي اخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم ﴾ محمد / ١٣ .

١٤ - ﴿ وكأين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذابا نكرا ﴾ الطلاق / ٨ .

هذه الآيات وآيات اخرى ركزت عوامل تراجع الدول والقرى وانهيارها وقلنا بأنها حصرت اسباب الانهيار بالجانب الديني والاخلاقي وقد حددت الامراض الاخلاقية التي تصيب المجتمع الذي تقوم به القرى (اي الدول) بالكبر والظلم والترف والاستكبار . والامراض التي ترتبط بالجانب الديني حددت بتكذيب الانبياء والكفر الذي هو رفض الايمان والحقيقة وان ما يحل بالقرى من هلاك ودمار قد يكون نتيجة للعوامل مجتمعة ونستطيع تحديد طبيعة المرض الذي حددته كل آية من الآيات المذكورة كما يأتي :-

١ - حددت الآية (١) وجود أكابر من مجموعة المجرمين يخططون لحرب ضد الرسالة والنبي فتكون عاقبة مكرهم وبالًا عليه وهلاكاً لهم .

٢ - وفي الآية (٢) حددت هلاك الامم بموجب تقدير الله الذي حدده وهذا ليس جبراً تاريخياً الذي تحدث عنه طه حسين في معرض حديثه عن ابن خلدون فهو ينقل عن المقدمة « متى بدأ اضمحلال الدولة . فلا يقفه شيء ومهما

اتخذ الملك من تحوطات واجتهد في اصلاح الخلل فلا يستطيع ان يغير ما اراد الله لان الداء الذي يصيب الدولة قاتل ولا يقف ابن خلدون عند شرح الجبر التاريخي بتلك الصفة ودفعه الى الحد الاقصى . فهو يزعم انه يستطيع ان يعين عمر الدولة الطبيعي »[149] . الحقيقة هذه المشكلة تعيد الينا مشكلة القدر والجبر في علم الكلام حاول طه حسين ان يربطه بالتاريخ . القرآن الكريم حدد أجلًا وهذا لا علاقة له بالجبر ولكنه يدخل في علم الله الذي يعلم الماضي والمستقبل ولا يحد علمه شيء ولكنا نستطيع ان نتصور استنادا الى الحقيقةالمذكورة في القرآن الكريم بان التاريخ ليس ثابتاً بل هومتغير وان دوام الحال من المحال وبذلك يفتح القرآن ابواب التغير للمستضعفين .

٣ - في الآية (٣) حددت الترف احد الاسباب المهمة لتجميع الطاقات للوقوف ضد الرسالة وضد القيم والاخلاق فعندما يتجاوز المترفون ويعلنوا فسوقهم وعصيانهم تضطرب القيم والاخلاق وتنهار مرتكزات البناء الحضاري في الدولة فيحق عليها قانون الله فتدُمر تدميرا .

٤ - في الآية (٤) حددت كفر القرية ورفضها للايمان كان من الاسباب المطردة في هلاك الامم .

٥ - في الآية (٥) الظلم الذي يؤدي الى انسحاب الضعفاء والمظلومين وتوقف حركة الابداع والعمل فيختل الميزان ويحل الهلاك .

٦ - في الآية (٦) الانحرافات والخبائث والشذوذ الجنسي من الامراض التي تنخر البناء الاجتماعي وتحطم القيم وتهدم مرتكزات الفضيلة وتحل غضب الرب فيعجل في تدمير القرية من خلال تعريضها الى الكوارث والزلازل فيعم الهلاك وتمحق القرية .

٧ - ٨ - في الآيتين (٧ و ٨) حددتا الظلم من اسباب انهيار الدولة وتعطيل مظاهر الحياة والحركة فيها فهذه القصور المشيدة والبئر معطلة من اعظم الشواهد على توقف الحياة في المجتمع الظالم الذي تفشى الظلم فيه ولا ناصر للمظلوم عندهم الا الله .

---

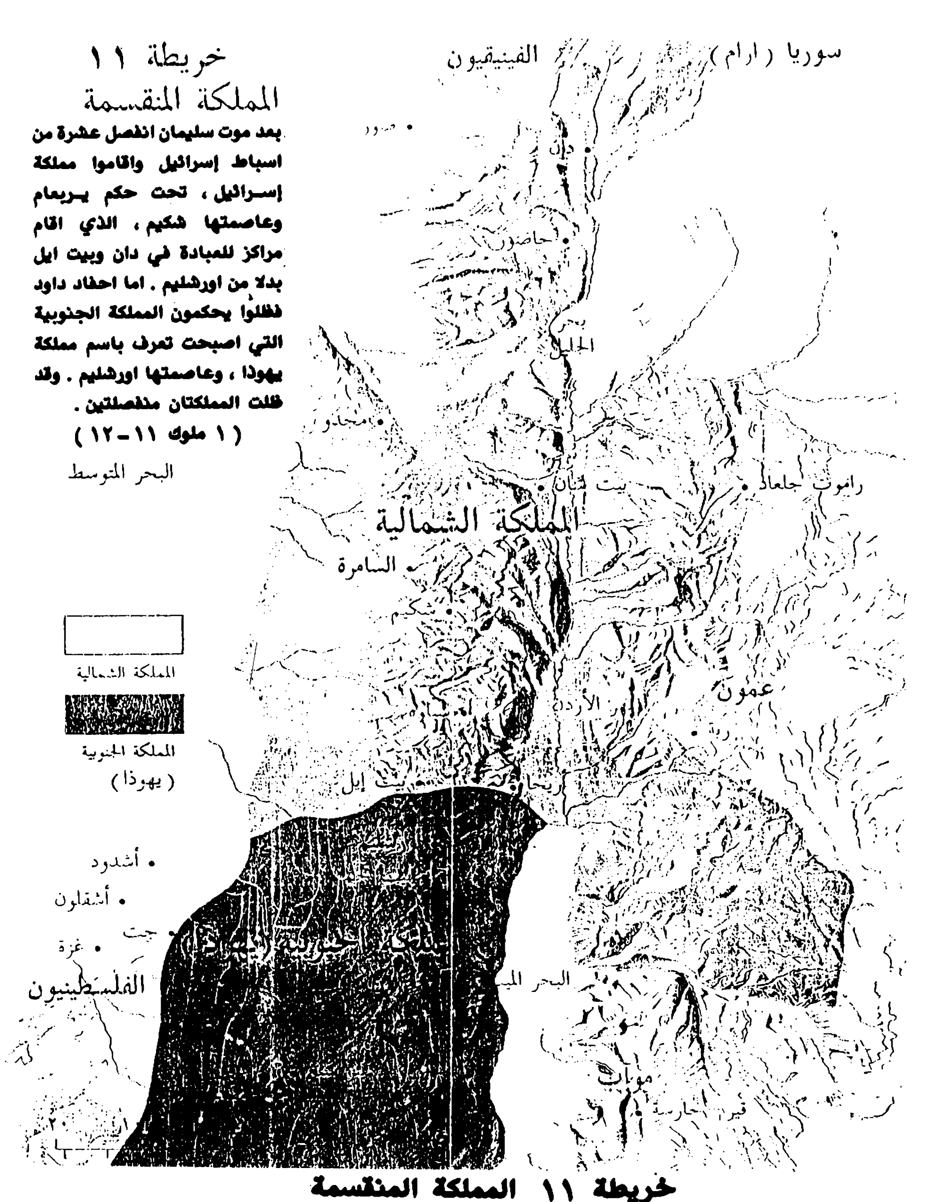
(١٤٩) حسين / د طه / فلسفة ابن خلدون الاجتماعية / ص ١٢٢ - ١٢٣ .

٩ ـ حددت الآية (٩) اسباب الهلاك اعراض القرية وعدم اكتراثها بالانذار الذي يطلقه المرسلون .
١٠ ـ حددت الآية (١٠) البطر من الامراض التي تصيب المجتمعات المترفة الغافلة التي لا تشكر الله على نعمه فهذه مساكنهم لم تسكن من بعدهم ولكنها بقيت اطلالًا تحكي نهاية البطر والترف .
١١ ـ الآية (١١) ايضاً حددت الترف من اسباب اهلاك القرى .
١٢ ـ الآية (١٢) حددت تكذيب المرسلين من اسباب اهلاك القرى .
١٣ ـ الآية (١٣) حددت الغرور والكبرياء والصلف من اسباب الهلاك .
١٤ ـ الآية (١٤) ايضاً حددت العتو وهو الاستكبار والاستعلاء والصلف من اسباب الهلاك .

وهكذا نجد في القرآن الكريم آيات كثيرة وضحت نهاية القرى والمجتمعات والدول بموجب سنن ونواميس وضعها الله تحكم الحياة فكما ان الشمس والقمر تجريان بموجب ناموس وضعه الله كذلك حياة البشر واحوال الامم ونهايات الدول والحضارات كلها محكومة بنواميس اودعها الله . وان الحضارة تموت والدول تنهار عندما يتوقف الابداع ويموت الدافع للحركة كما حذر المنهج الاسلامي من الزراعة واتباع اذناب البقر « يقول ابن خلدون ان النبي (ﷺ) دعا الله ان يبعد قومه عن الحرث وليس ذلك لان ابن خلدون يحتقر فلاحة الارض او يزعم ان النبي والخلفاء كانوا يحتقرونها فهو يكتفي ان يقرر بأنها تضعف العصبة والباس الحربي الذي يقول انه اساس الدولة المتين »[١٥٠] وبالجملة متى مَا توقف الاستعداد للتضحية وفقد الامل وتعطلت الهمم بدأت الحضارة بالتراجع والاحتضار ثم الموت . وهكذا ماتت بابل ونينوى وسبأ وتدمر وغيرها من المدن التي كانت تشغل العالم بالحركة والحياة والضجيج والامر لله يورثه من يشاء وهو خير الوارثين .

٤ - سور بابل بطرس بروجيل الاكبر (القرن السادس عشر للميلاد).

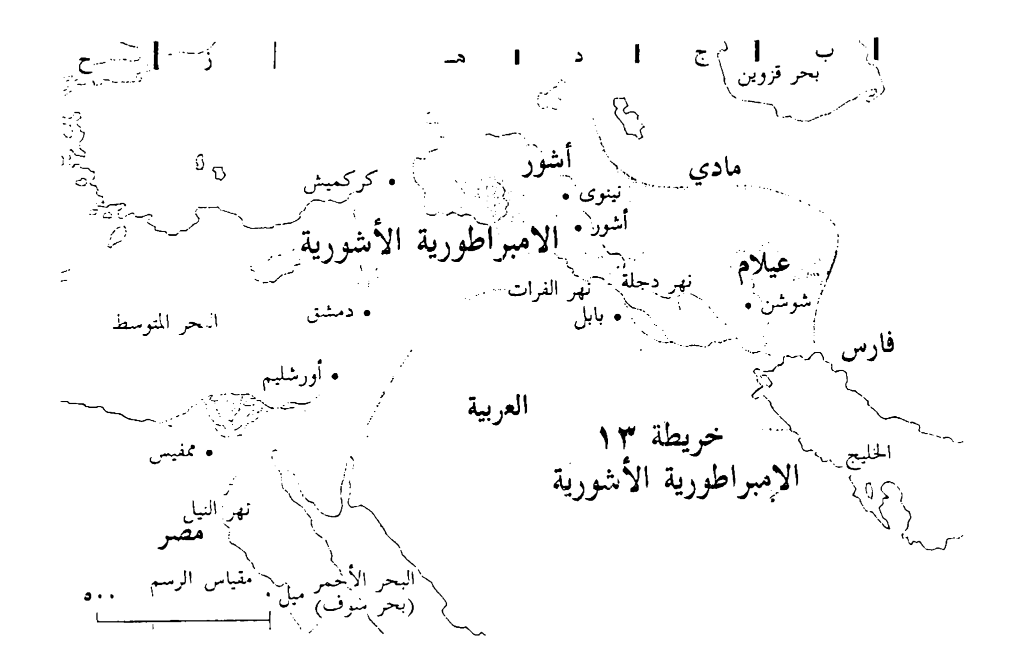
بوستفيت / نيكولاس / حضارة العراق وآثاره / ص ٣٧



خريطة ١١ المملكة المنقسمة

بعد موت سليمن انفصل عشرة من اسباط اسرائيل واقاموا مملكة اسرائيل تحت حكم يربعام وعاصمتها شكيم الذي اقام مراكز للعبادة في دان وبيت ايل بدلًا من اورشليم ، اما احفاد داود فظلوا يحكمون المملكة الجنوبية التي اصبحت تعرف باسم مملكة يهوذا وعاصمتها اورشليم وقد ظلت المملكتان منفصلتين .

(١ ملوك ١١ - ١٢)



خريطة ١٣

الامبراطورية الآشورية

(نحو عام ٦٥٠ ق . م .)

بلغت هذه الامبراطورية قوتها ومجدها ، في خلال الفترة بين عامي ٨٨٠ ـ ٦١٢ ق . م . وفي عام ٧٢٢ ق . م . دمرت المملكة الشمالية (إسرائيل) وقامت بترحيل سكانها ، كما اخضعت مملكة يهوذا في الجنوب .



اطلس دارسي الكتاب المقدس

خريطة ١٤

امبراطورية بابل

(حوالي عام ٥٥٠ ق . م)

في عام ٦١٢ ق . م استولى البابليون على نينوى العاصمة الاشورية كما انتصروا على ....

في موقعة كركميش عام ٦٠٥ ق . م وفي عام ٨٦ ق . م . دمر نبوخذ نصر ـ اورشليم ونفى معظم سكان يهوذا وانتهت بذلك مملكة يهوذا (٢ ملوك ٢٣ ـ ٢٥)

الخاتمـــة
نتائج الدراسة

لقد تابعنا خلال دراستنا موضوعاً شائكاً وواسعاً ولكنه كان ممتعاً ويمكن ايجا
اهم نتائج هذه الدراسة بما يأتي :

١ - اضطرنا البحث عن جذور حضارة وادي الرافدين الى الخوض في متعلقا
الجذور والبحث عن اصل الحياة ونشوئها وعن اصل الانسان وهذا الذي قم

به لم يكن بدعاً من البحوث ولكن سبقنا الى ذلك كل من تصدى لبحث موضوعات التاريخ القديم وما قبل التاريخ . وقد وجدنا من خلال اطلاعنا على ما كتبه السابقون في هذا الموضوع ان القضية الاساس لاتزال خارج حدود المعرفة البشرية وان ما كتبه الباحثون من نظريات عن اصل الحياة وتطورها لا يعد ان يكون فرضاً قابلاً للدحض والالغاء والتغيير كما وان البحث فيه لابد ان يستند الى خلفية علمية وتخصصية وعقلية تستوعب جوهر القضية المبحوثة وبما ان المبحوث عن حقيقته يمثل الحياة وان الحياة ما فتىء العلماء يصرحون بأنها لغز لا سبيل الى ادراكه كما جاء في القرآن الكريم ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا ﴾[*] . ما الروح ؟ وما السبيل الى ادراكها ؟ هذا السؤال لا يجد جواباً عند علماء المادة وما زالوا يخبطون في متاهات الاستنتاجات ودوامة التفكير « فالمادية العلمية تنتهي بالقول بانه لا عقل هنالك وانما هناك مادة فقط والروح هي حصيلة المادة وقد ذهب بيركلي الى الناحية الاخرى فقال لا مادة هنالك وانما هنالك عقل فقط وحال بيركلي الاسقف ان يحطم المادية والفكرة المادية عن الكون ولكن وايتهيد قال ان الحقيقة تكمن بينهما »[**] ويقول توينبي : « اذا فقد الكائن البشري روحه فانه يفقد انسانيته وذلك بسبب جوهر الكيان البشري هو ادراك لوجود روحي خلف المظاهر الطبيعية والكائن الحي انما يتصل بهذا الوجود الروحي بوصفه روحاً لا بوصفه حياً مضطرباً نفسياً »[***] « وقد عبّر كير كغارد الدانماركي عن اساس المشكلة حين قال : ان كل وجود انساني لا يعرف ذاته او روحه هو بائس واهم من ذلك ان الانسان البائس لا يحتاج الى ان يعرف انه بائس بل قد

(★) سورة الاسراء / ٨٥ .

(★★) ولسن / كولن / سقوط الحضارة / ص ٢٨٤ .

(★★★) توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج١ ص ٣٦ .

يظهر نفسه منتهى السعادة »[١٥١] وهكذا نجد انه كلما تعمق الانسان وتعقدت مصادر استهلاك طاقته وحيويته فانه سيزداد عذابا ومهما حاول الفلاسفة واصحاب العقول المبدئية في وصف معاناة الانسان فان محاولاتهم هذه سوف لن تغني فتيلا ويتمنى الانسان انه لو لم يستمر في المسيرة عبر هذا الطريق كما يستشهد توينبي بقصيدة لـ (تاوته تشنغ) (Taote Ching) التي يقول فيها معبراً عن الديانة التاوية التي سبقت المسيح (عليه السلام) :

« كلما ازدادت الاسلحة الحادة
تزداد الارض انغماسا في الظلام
كلما ازدادت القوانيـــن التي تشـــرع يزداد عدد
اللصـــــوص وقطـــاع الطـــرق
شد القوس الى النهاية
وستتمنى لو انك توقفت في الوقت المناسب »[١٥٢] .

ولكننا نريد ان نتوقف في الوقت المناسب ونؤمن بان الحياة والروح سر اودعه الله في الكائنات فهي غيب يؤمن به المتقون ﴿ الم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾[١٥٣] .

٢ - تضمنت الدراسة آدم (عليه السلام) وملامح وطبيعة حياته وقارنت بين الرواية الاسلامية والرواية التوراتية ورواية الرقم الطينية وتوصل الباحث الى ان آدم (عليه السلام) من المرجح ان يكون مكانه وجنته المذكورة في القرآن الكريم في العراق وتابعت الدراسة المراحل المباشرة لعصر آدم وقد تحدثت النصوص القرآنية عن ابني آدم وقد كشفت هذه النصوص بدائية الحياة حتى ان الانسان كان يقلد ما يراه في بيئته وتمثلت في عملية دفن (هابيل) على حد تسمية التوراة الذي قتله اخوه قابيل اذ قلد الغراب

---

(١٥١) ولسن / كولن / سقوط الحضارة / ص ٢٩٨ .

(١٥٢) توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ج ١ ص ٣٦ .

(١٥٣) سورة البقرة / ١ - ٣ .

عندما رآه يحث التراب على غراب ميت . وكذلك اشارت الآيات القرآنية الى بداية علاقة تم تنظيمها مع السماء لتعبّر عن عبادة مخصصة يتقرب بها الانسان الى الخالق وهي القرابين وقد كانت القرابين بموجب الدراسات الآثارية اقدم انواع العبادات التي ارتبطت بالانسان وترددت بين إفراد الله بهذه القرابين وبين إشراك آلهة اخرى معه في مفهوم عقيدة الشرك .

٣ - تعرضت الدراسة للانبياء الذين كان العراق يمثل نشأتهم وكانت بدايتهم على ارضه . وقد تم التركيز على الانبياء الذين تضافرت واجتمعت الآراء على ارجاعهم الى العراق وقد اختير أشهر الانبياء العراقيين الذين اشتهروا في كتب التاريخ والتفسير وتحدث القرآن الكريم عن دعواتهم وسيرهم . فكان اولهم نوحاً (عليه السلام) وقد درست حياته من خلال نصوص القرآن الكريم ومقارنة النص القرآني مع التوراة وتحليل عصر نوح مع الدراسات الآثارية حيث تطابقت تحليلات النص مع التقدير الزمني لعصر نوح (عليه السلام) الذي وضع عصره مع العصر الزراعي وبداية اكتشاف الفخار الذي يحصره علماء الآثار في الالف السابع قبل الميلاد او (الالف السادس الى الالف السابع) قبل الميلاد . وقد تمثل هذا العصر في اعظم الكشوفات الأثرية وهي قرية جرمو في شمال العراق قرب مدينة جمجمال الحالية . حيث كُشفت قرية يقدر عدد بيوت السكن فيها بـ (خمسة وعشرين بيتاً) وقدر عدد سكانها بحوالي ١٥٠ نسمة ويرجع تاريخها الى عصر اقدم من سنة ٦٧٠٠ ق . م . وقد ربطنا في الدراسة بين عصر نوح (عليه السلام) وبين عصر جرمو بسبب ذكر القرآن الكريم للتنور وهو محل النار الذي يشكل دلالة على اكتشاف الفخار وصناعته المرتبطة بالنار « وقد اكتشفت في جرمو مجموعة من المجارش لطحين الحبوب وتنانير لعمل الخبز ومجموعة من الاقراص الطينية المثقوبة والتي يمكن ان تكون مستخدمة في عملية الغزل »[١٥٤] وقد عبر استخدام الفخار في عصر جرمو عن وعي وتطور في مستوى الحياة البشرية « وان صناعة الفخار والعثور عليه في موقع جرمو وفي الطبقة الخامسة تثير تساؤلات عديدة ومهمة . فالمعروف ان صناعة الفخار تعد واحدة من الصناعات الرئيسة المكملة لطبيعة المجتمع الزراعي

---

(١٥٤) الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجادر / عصور قبل التاريخ / ص ١٣٧ .

وبخاصة في مراحل ممارسة الزراعة المبكرة ولا يحتمل امكان العثور على صناعة الفخار في مدة اقدم من مدة صناعته في جرمو . وكذلك فان اهتداء الافراد من الممارسين للزراعة المبكرة في الاقسام الشمالية في وادي الرافدين لصناعة الفخار كان بعد انتقال الجماعات من الكهوف الى بيوت بسيطة من مواد غير طينية . فصناعة الفخار قد تم التوصل اليها بعد أستقرار هذه التجمعات السكانية في بيوت مستقرة وعلى شكل مستوطنات ثابتة نوعا ما . وصناعة الفخار بالنتيجة تعد واحدة من الخطوات المهمة التي تحدد طبيعة تعامل الافراد مع البيئة الجديدة وفي سبيل توافر الضروريات من الصناعات المكملة لهذا المجتمع القروي الزراعي الجديد . وان صناعة الفخار قد سبقتها صناعة الاواني من الحجر اصبح عملياً بصورة كبيرة ويدل هذا التطور على وعي جيد »[١٥٥] . وهذه الاستنتاجات تتطابق مع الاستنتاجات التي توضحها النصوص القرآنية عن طبيعة عصر نوح (عليه السلام) وتكامل النضج الانساني والتغيرات الجوهرية التي طرأت على طبيعة الحياة في هذا العصر . من اقتناء الاموال والبساتين والفخار والعلاقة الطبقية وطبيعة مستوى الادراك والتفكير التي يمكن استنتاجها من خلال الحوار الذي سجله القرآن الكريم بين نوح (عليه السلام) وقومه .

٤ - تعرضت الدراسة لاهم حادث في عصر نوح (عليه السلام) وهو الطوفان وافردت له مبحثاً خاصاً وقد قارنت الدراسة بين الرواية القرآنية للطوفان والرواية التوراتية وحددت اوجه الشبه والاختلاف بين الروايتين وقد تم نقد الرواية التوراتية استنادا الى المعطيات العلمية للعصر الحديث وكذلك اشرنا الى الاوهام والاخطاء التي احاطت بالرواية الاسلامية نتيجة تلقي هذه الاخبار من اهل الكتاب وتم تحديد قاعدة اساسية هي لابد من اسقاط هذه الروايات من المصادر الاسلامية وتنقيتها من الخيال والخرافة بسبب الاعتماد على الرواية الاسرائيلية وان القرآن الكريم يخلو من أية شائبة من هذه الشوائب وان الاكتفاء بالنص القرآني يوفر حصانة من الخطأ بالنسبة لدارس التاريخ والتفسير . وكذلك تضمنت الدراسة البحث عن الطوفان في

---

(١٥٥) الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجادر / م س. / ص ١٣٨ .

الرقم الطينية وقد ربطت الدراسة بين الرواية القرآنية والتوراتية ورواية الرقم الطينية وتم تحليل خبر الطوفان الذي تضمنته ملحمة كلكامش والرواية البابلية للطوفان والرواية السومرية وتوضح من خلال هذا الربط بان الطوفان الذي تحدثت عنه الرقم الطينية هو طوفان نوح (عليه السلام) تحديداً . وكذلك الشخصية الرئيسة في الطوفان هي شخصية واحدة وهي التي تتحدث عنها الرواية القرآنية والتوراتية والرقيمية وهي شخصية النبي نوح (عليه السلام) مع ملاحظة تلبس الاساطير والخرافة التي تعلقت عبر العصور بهذه الشخصية . وكذلك اثبتت الدراسة ان المعلومة التي اوردها القرآن الكريم عن طبيعة عمر نوح (عليه السلام) التي اكدتها التوراة والرقم الطينية فقد وجد علماء الآثار في قائمةسلسلة اثبات الملوك ان العراقيين القدماء كانوا يعتقدون ويتداولون فيما بينهم مسألة طول اعمار الملوك والحكماء القدماء .

٥ - من الانبياء الذين تضمنتهم الدراسة إبراهيم (عليه السلام) (ابو الانبياء) وتعرضنا الى دراسة حياته (عليه السلام) مع مرور سريع على حياة الانبياء اولاده المباشرين (اسماعيل واسحاق) عليهم السلام . وكذلك تطرقت الدراسة لمعاصره ابن اخيه لوط (عليه السلام) . وكذلك تضمنت الدراسة التعرض الى النبي ايوب (عليه السلام) والآراء المختلفة عن عصره ونبوته ومكانها . وتابعنا دراسة حياة وسيرة الخليل (عليه السلام) من موطنه الاول في العراق وانتقاله الى حران ثم الى فلسطين موطن استقراره النهائي وعلاقته بمكة (بيت الله الحرام) وهاجر واسماعيل وعلاقتهم بالقبائل العربية التي سكنت عندهم عن زمزم وتعرضت الدراسة لاحدى المعالم التي يمكن ان ترتبط بين عصر ابراهيم (عليه السلام) والوضع الاجتماعي وطبيعة هذا العصر . هذه الصفة والميزة التي ميزت عصره عن عصر نوح هي ان الله تعالى ذكر في القرآن الكريم انه انزل صحفاً على ابراهيم وهذا يدل على وجود معالم شريعة وتعاليم تضمنتها هذه الصحف وكذلك يدل على شيوع الكتابة في عصره (عليه السلام) ولم يذكر القرآن الكريم ان هناك صحفاً قبل ابراهيم (عليه السلام) وانما اطلق عليها الصحف الاولى بينما تحدث عن عصر نوح (عليه السلام) بانه كان يمثل ارتباطا بالنبي (عليه السلام) من خلال الطاعة ﴿ أن اعبدوا الله

واتقوه وأطيعون ﴾[156] بينما مثل عصر ابراهيم (عليه السلام) تغييراً في طبيعة العلاقة بين الارض والسماء . وان كتابة التعاليم والشريعة يؤدي الى انتقالها وتداولها ضمن بيئة جغرافية واسعة . لذلك قمنا بدراسة شريعة حمورابي ، لان المؤرخين الآثاريين وضعوا حمورابي في عصر مقارب ومواز للتقديرات التي وضع فيها عصر ابراهيم (عليه السلام) وتوضح لدينا من خلال الدراسة ان شريعة حمورابي متطابقة في بعض موادها مع ما موجود في التوراة من احكام وعقوبات وقد ثبتنا هذه الاحكام لان القرآن الكريم يثبت هذه الحقيقة وبذلك ترجح لدينا ان شريعة حمورابي والتوراة مصدرها واحد وذلك بموجب الدراسات الغربية وموسوعة وست منستر والدراسات التي قام بها شراح العهد القديم . وهذا يعزز القناعات بان شريعة حمورابي لم تأت من ابداع المشرع في عصره وانما جاءت نتيجة ارتباط الحياة العراقية القديمة بتراث الانبياء لا سيما ان شريعة حمورابي سبقتها شرائع اقدم منها مما يشير الى عدم قدرة العقل البشري ومستوى ادراكه في تلك العصور على ابداع هذه الشرائع لو لم تكن هناك ارشادات وتعاليم لأنبياء كانوا يتلقون هذه التعاليم من السماء . وكذلك دعونا من خلال دراستنا لعصر ابراهيم (عليه السلام) الى استبدال مصطلح السامية بالابراهيمية لعدم وجود دليل علمي يستند عليه دعاة السامية واكراما لذكرى خليل الرحمن ابراهيم ابي الانبياء (عليه السلام) .

٦ - تضمنت الدراسة في فصلها الاخير النبي يونس (عليه السلام) مع موازنة بين الرواية القرآنية والرواية التوراتية ودراسة عصر النبي يونس (عليه السلام) والقرية التي بعث فيها . مع موازنة للدراسات الآثارية عن نينوى ووصفها ودراسة طبيعة العصر من خلال نصوص القرآن الكريم ونتائج الدراسات الآثارية وافردت الدراسة مبحثاً عن المعجزة في حياة الانبياء وعن مفهوم المعجزة عقائدياً وفكرياً . وقارنت الدراسة بين قصة يونس (عليه السلام) في الرواية القرآنية والتوراتية ورقيم طيني حوى معلومات عن اول الحكماء الذين يتلقون الوحي او الالهام وتمثل في شكل اسطوري لانسان نصفه بشر ونصفه الآخر سمكة اسمه اونس . وكذلك تضمنت الدراسة في

(١٥٦) سورة نوح / ٣ .

فصلها الرابع والاخير دراسة عن الانبياء الذين مروا بالعراق ولم يكن اصلهم عراقياً ومثل هؤلاء الانبياء السبي البابلي واستعرضت الدراسة من خلال تصديها لانبياء السبي البابلي نشوء بابل اول مدينة عظيمة في العالم . وعلاقة بابل ونينوى المدينتان التاريخيتان باليهود والحروب بين العراقيين واليهود وكيف تم سبي اليهود على ايدي العراقيين مرتين في عصرين مختلفين العصر الآشوري والعصر البابلي الحديث .

٧ - تضمنت الدراسة في فصولهامتابعة منهجية القرآن في الرواية التاريخية وكيف تعامل القرآن الكريم منذ بداية خلق السماوات والارض في ستة ايام تعامـــل مـــع السنن والنواميس التي اودعها الله تعالى الوجودمن الذرة ومكوناتها التي اكتشفت في العصر الحديث انها خاضعة لناموس تخليق يعبر عنه دوران الالكترونات حول النواة ومن قوانين لا تتخلف او تضطرب . والحياة وتنوعها وتطورها على وفق قوانين محكومة بها وتغير اشكال الحياة وتنوعها نحو الاحسن ثم ارتباط الحياة بالماء وانسجام الوجود والتكامل والتوازن ثم السماوات والنجوم والافلاك كل هذا يحكي قصة العظمة التي تتجلى في مخلوقات هذا الخالق العظيم كما يقول غوتيه في مقطوعة رائعة من قصيدته : « عندما يتدفق في الابدي الشيء نفسه مكررا ذاته ابدا ، وتتماسك آلاف القناطر جبّارة بعضها ببعض ، تفيض الرغبة في الحياة من كل الاشياء من اضخم النجوم واتفه المدر وكل اجهاد وجهاد هو هدوء سرمدي في الله »[157] وما اعظم من القرآن الذي يبتعد عن اهواء وشطحات الشعراء وبشريتهم الناقصة اذ يستعلي الكمال المطلق ويبين الخالق عن خلقه في آيات تتنف في اعماق الانسان الشعور بالايمان الحقيقي بقوله تعالى ﴿ سبحان الذي خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون ﴾[158] وفي قوله تعالى ﴿ والشمس تجري لمستقر لهاذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾[159] .

---

(١٥٧) شبلنجر / اسوالد / تدهور الحضارة الغربية / ج ١ ص ٦ .

(١٥٨) سورة يس / ٣٦ .

(١٥٩) سورة يس / ٣٨ - ٤٠ .

٨ - تبينت من خلال الدراسة اهمية العراق تاريخيا ودينيا حيث ارتبط تاريخ العراق القديم منذ بداياته وفجر حضارته مع الاديان والانبياء . وقد ربطنا من خلال دراسات الآثار والتاريخ القديم بين الانبياء وتاريخهم وما حوته الرقم الطينية التي حوت معلومات قيمة ولها اثر فعال في بلورة فهم منطقي يربط بين القرآن الكريم والتاريخ القديم وتاريخ الانبياء وهي دراسة اول مرة فيما نحسب ربطت بين الآثار والحفريات والنص القرآني وتاريخ الانبياء وهي خطوة اولى على الطريق ، نأمل ان يتابع المشروع من خلال باحثين آخرين يغنون هذا الميدان بحثاً وتقصياً للوصول الى الحقيقة التي تعرضت عبر مسلسل معقد من التشويش والتشويه وطمس المعالم لمسيرة الانبياء . وهي محاولة لتقريب الفجوة بين دراسات التاريخ القديم ونتائج الحفريات والدراسات التاريخية الدينية ومقارنة الاديان .

ولقد امتازت ارض الرافدين بميزات جعلتها اهلاً لان تكون بداية تجمع البشرية الاولى وتأسيس المجمعات السكانية وقبلها سكانها انسان الكهوف بسبب توافر مصادر الامن الحياتية من ماء وطعام واعتدال في المناخ مما رشحها لان تكون نقطة البداية للتاريخ البشري ثم احتضنت بلاد الرافدين المجتمعات البشرية الاولى واختير الانبياء من هذه المجتمعات الاولى . وان طبيعة النهرين والفيضانات التي كانت تجتاح المنطقة كل ذلك ولّد وعياً وحساً وحفز العراقيين القدماء على الابداع نتيجة لتحدي الظروف الطبيعية على رأي توينبي . لذلك ذكر شراح العهد القديم ومتتبعو التاريخ الديني بان جنة آدم كانت على ارض الرافدين حيث الروافد النهرية المهمة وكذلك بداية المجتمع بعد آدم كانت على ارض الرافدين وهكذا تتابعت الاجيال والقرون والانبياء من بعد آدم حتى عصر نوح الذي تضافرت الادلة على انه كان على ارض الرافدين وحدث الطوفان الذي يعدمن اهم الاحداث في تاريخ البشرية بعد بعثة آدم واختياره للنبوة ، ويعد الطوفان لم تنته البشرية وانما دمرت قرية النبي نوح (عليه السلام) وبقيت القرى التي لم تتأثر بالطوفان قائمة والدليل على ذلك بقاء اصنام قوم نوح في التراث الديني لمناطق عديدة في الشرق الادنى وشبه جزيرة العرب . اذ لو كان الطوفان قد دمر العالم القديم فكيف نفسر بقاء الاصنام التي عكف عليها قوم نوح في قبائل العرب الى حد قبيل الاسلام ؟ وكيف نفسر وجود كتابات على رقم طينية تذكر آلهة قوم نوح ؟ — لو لم تكن هذه المخلفات من بقايا ثقافة قوم

نوح الذين هلكوا وبقيت آثار ثقافتهم على المجتمعات الاخرى لانها لم تتعرض للطوفان ... وبعد نوح (عليه السلام) وبعد الطوفان الذي حصل في عصره حيث مضت آلاف السنين على ارض الرافدين سكت القرآن عنها ولكن الآثار والقرى التي كانت تحت تراب بلاد النهرين تؤكد ان الحياة كانت مستمرة وتتصاعد بوتائر مطردة .
ثم جاء عصر ابراهيم (عليه السلام) وكان انبثاقة دعوته من ارض العراق وقد توضحت لدينا من خلال متابعة الانبياء على ارض الرافدين قضية مهمة وهي ان اصل الاديان والقبائل السابقة للعروبة الصريحة قد بدأ من العراق وان جميع الانبياء الذين ارسلهم الله سبحانه وتعالى في هذه المنطقة والمناطق التي تجاورها كانوا يمهدون لظهور النبي العظيم محمد (ﷺ).« وقد اشار الامام محمد عبدة الى هذه الحقيقة في كتابة (رسالة التوحيد) فذكر ان الاديان الاولى خاطبت الحس يوم كانت الانسانية في طور الطفولة لا يعرف الانسان فيها الا ما يقع تحت حسه ولا يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه فلما سار ركب الانسانية وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وتقلبت في السعادة والشقاء اياما واياما وغالبها الوجدان وبدت العواطف جاء دين يتحدث عن الزهادة وعن الصفاء وملكوت الله ، ولكن الانسانية في صراعها لم تستطع ان تعيش على الايثار ولم يطل مقامها في الصفاء فراحت تتعارك وحلت القطيعة محل التراحم وحل التخاصم مكان المسالمة فجاء دين ينظم الشؤون كلها ويرعى الحس والعاطفة ويدرس العقل والقلب وينظم للناس شؤون دنياهم وآخرتهم ويقول الاستاذ سيد قطب في تفسير قوله تعالى : ﴿ مصدقاً لما بين يديه ﴾ ، ان هذا الكتاب (القرآن) الذي نزل بالحق يصدق ما بين يديه من الديانات التي سبقته وامتدت الى زمانه يصدقها في اصولها في صورة من صور الحق التي جاء بها الرسل مناسبة لزمانهم محققة لاغراضها في تلك الزمان وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد ، يتفق في اصله ويختلف في فروعه تدرجاً مع الحاجات مع تصديق اللاحق للسابق في اصل الوحدانية الكبير »[١٦٠] .

لقد كان دور وادي الرافدين عظيما عبر التاريخ فان اول النبوات والرسالات كانت على ارضه وان اول الحضارات قامت على ارضه ولابد لهذا التاريخ الذي شغل الناس والمفكرين والفلاسفة من ان يكون ارهاصة من ارهاصات الدور القادم لهذا المكان من العالم . في المستقبل القادم الذي لن يكون بعيداً بإذنه تعالى .

---

(١٦٠) شلبي / د. احمد / مقارنة الاديان ـ الاسلام / ج ٣ ص ٢٨ ـ ٢٩ .

المصـــادر

(١) القرآن الكريم .

(٢) الكتاب المقدس :ـ (ترجمة تفسيرية ـ الطبعة الثالثة) .
العهد القديم .
العهد الجديد (الاناجيل الاربعة) (متى ، لوقا يوحنا ، مرقس) .

(٣) انجيل برنابا ـ ترجمة د. خليل سعادة / مطبعة محمد علي صبيح واولاده ـ طبع على نفقة محمد رشيد رضا .

(٤) ابن ابي العز / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الدمشقي ٧٩٢ هـ / شرح العقيدة الطحاوية / تحقيق شعيب الارنائوط وعبدالله بن عبدالمحسن التركي / مؤسسة الرسالة .

(٥) ابن الاثير / محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني ت ٦٣٠ هـ / الكامل في التاريخ .

(٦) ابن تيمية / شيخ الاسلام تقي الدين ابو العباس احمد ت ٧٢٨ هـ / النبوات .

(٧) ابن جني / ابو الفتح عثمان / الخصائص / تحقيق محمد علي النجار ، دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩٠ .

(٨) ابن الجوزي / ابو الفرج جمال الدين بن علي بن محمد ت ٥٩٧ هـ / المدهش ، تحقيق د. مروان قباني / دار الكتب العلمية / بيروت / د. ت .

(٩) ابن حجر / ابو العباس احمد بن محمد الهيتمي ت ٩٧٤ هـ / الزواجر عن اقتراف الكبائر / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧ .
(١٠) ابن خلدون / عبدالرحمن بن محمد ت ٨٠٨ هـ / المقدمة / تحقيق علي عبدالواحد وافي / لجنة البيان العربي / مصر / ط ١ سنة ١٩٥٧ .
(١١) ابن الفقيه / ابو بكر احمد بن ابراهيم الهمداني / مختصر تاريخ البلدان / ١٣٠ هـ .
(١٢) ابن القيم / ابو عبدالله محمد بن ابي بكر الدمشقي ت ٧٥١ هـ / مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة / دار الكتب العلمية / بيروت / د. ت .
(١٣) ابن كثير / ابو الفداء اسماعيل ت ٧٧٤ هـ / قصص الانبياء .
(١٤) ابن كثير / تفسير القرآن العظيم / دار المعرفة / بيروت ـ ١٩٦٩ .
(١٥) ابن هشام / عبدالملك ت ٢١٨ هـ / السيرة النبوية / تحقيق مصطفى السقا وجماعة / دار الفكر / د. ت .
(١٦) الازرقي / ابو الوليد محمد عبدالله بن احمد ت ٢٤٤ هـ / اخبار مكة وما جاء فيها من الآثار / تحقيق رشدي الصالح ملحس / مطابع دار الثقافة / مكة المكرمة / ط٢ / ١٩٦٥ .
(١٧) الحنبلي / ابن رجب زين الدين ابو الفرج عبدالرحمن شهاب الدين بن احمد / جامع العلوم والحكم / دار العلوم الحديثة بيروت / د. ت .
(١٨) الرازي / محمد بن ابي بكر بن عبدالقادر / مختار الصحاح / المكتبة الاموية / ١٩٧١ .
(١٩) الزبيدي / التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح .
(٢٠) الزبيدي / محمد مرتضى ت ١٢٠٥ هـ / تاج العروس من جواهر القاموس .
(٢١) السهيلي / ابو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن احمد ابن ابي الحسن الخثعمي ت ٥٨١هـ / الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام / دار المعرفة ١٩٧٨ .
(٢٢) السيوطي / الاتقان في علوم القرآن / دار الكتب العلمية / بيروت ١٩٨٧ .

(٢٣) السيوطي / الاكليل في استنباط التنزيل / تحقيق / سيف الدين عبدالقادر الكاتب / دار الكتب العلمية / ط ٢ / بيروت / ١٩٨٥ .
(٢٤) السيوطي / جلال الدين ت ٩١١ هـ / الدر المنثور في التفسير بالمأثور / دار الفكر / بيروت / ١٩٨٣ .
(٢٥) الطبري / ابن جرير ابو جعفر محمد ت ٣١٠ هـ / تاريخ الرسل والملوك / تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم / طه / دار المعارف / القاهرة / د. ت .
(٢٦) العسقلاني / ابن حجر احمد بن علي ت ٨٥٢ هـ / فتح الباري بشرح صحيح البخاري / دار المعرفة / بيروت / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .
(٢٧) القرطبي / ابو عبدالله محمد بن احمد الانصاري ت ٦٧١ هـ / الجامع لاحكام القرآن / دار الكتب المصرية / ط ٣ / ١٩٦٧ .
(٢٨) المسعودي / ابو الحسن علي بن الحسين ت ٣٤٦ هـ / مروج الذهب ومعادن الجوهر / تحقيق محيي الدين عبدالحميد .
(٢٩) النووي / محيي الدين يحيى بن شرف بن مري / صحيح مسلم بشرح النووي / دار احياء التراث العربي / بيروت / ١٩٨٤ .
(٣٠) اليحصبي / القاضي ابو الفضل عياض ت ٥٤٤ هـ / الشفا بتعريف حقوق المصطفى / دار الفكر / بيروت / د. ت .

(٣١) ابو مغلي / د. سميح / في فقه اللغة وقضايا العربية / دار مجدلاوي / عمان / الاردن / ط ١ / ١٩٨٧ .

(٣٢) اغروس / روبرت . م مع جورج ستاينسو / العلم في منظوره الجديد / ترجمة د. كمال الخلايلي / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ١٩٨٩ .

(٣٣) ابن نبي / مالك / الظاهرة القرآنية / دار الفكر / طرابلس / لبنان / د. ت .

(٣٤) الاحمد / د. سامي سعيد / تاريخ فلسطين / القديم مركز الدراسات الفلسطينية / بغداد / ١٩٧٩ .

(٣٥) الاحمد / د. سامي سعيد / ملحمة كلكامش / دار التربية / بغداد / ١٩٨٤ .

(٣٦) بارو / اندريه / سومر فنونها وحضارتها / ترجمة د. عيسى سلمان / طه التكريتي / بغداد / ١٩٨٧ .

(٣٧) باقر / د. طه / مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة القسم الاول ـ تاريخ العراق القديم / بغداد / ط ٢ / ١٩٥٥ .

(٣٨) باقر / د. طه / ملحمة كلكامش / منوشرات وزارة الاعلام / بغداد / سنة ١٩٧٥ .

(٣٩) برستد / د. جوهايمس هنري / العصور القديمة / ترجمة داود قربان / المطبعة الامريكانية / بيروت / ١٩٢٦ .

(٤٠) بوبر / كارل / بؤس التاريخية / ترجمة سامر المطلبي / بغداد .

(٤١) بوكاي / موريس / القرآن الكريم والتوراة والانجيل والعلم دراسة للكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة / دار المعارف / لبنان / ط ٤ / ١٩٧٧ .

(٤٢) بوكاي / موريس / اصل الانسان / ترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج / الرياض / ١٩٨٥ .

(٤٣) توينبي / ارنولد / تاريخ البشرية / ترجمة نقولا زيادة / المكتبة الاهلية / بيروت / ١٩٨٨ .

(٤٤) تيرنز / براين / علم الاجتماع والاسلام ـ دراسة نقدية لفكر ماكس فيبر / ترجمة احمد باقادر / دار العلم / بيروت / ١٩٨٧ .

(٤٥) جعفر / د. نوري / الفكر طبيعته وتطوره / بغداد / ط ٢ ١٩٧٧ .

(٤٦) جمال / د. سمير يحيى / الانسان ذلك المخلوق العجيب / مكتبة مدبولي / القاهرة / د. ت .

(٤٧) الجندي / انور تصحيح اكبر خطأ في تاريخ الاسلام الحديث / السلطان عبدالحميد والخلافة الاسلامية / دار ابن زيد / بيروت / ١٩٨٧ .

(٤٨) جورج / دوني / عمارة الالف السادس قبل الميلاد في تل الصوان .

(٤٩) حاطوم / د. نورالدين مع مجموعة اساتذة / المدخل الى التاريخ / مطبعة الانشاء / دمشق / ١٩٦٥ .

(٥٠) حتي / سليم ملحم / منهل الشرائع / دار الفارس / بيروت د. ت .

(٥١) حسين / د. طه / فلسفة ابن خلدون الاجتماعية .

(٥٢) الحوت / محمود سليم / في طريق الميثولوجيا عند العرب / دار النهار بيروت / ١٩٧٩ .

(٥٣) خليل / د. عمادالدين / التفسير الاسلامي للتاريخ / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٧٥ .

(٥٤) خليل / د. عمادالدين / حول اعادة تشكيل العقل المسلم / بغداد / مطبعة منير / ١٩٨٥ .

(٥٥) الدباغ / د. تقي / الوطن العربي في العصور الحجرية / هيئة كتابة

التاريخ / بغداد / ١٩٨٨ .
(٥٦) الدباغ / د. تقي مع د. وليد الجادر / عصور ما قبل التاريخ / جامعة بغداد / ١٩٨٣ .
(٥٧) دروزة / د. محمد عزة / تاريخ بني اسرائيل من اسفارهم / المكتبة العصرية / بيروت / بيروت / ١٩٦٩ ..
(٥٨) دروزة / د. محمد عزة / تاريخ موجات الجنس العربي ودولها ومآثرها في العراق قبل العروبة الصريحة / المكتبة العصرية / بيروت .
(٥٩) الدوري / د. عبدالعزيز / مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي / دار الطليعة / بيروت .
(٦٠) ديورانت / ول / قصة الحضارة / مطابع الدجوي / القاهرة / ط ٤ / ١٩٧٣ .
(٦١) الذهبي / د. محمد حسين / التفسير والمفسرون / دار الكتب الحديثة / بيروت / ط٢ / ١٩٧٦ .
(٦٢) رشيد / د. فوزي / الشرائع العراقية القديمة / دار الحرية للطباعة / بغداد ١٩٧٣ .
(٦٣) رشيد / د. فوزي / الملك حمورابي مجدد وحدة البلاد / الموسوعة الذهبية / بغداد ١٩٩١ .
(٦٤) رشيد / د. فوزي / الملك نبوخذ نصر الثاني / الموسوعة الذهبية / بغداد .
(٦٥) رشيد / د. فوزي / سرجون الاكدي اول امبراطور في العالم / الموسوعة الذهبية / بغداد ١٩٩٠ .
(٦٦) رو / جورج / العراق القديم / ترجمة حسين علوان / وزارة الثقافة والاعلام / بغداد / ١٩٨٤ .
(٦٧) روز / ستيفن وآخرون / علم الاحياء والايديولوجيا والطبيعة البشرية / سلسلة عالم المعرفة / الكويت / ترجمة د. مصطفى ابراهيم فهمي .
(٦٨) الزبيدي / د. كاصد ياسر / الطبيعة في القرآن الكريم / بغداد .
(٦٩) سابق / سيد/ العقائد الاسلامية / دار الكتاب العربي / بيروت / د. ت .
(٧٠) سعدالدين / د. ليلى حسن / مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا / دار الفكر / عمان / ١٩٨٤ .

(٧١) سفج / جي ام / التطور ترجمة د. ساهي جواد ضاحي / جامعة الموصل / ١٩٨٥ .
(٧٢) السلمان / عبدالماجود / الموصل في العهدين الراشدين والاموي / الموصل / مطابع جامعة الموصل / ١٩٨٥ .
(٧٣) سوسة / د. احمد / تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية .
(٧٤) سوسة / د. احمد / حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين .
(٧٥) سوسة / د. احمد / مفصل العرب واليهود في التاريخ / دار الرشيد / بغداد / ١٩٨١ .
(٧٦) السيد / د. رضوان / الامة والجماعة والسلطة / دار اقرأ / بيروت / ١٩٨٤ .
(٧٧) شبلنجر / اسوالد / تدهور الحضارة الغربية / ترجمة احمد الشيباني / مكتبة الحياة / بيروت / د. ت .
(٧٨) شلبي / د. احمد / مقارنة الاديان (الاسلام) مكتبة النهضة المصرية / ط ٥ / ١٩٧٧ .
(٧٩) الشوك / علي / الاساطير بين المعتقدات القديمة والتوراة / دار لام / لندن / ١٩٨٧ .
(٨٠) الصابوني / محمد علي / النبوة والانبياء .
(٨١) صبحي / محمد الدين / ملامح الشخصية العربية في التيار الفكري المعادي للامة العربية / الدار العربية للكتاب / انترنيت / ليبيا / طرابلس .
(٨٢) عبدالتواب / د. رمضان / فصول في فقه العربية .
(٨٣) عبدالرحمن / د. نصرت / الواقع والاسطورة في سفر ذئيب الهذلي الجاهلي / عمان .
(٨٤) عبدالمنعم / هـ أ . نبيلة / محاضرات في تدوين التاريخ .
(٨٥) العزاوي / د. عبدالرحمن حسين / الطبري السيرة والتاريخ / دار الشؤون الثقافية / بغداد ١٩٨٩ .
(٨٦) العقاد / عباس محمود / ابراهيم ابو الانبياء / دار اخبار اليوم / سلسلة

كتاب اليوم / مصر / ١٩٥٣ .
(٨٧) علي / د. جواد / المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٨٦ .
(٨٨) علي / د. فاضل عبدالواحد / الطوفان / مطبعة اوفسيت الاخلاص / جامعة بغداد ١٩٧٥ .
(٨٩) علي / د. فاضل عبدالواحد / سومر اسطورة وملحمة / دار الشؤون الثقافية العامة / بغداد / ١٩٩٧ .
(٩٠) علي / د. فاضل عبدالواحد / من الواح سومر الى التوراة / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ١٩٨٩ .
(٩١) العمري / د. اكرم ضياء / السيرة النبوية الصحيحة / مكتبة العلوم والحكم / المدينة المنورة ١٩٩٢ .
(٩٢) غلاب / د. محمد السيد / تطور الجنس البشري / القاهرة .
(٩٣) فرانكفورت / هنري / فجر الحضارة في الشرق الادنى / ترجمة ميخائيل خوري .
(٩٤) فرويد / سيجموند / موسى والتوحيد / ترجمه جورج طرابيشي ، دار الطليعة / بيروت / ط٣ / ١٩٧٩ .
(٩٥) فريحة / انيس / ملاحم واساطير من اوغاريت رأس الشمرا / دار النهار / بيروت / ١٩٨٠ .
(٩٦) الفندي / محمد جمال الدين / الله والكون / الهيئة المصرية للكتاب / ١٩٧٦ .
(٩٧) الفوزان / صالح بن فوزان / الارشاد الى صحيح الاعتقاد / الرياض .
(٩٨) القرضاوي / د. يوسف الخصائص العامة للاسلام .
(٩٩) قطب / سيد / في ظلال القرآن / دار الشرق / بيروت / ١٩٨٥ .
(١٠٠) قطب / محمد / كيف نكتب التاريخ الاسلامي / دار الكتاب الاسلامي / ط١ / ١٩٩٢ .
(١٠١) قلعجي / د. محمد رواس / قراءة جديدة للسيرة النبوية / دار البحوث العلمية / الكويت / ط ٢ / ١٩٨٤ .

(١٠٢) الكبيسي / عبدالسلام / البناء الحضاري في القرآن الكريم / رسالة ماجستير .
(١٠٣) كريمر / صموئيل نوح / الواح سومر / ترجمة د. طه باقر .
(١٠٤) كلنغل / هورست / حمورابي ملك بابل وعصره / ترجمة د. غازي شريف / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ١٩٨٧ .
(١٠٥) كونتينو / جورج / الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور / ترجمة سليم طه التكريتي / دار الشؤون الثقافية / بغداد / ط ٢ / ١٩٨٦ .
(١٠٦) لابات / رينيه / المعتقدات في بلاد وادي الرافدين مختارات من النصوص البابلية / ترجمة الاب البير ابونا مع د. وليد الجادر / جامعة بغداد / ١٩٨٨ .
(١٠٧) لنتون / رالف / شجرة الحضارة قصة الانسان منذ فجر ما قبل التاريخ حتى بداية العصر الحديث / ترجمة د. احمد فخري / مكتبة الانجلو مصرية / د. ت .

فهرس الموضوعات